



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة ابن خلدون-تيارت



أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث

شعبة: العلوم الإنسانية-تاريخ

تخصص: العلاقات بين ضفتي البحر المتوسط الغربي في الفترة الحديثة والمعاصرة

موسومة بـ:

دور الجزائر في إدارة الصراع الإسلامي النصراني في غرب البحر الأبيض المتوسط خلال القرن 10هـ/16م

بإشراف الأستاذ:

أ.د. كمال بن صحراوي

د. عبد القادر بكارى مشرفا مساعدا

إعداد الطالب:

جواد سماحي

لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
محمد بليل	أستاذ التعليم العالي	جامعة ابن خلدون-تيارت	رئيسا
كمال بن صحراوي	أستاذ التعليم العالي	جامعة ابن خلدون-تيارت	مشرفا ومقررا
عبد القادر بكارى	أستاذ محاضر	جامعة ابن خلدون-تيارت	مشرفا مساعدا
سعد طاعة	أستاذ التعليم العالي	جامعة ابن خلدون-تيارت	مناقشا
محمد مكحلي	أستاذ التعليم العالي	جامعة سيدي بلعباس	مناقشا
عبد الرحمان تونسي	أستاذ محاضر	جامعة خميس مليانة	مناقشا

السنة الجامعية: 1443-1444هـ/2022-2023م

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة ابن خلدون-تيارت

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث

شعبة: العلوم الإنسانية-تاريخ

تخصص: العلاقات بين ضفتي البحر المتوسط الغربي في الفترة الحديثة والمعاصرة

موسومة بـ :

دور الجزائر في إدارة الصراع الإسلامي النصراني في غرب البحر الأبيض المتوسط خلال القرن 10هـ/16م

بإشراف الأستاذ:

أ.د. كمال بن صحراوي

إعداد الطالب:

جواد سماحي

د. عبد القادر بكاري مشرفا مساعدا

لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
محمد بليل	أستاذ التعليم العالي	جامعة ابن خلدون-تيارت	رئيسا
كمال بن صحراوي	أستاذ التعليم العالي	جامعة ابن خلدون-تيارت	مشرفا ومقررا
عبد القادر بكاري	أستاذ محاضر	جامعة ابن خلدون-تيارت	مشرفا مساعدا
سعد طاعة	أستاذ التعليم العالي	جامعة ابن خلدون-تيارت	مناقشا
محمد مكحلي	أستاذ التعليم العالي	جامعة سيدي بلعباس	مناقشا
عبد الرحمان تونسي	أستاذ محاضر	جامعة خميس مليانة	مناقشا

السنة الجامعية: 1443-1444هـ/2022-2023م



شكر وامتنان

في مستهل هذا البحث أجدني حريصا على التعبير لأستاذي القدير الدكتور *كمال بن صحراوي* بأسمى عبارات الشكر والامتنان نظير جهوده ومرافقته لي خلال سنوات هذا البحث، وقد كان لي موجهًا ومساعدًا أتاح أمامي جميع سبل التواصل، بما يفسح إمكانيات التساؤل والتحاور والنقاش، فجزاه الله عنا كل خير.

دون أن أنسى أستاذي الدكتور *عبد القادر بكاري* حيث لم يدخر بدوره جهدًا في إحاطة هذا العمل بالتصويب والمتابعة، فله مني كل التقدير.

مع خالص امتناني لجميع أساتذتي في قسم التاريخ وكافة أسرة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بالجامعة، على تعاونهم وأخويتهم، وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور *بليل محمد* رئيس مشروع الدكتوراه الذي انتسبت إليه وزملائي في الدفعة -حفظهم الله-.

والشكر كذلك للأخ الزميل مداح محمد على تعاونه وأخويته غير المنقطعة، فقد كان يتحمل عنّا -أنا وأخي حيمد مسعود- بعض الإجراءات الإدارية ويجنبنا عناء التنقل والغياب عن العمل طيلة هذه السنوات، جزاه الله كل خير.

إهداء

إلى صاحبي الفضل بعد الله تعالى "الوالدين الكريمين"، فقد سهرنا وبذلاً ما
في الوسع لتربيتنا وتعليمنا، أسبل الله عليهما من جميل نعمه وحفظه وأعطياته، وأوفر
لهما خير الجزاء.

إلى زوجتي التي تشدّ عضدي وتوازني وتصبر معي في جميع الأحوال،
إلى ابنتي الغالية رسيل نمارق.

إلى أخواتي وإخوتي وبناتهم وأبنائهم، إلى أصدقائي وإخوتي في الله وفي
رحابات العلم والمعرفة، وعلى رأسهم "مسعود حيمد ومحمد مدّاح".

إلى جميع سكان بلديتي الشقيق والرقاصة، أهلي الذين تقاسمت معهم الحياة
والأمنيات، إلى أسرة ثانوية المجاهد المرحوم لعماري محمد، كل أفرادها واحداً واحداً.

إلى هؤلاء جميعاً أهدي ثمرة هذا البذل المتواضع.

المختصرات

ص: صفحة.

ص ص: مجموعة صفحات.

ج: جزء.

مج: مجلد.

ط: طبعة.

د.ت: دون تاريخ.

هـ: هجري.

موفم: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.

إرسیکا: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية بإسطنبول.

Ibid: ibidem.

Op.Cit: ouvrage précédemment cité.

V/Vol: volume.

T : Tome.

A: Arşiv.

DVN : Divan-i Humayun.

D: Daftar.

R.A: revue africaine.

CRASC: Centre de recherche en anthropologie sociale et culturelle.

مقدمة

مقدمة:

لم يحظَ بعد تاريخ الجزائر خلال الفترة العثمانية بالعناية الكافية التي تكون في مستوى الفترة، من نواحٍ عدّة؛ عمرها الزمني الطويل الذي امتد لأكثر من ثلاثة قرون متتالية، وزخمها بالأحداث والوقائع والتقلّبات الفاصلة على الصعيد المحلي والإقليمي والعالمية. ولأن هذه الفترة لها كذلك ما يميزها كحلقة واصله بين العهدين الوسيط والمعاصر، اشتملت على فصول طويلة من المواجهات بحيث شاركت فيها الجزائر طرفا رئيسيا ودولة لها توجهاتها واستراتيجياتها، كقوة تُدير السياسة الإستراتيجية والعسكرية والاقتصادية من مواقع اختلفت بحسب الظروف والتمركزات.

وإنّه لمن الحقيقة وصف الكتابات التاريخية والاهتمامات البحثية التي انشغلت بالجزائر العثمانية بالقليلة وغير الكافية، على الأقل من حيث الكم ومن حيث منتج المدرسة الوطنية، متشكلة من الجامعة والنُخب الجزائرية اختصاصا واهتماما، وإن كان لكل فريق مبرراته وأسبابه. فالمهتمون دون اختصاص كانت دافعيتهم للكتابة هي سد العجز وشغل الفراغ المسجل في تاريخنا الوطني والقومي والإسلامي بشأن الفترة المعنية، والمختصون دون اهتمام قدّروا في معوّقات البحث وقلة أدواته، ما يثنيهم ويُضعف عزمهم في الاشتغال ضمن موضوعات وإشكاليات الفترة.

وربما من بين أبرز المراحل الزمنية للجزائر العثمانية حاجة للدراسة ومدعاة للتناول بالبحث والكتابة هي مرحلة القرن 10هـ/16م، وهو قرن يختص بالمفصلية والتشاركية، كان مفصليا في تكوين القوى وتموقع الكيانات الفاعلة وتوجيه مسارات السياسة الدولية "الاستراتيجية والبحرية، الاقتصادية والحضارية"، وتشاركيا لكونه - كذلك - مساحة زمنية لتكوين التاريخ بترتيبات جديدة تفرضها دول وعقائد ومستجدات طرحها القرن 15م منذ منتصفه، فاندفعت - وهي مجتمعة - تشارك صناعة تفاصيل السياسة الدولية الحديثة.

ولقد مثل البحر المتوسط حيزا جغرافيا لمجريات ومشاهد هذه التحولات الجوهريّة، بحيث تصارعت على سواحله وفي رحابه قوى الضفة الشماليّة الأوربيّة النصرانيّة، مع بلدان العالم الإسلامي من ضفته المقابلّة، تدفع كلّاً منها أسباب من رواسب الماضي وأهداف من تطلّعات المستقبل، ومناسبات قريبة تشاركتها تأثيرا وتأثرا.

ومن الواضح مع مطلع القرن 16م اندفاع الضفة الشماليّة نحو الضفة الجنوبيّة تريد أن تغرقها هيمنة واستيلاءً وتنصيرا، وكان الإسبان هم البادئين؛ تغمرهم نزعة الغلبة، وينظرون إلى ديار المسلمين في بلاد المغرب التي تقابلهم أندلسا لابد أن يستعيدوه ويسترجعوا عليه السطوة والسلطة، موشحين عن وجه جديد للصليبيّة التي سنلقي بها إرادة الملكيّة والبابويّة وإرادة الظروف نحو الجزائر.

والجزائر إحدى مكونات الضفة الجنوبيّة من منطقة المغرب الإسلامي المتألّفة من الدويلات الثلاث التي استقلت عن الدولة الموحديّة، وأخذت تشهد وضعاً حرجاً من الضعف والتطاحن الداخلي، والذي فاقم صعوبته العدوان الخارجي خاصة من طرف الإسبان. لتظهر في هذا الوقت بوادر جهود خارجيّة تبتغي إدخال المنطقة تحت حياض ما عرف بمشروع الخلافة العثمانيّة على العالم الإسلامي، اعتُبرت فيه الجزائر قاعدة هامة ومنطلقاً أساسياً إلى تحقيقه، استحكمت فيها أمور الدولة العثمانيّة بإعلان الجزائر أيلة تابعة لسلطة الباب العالي، ومنه إقرار وجود الدولة القويّة التي أخذت تُرسي دعائمها، فكوّنت لنفسها قوة عسكريّة بحريّة أثّرت بنشاطها في منطقة حوض المتوسط.

ولقد كانت الجزائر منذ إطلالة سنوات العُصرة على الأندلسيين ملاذا لجموع الباحثين منهم عن الأمان، وفي أعين كيانات الجوار التوّاقة إلى توسيع الهيمنة السياسيّة أرضاً للغزو والانتهاج، وحيزاً للاستعمار والاسترداد بالنسبة للإسبان

وحملاتهم. إلا أن أهلها المؤمنين بها وصلوا أيديهم بحبل الجهاد منذ أن أتاحت لهم ذلك دعوة الإخوة بربروس إلى جيجل ثم بجاية ومدينة الجزائر.

والسنوات الخمس الممتدة من 1514م إلى 1519م تمثل بحق منعرجا خطيرا اجتازته الجزائر بحساسة وتوفيق في الخروج من دائرة المصير المحتوم، أو الظرف الذي لا يمكن أمامه -طبعاً هذا بالنظر إلى الوضع والمُعطى العام للبلاد-، استطاعت خلال الأعوام المعدادات تأسيس نواة متجددة لدولة بملاح لا تشبه تلك التي رسمتها الأطراف غيرها، وهي الجزائر الدولة الإسلامية التابعة للخلافة العثمانية، ضمن بلاد المغرب وحوض البحر الأبيض المتوسط في جزئه الغربي من ضفته الجنوبية.

وعن هذه الملاح ترتبت توجهات وأدوار الجزائر خلال القرن 16م كقوة متوسطة، وفاعل رئيس ومتعدد الأدوار في سياق التفاعلات بين أطراف البحر المتوسط؛ الكبرى والجزئية، قاعدة تمثل الفصيل الإسلامي في الفعل ورد الفعل، دينيا كان واستراتيجيا واقتصاديا، وفي جميع المناسبات التي جمعت الجبهتين حيث الإسلام والنصرانية؛ خصومة وسلما، كانت حاضرة تشارك فرض قناعاتها ووجهتها.

وفي سياق ما تقدم تولدت دافعية البحث في موقع الجزائر من قضايا البحر المتوسط في غضون القرن 16م ضمن موضوعنا الموسوم ب: "دور الجزائر في إدارة الصراع الإسلامي النصراني في غرب البحر الأبيض المتوسط خلال القرن 16م"، إذ يثير الموضوع إشكالية يمكن طرحها كما يأتي: ما هي أطراف وأهداف وخلفيات الصراع في الحوض الغربي المتوسط خلال القرن 16م؟ كيف استطاعت الجزائر أن تلعب أدوارا في فرض وجودها كقوة جديدة وفعلية في المتوسط الغربي؟ وإلى أي حد تمكنت من الحيلولة أمام الأطماع الغربية في المنطقة، خاصة الأوروبية منها؟ وهل استطاعت الجزائر كقوة إستراتيجية حسم قدر من التنافس الإسلامي النصراني

في المتوسط الغربي؟ بحيث تستهدف البحث في الإجابة عن الاستقهامات ذات الصلة بالنقاط التالية:

- أطراف الصراع في حوض المتوسط الغربي خلال ق 16م.

- مجالات ودوافع الصراع الإسلامي النصراني في هذا الفضاء الجغرافي والحضاري.

- أوجه هذا الصدام ومشاهده على الصعيد الديني، السياسي، العسكري، والاقتصادي.

- أسباب الاستهداف الخارجي والأوروبي النصراني للجزائر خلال هذه الفترة.

- الدور الجزائري وامتداداته في توجيه الصراع او التنافس والتأثير فيه.

- قُدرة الجزائر على استيعاب الصراع وفرض رؤيتها كقوة في شتى أطواره.

- مدى استطاعة الجزائر حسم التنافس الإسلامي-النصراني في المتوسط الغربي، كقوة إستراتيجية.

- تبدّيات تدخل الجزائر من خلال الجهاد كفعل إسلامي مناهض للحرب الصليبية الإسبانية والأوروبية المسلطة عليها وعلى العالم الإسلامي المتوسطي.

وفضلا عن الأسباب العلمية، لا ننكر رغبتنا الذاتية في خوض البحث في فترة القرن 16م من تاريخ الجزائر باعتبار ما تكتنفه من أهمية، وبالأخص مع قلة البحوث حولها، والتي تظل مسجلة ضمن جملة المواضيع الجديرة بالخوض والإثارة.

وعلى غير النسق الغالب في الدراسات المعهودة التي تطرق جوانب متفرقة، أو جزئيات من الموضوع على سبيل الدراسات العامة المنشغلة بالتاريخ السياسي في

جل الأحوال، تضافرت الدوافع العلمية والرغبة الذاتية لتدفع بنا نحو هذا الاختيار على أمل المساهمة والمشاركة في التنقيب عن تاريخ الجزائر من نافذة تتيح عليها نظرة كقوة عالمية من خلال مقارنة تبحث في إثبات ذلك.

توجهت فئة من الباحثين تشغل بالبحث في الفضاء المتوسطي ومن بينه الجزائر، نحو البحث في واقع هذه الأخيرة وما أحاطها من تحديات خلال القرن 16م، منهم من وقف على تفاصيل عامة، أو جوانب محددة في سياق الفترة العثمانية، ومنهم من اقتص بمجال الحثيات السياسية، أو التوجهات البحرية خلال القرن 16م، ونذكر من بين هؤلاء: نعيمة بوحمشوش التي اشتغلت على موضوع موسوم بـ: "مساهمة البحرية الجزائرية في الحروب العثمانية خلال القرن 10هـ/16م" في رسالتها للماجستير، مُركزة على قوة بحرية الجزائر ومشاركتها إلى جانب البحرية السلطانية في الحروب ضد القوى الأوروبية النصرانية في القرن الأول من عمر الجزائر الحديثة. وكذلك نجد الباحث نجيب دكاني صاحب رسالة ماجستير موسومة بـ: "الاحتلال الإسباني للسواحل الجزائرية وردود الفعل الجزائرية خلال القرن 10هـ/16م"، ركز فيها الباحث على هجمات ملوك إسبانيا التي استهدفت المراكز الساحلية الجزائرية متدرجا بين أحداثها، كما تطرق إليها كسبب في الاتصال بعروج وإخوته، ثم دور البحرية الجزائرية على إثر ذلك في الفترة المدروسة. وهناك أطروحة دكتوراه بموضوع مماثل إلا أنه يُعنى بالتواجد الإسباني من بداياته إلى نهايته، أنجزها الباحث عبد القادر فكاير تحت عنوان: "الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية 910-1206هـ/1505-1792م"، وهي دراسة تثير الأسباب والمحطات والآثار الناجمة عن التواجد الإسباني ومحاولاته بالجزائر ضمن الفترة المذكورة.

وكل دراسة من هذه الدراسات التي ذكرت إنما ارتكز عمل صاحبها على مجال محدد وهو إما "المؤسسة البحرية، أو ظروف وأسباب وآثار التحرشات

والحملات الأوروبية برئاسة الإسبان"، لكنها أغفلت الفصول الأخرى من الصراع الدائر، وهذا النقص المسجل وتحديدا في فترة القرن 16م هو ما سعينا لسد قدر منه في دراستنا علنا نتجاوز حيزا من التقصير الذي يطرحه.

وبغية الوصول إلى النتائج المتوخاة من البحث اعتمدت المنهج التاريخي التركيبي، حيث يكون الاستقراء من خلال المقارنة والتحليل للأحداث والوقائع والجمع بين الآراء والروايات، وذلك حتى تتبلور صورة أكثر وضوحا بشأن موضوع الجزائر؛ دولة لها وزنها في الفضاء المتوسطي أثناء القرن 16م.

وأثناء مراحل البحث اعترضتنا بعض الصعاب التي يمكن إيراد أهمها وأبرزها في مايلي:

-تزامن سنوات البحث مع الوضع الوبائي العالمي الذي أثر على الجزائر وسائر المعمورة متسببا في شلل عام، إذ لم يكن التنقل والاتصال متاحا بأريحية طيلة ثلاث سنوات متتالية، وتعذر بلوغ المكتبات وغيرها من دور الوثائق والأرشفات. ناهيك عن الحالة النفسية التي كانت على إثر التوجس الدائم من تداعيات -كوفيد 19- على جميع المستويات "الصحية، المرفقية، والاجتماعية".

- شُحّ الكتابات باللغة العربية حول الموضوع المدروس، مع تناوله في أغلب الدراسات المهمة من الزاوية العامة، بمعنى غلبة السياق السياسي على مجمل الدراسات باللغة العربية. في حين البحوث الأخرى نجدها باللغات الأجنبية وبشكل أبرز باللغة الفرنسية والإنجليزية -هذا بالنسبة لما أتيح الوصول إليه-، فضلا عن الوثائق الأرشيفية المكتوبة باللغة العثمانية بالحرف العربي وبالخط الديواني صعب القراءة، بحيث يتحاشى جل المترجمين التعامل مع هذه الوثائق.

- الصعوبة التي تطرحها الكتابات الأجنبية وحتى بعض العربية، فيما تعلق بالفترة العثمانية وبالجزائر كذلك، وتحديدًا بخصوص "الرؤية العدائية البارزة في الأسلوب واللغة، والمصطلحات ذات الدلالة الحدية والتناظرية، إضافة إلى استعمال ألفاظ لها إحياءات شمولية وأحيانًا قصرية". ومن أمثلة ذلك احتواء بعض الدراسات على كلمة "الأتراك، التركي، العرب، العربي، بربريا، وغيرها" للإشارة إلى الإسلام والمسلمين دون تفريق بين الاعتبارات الجغرافية والقومية والدينية، مع تعمّد تجاهل مصطلحات "المسلمين، العثمانيين، الجزائريين". وإلصاق كلمات "القرصنة، القراصنة، اللصوص" بدلا من التسميات الموضوعية والحقيقية.

وضمن ذات المسألة نلفت نظر القارئ إلى أننا كنا نسوق أحيانا الأقوال والروايات كما هي حفظا للأمانة العلمية، وأحيانا أخرى مع التعليق الطفيف، وأخرى ندرج فيها اللفظ الأصح بما يتماشى وأبعاد البحث، حيث نجد مثلا تداخلا في أدوار الجزائر البحرية، باعتبار الأسطول مؤسسة بحرية ذات مهام وتحديات دينية وسياسية واقتصادية، تصعب تجزئتها أو أفرادها دون تداخل، لأن سياق القرن 16م فرض تمازج الأدوار وتشابكها.

وفي مقام آخر نقف على دراسات مختلفة تفهم وتذكر الفعل الجزائري ضمينا في إطار الفعل العثماني للدولة المركزية، مع إهمال أو تعمد لذلك بالنسبة للمنطقة المغاربية ككل؛ حضورها وصراحة تواجدها عنصرا من عناصر الفريقين المتصارعين في البحر المتوسط، فهي تسمّيها بالشمال الإفريقي وبلاد البربر وغيرها من التعابير. ولا تنتهي المسألة هنا فقط، إذ يصادف الباحث والقارئ زيادة على ما تقدم، وفي عديد الدراسات إطلاق مصطلح "المغرب" للدلالة على بلاد المغرب عامة، وهنا قد يفهم اللفظ اقتصارا على المغرب الأقصى. ومما تقدم رأينا التنويه بهذه الملاحظة

مهما، لأنها من الصعوبات التي وجدناها خلافاً لأنواع الصعوبات الاعتيادية التي تصادف الباحثين.

- تسجيل اختلاف تقييد الأحداث بتواريخ وقوعها، وبصورة شبه ملفتة من مصدر أو مرجع لآخر، وذلك نتيجة لغياب المادة المصدرية الأرشيفية في فترات وأحداث معينة، وعليه كانت أحيانا ترتبط بسياق حصولها أو برواية المصادر الأقرب زمنياً إلى تلك الحوادث.

- غياب الوثيقة الأرشيفية المتاحة والمتعلقة بالقرن 16م في المؤسسات البحثية والأرشيفية ممكنة الوصول في الجزائر، وهذا أحد أهم أسباب نقص الدراسات السابقة وتشجيع الباحثين على الخوض في الفترة، لأن المادة الأرشيفية أساس البحوث الجادة والطرح الرصين.

وفي سبيل تحقيق نزر من أهداف البحث المسطرة، عمدنا إلى استجلاب بعض الوثائق الأرشيفية من الخارج والوصول إليها قصد تقديم إضافة، تتأتى من خلالها قيمة مزيدة للبحث العلمي التاريخي والبحث في تاريخ الجزائر العثماني على وجه الخصوص.

الوثائق الأرشيفية:

وتتحدد في مجموعة وثائق حصلنا عليها من أرشيف رئاسة الوزراء بمدينة إسطنبول التركية، وهي وثائق دفاتر المهمة "مهمة دفتري"، كان يصدرها الديوان الهيمايوني للدولة العثمانية بالعاصمة آنذاك. وطبيعتها أنها مراسلات من هرم الدولة مع الولايات ورؤسائها في مختلف الجهات، ومنها ولايات الدولة العثمانية في المغرب العربي أو الشمال الإفريقي، أو ما اندرج في إطار ما عرف بـ: "جزائر الغرب".

كما تنوعت مواضيعها واهتماماتها بين السياسية والعسكرية والإدارية والاقتصادية، ومنها ما كان حول التنسيق العام والاستخباراتي وكل ما له اتصال بتمركز الجزائر ضمن خط حدودي حساس في صياغة العلاقات مع أوروبا الغربية النصرانية. وهذه الوثائق هي مراسلات إدارية رسمية حُفظت في دفاتر مرقمة مقيد إصدارها بالتاريخ الهجري، ومكتوب عليها كذلك رقم الصفحات (الصفحات من الدفتر الذي يتضمن الوثيقة). وهنا نشير إلى أهمية مقال للأستاذ الباحث عبد الجليل التميمي، لكونه في قالب ترجمة لمجموعة كبيرة من دفاتر المهمة المتعلقة بالنصف الثاني من القرن 16م، حيث نقلها من اللغة العثمانية إلى اللغة العربية، وهي تتعلق بالسياسة العثمانية في توسيع النفوذ أو الحكم في بلاد المغرب، والمقال منشور في العدد (34) للمجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية تحت عنوان: "عثمة إيالات الجزائر وتونس و طرابلس الغرب على ضوء المهمة دفترية 1559-1595م"، والوثائق المعربة التي تضمنها المقال هذا هي التي اعتمدنا عليها إضافة إلى الوثائق الأرشيفية الأصلية التي حصلنا عليها من أرشيف رئاسة الوزراء بمدينة إسطنبول بتركيا.

المصادر العربية:

كتاب الغزوات وعنوانه الأصلي "غزوات عروج وخير الدين" لمؤلف مجهول، قدم له وعلّق عليه نور الدين عبد القادر، مصدر يعود إليه مجمل الباحثين في أول فترة الجزائر العثمانية أو بداية التواجد العثماني في غرب المتوسط وبلاد المغرب، حيث يتناول جهود عروج ثم خليفته خير الدين، وكذا الإطار والأوضاع والظروف التي أحاطت هذه الفترة وميزتها.

نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان لمحمد بن عبد الله التنسي، حيث اقتطف منه المحقق محمود بوعياذ كتابه تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، ويهتم هذا المصدر بالدولة الزيانية وأحوالها السياسية، كما يتناول ملوكها وأوضاع البلاد

وصلاتها الخارجية في عهد كل منهم، إذ عاصر صاحبه المتوفي سنة 1494م تقلبات الدولة إلى نهاية القرن 15م.

سيرة المجاهد خير الدين "رحمه الله" لمؤلف مجهول، ووقفنا على المخطوط وكذا الكتاب الذي أخرجه محقق المخطوط الباحث عبد الله حمادي. يركز صاحبه على الاتصالات الأولى بين أهالي الجزائر وعروج ثم بين خير الدين والسلطان العثماني سليم، ويتتبع الأحداث حتى حملة شارلكان على الجزائر سنة 1541م.

المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي الدينار، وهو مصدر من الأهمية بما كان، يتناول تاريخ تونس والجزائر وكذا التطورات التي عاشتها بلاد المغرب والفضاء التي تتشارك وإياه حوادث الفترة الحديثة.

المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب لصاحبه أحمد بن يحيى الونشريسي، ومن خلال فتاوى هذا العلامة عن مسائل المسلمين وأحوالهم بين الضفتين وكذا قضايا الهجرة ومدى شرعيتها، يبرز لنا تأصيلا لخلفيات الصراع ومضامينه منذ نهاية القرن 15م

أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض لصاحبة العلامة المقري التلمساني، مصدر مهم وفي جزءه الأول يتناول منطلقات الصراع وأحوال المسلمين في الأندلس مع بداية تبدلها منذ فترة الضعف، فهو يخدم الباحث كثيرا في فترة القرن 15م "المقصود الجزء الأول".

النفحة المسكية في السفارة التركية ل:علي بن محمد التمكروتي المولود سنة 1534م، يقيد صاحبه أحداثا ومشاهد ومسائل هامة في إطار رحلته الرسمية مكلفا بمهمة من السلطان السعودي أحمد المنصور من فاس إلى اسطمبول سنة 1589م، والكتاب مصدر ذو صلة بالفترة التي يندرج البحث فيها.

عجائب الأسفار ولطائف الأخبار أبو راس الناصري، حيث تطرق الجزء الأول إلى معطيات ذات صلة بالفترة التي يندرج ضمنها البحث، سيما ما تعلق بالتواجد الإسباني وطبيعته واحتلاله المرسى الكبير ووهران مطلع القرن 16م.

الشجر الجماني في ابتسام الشجر الوهراني حيث كان صاحبة "ابن سحنون الراشدي" ضمن حملة تحرير وهران، وأحد المقربين بباي الغرب الجزائري محمد بن عثمان الكبير، تناول في كتابه ظروف ووقائع البلاد الجزائرية خلال الفترة العثمانية.

نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي للإفراني ويأتي في طليعة أهم المصادر التي أرخت للمغرب الشريف السعدي، وعليه تكمن أهميته في تقييد أحداث المغرب الأقصى وما جاوره خلال القرنين 16 و17م.

المصادر المعربة "المتريجة إلى العربية":

مذكرات خير الدين بربروس ترجمها عن التركية الباحث محمد دراج، وتكمن أهمية هذا المصدر في كونه يتضمن شهادات لأول بايلرباي للجزائر، وأحد مؤسسي الدولة وصنّاع السياسة الإسلامية العثمانية في البحر الأبيض المتوسط بحوضيه خلال القرن 16م. كما تحتوي على تفاصيل تتعلق بالنصف الأول من هذا القرن من مناح مختلفة، تتضح منها مجالات الصراع وشخصياته ومناسباته، استهلالا بوصول عروج وإخوته إلى السواحل التونسية ثم الجزائرية.

تحفة الكبار في أسفار البحار من تأليف كاتب جلبي "حجي خليفة"، وهو مترجم عن اللغة العثمانية، اشتمل هذا المصدر على معلومات جغرافية وسياسية، وما تعلق بأمصار وأمم وشخصيات ومعارك البحر المتوسط خلال القرنين 16 و17م.

وصف إفريقيا للحسن بن محمد الوزان الفاسي، مترجم عن الإيطالية ويعتمد مصدرا للدراسات التاريخية عن بعض بلدان إفريقيا خلال الفترة الحديثة، فهو نتاج رحلات

صاحبه وتدوين ملاحظاته القيمة، المتعلقة بالقرن 16م وذات الصلة بالبيئة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمناطق التي تناولها في كتابه.

إفريقيا وهو الآخر من المصادر غير العربية والمترجمة من لغته الأم الإسبانية إلى الفرنسية ومن الفرنسية إلى اللغة العربية، إذ قدّم فيه مارمول كربخال وصفا عاما لإفريقيا، بحيث كانت جغرافيا وتاريخ وأحوال بلاد المغرب من مواضعه واهتماماته خلال النصف الأول من القرن 16م.

وبالنسبة للمصادر الأجنبية فأهمها:

ما كتبه فراي ديقو هايدو والذي يعتبر من أهم مصادر الفترة الحديثة وهو: كتاب "تاريخ ملوك الجزائر **Histoire des Rois d'Alger** "، المتضمن على معلومات كثيرة ومتدرجة وفقا للتسلسل التاريخي، رغم أنّ وجهة نظر صاحبه طاغية على أسلوب الكتابة وفق نظرة غربية متأثرة بالظروف العدائية، كون المؤلف كان أسيرا إسبانيا في مدينة الجزائر.

كتاب الأب بيير دان "**Histoire de Barbarie et ses Corsaires**" وهو راهب فرنسي زار الجزائر ومنطقة شمال إفريقيا ضمن مهمة لافتداء الأسرى، على رأس تنظيم ديني كان ينشط لتحرير الأسرى المسيحيين. وعليه كان كتابه هذا من بين المصادر عن حياة الأسرى والأوضاع العامة لبلاد المغرب.

مؤلف السفير الفرنسي في الجزائر "دو تاسي" تحت عنوان "تاريخ مملكة الجزائر **Histoire du royaume d'Alger**"، هو الآخر يعد مصدرا لقرب صاحبه من الأحداث ومعاصرتة قضايا القرن 17م منذ بدايته.

كتاب صادر لأسقف مدينة نيفيرس الفرنسية حول حياة الكاردينال خمينيس دي سيسنيروس، تحت عنوان "**Vie du cardinal de Ximenès, régent d'Espagne**"،

يتناول فترة وصاية هذا الكاردينال على العرش الإسباني وضلوعه وراء الحملة الصليبية التوسعية على الجزائر.

الوثائق التي نشرها وعلق عليها إيلي بريمودي وهي تحت عنوان:

"L'histoire de l'occupation espagnole en Afrique (1506- 1594)"، وهي وثائق ذات أهمية كبيرة لكونها تتصل بفترة القرن 16م، وتخص أكثر من مجال، وبالأخص التواجد الاسباني بالمراكز الساحلية.

الوثائق أو الرسائل التي تضمنها كتاب شاربي إذ تتعلق بقضايا البحر المتوسط ككل، والمسائل الدبلوماسية بين أوروبا والدولة العثمانية، والكتاب ورد في جزأين تحت عنوان:

"Négociations de la France dans le Levant, ou Correspondances, mémoires et actes diplomatiques des ambassadeurs de France"

الوثائق التي نشرها دوكاستري ضمن ما يعرف بالمصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب، وبالأخص المجموعة الأولى التي تغطي فترة مهمة من القرن 16م، وهي تحت عنوان:

Les sources inédites de l'histoire du Maroc, Archives et bibliothèques de France, T01, 1^{ère} série-dynastie Saadienne 1530-1660."

البحوث المنشورة في المجلة الإفريقية **La Revue Africaine**، وتتنوع بين وثائق وتقارير ومقالات، حيث يعرف عن هذه المجلة اهتمامها بتاريخ الجزائر في الفترة العثمانية، من خلال بعض الباحثين أعضاء هيئتها التحريرية، والذين لهم ارتباط بالمواضيع التاريخية والأثرية للجزائر وشمال إفريقيا ضمن الفترة الحديثة.

المراجع:

حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م للأستاذ أحمد توفيق المدني، وهو مرجع مهم يغطي بالدراسة الممتدة من سقوط غرناطة إلى تحرير وهران النهائي من قبضة الإسبان، كما يعدّ صاحبه من أوائل الباحثين المهتمين الذين وصلوا إلى وثائق أرشيف سيمانكاس الإسبانية.

كتاب جون بابتست وولف "الجزائر وأوروبا 1500-1830م"، حيث يتضمن على معلومات قيمة، إضافة إلى أن لغته واضحة وعلمية بفضل الترجمة المتقنة والاحترافية للمؤرخ المرحوم أبو القاسم سعد الله.

الجزائر في عهد رياس البحر ل: وليم سينسر، وتناول فيه المؤلف رؤية مختلفة عن أغلب الدراسات الأجنبية ذات الانحياز المفلت اتجاه موقع الجزائر كدولة وازنة في العالم أثناء الفترة العثمانية، كما يركز على البحرية الجزائرية وأبعاد تأثيرها ومدى انعكاس ذلك على علاقاتها الخارجية، والكتاب عربي من الإنجليزية "الأستاذ عبد القادر زيادية".

الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية ويركز فيه مؤلفه "عزيز سامح ألتز" على امتداد الحكم العثماني إلى الحوض الغربي من البحر المتوسط، متطرقا إلى ظروفه وأهم المعارك والشخصيات الفاعلة، وكذلك مراحل ومحطات توسع نفوذ العثمانيين من الجزائر نحو طرابلس وتونس، وأثر البحرية والأوجاقات في تلك الأدوار.

كتاب نيقولاوي إيفانوف تحت عنوان "الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574م"، اهتم بتتبع ما يسمى بالعثمنة منذ أوائل القرن 15م، وعلى مستوى جميع مناطق العالم العربي من آسيا إلى إفريقيا، وهو يشير ضمنا إلى خصوصية

واختلاف المد العثماني تبعاً لخصوصية المجال العربي وأحواله السياسية من نطاق إلى آخر.

المتوسط والعالم المتوسطي للمؤرخ فرناند بروديل، وهو كتاب بالغ الأهمية في ميدان الدراسات التاريخية للفترة الحديثة والعلاقات بين ضفتي البحر المتوسط بمفهوم الشرق الإسلامي والغرب النصراني، كما أن النسخة المترجمة إلى العربية من طرف "مروان أبي سمرا" تحوي ترجمة وجيزة للمؤلف الأصلي الضخم، لذلك اعتمدنا على عدة دراسات لهذا الباحث باللغات الثلاث "العربية والإنجليزية والفرنسية".

تاريخ الدولة العثمانية للباحث يلماز أوزتونا، وفي جزئه الأول يحيط صاحبه إحاطة تاريخية بالدولة العثمانية منذ ظهورها في الأناضول ثم الأدوار التي درجت عليها، مركزاً على منجزات وتحديات السلاطين ذوي الأثر في توجيه الدولة نحو العالمية من محمد الفاتح إلى غاية مرحلة الانحطاط في الثلث الأول من القرن 19م.

الولايات العربية في الوثائق العثمانية للأستاذ الباحث فاضل بيات، كتاب قيم خصص صاحبه الجزء الثامن لترجمة وتصنيف الوثائق المتعلقة بولاية الجزائر العثمانية خلال القرن 16م، وهي ثائق مهمة دفترية (دفاتر المهمة)، حيث اعتمدنا عليه كثيراً لأنه يترجم مادة وثائقية مصدرية من اللغة العثمانية إلى اللغة العربية.

كتاب الباحث مختار حساني الموسوم بـ"تاريخ الدولة الزيانية"، إذ اختص بأحوال دولة بني زيان من عدة جوانب، وفي الجزئين الأول والثاني تطرق إلى "السياسية والاقتصادية" منها، وتكمن أهميته في عرض تفاصيل الأدوار الأخيرة لهذه الدولة والتي عايشت تحولات النصف الأول من القرن 16م.

الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين للمؤرخ التونسي عبد الجليل التميمي، وفيه تناول للمسألة الأندلسية كقضية دينية ذات أولوية في خضم الصراع القائم في البحر الأبيض المتوسط من أواخر القرن 15م إلى نهاية القرن 16م الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر للمستشرق ألفونس روسو، وهذا المؤلف يأتي في الدرجة الأولى بعد أهم المصادر التي تناولت تاريخ تونس.

الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي من تأليف شارل فيرو، وهو الآخر مستشرق وقنصل فرنسي سابق في طرابلس، وعليه كان لكتابه أهمية في كتابة تاريخ ليبيا.

وهناك مراجع باللغات الأجنبية هي الأخرى تتصل بالموضوع، اعتمدنا عليها نظير أهميتها ومن أبرزها:

المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني للمؤرخ الفرنسي فرناند بروديل

"The Mediterranean and the Mediterranean world in the age of Philip II "

وهو كتاب ضخم ونسخته الإنجليزية في جزأين، كما يعتبر وبشهادة صاحبه محصلة لجهود بحث جاوزت العشرين سنة، في إطار إنجاز صاحبها لأطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث.

فيليب الثاني ملك إسبانيا "دراسة عن حياته وشخصيته" ل: شارل براتلي وعنوانه بالفرنسية **"Philippe II roi d'Espagne étude sur sa vie et son caractère"**، يركز على شخصية وعهدة خليفة شارلكان الملك فيليب.

تاريخ الجزائر تحت الحكم التركي للمؤرخ الفرنسي "هنري ديلماس دو غرامون"،
"Histoire d'Alger sous la domination turque 1515-1830"، وهو الآخر عمل

تاريخي ينطوي على معلومات متنوعة حول تاريخ الجزائر الحديث.

كتاب صخرة (بينيون) مدينة الجزائر لـ "بر بروجر"، ويعرض فيه المؤلف تاريخ بناء
حصن البينيون قبالة ميناء مدينة الجزائر، وكذا أهميته وأثره على الواقع التجاري
والاقتصادي للمدينة، وهو تحت عنوان: **Le Pégnon d'Alger ou les origines
du Gouvernement Turc en Algérie.**

مراسلات شارلكان مع البابا أدريان السادس، وهو كتاب عرّج صاحبه "غشارد"،
على جانب من علاقة البلاط بالبابوية حول المسائل السياسية ومشاريع الملكية في
إطار الصراع مع المسلمين، وعنوانه: **Quint et " Correspondance de Charles:
d'Adrien VI.**

المقالات:

وهناك باحثون مهتمون بفترة القرن 16م والعلاقات بين الدولة العثمانية
وولاياتها المغاربية، وكذا التواجد الأوروبي الإسباني بال الضفة الجنوبية للحوض الغربي
من البحر المتوسط، والخلفية الدينية للصراع بين الإسلام والمسيحية. كتبوا مقالات
في هذا الشأن نذكر من بينها:

مقال الأستاذ فرناند بروديل تحت عنوان **Les Espagnols et l'Afrique du Nord**
de 1492 à 1577، منشور في سنة 1928م ضمن العدد (69) من المجلة
الإفريقية، وينطلق فيه من سقوط غرناطة كمنااسبة قريبة للتوجه الإسباني في علاقاته
العدائية الحديثة مع المسلمين، وكذا خلفيات الملوك الأباطرة الإسبان في اندفاعهم

نحو الحدود المتوسطية الإفريقية المغاربية للعالم الإسلامي، ومن بينها الجزائر كمرتكز للسياسة الإسبانية في المنطقة.

مقال مشترك بين "مونيرو" و"واتبليد" منشور في المجلة الإفريقية في العدد (15) سنة 1871م، إذ يركز على موضوع المفاوضات بين بايلرباي الجزائر القبودان خير الدين و الملك الإسباني شارلكان، وذلك في الفترة الممتدة ما بين معركة بروزة 1538 إلى قبيل الحملة على مدينة الجزائر 1541م، وفيه إشارة إلى الأوراق التي لعبها الإسبان وأقحموها في حربهم على الجزائر وفي سبيل إبعاد التواجد الإسلامي العثماني في جهة غرب المتوسط. كما يشير فيه الباحثان إلى تضرع حكام الجزائر في الحرب المباشرة وكذا في المناورات الاستخباراتية والنفسية، وعنوان المقال هو: "Négociations entre Charl-Quint et Kheir-ed-in 1538-1540"

واستنادا على ما تقدم من مادة علمية، اعتمدنا على خطة بحث نبتغي من خلالها الإجابة على التساؤلات والاستفهامات التي طرحت في مختلف ثنايا البحث، حيث اندرجت الرسالة ضمن فصل تمهيدي و ثلاثة فصول.

وفي الفصل التمهيدي تطرقنا إلى الوضع السياسي العام في ضفتي حوض المتوسط الغربي، حيث عرّجنا على الواقع الذي ميز كل جبهة نهاية القرن 15م ومشارف القرن 16م، كما أشرنا إلى أهم القوى أو الكيانات السياسية التي تكونت منها كل من الضفة الجنوبية متمثلة في بلاد المغرب، والضفة الشمالية والتي تألفت من دول أوروبا الغربية ذات التأثير في الساحة المتوسطية أثناء الفترة المدروسة.

وجاء عنوان الفصل الأول موسوما بـ "أوجه الصراع الإسلامي النصراني في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن 16م"، وفيه تناولنا مجالات أو تمثلات هذا الصدام بين الإسلام والنصرانية، وذلك ضمن ثلاثة أوجه كل منها اندرج في مبحث وفقا

ترتيب يتحدد تبعا لأهمية بواعث الصراع، فكان المبحث الأول يختص بدراسة "الوجه الديني للصراع" والمبحث الثاني ركز على "الوجه الاقتصادي"، أما المبحث الثالث فإنه اختص بالوجه الاستراتيجي. على أن أهمية محتوى هذا الفصل تكمن في الإحاطة بالمشهد العدائي وخلفياته بالنسبة لهذه الجهة الساخنة من البحر المتوسط منذ نهاية القرن 15م وخلال القرن 16م، بحيث سيكون لذلك كل الأثر في رسم معالم الفترة التاريخية الحديثة ليس فقط لهذه الجهة، وإنما لمفهوم العلاقة بين الإسلام والنصرانية على الصعيد العالمي.

وفي الفصل الثاني ركزنا على أدوار الجزائر في هذا الصراع، مستهلين بأسباب الاستهداف الأوروبي للجزائر كمركز محسوب على العالم الإسلامي، وقد أشرنا في الفصل الذي سبق إلى الخطوات التدريجية نحو بروز الجزائر قوة وامتدادا حضاريا للإسلام بالملاحم الدينية والسياسية والاستراتيجية. كما اخترنا لهذا الفصل عنوان "أدوار الجزائر في الصراع الإسلامي النصراني بالحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن 16م"، وفي المباحث الثلاثة التي كونت هذا الفصل، أبرزنا فاعلية الدولة الجزائرية انطلاقا من المبادئ التي تأسست عليها كإيالة منضوية تحت الدولة العثمانية، وذلك في إطار التزاماتها المتداخلة "سياسيا، اقتصاديا وعسكريا"، وفي سبيل تبيان مظاهر هذا التأثير جاء ترتيب المباحث هكذا: "الدور السياسي"، "الدور الاقتصادي" ثم "الدور العسكري".

ونتيجة لتزامن التحديات ووثاقة ارتباطها بين بعضها، استوجب التعليق أو الإشارة في كذا مناسبة حول طبيعة المنظار الذي نُظر به للنشاط الدفاعي أو المساهمة في الصراع، باعتبارها من باب المسؤولية والمبادرة المشروعة، ففي كل تحرك جزائري أو عثماني نجد الأسباب والدوافع "دينية وسياسية واقتصادية" تجتمع في الآن نفسه وخلف المناسبة الواحدة، والأمر كذلك بالنسبة للجهة النصرانية وعلى رأسها إسبانيا. وعليه كان

من الصعب تبويب أسباب ومظاهر هذه المجابهة العالمية الحامية، أو تصنيف طبيعتها وألوانها، وذلك لأن النزاع أو الصراع كان حضارياً يستمد مبرراته من الماضي البعيد، ولعله وجد في المناسبات القريبة وانقلاب الموازين من دور إلى آخر؛ أسبابه المباشرة.

أمّا بالنسبة للفصل الثالث فقد خصصناه لإظهار مشاهد الدور الديني الذي لعبته الجزائر ضمن ذات المهمة خلال القرن 16م، ذلك أنّ جهاد الصليبيين وتوفير الأرضية المناسبة للتواجد العثماني في الجزائر قصد الجهاد، كانا أساساً لبناء الدولة بمساهمة العنصر المحلي من العلماء وشيوخ الصوفية وباقي السكان، ومعه السلطة الرسمية التي تجسّمت من جانبها دور قيادة ومرافقة وتجسيد هذا المشروع. ولذلك وقفنا في مباحث هذا الفصل على: "استهداف المشروع الصليبي الإسباني للجزائر وأثر الكنيسة ورجالاتها فيه"، وكذلك "ضلع البابوية في توجيه وخدمة السياسة الملكية لأجل تحقيق مشروعها في الجزائر تحديداً"، ثم عرّجنا على الفعل الديني الجزائري الجهادي والذي طال مصالح البلاد ومصالح القضية الدينية للإسلام في الحوض الغربي للمتوسط عامة، من خلال خدمة المسألة الأندلسية على مدار القرن 16م.

وفي ختام هذه المقدمة أشير إلى حرصي -وأنا أنجز هذا البحث- على احترام قيم وأسس البحث العلمي وعلى رأسها الموضوعية، دون إغفال الجهد في محاولة تقديم منجز بحثي يكون في مستوى حاجة حقل الدراسات التاريخية المتعلقة بالجزائر خلال الفترة العثمانية، مع أمني أن يكون ذلك موافقاً لتطلعات أستاذي المشرف على العمل د.كمال بن صحراوي ومعه أستاذي د.عبد القادر بكاري، على أن استعدادي يظل قائماً للأخذ بالملاحظات والتصويبات التي تجود بها لجنة المناقشة الموقرة، حرصاً على إخراج هذا العمل موافقاً لرؤيتها السديدة منهجياً ومعرفياً.

الفصل التمهيدي

الواقع السياسي العام لبلدان ضفتي الحوض الغربي من
البحر المتوسط أواخر القرن 15م ومطلع القرن 16م

الفصل التمهيدي: الواقع السياسي العام لبلدان ضفتي الحوض الغربي من البحر المتوسط أواخر القرن 15م ومطلع القرن 16م:

يقتضي الحديث عن الحوض الغربي للبحر المتوسط، تسليط الضوء على الأوضاع والأحوال التي ميزت ضفتيه الشمالية والجنوبية سيما السياسية منها، إذ تختلف هذه المعطيات من جهة إلى أخرى حسب الظروف والوقائع التي لازمت منطقة عدا ما سواها، ومجمعا دون آخر، وفترة خلاف غيرها، ويجدر قبل الخوض في هذا كله الانطلاق من تحديد المجال الجغرافي للحوض الغربي من المتوسط، وذلك قصد معرفة الامتداد والحدود البرية والبحرية والسياسية.

ونشير في البداية إلى أن ضفتي الحوض الغربي من البحر المتوسط تتألف الواحدة منها من عديد الدول والكيانات السياسية، غير أننا نركز على التي تتصل منها بأحداث الموضوع والفترة المدروسة وهي القرن 16م؛ أي البلدان المغاربية متمثلة في الجزائر وتونس وطرابلس والمغرب الأقصى، وهي التي تُشكل الجبهة الإسلامية في هذه الجهة أو هذا الامتداد. وفي الجبهة الأخرى توجد إسبانيا كإمبراطورية أخذت تستجمع وحدة النصرانية في يد ملوكها، ثم بعض الدول من أوروبا الغربية والتي تأتي من بعدها في الترتيب وهي "فرنسا والبرتغال والإمارات الإيطالية، وبعدها إنجلترا التي تظهر في نطاق المتوسط حتى أواخر القرن 16م".

أهمية البحر الأبيض المتوسط:

على ضفاف البحر المتوسط قامت أعظم الحضارات وانبعثت أهم الديانات سيما السماوية منها، ومن شواطئه أخذت تنتشر في مختلف بقاع الأرض، ولأن هذا البحر اكتسى

أهمية قصوى؛ اتضح أن معظم الإمبراطوريات التي قامت في التاريخ إنما وُضِعَ كبار قادتها في حسابهم إستراتيجية خاصة يمكن نعتها بـ "الإستراتيجية المتوسطة"¹.

والبحر المتوسط يصل بين ثلاثِ قارات، ولا عجب إذن أن يحتضن أكثر حضارات العالم إبهارا وتميِّزا، بل إنه وُقِرَ وسائل الاتصال الرئيسية منذ العصور القديمة، حيث كانت وسيلة الانتقال الوحيدة عن طريق الماء، مع ما تختص به من مزية إضافية وهي القدرة على نقل الأحمال الثقيلة التي لم يكن في مقدور أي وسيلة أخرى تحريكها².

وتحدّ البحر المتوسط أوروبا من جهة الشمال، وإفريقيا في جهة الجنوب، ومن الشرق آسيا، وهو يشكل خندقا عميقا بين هذه القارات. وظل هذا البحر منقسما إلى حوضين هما "الشرقي والغربي"، وهذا الأخير يغطي المساحة الممتدة من جزيرة صقلية إلى جبل طارق، حيث ينفصل البحر المتوسط عن المحيط الأطلسي بجبل طارق³، كما يصل بينهما إلى وقتنا هذا مضيق جبل طارق أو ما عرف في الفترة الوسيطة بمضيق سبته.

ووفقا لرؤية بروديل فالبحر المتوسط ليس بحرا واحدا، بل هو سلسلة من البحار الصغيرة التي تتواصل عن طريق مداخل تتفاوت في الضيق والاتساع، ويوجد في حوضيه الشرقي والغربي سلسلة من البحار الضيقة لكل منها طابعه الخاص وقوانينه التاريخية. وكقاعدة عامة تعد أضيق البحار هي الأكثر ثراءً من حيث الأهمية والقيمة التاريخية، وكان الإنسان قد وجد أنه من الأسهل أن يفرض نفسه على البحر الأبيض المتوسط، لذلك فإنّ البحار الضيقة هي موطن التاريخ⁴. ولقد كان البحر المتوسط متكأ نحو الأطلسي، بحيث

1- راضي العامري، الأنوار الحضارية في القطوف الأندلسية، عمان، الأردن: دار غيداء للنشر والتوزيع، 2014، ص133.

2- جون جولويس نورويش، الأبيض المتوسط تاريخ بحر ليس كمثله بحر، ترجمة طلعت الشايب القاهرة، مصر: المركز القومي للترجمة، ط01، 2015، ص17.

3- محمود أحمد أبوصوة، دراسات في تاريخ البحر الأبيض المتوسط في العصر الوسيط، مالطة: منشورات ELGA، 2000، ص17.

4 - F. Braudel, The Mediterranean and the Mediterranean world in the age of Philip II, Translated from Sian Reynolds, T01, pp108-109.

حتى في مرحلة الكشف الجغرافية اندفع المستكشفون انطلاقاً منه وبالتحديد من شبه الجزيرة الأيبيرية كأفضل قاعدة متوسطة¹.

وفيما يخص بلدان الحوض الغربي للمتوسط بصفته، فهناك روابط مختلفة بينها وأكثر من وجه للشبه، ومنها المناخ والنبات والتاريخ، وهو ما جعل الأجزاء الجنوبية من بلدان الضفة الشمالية وهي "إسبانيا وفرنسا وإيطاليا"، أكثر ارتباطاً وأوثق صلة بالسواحل الإفريقية "سواحل الضفة الشمالية" من ارتباطها بأوروبا².

الضفة الجنوبية حيث بلاد المغرب الإسلامي:

إن ما اصطلح عليه بالشمال الإفريقي وبلاد المغرب والمغرب الإسلامي؛ هو جزء من الضفة المتوسط الغربية الجنوبية، وكان رقعة متصلة بملك دولة الموحدين المتمركزة بالأندلس. وقد توحد المغرب العربي والأندلس لآخر مرة في العصر الإسلامي في ظل حكم الموحدين، حيث بلغت هذه الدولة بتاريخ المغرب زروته خلال العصور الوسطى، وتمكنت من حكمه وتحقيق وحدته لفترة طويلة من طرابلس إلى المحيط الأطلسي، ومن ساحل المتوسط إلى مشارف إفريقيا المدارية، هذا فضلاً عن ملكهم في ديار الأندلس³.

ويمتد المغرب من برقة إلى المحيط الأطلسي ويشتمل على ثلاثة أقسام "الأدنى؛ الأوسط والأقصى"⁴، وكان على هذه الدويلات الثلاث مزيداً من النضال لتواجه به الضغط المتزايد عليها من قبل البلدان النصرانية القائمة في شبه جزيرة إيبيريا وإيطاليا وفرنسا، وهو

1- فيليب كونتامين وآخرون، موسوعة تاريخ أوروبا العام "أوروبا منذ بداية القرن 14 وحتى نهاية القرن 18م"، ترجمة وجيه البعيني، مج02، بيروت-باريس: منشورات عويدات، ط01، 1995، ص202.

2- أبو صوة، مرجع سابق، ص ص18-19.

3- أحمد سالم، إستراتيجية الفتح العثماني، الإسكندرية، مصر: مؤسسة شباب الجامعة، 2012، ص123.

4- أبو راس الناصري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تحقيق محمد غالم، ج02، الجزائر: منشورات الCRASC، د.ت، ص48.

ضغط سياسي واقتصادي وعسكري وليد التغيرات على ميزان القوى بين جنّات البحر المتوسط المسيحية والإسلامية¹.

حيث أنّ ضعف الدولة الموحدية أطلّ على بلاد المغرب العربي بالتجزؤ والانقسام السياسي²، وعندما نهش الضعف دولة الموحدين وتمزقت أطرافها الشاسعة التي بسطوا عليها سلطانهم؛ كانت منطقة الشمال الأفريقي موطنًا للتفكك والتمزق، وظهرت ثلاث دول تتنازل السلطان طويلاً، وتبحث كل واحدة منها عن توسيع رقعتها وامتدادها على حساب جارتها، وهذه الدويلات هي الحفصية؛ المرينية والزيانية³.

المغرب الأدنى:

كانت دولة الحفصيين أسبق الدول الثلاث ظهوراً وأوسعها انتشاراً، حيث أعلن تكوينها رسمياً في 1236م واستمرت كدولة حتى سنة 1574م، واتسع نفوذها ليمتد في فترات من طرابلس إلى طنجة⁴، واستغل بنو حفص فرصة احتضار الدولة الموحدية وأعلن أميرهم أبو زكرياء الحفصي استقلاله بالمغرب الأدنى، وقد اعترف له بالسلطنة بعض مدن الأندلس وأهل طنجة وسبتة⁵.

وفي وقت غلبة الانحطاط السياسي على المغربين الأوسط والأقصى، استطاع الحفصيون في تونس تقوية سلطانهم واستعادة مجدهم وعزّهم بفضل اثنين من السلاطين

1- إيفان هريك، تفكك وحدة المغرب السياسي "تاريخ إفريقيا العام، إفريقيا من القرن 12 إلى القرن 16م"، إشراف جبيرل نياني، مج04، بيروت، لبنان: منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة، المطبعة الكاثوليكية، 1988، ص98.

2- شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالي والبشير سلامة، تونس: الدار التونسية للنشر، ط02، 1983، ص173.

3- شوقي عطا الله الجمل، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث "ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب"، مصر: مكتبة الأنجلو المصرية، ط01، 1977، ص26.

4- يسري الجوهري، شمال إفريقية دراسة في الجغرافية التاريخية، الإسكندرية، مصر: دار الجامعات المصرية، 1970، ص179.

5- أحمد عودات وآخرون، تاريخ المغرب والأندلس من القرن 16هـ إلى القرن 10هـ، إريد، الأردن: دار الأمل للنشر والتوزيع، 1989، ص138.

وهما أبو فارس(1394-1434م)¹ وأبو عمرو عثمان(1435-1488م)². كما كانت مملكتهم -أي تونس- تخضع لها أربع أقاليم وهي "بجاية، قسنطينة، الزاب، وطرابلس الغرب"³، وامتد تأثير الحفصيين في شؤون مملكتي تلمسان يُنصّبون من يواليهم من الحكام في خِصَم التنازعات على العرش⁴.

وحتى مؤسس الأسرة الوطاسية بفاس محمد الشيخ اعترف بالسلطة الحفصية وأعلن لها الولاء سنة 1472م⁵، لكن مع نهاية القرن 15م وابتداء القرن التالي انتشرت الفوضى وبرزت نزعات الولاة الانفصالية متسببة في انهيار الوحدة الحفصية، بحيث لم تستطع الثبات في مواجهة متغيرات حوض المتوسط المتمثلة في المنافسة العثمانية والإسبانية⁶.

وبرغم فقدان الدولة لبعض تُخومها في أوقات الضعف، نتيجة النزعة الانفصالية لولاة المناطق الغربية الحدودية مع الجزائر، أو بسبب الخطر الإسباني ومحاولات التوسع

1- ولد بمدينة قسنطينة عارض إخوته بيعته، واعتلى الإمارة في اليوم الثاني من وفاة والده (04 شعبان 796هـ/12 جوان 1394م) وفي عهده عرفت البلاد بعض الاستقرار حيث حارب المتمردين ومظاهر الفساد كما أرسل للأندلسيين المعونة والمؤونة، وغزا كل من صقلية وطرابلس ومنطقة الزاب وبجاية وقسنطينة وغيرها حيث وصل تلمسان وفاس، توفي سنة 837هـ/1434م. ينظر: تقي الدين أحمد المقرزي، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق محمد عثمان، ج02، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، د.ت، ص221. وينظر: ابن أبي الدينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تونس: مطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحمية، ط01، 1869، صص144-146.

2- تمت بيعته في اليوم الذي توفي فيه أخوه الأمير أبي عبد الله المنتصر 22 صفر 839هـ/24 سبتمبر 1435م، عرف عنه الصلاح واهتمامه بالوقف للعلم وتدريس القرآن الكريم وكذا بناؤه المساجد ودور التعليم، ألم البلاد في وقته وباء أودى بحياة ما يقرب 400 ألف شخص وتوفي في أواخر رمضان سنة 893هـ/سبتمبر 1488م. ينظر: ابن أبي الدينار، نفسه، صص147-149.

3- الحسن الوزان، وصف إفريقية، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ج02، بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي، ط02، 1983، ص31.

4- جوليان، مرجع سابق، صص186-187.

5- المرجع نفسه، ص188.

6- هريك، مرجع سابق، ص102.

العثماني، استمرت مدينة تونس مركز السلطة الحفصية ورمز قيامها وقاعدة سيطرتها الحقيقية¹.

المغرب الأوسط:

جلب موقع الدولة الزيانية -بين المغربين- عليها التهديدات منذ تأسيسها في القرن 13م، وبينما كان جيرانها الحفصيون والمرينيون يندشون بلوغ حدود دولتهم إلى بجاية شرقا وفاس غربا، وجدت الدولة حالها في موقع دفاعي على أغلب الأوقات، حتى أن هناك من وصف صمودها بالمُعجزة أحيانا، ونتيجة لكفاءة بعض سلاطينها وبراعة سياستهم المنتهجة في الأحيان الأخرى².

أعاد السلطان أبو حمو الثاني³ وضع أسس الدولة الزيانية بتحرير تلمسان من قبضة المرينيين سنة 1359م، بعد أن تقلبت بين المغربين أكثر من مرة⁴، وما برح المرينيون يترتبون بها وبالمغرب الأوسط عامة، يُزعزعون استقرارها ويثيرون الفتنة بين أفراد الأسرة

1- فاطمة بن سليمان، الإيالة التونسية بين القرنين 16 و19 "نشأة المجال"، ج01، تونس: أطروحة دكتوراه في التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، السنة الجامعية 2004-2005، ص27.

2- هربك، مرجع سابق، ص107.

3- تولى الحكم من 1359 إلى 1389م ويتحدث عنه التنسي قائلا: "ولما استقر المولى أبو حمو من هالة في نصابها، وانتزع دولته من يد عُصابها، ساس أهل مملكته بالسيرة الحسنى وغمر الرعية قسطاس عدله الأسنى، وقسم أوقاته بين حكم يقضيه وحق يمضيه، وعاق يرضيه وسيف لحماية الدين ينضيه...". ينظر: محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان" مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان"، تحقيق محمود بوعياذ، الجزائر: موفم للنشر، 2011، ص160. ويصف جوليان عهده بمجد الدولة الزيانية، ويقول أن وفاته أذنت بالإضطرابات والضربات من طرف الحفصيين والمرينيين ثم الإسبان وحتى نهاية الدولة وضم بقاياها للسلطة العثمانية (التركية) في الجزائر. ينظر: جوليان، مرجع سابق، ص207.

4- إن واقع عاصمة الزيانيين الغير مستقر يقرب لنا صورة عن الضعف السياسي المشهود في المغرب الأوسط، ونجد في رواية أبي القاسم الزياني تعبيرا عن الوضعية وهو يقول: "...استقل يغمراسن بملك تلمسان عام ستة وأربعين وستمائة، واستقل أبو زكرياء يحيى بن أبي حفص بملك إفريقية، وتوزعت دولة الموحدين، واستمرت الحرب بين بني مرين وبني عبد الواد على تلمسان إلى أن ملكها أبو الحسن المريني أعواما، ثم ردها لهم أبو عنان، ثم ردها، ثم غلبهم عليها عبد العزيز المريني، ثم رجعوا لها، ثم غلبهم عليها إبراهيم المريني، واستمر الحال على ذلك إلى أن انقرض ملك بني مرين وبني عبد الواد، وملكها الترك من يد عبد الله الزياني، آخرهم عام اثنين وخمسين وتسعمائة، دخلها خير الدين باشا قديم لها من الجزائر". ينظر: أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة بزا وبحرا، تحقيق عبد الكريم الفيلاي، الرباط، المغرب: دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، 1991، ص ص147-148.

الحاكمة ويدعمون من يواليهم، إلا أن السلطان أبو مالك عبد الواحد (1411-1440م) أمكنه تخليص البلاد شرهم بعد أن طاردهم وردهم إلى فاس¹.

وكان لقرب تلمسان من فاس آثاره السلبية إذ لم ينل الجزائر من ذلك إلا نشر الفوضى وتعطيل الاقتصاد والتدخل في شؤونها، مما تسبب في إضعاف الحكومات وشغلها عن ترقية مملكتها²، وعليه دفعت هذه الحالة إلى التفكير في نقل عاصمة الدولة إلى مدينة الجزائر تأميناً لوضعها من الحرب الدائمة مع المرينيين على وجه الخصوص³.

كما زاد تمرد القبائل وقوي عصيانهم حتى أن الدولة الزيانية عجزت عن قبض الجبابة، والمناطق التي كانت تُقَرُّ عليها قادة يحكمونها تحت تبعيتها، أصبح أهلها يختارون من يحكمهم من بين شيوخ القبائل، وغدت جزائر بني مزغنة والمدية ومليانة وغيرها تجاهر انفصالها عن الزيانيين⁴، وبعض القبائل استغلت هذا الضعف لتثير الثورات، إذ التف حولها السكان وأخذت تُهدد الزيانيين، خاصة وأنها مدعومة من قبل الحفصيين والمرينيين في بعض الأحيان⁵.

ومن أبرز الفترات التي طال فيها حال الانفلات عُهدة السلطان الزياني أبو العباس أحمد (1430-1462)، حيث يصف لنا التنسي واقعها قائلاً: "ثم عجز بعد ذلك عن النهوض وكلّ، وتلاشى ما كان له من الهيبة في النفوس واضمحل، واستولى المُتغلبون على الأوطان وكثر الثوار من الزناتية والعربان، ودامت دولته اثنتين وثلاثين سنة على هذه الحال"⁶.

1- خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث...، مرجع سابق، ص12.

2- مبارك الملي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج02، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ت، ص424.

3- جوليان، مرجع سابق، ص207.

4- مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية "الأحوال السياسية"، ج01، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009، ص ص25-27.

5- المرجع نفسه، ص ص32-34.

6- التنسي، مصدر سابق، ص ص247-248.

ومنذ فاتح القرن 15م لم يعد يوجد في الجزائر سلطة مركزية ولا أثر لمظاهر الدولة وقوتها على سائر البلاد، إنما كانت هناك مدن مستقلة يترأسها زعماء من الزعامات الدينية أو الدنيوية، وقبائل يقوم عيشها وشأنها على الترحال واستزراع الأراضي¹.

وعلى أساس ما تقدم من أحوال ومعطيات عامة عن الجزائر حتى مطلع القرن 16م راح بعض المؤرخين يصفونها باللوحنة المحزنة لبلد مدمر، تتنازعه الصراعات الداخلية وتتهده الأطماع الخارجية وبالأخص الإسبانية²، حيث كانت الأسر الثلاث الحاكمة في بلاد المغرب العربي قبيل نهاية القرن 15م على موعد مع حالة حساسة من التبدلات السياسية، فمنها ما حلت محلها أسر جديدة ومنها ما أصابها انحطاط على مستوى السلطة والحكم³.

هذا فضلا عن بقاء أمراء الدولة الزيانية في اقتتال حاد على السلطة طيلة القرن 15م وحتى نهاية دولتهم منتصف القرن 16م، يستتصرون بأترك الجزائر مرة وبالأسبان مرة أخرى⁴.

لكن مدينة الجزائر⁵ في الفترة ذاتها شهدت خصوصية جعلت منها المجال المختار والقاعدة المنطقية لمهمة الدفاع الإسلامي ضد المسيحيين اللاتين، ذلك لأنها تخلّصت من مظاهر الأحقاد على السلطة والتي كانت تعيشها تلمسان وتونس وفاس¹.

1- جون بابستت وولف، الجزائر وأوروبا 1500-1830م، ترجمة أبو القاسم سعد الله، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، وزارة المجاهدين، طبعة خاصة، 2015، ص23.

2- نيقولا إي فانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574م، ترجمة يوسف عطا الله، لبنان: دار الفرابي للنشر والتوزيع، ط 1، 1988، ص97.

3- عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون 1516-1916، دمشق، سوريا: مطابع الألف باء، ط02، 1993، ص74.

4- للمزيد ينظر: مبارك الملي، مرجع سابق، ص ص460-464.

5- تحررت المدينة من الخضوع للزيانيين إثر ثورة والي بجاية أبو فارس الحفصي على السلطان أبي عمرو عثمان واستقلاله بحكم بجاية، حيث امتدت سلطته إلى مدينة الجزائر التي أعلن سكانها له الولاء وأدوا الضريبة في ظل عجز تلمسان عن حمايتهم، ثم غدوا شبه مستقلين عن السلطين وواجهوا تحرشات الإسبان حتى مجيء الإخوة بربروس. ينظر: الحسن الوزان، وصف إفريقيا، مصدر سابق، ص38. و: روبير برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، ترجمة حمادي الساحلي، ج01، بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي، ط01، 1988، ص ص258-266.

وكان الثعالبة قد استولوا على حكم مدينة الجزائر وجوارها منذ مقتل السلطان الزياني أبو زيان محمد سنة 1438م، واتخذوا لإدارة شؤونهم مجلسا للشيخ تأمره الشيخ عبد الرحمان الثعالبي² حتى وفاته، حيث انتقلت المشيخة إلى أبناء عمهم بني سالم الذين انتخبوا عليهم سالم التومي³، ليستمر حكمه حتى دخول الإسبان ثم آل بربروس، وفي هذا الصدد وصفت مدينة الجزائر بأنها لم تكن عاصمة لأي دولة أو مملكة ذات شأن قبل مجيء العثمانيين⁴.

المغرب الأقصى:

طلب المرينيون وراثته حكم سائر بلاد المغرب عندما استولوا على مراکش في أواخر عهد الموحدين (1269م)، وذلك باعتبار هذه المدينة مركز ثقل للموحدين، إضافة إلى أفضلية حالتهم العسكرية عن الحفصيين والزيانيين⁵.

وتكفّف المرينيون في المغرب الأقصى حروبا جاوزت النصف قرن من الزمن، لأجل الانفلات عن الولاء للموحدين⁶. إلا أنهم ظلّوا في البداية يمارسون سلطتهم تحت تبعية اسمية للحفصيين، حتى قام سلطانهم أبي الحسن بحملة على تونس سنة 1347م⁷، انتهت إلى

1- سبنسر، مرجع سابق، ص32.

2- عالم فقيه ومتصوف (1384-1471م) ينحدر من قبيلة الثعالبة التي احتازت شؤون متيجة ومدينة الجزائر كسلطة محلية حاکمة بين القرنين 14 و15م. قصد بجاية وتونس ومصر طلبا للعلم، له عدة مؤلفات في التفسير والأندكار والتصوف. دفين العاصمة وأحد رموزها وضريحه معلم من معالمها. للمزيد ينظر: عبد الرزاق قسوم، عبد الرحمان الثعالبي والتصوف، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978.

3- عبد الحميد بن أشنهو، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، الجزائر: الطباعة الشعبية للجيش، 1972، صص 71-72.

4- أبو القاسم سعد الله، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، الجزائر: منشورات عالم المعرفة، وزارة المجاهدين، طبعة خاصة، 2015، ص497.

5- صلاح العقاد، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر "الجزائر، تونس، المغرب الأقصى"، مصر: مكتبة الأنجلو المصرية، ط06، 1993، ص12.

6- أحمد عودات وآخرون، مرجع سابق، ص138.

7- حول تفاصيل الحملة، ينظر: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، ج03، الدار البيضاء، المغرب: دار الكتاب، 1955، صص 154-157.

التأكيد على مراكش دولة مرينية محلية رغم وشوك انهيار أسرة المرينين جراء هزيمتهم في هذه المناسبة¹.

وعقب وفاة عبد الحق -آخر سلاطين المرينيين- سنة 1465م ، عمّت فوضى في ثنايا الدولة وأجهزتها، واستبدّ الحُجّاب والوزراء من بني وطاس بحكم المناطق التي كانوا فيها، وأمكن للوطاسيين السيطرة على فاس، حيث ظل أبو عبد الله محمد الشيخ أميراً عليها من 1471 إلى وفاته سنة 1504م، ثم خلفه ابنائهم من بعده²، وعاصروا احتدام العدوان البرتغالي³.

ومن المعلوم أن نفوذ الوطاسيين كان محصوراً في جهة الشمال ولم يكن يصل إلى جنوب البلاد، وفي هذا الوقت كانت مخاطر البرتغاليين تزداد تفاقماً باحتلال الثغور المتعددة على الساحل⁴. ونتيجة لضعف السلطة المتمركزة في فاس وبُعدها عن الأقاليم الحدودية والمستهدفة، تجرّأ المغرب إلى وحدات سياسية شبه مستقلة⁵.

وبعد ظهور السعديين في مراكش وانقيادها لهم وبيعة أهلها للأمير أبي عبد الله محمد الشيخ⁶، أصبحت هناك ثلاثة كيانات سياسية في المغرب "مملكة بفاس، والثانية بمراكش والثالثة ببادس"، وزعامات أخرى في جهات متفرقة من البلاد، الأمر الذي وفرّ للقوى الخارجية استغلال هذا التمزق بما يخدم سياساتها⁷.

1- العقاد، مرجع سابق، ص12.

2- شوقي الجمل، مرجع سابق، ص32.

3- العقاد، المرجع نفسه، ص14.

4- الحسن كفناني، جوانب من حركة الجهاد في بداية القرن16م، المغرب: منشورات جامعة القاضي عياص، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد08، 1992، ص117.

5- عبد الكريم كريمة، المغرب في عهد الدولة السعدية "دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية"، الرباط، المملكة المغربية: منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، ط03، 2006، ص16.

6- الناصري، الاستقصا، مصدر سابق، ج05، ص21.

7- عبد الهادي التازي، الوسيط في التاريخ الدولي للمغرب، ج02، الرباط، المغرب: دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، ط01، 2001، ص278.

طرابلس:

عندما ورث السلطان الحفصي المُلْك عن والده أبو العباس أتمّ في توسيع رقعة الدولة وتوحيدها، ومما قام به هو القضاء على حكم الأسر المحلية في بجاية وقسنطينة¹ وبسكرة وطرابلس، وعين على كل منها حكاما من مواليه².

ومثلها مثل تونس اعتبرت طرابلس قاعدة من قواعد المغرب الأدنى وحدوده الشرقية في برقة³، وظلت قلعة تحت سيطرة الحفصيين إلى أن تمزقت دولتهم⁴. وفي أيام حكم الأمير الحفصي أبي عبد الله محمد بن الحسن خرجت بلاد كثيرة عن سلطته⁵، ومنها طرابلس التي رفض سكانها سياسة هذا الأمير وردوا واليه عليهم مطرودا⁶، وسيروا أمورهم إلى مجلس الشيوخ، والذي كان على رأسه شيخ متواضع عاش بينهم وامتهن التجارة معهم⁷.

وعلى هذا الحال دأبت طرابلس تختار أمراءها من بين أعيانها إلى أن استهدفها⁸ ملك إسبانيا مطلع القرن 16م، وأرسل إليها أسطولا بقيادة الكونت بيدرو نافارو، إذ تمكّن من احتلالها سنة 1510م⁹.

1- دخلتا تحت حكم الحفصيين سنة 626هـ/1228م وعين على كل منهما واليا، وفي ذلك يقول ابن خلدون: "لما استقل أبو زكرياء بالأمر بتونس وخلق بني عبد المؤمن، نهض إلى قسنطينة سنة ست وعشرين، فنزل بساحتها وحاصرها أياما... وولى عليها ابن النعمان، ورحل إلى بجاية فافتتحها". ينظر: عبد الرحمان بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر...، ج13، الجزائر: موفم للنشر، 1995، ص112.

2- هريك، مرجع سابق، ص100.

3- الناصري، مصدر سابق، ص48.

4- شارل فيرو، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، بنغازي، ليبيا: منشورات جامعة قان يونس، ط03، 1994، ص64.

5- ابن أبي الدينار، مصدر سابق، ص151.

6- الوزان، مصدر سابق، ص100.

7- فيرو، مرجع سابق، صص64-65.

8- في هذه الفترة تلقت طرابلس اعتداءات وهجومات من ملك صقلية ومن الجنوبيين، وكانوا يعرفونها ويدركون حالها من خلال المعاملات التجارية التي ربطتهم بها. ينظر: فيرو، نفسه، ص65. و: الوزان، نفسه، ص99.

9- الوزان، نفسه، صص100-101.

ومن خلال ما تقدم تتجلى صورة بلاد المغرب نهاية القرن 15م وهي تشكي الضعف البالغ، وأغلب موانئها على الساحل المتوسطي والأطلسي تمكنت منها أيادي الإسبان أو البرتغال، وكل سلطة مركزية منها منقسمة على نفسها ومتفتتة بناها الاقتصادية، كما لم تعد قادرة على مواجهة الضغوط¹.

ويضاف إلى ما ذكر عموم الفوضى والتربصات والاندفاع إلى السلطة والتوسع على الحدود المجاورة، دون القدرة الكافية على التأمين والحماية، نتيجة غياب أسس السلطة وتولية الحكم وقيامها على عامل التوريث الذي كانت تشوبه الشوائب².

الضفة الشمالية حيث بلدان أوروبا الغربية المسيحية: شبه الجزيرة الأيبيرية:

في أقصى الغرب من العالم القديم تقع شبه الجزيرة الأيبيرية³، وتوصف بكونها أرضاً شاسعة تكثر فيها الهضاب الواسعة وسلاسل الجبال، وتتخللها الأنهار والوديان⁴، وهي تمثل كتلة جسيمة داخلية في البحر، جوانبها الباقية محفوفة بمياه المتوسط والمحيط الأطلسي، لا يفصلها عن إفريقيا إلا مضيق جبل طارق. كما أن طابعها الجزري هذا كان له أثره في

1- هريك، مرجع سابق، ص114.

2- عبد الكريم غلاب، قراءه جديده في تاريخ المغرب العربي، ج02، لبنان: دار الغرب الإسلامي، ط01، 2005، ص334.

3- أطلق اسم أيبيريا على شبه جزيرة إسبانيا والبرتغال، ومنها سلسلة الجبال الأيبيرية في شمال إسبانيا، والأيبيريون هم شعب كان يقطن في شبه جزيرة أيبيريا واستوطن أحيانا بلاد الغال وسواحل إيطاليا الشمالية، خضعوا للفرس ثم للإسكندر الكبير، ونعموا في بعض الفترات قبل المسيح وبعده بالاستقلال. وفي القرن السابع خضعوا للعرب، كما يختلف المؤرخون في أصل الأيبيريين والمكان الذي قدموا منه، ويعتقد بعضهم أن الباسك الحاليين يعودون بأصلهم إلى الأيبيريين. ينظر: محمد عبده حتامله، موسوعة الديار الأندلسية، ج01، الأردن: الجامعة الأردنية، ط01، 1999، ص11.

4- عبيد الشامسي، الصراع البرتغالي العثماني في القرن 16م، الإمارات العربية المتحدة: مركز الدراسات والوثائق، ط02، 2013، ص27.

عزلها عن مؤثرات ما وراء جبال البرانس التي تفصلها عن القارة الأوروبية، بينما تركها مفتوحة منذ أقدم العصور أمام المؤثرات الشرقية من جهة طريق البحر المتوسط¹.

والأندلس أو شبه جزيرة الأندلس مصطلح جغرافي كان يدل في العالم الإسلامي حتى نهاية القرون الوسطى على شبه جزيرة إيبيريا؛ أي إسبانيا والبرتغال الحديثتين، وفي مستهل العام 716م وُجد ذكر الأندلس على قطعة نقدية مكتوبا بلغتين، حيث النقش اللاتيني فيها يورد لفظ إسبانيا مرادفات للفظ الأندلس، وكان هما اللفظين الوحيدين اللذين استعملهما الإخباريون الإسبان الأوائل للدلالة على شبه الجزيرة الإيبيرية، باعتبارها كُلاً واحداً أي الإسبانييتين المسيحية والإسلامية².

وأطلق مصطلح الأندلس كذلك للدلالة على المنطقة الجغرافية الساحلية والأراضي الجبلية من إقليم البحر المتوسط -من شرقها إلى غربها-، والمُنَاظِر للمنطقة الممتدة من ولاية ألميرية الحديثة إلى ولاية وِلْبَة وإلى إقليم أندلوسيا³.

كما يتميز موقع شبه الجزيرة الأيبيرية بتوسطه بين شمال إفريقيا وغرب أوروبا، إذ تشكل -إيبيريا- جسراً بين المنطقتين، ظل طيلة عصور التاريخ معبراً للجيوش والحضارات والتجارة. كما اكتسبت إيبيريا ميزة فريدة إثر وقوعها بين بحرين لهما وزنها وحيويتها العالمية ألا وهما البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، فهي إذن تشرف على طرق المواصلات البحرية الرئيسية بين الشرق والغرب⁴، وهي إحدى أشباه الجزر الثلاث⁵ التي تمتد طولاً داخل البحر المتوسط⁶.

1- جورج سيرافان كولان، الأندلس، ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرين، بيروت، لبنان: دار الكتاب اللبناني، ط01، 1980، ص ص62.

2- كولان، مرجع سابق، ص58.

3- المرجع نفسه، ص ص59-60.

4- محمد عبده حتامله، إيبيريا قبل مجيء العرب المسلمين، الأردن: منشورات وزارة الثقافة الأردنية، ط01، 1996، ص18.

5- شبه الجزيرة الإيطالية، شبه جزيرة البلقان وشبه الجزيرة الإيبيرية.

6- ليلي الصباغ، معالم تاريخ أوروبا في العصر الحديث، سوريا: منشورات جامعة دمشق، ط04، 1998، ص12.

ومع نهاية السيادة الإسلامية السياسية على إيبيريا تدريجيا ثم نهائيا سنة 1492م، كانت هناك دولتان مسيحتان حلت سيطرتهما على شؤون بلاد الأندلس (إيبيريا)، وهما إسبانيا والبرتغال.

أ- إسبانيا:

في الوقت الذي ضَعُف فيه المسلمون في أقطار الشمال الإفريقي بفعل تفكك وحدتهم منذ القرن 13م؛ بدأت شبه الجزيرة الأيبيرية تكوينها السياسي، فإسبانيا توصلت في النصف الثاني من القرن 15م إلى تحقيق وحدتها الوطنية على أسس دينية مسيحية كاثوليكية معادية للمسلمين في الأندلس وبلاد المغرب، والأمر يتشابه بالنسبة للبرتغال التي أقامت حكومة مركزية قوية في لشبونة، وتكن بدورها العداء للمسلمين¹.

وعن طريق حروب الاسترداد التي أطلقتها الإمارات المسيحية هناك في إيبيريا منذ منتصف القرن 15م، استطاعت الاستحواذ على ممتلكات المسلمين حيث لم تبقى لهم من الأندلس سوى غرناطة²، وتقلصت إلى حدودها الإسلامية في غرب أوروبا³. وعند مطلع القرن 16م آلت إسبانيا إلى أسرة الهابسبورغ حيث كان مقرها يتمركز في النمسا، وتحولت أملاك الإمبراطورية المقدسة إليها بفضل سياسة المُصاهرة⁴، كما بلغ نفوذها إلى سويسرا وألمانيا والبلاد الواطئة⁵ ثم إلى أجزاء من إيطاليا.

1- رأفت غنيمي الشيخ، تاريخ العرب الحديث، مصر: منشورات عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2005، ص 269.

2- ليلي الصباغ، مرجع سابق، ص 51.

3- فيليب كونتامين وآخرون، مرجع سابق، ص 66.

4- تزوج فرديناند من ماري البرجنديّة ابنت شارل الجسور، وتزوج فيليب الثاني من جوان ابنت إيزابيلا.

5- زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث من مطلع القرن 16 إلى نهاية القرن 18، ج 01، مصر: دارا لفكر العربي للطباعة والنشر، 1986، ص 21.

واتبعت إسبانيا سياسة خارجية توسعية ميدانها أوروبا وإفريقيا الشمالية والعالم الجديد، كما شابت الصليبية توجهها السياسي منذ وحدتها بالتحام قشتالة وأراغونا، ثم التفوق على المسلمين ووضع حد لسلطتهم على الأندلس نهائياً¹.

ب- البرتغال:

مع اقتراب نهاية القرن 14م دخلت البرتغال أزمة سياسية من بعد الأزمة التي عاشتها أعقاب وفاة الملك دوم فيرديناند، واستطاع ملك قشتالة من إلحاقها إليه، فاستثار الغضب أهالي المدن البرتغالية وعلى رأسها لشبونة، حيث كانت فيها أسرة أفيس التجارية، هذه الأخيرة التي استغلت الظرف وبمنسأنة منها نُصّب دوم جواو الأول وصيا على المملكة وحاميا لها².

استطاع جواو الأول (1384-1433م) الانتصار على ملك قشتالة بعد عامين من اعتلائه العرش، وبفضل ذلك تمكنت البرتغال من استكمال وحدتها الترابية واستعادة استقلالها التام قبل غيرها من الممالك النصرانية في شبه الجزيرة الإيبيرية³. وكان هذا الإنجاز المُبكر داعماً لها لمتابعة القتال ضد المسلمين في ما وراء البحر المتوسط والبحر الأحمر، وقد اعطى مارتن الخامس⁴ وخلفائه على عرش القديس بطرس لهذه الحملات تشريعاً أقره القانون الكنسي في الحروب المقدسة، وهو أن المحاربين المسيحيين يُفيدون من الغفران المطلق،

1- الصباغ، مرجع سابق، ص54.

2- حبيدة، مرجع سابق، ص155.

3- محمد الشريف، سبته في إستراتيجية دول الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، المغرب: المركز العربي للأبحاث والدراسات الساسية، مجلة أسطور، العدد10، جويلية 2019، ص80.

4- البابا الذي انتخب سنة 1417م لأجل إنهاء أزمة انقسام الكنيسة بين روما وأفنيون، واعتمد بابا وحيدا للكنيسة الكاثوليكية في روما، عرف بالسعي وراء إجهاض الحركات الإصلاحية ضد الكاثوليكية، وتأسيس عدّة جمعيات لمساعدة الكنيسة في محاربة المصلحين. ينظر: مانع الجهني، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، مج2، الرياض، السعودية: دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط04، 1999، ص603.

ومن ثمة تشجّع رجال الدين المسيحيين على التطوع لغرض أن تصبح الأراضي المنتزعة من المسلمين من نصيب التاج البرتغالي¹.

ومع بدايات القرن 15م بدأ البرتغاليون مثلهم مثل الإسبان يغزون الشواطئ المغربية، فاحتلوا سبتة وبعدها طنجة وأصيلا، وتوجهوا أيضا إلى الرحلات البحرية الاستكشافية عبر المحيط الأطلسي².

كما اتسمت البرتغال الحديثة وإلى غاية 1580م بالتوسّع فيما وراء البحار، على سواحل المغرب وإفريقيا وبلاد الهند. وبالنسبة للدولة فيها فإن الملاحة والتوسّع الجغرافي شكلا قضية مركزية وهامة³.

القوى الأوروبية خارج إيبيريا:

فرنسا:

إن نهاية حرب المائة عام سنة 1453م لصالح الفرنسيين ضد خصومهم الإنجليز أوجدت شعلة من الحماس للقومية لدى الفرنسيين، وغدت منطلقا أساسيا في تكوينهم القومي الحديث⁴. وبعد وحدتها المعنوية هذه ركزت فرنسا على الوحدة الإقليمية، حيث حققت وحدة دوقية بورغانديا وكونتية البروفانس بين 1477 و1481م⁵، وهذه النتيجة الإيجابية لصالح الفرنسيين خلّصت بهم إلى تحقيق الكيان السياسي المتكامل للدولة، ورسمت لها حدودا جغرافية واضحة في أوروبا⁶.

1- كونتامين، مرجع سابق، ص 200.

2- عبد الكريم الفيلاي، التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، ج 03، القاهرة، مصر: شركة ناس للطباعة، ط 01، 2006، ص 236.

3- محمد حبيدة، مرجع سابق، ص 155.

4- ليلي الصباغ، مرجع سابق، ص 19.

5- جلال يحيى، تاريخ العلاقات الدولية في العصور الحديثة، مصر: دار المعارف، 1982، ص 35.

6- زينب راشد، مرجع سابق، ص 15.

إيطاليا:

مع بداية القرن 15م غدت الأحوال السياسية لإيطاليا مرهونة بالعلاقات القائمة بين دولها أو إماراتها الأبرز وهي "مملكة نابولي، البندقية وفلورنسا، ميلان ودولة البابا"، كما ظهرت جنوة أكثر أهمية في علاقاتها مع القسطنطينية منها مع إيطاليا. وكانت الظاهرة الأعم بين هذه الدول هي التنافس الشديد فيما بينها¹.

وفي عهد شارل الثامن تطّع الفرنسيون إلى توسيع امتداد دولتهم على الحدود المجاورة، وكانت إيطاليا محلا لذلك لكونها قريبة إلى فرنسا من جهة الجنوب، ولكن الإسبان توجهوا بدورهم نحو نفس الهدف واستمرت الحرب بين الطرفين على إيطاليا من 1494م إلى 1559م²، ولعل كتاب "الأمير" لميكيا فيلي كان نتاجا للتفكير في قائد سياسي مقدر يُخلص إيطاليا من الانقسام الذي آلت إليه ويحقق وحدتها واستقلالها³.

ويعتبر التنافس الأوروبي حول إيطاليا نموذجا لسعي الدول الإيطالية الخمس-التي تقدّم ذكرها-، وهي الأكثر قوة، إلى الوصول نحو توازن دولي يحوّل دون وقوع إيطاليا بأسرها تحت أية قوة واحدة مهيمنة⁴.

إنجلترا:

كان الإنجليز يستحوذون على نصف المساحة الجغرافية لفرنسا⁵، ولكن نتيجة حرب المائة سنة لم تكن في صالح إنجلترا، حيث خسرت على إثرها قسما وافرا من نفوذها على

1- هريت فيشر، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة مصطفى زيادة وآخرين، مصر: دار المعارف، مكتبة الأنجلو، 1954، ص ص 423-424.

2- زينب ع راشد، مرجع سابق، ص ص 16-17.

3- ميلاد المقرحي، تاريخ أوروبا الحديث 1453-1848م، بنغازي، ليبيا: منشورات جامعة قان يونس، ط01، 1996، ص 50.

4- مايكل شيهان، مرجع سابق، ص 41.

5- زينب عصمت راشد، مرجع سابق، ص 15.

أراضي فرنسا، ودخلت بعد ذلك في حرب أهلية جاوزت الثلاثين سنة (من 1453 إلى 1485م)¹، وانتهت بارتقاء هنري السابع(تيدور) العرش وتوحيد المملكة على يده².

ملاح أوروبا مطلع العصر الحديث:

خلال فترة القرون الوسطى كانت هناك مؤسستان أطبقتا سيطرتهم على أوروبا، وهما الكنيسة المسيحية الكاثوليكية في روما والإمبراطورية المقدسة، ثم احتدّ بينهما الصراع على السلطة الزمنية، والذي آلت نتائجه إلى ضعفهما، مما تسبب من جهته في ظهور الدول القومية الحديثة³، حيث برزت في أواخر القرن 15م في أوروبا ظاهرة سياسية عامة وهي حلول تنظيمات سياسية في شكل دول محل المجتمعات الإقطاعية التي كانت سائدة منذ القدم⁴.

أ-تصاعد النزعة القومية:

يعود ظهور القومية في أوروبا إلى انحلال الدولة الرومانية المقدسة، إذ تمخّض عنها تشكل إقطاعات متفرقة أخذت تتجمع شيئاً فشيئاً، إلى أن اتّحد كل فريق منها وغدا دولة لها كيانها وقوتها⁵، مع بروز مفهوم جديد للدولة وللحكم وكذلك للحدود، خلافاً لما كان سائداً في فترة العصور الوسطى⁶. وترتبط القومية بالحرب التي شنتها القوى السياسية والكنيسة في إسبانيا ضد المسلمين في الأندلس أواخر القرن 15م، وقد أجبر هؤلاء على الهجرة والخروج

1- عرفت هذه الحرب بحرب الوردتين، وهذه التسمية تشير إلى شعار الأسترين المتحاربتين على السلطة، وهما أسرة آل يورك حيث اتخذت الوردة البيضاء شعراً لها، وأسرة آل لانكستر والتي كانت الوردة الحمراء هي شعارها. للمزيد، ينظر: عبد الفتاح أبو عليّة وإسماعيل أحمد ياغي، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، الرياض، المملكة العربية السعودية: دار المريخ، ط3، 1993، صص 136-137.

2- الصباغ، مرجع سابق، ص 44.

3- محمد صالح، تاريخ أوروبا من عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية 1500-1789، جامعة الموصل، العراق: دار ابن الأثير، ط01، 1981، ص 13.

4- الصباغ، مرجع سابق، ص 43.

5- حسين مؤنس، الشرق الإسلامي في العصر الحديث، ط02، مطبعة حجازي، القاهرة، مصر، 1938، ص 14.

6- ميلاد المقرحي، مرجع سابق، صص 24-25.

من ديارهم؛ لذلك يتبين أن القومية كفكرة ولدت منذ يومها على مسألة عنصرية تؤمن بتفوق جنس ودين على غيره من الأجناس والأديان، مع رفض مبدأ التعددية الدينية والثقافية¹.

كما أصبحت القومية من التطورات السياسية الأساسية في أوروبا، والمفهومة تماما في القارة بأنها رفض قبول استمرار أي شكل من أشكال الخضوع لسلطة إكليريكية (دينية) غير قومية². وتسبب نجاح الحركة القومية الأوروبية في تغيير الخريطة السياسية لأوروبا، وحدث أن توسعت دول، وكانت دول أخرى عرضة إما للتصدع أو التفكك أو الذوبان والإندماج في كيانات أخرى قوية. وهكذا شهد القرن 16م زوال الدول المتوسطة، وهي التي انحصرت في مدينة واحدة نظير حيويتها التجارية ولم يعد يسعها الصمود³.

وهناك حادثة لها مدلولها في التأكيد على طغيان النزعة القومية لدى الأطراف الأوروبية، حيث اثار خطاب ألقاه الإمبراطور شارلكان سنة 1536م فضيحة بشأن حقيقة نواياه، وذلك حينما خاطب كرادلة البابوية بالغة الإسبانية، فيما كان منتظرا أن يتحدث باللاتينية، ليتأكد فإسبانيا الإمبراطورية التي تسعى وراء التفوق السياسي والعسكري كانت في الواقع تستعير من البلدان الأخرى أكثر مما تعطيها⁴.

ب- تنامي البورجوازية:

ارتبطت البورجوازية بتطور الدولة الملكية، ذلك أن المصلحة المشتركة جمعت بين التجار والدولة. وما دام في وسع هؤلاء النبلاء والتجار تزويد البلاد باحتياجاتها من الأموال والعملات، فإن الدولة تبنت سياسة اقتصادية في صالح الطرفين. واتخذت المملكة شكل

1- محمد عبد العزيز ربيع، صنع التاريخ "نظرية في التاريخ وتطور الحضارات"، عمان، الأردن: دار اليازوري، 2014، ص225.

2- توماش ماستناك، أوروبا وتدمير الآخر "الهنود الحمر والأتراك والبوسنيون"، ترجمة بشير السباعي، القاهرة، مصر: مصر العربية للنشر والتوزيع، ط01، 1995، ص24.

3- موسنييه، ص ص143-144.

4- كلود ديلماس، تاريخ الحضارة الأوروبية، ترجمة كوليت حبيب، دمشق، سوريا: الفن الحديث للطباعة والنشر، د.ت، ص100 و104.

وحدة اقتصادية مهمتها تجميع المعادن الثمينة وتطبيق تدابير تخدم فئة التجار¹. وهذه الثنائية المتشكلة من المال والسياسة كانت مسوغا للعلاقة القائمة على المصلحة المتبادلة بين الملوك ورجال الثروة، حيث وجد كل طرف ضالته في الآخر وتوافقت البراغماتية المادية في هذه الشراكة.

هذه أهم الملامح والظواهر ذات الاتصال بالواقع السياسي، حيث تتأثر به وتؤثر في توجيهه، وهناك مظاهر أخرى ومنها الغصلاح الديني، هذا الأخير شغل أوروبا وانشغلت به المجتمعات والحكومات لفترة طويلة، إذ سنعرِّج عليه في المبحث الأول من الفصل التالي، ضمن الحديث عن الواقع الديني في حوض البحر المتوسط.

كما أنه وفي عمق هذه المتغيرات العامة، كان العامل الأكثر اشتراكا بين قوى أوروبا هو البحث عن التوازن، وهناك من يرى أن فكرة توازن القوى هي نتائج عصر النهضة، حيث أن أحد دبلوماسيي فرنسا خلال أواخر القرن 15م يدعى فيليب كومين، وصف أوروبا بأنها نمط تتم فيه موازنة قوة الدولة بقوة جارتها أو خصومها القريبين، حيث تميل الدولة التي تربطها حدود مشتركة إلى أن تكون معنية بقوة وسياسات جيرانها المباشرين².

الدولة العثمانية:

وعلى تخوم البحر الأبيض المتوسط وسيما الشرقية منها، كانت هناك ثلاث مجموعات سياسية مع مطلع القرن 15م، وهي الدولة المملوكية والتي اتضح أنها تمرّ بأخر أدوارها، ثم الدولة الصفوية حيث كانت في أول تأسيسها وظهورها؛ أما الثالثة الثلاث فهي الدولة العثمانية، وقد تميّزت عن الثنتان بامتداد وذروة قوتها³.

1- المرجع نفسه، ص 96.

2- مايكل شيهان، توازن القوى والتاريخ والنظرية"، ترجمة أحمد مصطفى، القاهرة، مصر: المركز القومي للترجمة، منشورات مركز المحروسة، ط01، 2015، ص 41.

3- عباس صباغ، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية "الحرب والسلام بين العثمانيين والصفويين"، بيروت، لبنان: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط01، 1999، ص 26.

وكان الانبعاث الذي شهده العثمانيون في النصف الأول من القرن 15م، سمح لهم بالتوسع نحو القارة الأوروبية حيث بلاد البلقان، وذلك إضافة إلى معاقلهم في الأناضول¹. كما أن الانتصارات التي أحرزتها هذه الدولة على حساب الصرب، أصبح ينذر بحصول فتوحات أخرى ستكون بيزنطة هدفا لها على المدى القريب².

وبالفعل استطاع السلطان محمد الثاني³ فتح القسطنطينية عام 1453م، حيث أسهم هذا الإنجاز في التأكيد على ملامح الدولة الراسخة، التي لا تعترف بحدود لامتدادها⁴. وفي إطار المتغيرات التي ذكرناها على الجانبين الإسلامي والمسيحي، بدت الدولة العثمانية هي الدولة الإسلامية القادرة على الوقوف في وجه القوى الأوروبية الجديدة⁵.

ومنذ منتصف القرن 15م كام التوجه المتوسطي لسلطين الدولة العثمانية يتأكد مع تقدم الأدوار الزمنية اتجاه القرن 16م، ويستمر من سلطان إلى وريثه، وهو في ذلك خطوة استراتيجية على أحد خطّي التوسع الشرقي والغربي، هذا الأخير الذي سيكون الحوض الغربي للبحر المتوسط موضوعه تدريجيا من تحقيق النصر في القسطنطينية إلى عهد سليم الأول.

1- خليل إنالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة محمد الأرنؤوط، بيروت، لبنان: دار المدار الإسلامي، ط01، 2002، صص 31-32.

2- بول كولز، العثمانيون في أوروبا، ترجمة عبد الله الشيخ، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993، ص30.

3- هو السلطان محمد الفاتح المولود عام 1429م، وهو السلطان السابع في سلسلة آل عثمان، كما لقب بالفاتح وأبي الخيرات تعظيما لشأنه وإقرارا لجهوده في مد نفوذ الدولة العثمانية وفتح التاريخي لمدينة القسطنطينية. تولى الحكم عام 1451م وعمره 22 سنة، أقدم على إصلاحات داخلية متنوعة وعكف على تحديث الجيش خاصة ما تعلق بالمدفعية التي كانت السلاح البارز في فتح القسطنطينية. كما بنى القلعة التاريخية روملي حصار على الجانب الأوربي من البوسفور، توفي عام 1459م. للمزيد ينظر: محمد علي الصلابي، السلطان محمد الفاتح، مصر: دار التوزيع الإسلامية، ط01، 2006.

4- عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصر-لبنان: دار الشروق، ط02، 1986، ص70.

5- أحمد سالم، مرجع سابق، ص116.

الفصل الأول

أوجه الصراع الإسلامي النصراني في الحوض الغربي للبحر
المتوسط خلال القرن 10هـ/16م

على امتداد التاريخ اتخذت الحرب والصدامات الإسلامية النصرانية أكثر من وجه واحد، ما جعل التنافس يستمر من حقبة إلى أخرى، وتتسع ساحته إلى أكثر من مجال. ومع نهاية الفترة الوسيطة وبداية الفترة الحديثة بقي الصراع ثابتاً وتغيرت فيه -نسبياً- الامتدادات وتشكيلات كل طرف؛ أي المكان والأدوار، النطاق المتوسطي الزاخر بما طرأ فيه من تبدلات واختلالات، والنسيجين البشريين الإسلامي في الضفة الجنوبية والمسيحي في الضفة الشمالية.

ولعل ما يبرهن طول نفس هذا العراك هو تلك المآرب المتوخاة منه، إذ كيف لنا أن نقرأ تحرك الأساطيل العثمانية من عاصمة الدولة إلى سواحل المتوسط وجزره وإلى دواخل القارة الأوربية، في مقابل ما رصدته الملكيات الإسبانية والفرنسية -خاصة- في المجابهة بينها، ولدفع العثمانيين كخطر يبعثر جهودها ويقاسمها السيادة على شعوب وخيرات المتوسط.

طبيعة الصراع وأطرافه:

من الطبيعي أن يكون الصراع الحاصل حلقة غير منفردة ولا معزولة عن سلسلة المشهد العدائي القديم بين الإسلام والنصرانية. وتتكشف لنا نمطية هذا الصراع بالرجوع قليلاً إلى الوراء، حيث وقائع الحروب التي طال أمدها في الفترة الوسيطة، مبرزة الخلفية الحضارية للصراع الذي كلما تقدم به التاريخ استمد ذاته من تراكمات المناسبات الماضية، ليؤكد أكثر على مقصد رد الآخر إلى الوراء والتقدم على حسابه، والاشتغال بجميع الوسائل وتوظيف مختلف الاعتبارات ضمن مشاهد تجعلنا نستفهم الصفة التي تقوم عليها هذه الحرب؛ أي حرب كلاسيكية همها الاستحواذ على الأرض وتوسيع الامتداد المادي فقط؟ أم هي حرب بنكهة الثورة التي تُصدّر اللون الحضاري للغالب من نظامه السياسي إلى دينه ولغته، دونما تحلل من فرض الغلبة والتبعية على الآخر؟

وأما طرفا الصراع فهما الدولة العثمانية كقوة إسلامية بمؤشرات ديانتها الرسمية وامتدادها الجغرافي والسياسي في القارات الثلاث (آسيا، إفريقيا وأوروبا)، وصبغة انتصاراتها، والمآكيات الأوروبية نتاج العصور الحديثة والتي تنزعها أسرة آل هابسبورغ المهيمنة ووريثة مكانة الإمبراطورية الرومانية السياسية والدينية.

وقد سلك هذا الصراع أبعادا عالمية منذ استقرار العثمانيين بالجزائر، وتمحور في إطار النزاع بين القوتين العالميتين المتصارعتين للفوز بالسيادة على البحر الأبيض المتوسط، هذا الميدان الصدامي بين القوة الإسلامية والقوة المسيحية¹.

المبحث الأول: الوجه الديني للصراع الإسلامي المسيحي في الحوض الغربي للمتوسط خلال القرن 10هـ/16م:

يعبر بروديل عن ثنائية البحر المتوسط وهو يذكر بأنه عبر تاريخ الفضاء المتوسطي هناك وجه بارز ضمن الحوادث والتقلبات التي شهدتها، ألا وهو وجود مكونين حضاريين متعارضين هما الإسلام والمسيحية، خصمان متنافسان حد التضاد فالإسلام اقتضى الجهاد وعاشه والمسيحية ابتكرت الصليبية وعاشتها هي الأخرى².

ولم تكن العصور الوسطى آخر عهد الحروب الصليبية التي اتخذت منها المسيحية أهم موضوع لها في علاقاتها الحضارية العدائية مع المسلمين، كما لم يقف هؤلاء بدورهم مكتوفي الأيدي قبالة سيل اليقظة الأوروبية، التي بدأت في هيئة حملات هوجاء تجتاح المسلمين في الأندلس، وتندفع أينما يكون الإسلام أمام طريق توسعها عائقا.

1- ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ "العهد العثماني"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص44.

2- فرناند بروديل، تاريخ المتوسط الفضاء والتاريخ، تعريب محمد بولعيش، مجلة بيت الحكمة، العدد 05، 1987، ص 87-88.

وقد كانت أوروبا الغربية من إيطاليا إلى إيبيريا تشهد تحولات حفزتها إلى تجسيد معالم حدثاتها على حساب الأمم والشعوب الأخرى، حيث المسلمون وبلادهم أهم وأولى أهداف السياسات والأطماع المنبثقة عن تلك التحولات. وتلبّست هذه الرغبة الأوروبية الغامرة بثوب الحركة الصليبية التوسعية والاستعمارية، يمدّها بإرادة الحرب وأدواتها؛ الحقد على الإسلام كمكون حضاري يشتمل على مختلف المعالم.

الوضع الديني العام بين الجبهتين والمناسبات القريبة للصراع:

بعد استيلاء النصارى الإسبان على معظم مدن المسلمين في بلاد الأندلس ك: قرطبة ومرسية، طليطلة، وبلنسية وغيرها، أتى الدور كذلك على مدينة سبتة إحدى مراكز بلاد المغرب¹. وكما يقول المؤرخ جاك هيرس²: "لقد بدأ كل شيء لما وضع البرتغاليون أقدامهم بمدينة سبتة عام 1415م، إذ انطلقوا فيما بعد لتأسيس سلسلة من المراكز التجارية"³، وبناءً على هذا ربما يمكن اعتماد سقوط سبتة بداية للتحولات والمخاطر على المسلمين وبلادهم في الخوض الغربي من المتوسط، ذلك ان احتلال هذه المدينة سيكون ما بعده تحركا مسيحيا صريحا للنيل من المراكز الإسلامية المتوزعة على ساحل الضفة الجنوبية من جبل طارق إلى طرابلس.

ثم إنّ الصراع بين الإسلام والمسيحية في غرب البحر الأبيض المتوسط غلبت عليه الروح الدينية، وكانت وجهه الأبرز أكثر مما كان عليه الحال في جهة الشرق، ذلك أن هدوء

1- المقري، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق مصطفى السقي وآخرون، ج01، القاهرة، مصر: المعهد الخلفي للأبحاث المغربية، 1939، ص ص45-46.

2- مؤرخ فرنسي درّس بجامعة باريس (1924-2013م)، متخصص في تاريخ العصور الوسطى، ومن بين مؤلفاته "كتاب تاريخ الحروب الصليبية، كتاب ميلاد الرأسمالية في العصور الوسطى، الإسلام الغريب وهو مترجم لعدة لغات".

3- حبيدة، مرجع سابق، ص126.

الروح الصليبية في الشرق أعقبه اجتماع جميع القوى لتتخذ من غرب المتوسط ميدان صراع التمسست فيه كل السبل لتحقيق الغلبة¹.

ومنذ أواسط القرن 15م لاح النزاع الديني بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي إلى الظهور من جديد، وأخذ يتفاقم بدعوى المناسبات التي تطلبه، حيث اهتز العالم الكاثوليكي لسقوط القسطنطينية في يد المسلمين سنة 1453م، وظلت الصليبية الغربية على ما كانت عليه من قبل؛ العدو الرئيسي للإسلام².

وكان لسقوط القسطنطينية النهائي في يد المسلمين وقعه المرير وألمه الشديد على أوروبا المسيحية في جميع امتداداتها³، حيث تأسست في العاصمة البيزنطية قوة جديدة، وبسقوط هذه المدينة وهي معلم المسيحية في جنوب شرقي أوروبا؛ كتب أحد القساوسة معبرا عن واقعها الجديد بقوله: "إمبراطورية الأتراك المجيدة وإرهاب العالم المسيحي"⁴، إذ حصل من خلالها التحام القارتين في يد السلطان العثماني محمد الفاتح⁵، وغدت إمارة للجهاد⁶.

1- حسين مؤنس، مرجع سابق، ص 290.

2- نيقولاى إيفانوف، مرجع سابق، ص 31.

3- عزيز سوريال عطية، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، القاهرة، مصر: منشورات دار الثقافة، دار الجيل للطباعة، ط 02، 1990، ص 104.

4- برنارد لويس، إستنبول وحضارة الخلافة الإسلامية، ترجمة رضوان سيّد، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط 2، 1982، ص 26.

5- هو السلطان محمد الثاني المولود عام 1429م، وهو السلطان السابع في سلسلة آل عثمان. كما يقب بالفاتح وأبي الخيرات تعظيما لشأنه وإقرارا لجهوده في مد نفوذ الدولة العثمانية وفتح التاريخي لمدينة القسطنطينية. تولى الحكم عام 1451م وعمره 22 سنة، أقدم على إصلاحات داخلية متنوعة وعكف على تحديث الجيش خاصة ما تعلق بالمدفعية التي كانت السلاح البارز في فتح القسطنطينية. كما بنى القلعة التاريخية روملي حصار على الجانب الأوربي من البوسفور، توفي عام 1459م. للمزيد ينظر: محمد علي الصلابي، السلطان محمد الفاتح، مصر: دار التوزيع الإسلامية، ط 01، 2006.

6- برنارد لويس، المرجع نفسه، ص 49.

ويضاف إلى ذلك تعليق البابا بيوس الثاني¹ على هذا الحدث سنة 1458م، بأن خسارة النصارى للقسطنطينية قد جعلت من الأتراك المسلمين ألد الأعداء. وبرغم الوضع الصعب الذي حتمه هذا النصر على المسيحيين، لم ييأس رجال البابوية من الخوض في حماية المكاسب الروحية والمعنوية لأمتهم، وهذا البابا نفسه يكتب للسلطان العثماني عام 1460م قائلاً: "إذا كان سلطان الأتراك يريد أن يصبح أعظم رجل وأكثر شهرة في زمنه، فإن سأل كيف يمكن هذا؟ فالأمر ليس صعباً، ولم تسأل شيئاً بعيداً، إنه في العالم كله قليل من الماء يمكن تعميده به، وأن تؤمن بالكتاب المقدس. افعل هذا ولن يكون هناك أمير في الدنيا يتفوق عليك في المجد أو يساويك في القوة، سوف ندعوك إمبراطور الإغريق والشرق، وأن الأرض التي تحتلها الآن بالقوة ستصبح ملكاً حقاً لك، وسيقدمك كل النصارى ويتخذونك قاضياً، وأنه من المستحيل أن تنجح ما دمت تتبع القانون الإسلامي"². كما ادعى بيوس أنه الإمبراطور المنتظر في الأمة المسيحية، أخذ الصليب ودعا كافة أمراء وملوك أوروبا إلى المشاركة في حرب صليبية عالمية لاسترداد بيزنطة، والتوجه ثانية للاستيلاء على الأرض المقدسة³.

وفيما يخص سقوط غرناطة في يد النصارى فإنه حدث ابتهجت له الأمة النصرانية واعتبرته عوضاً لها عن خسارة القسطنطينية التي فتحها المسلمون، وفي شأن المناسبة أقيم

1- واسمه "إينيا سيلفيو بيكولومينو" أصبح بابا الكنيسة الكاثوليكية سنة 1458م تحت اسم البابا بيوس الثاني، كما دعى على حرب صليبية تتكاتف فيها قوى المسيحية ضد العثمانيين في سنة وفاته 1461م، كما عرف برسالته للسلطان محمد الفاتح وهي محاولة لإقناعه باتخاذ المسيحية سبيلاً لفتوحاته حتى تبقى الكنيسة صانعة السياسة العالمية والمتحكم في زمامها. للمزيد ينظر:

- Paul Gaillardon et Tristan Vigliano, Pie II Lettre au Sultan Mahomet II et autres textes, Les Mondes Humanistes (GRAC), 2010, pp01-137.

2- آصف حسين، صراع الغرب مع الإسلام، ترجمة مازن مطبقاني، الجزائر: عالم الأفكار للطباعة والنشر، ط01، 2013، ص33.

3- سوريال عطية، مرجع سابق، ص104.

في روما قداس أعظم، وفي جهات أوروبا المختلفة نظمت حفلات دينية وأفراح، مشيدة بدور الملكين الكاثوليكين في خدمة المسيحية¹.

لكن على المسلمين كانت صدمة بالغة وساءت أحوال الناس حتى أحاط بهم الجوع وألمت الخصاصة، لأنهم لم يجدوا نصرة على ذلك القهر، فالملوك الكاثوليك سرعان ما تنكروا للعود التي قطعوها لآخر أمراء غرناطة. ولأن بلاد المغرب كانت تعيش حالاً ليس إلا أقل سوءاً، لم تستطع فعل شيئاً كثير لإخوان الدين، وهذا صاحب نبذة العصر يحدثنا عن شكوى مسلمي غرناطة لأميرهم -آخر أيام المملكة- وهم يقولون له: "إن إخواننا المسلمون من أهل عدوة المغرب بعثنا إليهم فلم يأتنا أحد منهم، ولا عرج على نُصرتنا وإغاثتنا، وعدونا قد بنى علينا وسكن، وهو يزداد قوة ونحن نزداد ضعفاً، والمدد يأتيه من بلاده ونحن لا مدد لنا"².

وعن وثبة المسلمين في الفترة الحديثة فإنها ستقترن بتزعم العثمانيين زمام الدولة الإسلامية ووضع حد للدولة البيزنطية، ثم السيطرة على ممتلكاتها في بلاد البلقان. وخلال هذه الفترة تحققت سيادة المسلمين على البحر الأبيض المتوسط، ومن ملامح ذلك قيام أساطيل بلاد المغرب على حوضه الغربي وأساطيل الدولة العثمانية على جزئه الشرقي³.

المشاكل الدينية داخل الجبهة الواحدة:

قامت في أوروبا أزمات دينية عصبية كانت وراء الثورة على الكنيسة أو ما عرف بالإصلاح الديني، فالاضطرابات الحاصلة في روما دفعت إلى تحويل مركز البابوية إلى

1- محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الرابع "نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين"، مصر: مطابع الخانجي، ط04، 1997، ص271.

2- مجهول، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر "تسليم غرناطة ونزوح الأندلسيين إلى المغرب"، ضبط وتعليق ألفريد البستاني، مصر: منشورات مكتبة الثقافة الدينية، ط01، 2002، ص40.

3- حسين مؤنس، مرجع سابق، ص16.

خارج مكانها المعهود في إيطاليا، حيث انتقل البابا إلى فرنسا متخذاً من مدينة أفينيون مركزاً لإقامته¹. وعلى إثر هذا الأمر اهتزت هيبة البابوية وبقي مقرها في فرنسا طيلة اثنتين وسبعين سنة تحت سيطرة الملكية هناك، وعرفت هذه المرحلة بفترة الأسر البابوي².

ومع متغيرات بداية الفترة الحديثة التي استمدت فيها أوروبا معالم وأسس حداثتها وروحها السياسية والاجتماعية والحضارية العامة، أصبح الإصلاح الديني أهم المتغيرات التي تهدد مؤسستي الكنيسة والإمبراطورية المقدسة وتؤكد أن البقاء واستمرارية كل واحدة منهما مقرون بمدى الصمود في وجه هذه المستجدات والتكيف معها³.

عمّ فساد الإكليروس ومالوا إلى التسكع والتركيّز على مصالحهم المادية كما شغلت السياسة تفكيرهم وجنح الباباوات إلى بيع المراكز والوظائف الدينية لمن يقدم المال أكثر أو لمن يتنازل لهم عن جزء من امتيازاته وثرواته لذلك كان فشاء فتور الدين ونشور الأخلاق من أسباب الإصلاح الديني⁴، فالشعور بالتناقض بسبب واقع الكنيسة وتجمع الثروة بين أيديها مقارنة بحياة البساطة التي تميزت بها المسيحية الأولى، دفع المفكرين والمهتمين إلى البحث في لإصلاح هذه العيوب⁵.

وبدأت أزمة الكنيسة على مستوى قيادتها في رأس الهرم، ففي نهاية القرن 15م أصاب هذه المؤسسة تفككا كبيرا، حيث انقسمت الكنيسة الغربية إلى سلطتين بابويتين، وأصبح هناك بابا ثانٍ في مدينة أفينيون الفرنسية؛ إضافة على بابا مدينة روما الإيطالية. ودام الحال على ذلك ما بين 1378-1417م، حيث عجزت البابوية عن وضع حد لهذا الانشطار، حتى عقد

1- ليلي الصباغ، مرجع السابق، ص 19.

2- دائرة سفير للمعارف الإسلامية، موسوعة حرف الألف، ج 18، مصر، د.ت، ص ص 80-82.

3- محمد صالح، مرجع السابق، ص 14.

4- موسنييه، مرجع سابق، ص ص 71-72.

5- ميلاد المقرحي، مرجع سابق، ص 24.

المجمع الديني مجلسا له في مدينة كونستونس بألمانيا سنة 1417م، خرج منه بقرار الاعتراف ب: بابا واحد للكنيسة وهو مارتن الخامس¹.

ومع مطلع القرن 16م انفجرت حركة الإصلاح الديني كثورة سياسية واجتماعية ودينية أربكت الواقع العام في أوروبا، ولم تكن بالحدث الطارئ إذا ما وُضعت في سياق التغيرات الحاصلة في الضفة الشمالية حيث أوروبا المسيحية. وهذه الحركة حدث هام في التاريخ الأوروبي نظرا إلى تأثيرها الذي لم ينحصر في الجانب الديني، إنما تعداه إلى السياسي، حيث كان جوهرها يقوم على محاولة التمرد والمجاهرة بالرفض لمنظومة الكنيسة الكاثوليكية الفاسدة، والمتحكمة في جميع الدوايب المكوّنة للمجتمع الأوربي المسيحي².

استفادت هذه الحركة من التطورات الظرفية الداخلية والإقليمية الحاصلة بغية التخلص من القيود المفروضة³، فأطلقت مشروعها الإصلاحية الذي ينتقد سلبيات الكنيسة ويُنكر على رجال الدين تصرفاتهم السلبية وضلوعهم في مهام لا صلة لها بهم⁴. ونشير إلى أن ملوك أوروبا وتحديدًا الجنوبية الغربية رفضوا هذه الحركة وأي مبادرة إصلاحية أخرى خارج إرادتهم، بل كانوا ينظرون إليها كحراك تمردية من شأنه تهديد إمكانياتهم وتشتيت جهودهم، على حساب مطامحهم ذات الأهداف البعيدة في خدمة المسيحية وإنجاز مشروع بناء الإمبراطورية المقدسة التي تجعل الصليب شعارا لها.

أما بالنسبة للعثمانيين فإن الصدام مع المماليك في مصر وبلاد الشام كان جولة إسلامية-إسلامية، ولا تفوتنا الإشارة هنا بالقول إن القوى القائمة في العالم الإسلامي

1- حبيدة، مرجع سابق، ص104.

2- مفيد الزيدي، موسوعة تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، ج 1، الأردن: دار أسامة للنشر والتوزيع، ط3، 2009، ص418.

3- كل القيود التي ترتبط بالعصور الوسطى وملاحها حيث هيمنة الإكليروس والملكية المطلقة والإقطاع، على مناحي الحياة السياسية، الدينية، الاجتماعية والاقتصادية.

4- الزيدي، المرجع نفسه، ص ص418-419.

استطاعت بصورة نسبية ألاّ تتخذ من الاعتبارات السياسية شغلها الشاغل، وكثيرا ما وُفقت في وضع العداوات على جنب؛ إذا ما كانت الحاجة إلى ذلك ملحة. ففي مستهل القرن 16م وقبله دعم السلطانان العثمانيان بايزيد¹ وخليفته سليم² المماليك في تصديهم للبرتغاليين، إضافة إلى مد ساعد العون للأندلسيين حينما استجدوهم على حيف محاكم التفتيش. وكله تجاوب في إطار ضرورات التضامن الإسلامي بصرف النظر عن الحسابات الأخرى³، حيث ساعد الباب العالي السلطان المملوكي قونصوه الغوري في تكوين أسطول يرد الخطر البرتغالي حماية للمسلمين في جهة البحر الأحمر⁴.

كما يمثل الصراع العدائي العثماني الصفوي - هو الآخر - محورا من محاور التاريخ الإسلامي خلال العصر الحديث، له أثره البالغ على واقع الطرفين؛ وعلى العالم الإسلامي أجمع⁵، كما يُعدّ ظهور الصفويين الشيعة في بلاد فارس -كقوة جديدة- أحد التحولين الحاصلين والمتعلق أثرهما بالدولة العثمانية مطلع القرن 16م.

1- بايزيد الثاني: السلطان الثامن في ترتيب سلاطين الدولة العثمانية ولد سنة 1447م واعتلى عرش السلطنة سنة 1481م وعمره 35 سنة، مع بداية حكمه واجه اخوه جم الذي أراد منازعته السلطة حيث استنصر هذا الأخير على امره بأطراف خارج الدولة العثمانية، شهدت عهده الزحف على الحدود الأوروبية حيث غزا بولونيا وعاد منها بكثير من الأسرى، كما ضرب في أيامه زلزال مدمر عاصمة الدولة "القسطنطينية"، انتهت ولايته سنة 1512م حيث سلم لابنه سليم الأول الحكم. ينظر: عزتلو يوسف بك آصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان، مصر: مطابع مدبولي، ط 1، 1995، ص 61. ص 55-57.

2- سليم الأول هو تاسع سلاطين الإمبراطورية العثمانية، اسمه ياوز سليم الأول ولد عام 1467م وتقلد الحكم عام 1512م، استطاع إخماد تمردات إخوته لأجل الاستيلاء على الحكم، ونجح في توسيع رقعة الدولة في الشام ومصر بإخضاع المماليك، فكان أول من لقب بالخليفة وأمير المؤمنين. في عهده حكمه اتسع نطاق الدولة ووصل إلى جهة المتوسط الغربي بعد فتح مصر، وتوفي سنة 1520. ينظر: أحمد بن يوسف القرمانلي، أخبار الدول وآثار الأول "تاريخ القرمانلي"، مراجعة أمين السيد، ج 02، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ص 212.

3- هنري لورنس وآخرون، أوروبا والعالم الإسلامي تاريخ بلا أساطير، ترجمة بشير السباعي، مصر: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ط 1، 2016، ص 161.

4- جان كلود غارسان، مصر في العالم الإسلامي من القرن 12 إلى القرن 16م "تاريخ إفريقيا العام"، مرجع سابق، ص 397.

5- حسين مؤنس، مرجع سابق، ص 21.

وبينما كان العثمانيون يرفعون لواء الجهاد في وجهة الجبهة الأوروبية المسيحية، ظهر خطر إسلامي تطلب مواجهة محتومة، فبروز الصفوية كدولة منافسة في الشرق، اضطر العثمانيين إلى الخروج ناحية المشرق العربي لحماية آسيا الصغرى والعالم السني تحديداً من هذا الخطر¹. وظهرت الصفوية في بلاد فارس وهي تتشد نشر المذهب الشيعي والسيطرة على العالم الإسلامي²، كما أشاع الشاه إسماعيل الصفوي³ في الأناضول ولدى بعض الحكومات الأوروبية إرادته في القضاء على العثمانيين⁴.

وانفجار هذه الثورة أو الحركة الشيعية في شرق الأناضول سنة 1514م يشبه ما حصل في أوروبا سنة 1517م حيث حركة مارتن لوثر الدينية في ألمانيا وشمال غرب أوروبا⁵. حيث سيواجه كل من العثمانيين والهابسبورغ خطراً دينياً داخلياً له تبعاته على المنحى السياسي لكل قوة منهما.

البعد الإسلامي لتحركات العثمانيين:

من المعلوم أن البرتغال هم أول من تزعم الحروب الصليبية مع بداية الفترة الحديثة، استجابة لنداء البابوية وانطلاقاً من وضع يدها على سبتة، ثم هذا حذوهم الأسبان⁶. وبادئ ما أهتم له القائد ألبوكرك هو التوجه لاحتلال وتخريب مقدسات المسلمين، فالبرتغاليون كانوا

1- الناصر رئيسي، مرجع سابق، ص37.

2- عبد الوهاب عطية، الصراع العثماني الصفوي ونتائجه السياسية والعسكرية، مصر: جامعة الأزهر، مجلة كلية اللغة العربية بأسبوط، العدد13، 1993، ص255.

3- إسماعيل بن حيدر بن جنيد الصفوي(1487-1523م) مؤسس الأسرة والدولة الصفوية بإيران، اتخذ الشيعة الإثني عشرية مذهباً للدولة، واستولى على فارس وأجزاء من العراق وبلاد خراسان، كما نافس الدولة العثمانية في آسيا وانهمز أمام قوات السلطان سليم في معركة جالديران سنة 1514م، وخسر على إثرها عاصمة الدولة تبريز، مما أوقف توسع و منافسة الدولة العثمانية. ينظر: موسوعة الأعلام العرب والمسلمين والعالميين، ج01، لبنان: دار الكتب العلمية بيروت-باريس، 2009، ص140.

4- يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان موسى سليمان، م01، تركيا: ط01، 1988، ص ص203-204.

5- بول كولز، العثمانيون في أوروبا، ترجمة عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1993، ص62.

6- إيفانوف، مرجع سابق، ص ص32-33.

ينشدون السيطرة على المراكز الروحية للعالم الإسلامي وذلك ما طرح الحاجة في عجالة وإلحاح إلى من يحمي العالم الإسلامي، ويؤمنه من شرور الحركات التوسعية القادمة من أوروبا الغربية والموشك تهديدها في جموح.

ونتيجة لخطر هذا العدوان الجدي والجريء مع ضعف السلطة المملوكية وفقدانها القدرة على النديّة، توسم العثمانيون أنهم يمتلكون الاستعدادات والمقدّرات والخلفيات المؤهلة للعب هذا الدور. واندفعوا بسرعة إلى الدخول في حسم الفراغ الحاصل، مستشعرين الخطر ومتدخلين بكل حزم في موقف فتور أو شبه انعدام مركز يُعنى بقيادة العالم الإسلامي.

كما تنطلق جذور النظريات العثمانية عن الدولة والسلطة الحاكمة من النصوص الدستورية المستقاة من الشريعة الإسلامية، وبدايات الدولة كانت في شكل إمارة ثغور وغزاة قامت على مبدأ الجهاد الإسلامي ضد الكفار¹. وتبعاً لموجة الإخضاع الواسعة التي خاضها السلاطين المتتابعين وبالأخص مع بداية 16م، توسعت سلطة الدولة لتستوعب مناطق مقدسة في الجزيرة العربية² وعواصم الخلفاء العظام السابقين دمشق، بغداد والقاهرة³، وهكذا تمكن لها حق ومسؤولية الخلافة وما تستلزمه من أدوار.

ثم إن إضافة تلك الأراضي العربية وخاصة مكة المكرمة والمدينة المنورة إلى الإمبراطورية العثمانية يمثل بداية عهد جديد، إذ لم تعد الإمبراطورية دولة حدودية فحسب بل خلافة إسلامية. واعتبر السلاطين العثمانيون أنفسهم بعدها حماة ليس فقط للحدود ولكن

1- برنارد لويس، مرجع سابق، ص 59-60.

2- إضافة إلى لقب الخلافة الإسلامية، استلم العثمانيون من خلال السلطان سليم الأول مفتاح الكعبة الشريفة في أوت 1517م من يد ابن شيخ مكة آنذاك، ينظر: كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510-1541م، ترجمة جمال حمادنة، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2007، ص 20.

3- برنارد لويس، المرجع نفسه، ص 69.

للعالم الإسلامي بأسره. وقد اتضحت المزايا السياسية لهذا المفهوم للدولة بداية عهد خليفة سليم¹.

وتشير وصية الأمير عثمان قبل موته لخلفه أورخان - وهي واحدة من وصايا الأب المؤسس لابن الخليفة- إلى الصبغة الإسلامية البحتة التي أريد للدولة أن تقوم عليها حيث جاء فيها قوله: "عليك يا بني بالالتزام بالشرع الشريف والتشاور مع أربابه في كل ما أنت مقدم عليه، و عليك بإكرام الناس وتقديرهم حق قدرهم وتوقير العلماء منهم، فخير الناس أنفعهم للناس. و عليك بتعظيم أمر الله والرحمة بخلقه والجهاد في سبيله وإعلاء كلمته"².

وهناك رؤية جيدة يقدمها بول كولز وهو يقارن بين مركز السلطان العثماني ومركز الإمبراطور الهابسبورغي في القرن 16م، فالأول نذر نفسه للغزو وفقا لأساس الدولة ومسؤوليات الخلافة الإسلامية، فأغلب السنة يكون في حالة خروج على رأس أسطوله للفتوحات وتوسيع رقعة الدولة التي تنتشر الإسلام وتفسح امتداده. والثاني ركز على دوره كرجل دولة وقائد لشؤونها في الشق الرسمي، بحيث كانت تنقلاته ضمن الإمبراطورية من باب تقعد أمورها وآداء المهام الرئاسية³.

ثم أن هناك أساس هام قامت عليه الدولة الإسلامية؛ وهو أن لها كيان إسلامي سياسي داخل الكيان الديني، بحيث كان الكيان السياسي الإسلامي حصنا ووقاية يحفظان قوامها السياسي في جميع الظروف ومختلف الأدوار والمخاطر⁴.

1 - Halil Inalcik, The Ottoman Empire, The Classical Age, 1300-1600, Second Edition, By Phonix, 2000, p 46.

2- عبد اللطيف هريدي، الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوروبا، القاهرة: دار اللصوة للنشر والتوزيع، ط1، 1987، ص18.

3- بول كولز، مرجع سابق، ص40.

4- حسين مؤنس، مرجع سابق، ص09.

وإذا كان سليم الأول وخليفته سليمان¹ ينكبّان على قيادة حملات الدولة العسكرية؛
فذلك من منظورة ضرورة وجودهما لنجاح المهمة، والأمر يدل كذلك على إرادة الفتح
المستتدة زيادة على المبرر التقني والعسكري؛ على هاجس ديني².

التواجد العثماني في حوض المتوسط الغربي:

أما بالنسبة لتواجد العثمانيين في غرب البحر المتوسط فإنه يندرج ضمن نطاق تكوين
الخلافة الإسلامية، التي آلت إلى سلاطينها منذ تنازل آخر خليفة عباسي عن هذا اللقب
لصالح سليم الأول إثر فتحه مصر³. وقبل ذلك حيث اشتد الحال على غرناطة وتهاوى ملك
المسلمين في شبه جزيرة إيبيريا، تكاثر وطأ الصليبيين عليهم وأخذت المظالم والانتهاكات في
تزايد، فراسل أهلها الدولة العثمانية⁴ يستتصرونها ويستثيرون السلطان بايزيد الثاني وقتها،
إلى مساعدتهم في الخلاص من الوضع الذي لا يطاق. كما أرسل نداء الاستغاثة إلى
عاصمة الدولة العثمانية اسطنبول، وهو في قالب رسالة مؤثرة حملها كاتبها أحوالا وتفاصيل
مؤثرة عن الواقع المرّ الذي يريد أن يوصل خبره إلى السلطان⁵.

1- هو السلطان سليمان الأول الملقب بالقانوني والعظيم؛ وكذلك بلقب والده وجده سلطان البرين والبحرين، ولد في مدينة
طرابزون عام 1494م حيث كان والده واليا عليها. دام حكمه ما بين 1520-1566م، ركز على إعطاء الدولة العثمانية
بعدا وحضورا عالميا، حيث اهتم لتوسيع نفوذها في أوروبا والبحر المتوسط، مستهلا عهده السلطانية بفتح بلغراد عام
1521م، وتبعته معارك حاسمة في استراتيجية الدولة وهي رودس وموهاكس ووصل حتى فينا. كما عرف بالتوجه
الدبلوماسي إثر علاقاته مع الملك الفرنسي إثر المعاهدة الشهيرة سنة 1535م، وكنا ندا للعصبة المسيحية في كذا مناسبة
حربية حاسمة مثل معركة بروزة 1538م، وحصار جربة 1560 ثم مالطا 1565م، وكانت فترة حكمه عصرا ذهبيا في
مسيرة الدولة إلى أن توفي سنة 1566م. ينظر: صالح كولن، سلاطين الدولة العثمانية، ترجمة منى جمال الدين، القاهرة،
مصر: دار النيل للطباعة والنشر، ط01، 2014، ص ص102-117.

2- مانتران، مرجع سابق، ص235.

3- محمد حجي، العلاقات المغربية التركية في القرن16م، المغرب: وزارة الشؤون الثقافية، مجلة المناهل، العدد25،
ديسمبر 1982، ص08.

4- جمال يحيوي، سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين، الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر، 2012، ص ص114-115.

5- محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ص ص346-348.

وصلت سفارة أندلسية إلى الباب العالي تتشد من بايزيد الدعم، وكان رد الديوان الهيمايوني¹ أن أرسل سنة 1487م أسطولاً ناحية غرب المتوسط، وهي المرة الأولى التي يصل فيها العثمانيون تلك الجهات، إذ عرفت هذه المناسبة بحملة كمال ريس² الأولى³. إلا أن المشاكل التي كانت تعيشها الدولة العثمانية على الصعيدين الداخلي والخارجي آنذاك، لم تمكن إلى تدخل من شأنه تخليص الأندلس من المصير الذي آلت إليه سنة 1492م⁴.

أصبح يُفهم من انتصار العثمانيين المسلمين في القسطنطينية، إمكانية وملكية هؤلاء قدرة ومقومات السيطرة على أجزاء العالم القديم، والتوسع فيه من منطلق وراثة عوالم هيمنة الإمبراطوريات التي انتصروا عليها "السلجوقية والبيزنطية"⁵. ومنذ سنوات انقلاب الموازين وتردي أمر المسلمين في الأندلس، وخشية منها على مستقبل المسيحية في ظل الزحف

1- هو مجلس يمثل أعلى سلطة في نظام الدولة العثمانية، وهو سلطة تنفيذية على شاكلة مجلس الحكومة أو مجلس الوزراء، حيث يترأسه الصدر الأعظم. ظهر في عهد السلطان أورخان الغازي، محاكاة للديوان في عهد الخلافة الإسلامية أيام عمر رضي الله عنه، وفي زمن محمد الفاتح أشرف عليه مباشرة وطوّر تشكيلته وأدائه، فأصبح يتشكل من سبعة وزراء منهم قبطان البحر وبارليباي الروملي وأغا الإنكشارية، كما تعتبر دفاتر المهمة خلال القرن 16م من أهم السجلات التي دونها الديوان وتضمنت أهم مهامه الموكلة والقضايا ذات الاهتمام بهذه المؤسسة الإدارية. كما اختلف السلاطين عبر تاريخ الدولة العثمانية في الإشراف على الديوان، فمنهم من كان يشارك جلساته حضورياً ومنهم من كان يشرف عليه من خلال مقصورة يتابع منها سير الأعمال والنقاشات. للمزيد، ينظر: إحسان أوغلي وآخرون، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة صالح سعداوي، ج01، اسطنبول، تركيا: منشورات إرسिका، 1999، صص 170-180.

2- أحمد كمال الدين بن علي، من أشهر قادة البحرية العثمانية والإسلامية، ولد في جزيرة غاليبولي إلا أن المؤرخين اختلفوا في تاريخ ولادته ورجحوا أنها كانت بين 1440 و1451م. وهو خال بييري ريس البحار المعروف بكتابه "البحرية"، وصاحب أقدم خريطة العالم الجديد. انتسب كمال ريس إلى العمل لصالح الدولة العثمانية في عهدي السلطان محمد الفاتح ثم ابنه بايزيد الثاني، ووجه حملات بحرية نحو جهة المتوسط لفائدة الأندلسيين، ومنها حملة 1486 و1497م. كما استهدف نشاطه مراكز بحرية متعددة من السواحل المسيحية كمالطا وصقلية وكورسيكا، واتصل كذلك بسواحل بلاد المغرب كجزيرة وبجاية، توفي سنة 1511م. للمزيد، ينظر: نسيبة علاوي، النشاط البحري لكamal ريس 1451-1511م، العراق: جامعة الموصل، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، مج14، العدد01، 2017، صص 399-415. و: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، صص 195-197.

3- المرجع نفسه، ص194.

4- أحمد محمد عطيات، الأندلس من السقوط إلى محاكم التفتيش، عمان، الأردن: أمواج للطباعة والنشر، ط01، 2012، صص 123-124.

5- أحمد سالم، مرجع سابق، ص65.

الإسلامي العثماني على أوروبا من جهة الشرق، أوعزت البابوية إلى الإسبان والبرتغال؛ التنكيل بالمسلمين في جهة الغرب -إيبيريا وشمال إفريقيا- وملاحقتهم والمناولة في إدخالهم إلى الكاثوليكية، بوصفهم أعداء المسيح¹.

استُهل التواجد العثماني في البحر المتوسط بحريا، إثر محاولات فردية غير رسمية ولا حكومية، وتتمثل -بصورة أوضح- في نشاط الإخوة بربروس²، وذلك نتيجة لانشغال الدولة بمحاربة خصومها الفرس في جهة المشرق³. كما ظهرت أغراض هذا التواجد تجارية⁴ وجهادية معا، بحيث تؤكد رواية بابا عروج⁵ على ذلك عندما يصف أسباب وظروف وصوله ومن معه إلى تونس، فيقول: "وأتينا تونس فدخلنا على السلطان وقدمنا له الهدايا، ثم قلنا له: نريد أن تتفضل علينا بمكان نحمي فيه سفننا بينما نقوم بالجهاد في سبيل الله، وسوف نبيع غنائمنا في أسواق تونس فيستفيد المسلمون من ذلك وتنتعش التجارة، كما ندفع لخزينة الدولة ثمن ما نحوزه من الغنائم"⁶.

1- تمام همام، الصراع الغسباني الجزائري في غرب المتوسط خلال القرن 16م، البحرين: جامعة البحرين، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 01، 1998، ص 63.

2- هم الإخوة بربروسا، البحارة الذين ذاع صيتهم في المتوسط الغربي مع نهاية القرن 15م. والدهم يدعى يعقوب آغا بن عبد الله آغا، والدهم وجدهم من ضباط الفروسية، وفدوا من بالكيسير جنوب بحر مرمره. أخذوا أراض من الدولة لإصلاحها في شبه جزيرة غاليبولي أي الجزء الأوربي من تركيا (تراقيا الغربية). ونتيجة مشاركة والدهم يعقوب في فتح جزيرة ميديلي سنة 1462م، أعطي له فيها أراض أوسع؛ فتزوج من إحدى بنات ميديلي اليونانية، وأنجب خمسة أبناء. أربعة منهم اشتهروا في التاريخ وهم على التسلسل "إسحاق، عروج، خضر (خير الدين)، وإلياس"، فأطلق على أشهرهم "عروج وخير الدين" لقب بربروس، الذي يعتقد أنهم لقبوا به لكونهم حمر اللحى. ينظر: يلماز أوزتونا، مرجع سابق، ص 239.

3- أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، الجزائر: وزارة المجاهدين، طبعة خاصة، 2010، ص 55.

4- فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، ص 529.

5- عروج بربروسا (1474-1518م) أحد الإخوة البحارة الأتراك أبناء يعقوب، يعتبر مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة من خلال جهوده السياسية والجهادية من 1514م إلى وفاته، كما عرف بـ: بابا عروج حيث اشتهرت أعماله البحرية في عرص المتوسط مع مطلع القرن 16م. ينظر: ياتسيك ماخوفسكي، تاريخ القرصنة في العالم، ترجمة: أنوار محمد إبراهيم، القاهرة، مصر: مكتبة المشارق للنشر والتوزيع، ط 01، 2016، ص 86.

6- خير الدين بربروس، منكرات خير الدين، ترجمة محمد دراج، الجزائر: دار طليطلة، 2015، ص 52-53.

احتضان الجزائر للجهود العثمانية الغير الرسمية ثم الرسمية:

كان من نتائج ذروة المبارزة الإسلامية النصرانية في هذه الجهة الغربية من المتوسط، سيما منازل مطع القرن 16م، أن أفرزت على ظهور الجزائر قلعة لتجديد روح الشطر الإسلامي من هذا الجزء. ويبدو أنه من المفارقة أن تبرز هذه الجبهة رغم انتهاء آخر جولات المسلمين ونظرائهم الصليبيين في الأندلس إلى الإخفاق.

وفي عمق حالة المآسي ظهر الإخوة بربروس بشواطئ غرب المتوسط، حيث عسكروا بقواربهم في سواحل حلق الوادي¹، وكان المعروف عنهم حينها أنهم بحارة مجاهدين ضد المسيحية، وفي حدود سنة 1510م انتشرت بين أسماع الناس قصصهم وغزواتهم البحرية شرقا وغربا، وهي الأثناء التي بدأ الإسبان ينشؤون فيها مراكز توسعية في شمال إفريقيا².

استقر عروج بجزيرة جربة حينما وصل تونس قادما من الإسكندرية، فاتخذ منها قاعدة لنشاطه البحري في سواحل المتوسط³، يغزو منها السواحل المسيحية، حيث جاء في كتاب الغزوات: "ودخل فصل الربيع وطلب ركوب البحر، فسافر متوكلا على الله عز وجل في سفره ذلك، ثم ألقاه الريح إلى جزيرة من ناحية المغرب، فأودع فلكه هناك وسافر إلى ناحية بلاد النصارى فأنكى في عدو الله نكاية عظيمة"⁴.

وغداة الاستيلاء على غرناطة كانت إيزابيلا ملكة قشتالة، تفكر في إعداد حملة تستهدف بها الجزائر، حيث كلفت حاكم مدينة القلعة -الأندلسية- بمهمة سرية، أداها المعني

1- مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830م، ج1، الجزائر: دار الأمة، 2013، ص58.

2- وولف، مرجع سابق، ص ص27-28.

3- محمد دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس 1512-1543م، الجزائر: دار الأصالة للنشر والتوزيع، ط01، 2012، ص ص156-157.

4- مجهول، غزوات عروج وخير الدين، تصحيح وتعليق نورالدين عبد القادر، الجزائر: المطبعة الثعالبية، 1934، ص13.

متنكرا للوقوف على واقع وأحوال مملكة تلمسان¹. لذلك يذكر وولف أنها لو عاشت لترتب عن حقدتها على المسلمين، حتلال قشتالة لجميع بلاد المغرب من طرابلس إلى جبل طارق². حيث تؤكد على تلك النوايا وصيتها التي تركتها سنة 1504م لورثتها قبل وفاتها، إذ تقول: "أطلب من ابنتي الأميرة، والأمير زوجي، أن يهتماّ بأمر الإيمان المقدس، وأن يشتغلا بدون انقطاع بغزو إفريقيا وبمحاربة الكفار في سبيل الدين"³.

ونتيجة لتلك التهديدات كان الاتصال الجزائري بعروج وخير الدين⁴، وهو بادرة جزائرية شكلت فرصة لتغيير مصير ووجه بلدان المغرب كلها⁵، يحفظ لنا صاحب الغزوات بداياتها حيث يروي: "وكان خير الدين وأخوه عروج عزمًا على السفر إلى ناحية سبتة وأحوازها من بلاد الأندلس، فسافرا في عشرة أجنان فوصلا إلى ناحية بجاية، فأرسوا في بعض المراسي هناك، فسمع قدومهما أهل تلك الناحية من العلماء والصلحاء والأشياخ، فبعثوا إلى خير الدين وأخيه كتابا، يشكرونهما على ما يسّر الله لهما من غزواتهما الكثيرة وفتوحاتهما الشهيرة، قائلين لهما في ذلك الكتاب: إنّ الله تعالى تكفل بنصركما؛ حيث ما توجهتما لم تنكس لكما راية في الجهاد، فكيف تدعونا في أيدي العدو الكافر، لا نعبد الله

1- مولود قاسم، مرجع سابق، ص51.

2- وولف، مرجع سابق، ص25.

3- عبد الحميد بن أشنهو، مرجع سابق، ص14.

4- اسمه الأصلي خضر باشا أو رئيس، أخ وخليفة عروج باشا، كما لقب هو الآخر ببربروس، وهو الاسم الذي أطلق كذلك على عروج. صاحب الفضل في ترسيخ الحكم العثماني في الجزائر وإلحاق البلاد بالدولة العثمانية بعد توافق إرادة الأهالي والأعيان مع إرادته، قاد حركة المقاومة والجهاد ضد الإسبان وحرص على إيقاف الأطراف المعارضة لمشروع توحيد السلطة داخليا في يد الجزائر عاصمة البلاد، مباشرة بعد وفاة أخيه سنة 1518م، حرر حصن البينينيون الإسباني واستحوذ عليه سنة 1529م ثم أتم في تقوية أجهزة الدولة وحضورها داخليا وخارجيا حتى اختاره الباب العالي لمنصب القبودانية البحرية. كان طرفا في ملف العلاقات العثمانية المسيحية خلال النصف الأول من القرن 16م، وبذل جهودا لها كل الأثر على ملامح الدولة الجزائرية وكذا العثمانية إلى أن توفي سنة 1546م. للمزيد، ينظر: مذكرات خير الدين، مصدر سابق.

5- مولود قاسم، مرجع سابق، ص50.

إلا على خفية، ولا نقدر على إشهار ديننا، وانتم معشر المسلمين قادرون على تخليصنا من أيديهم"¹.

وتتفق هذه التفاصيل مع ما تضمنته مذكرات خير²، حيث جرى ذلك الاتصال سنة 1514م، وجاء رد عروج بإغلاق ميناء بجاية بـ04 سفن ومحاصرة قلعتها بـ200 من الأتراك وبضعة من الأهالي³، لكنه ما أمكنه تحريرها بسبب حصانتها وإصابة ذراعه⁴ اليسرى يومها⁵. ويضيف صاحب الغزوات حول اتصال أعيان بجاية بعروج ومن معه مكاتبة؛ فيقول: "وتصرّخوا لهما غاية التصريح في ذلك الكتاب، واستشفعوا لهم بالنبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فلما وصلهما الكتاب غلبتهم الحميّة لدين الإسلام وثنيا عزمهما عن قصة سبتة واقتريا من ساحل بجاية"⁶.

1- غزوات عروج وخير الدين، مصدر سابق، ص25.

2- ينظر: مذكرات خير الدين بربروس، مصدر سابق، ص75-76.

3- يتناول هايدو الحادثة، إلا أنه يذكر تفاصيل متشابهة وبتواريخ مختلفة، ففي سياق حديثه عن أعمال عروج سنة 1512م يروي أنه هاجم الحصن الإسباني لبجاية في شهر أوت ومعه 12 سفينة و1000 من الأتراك وبعض المتطوعين الموريسكيين، إضافة إلى نزول شيخ بجاية بمعية 3000 رجل لمساعدته. ثم يعيد في نفس السياق وهو يتكلم عن التجاء عروج إلى تونس لمعالجة ذراعه المصابة، فيتحدث عن هجوم آخر في أوت 1514م قاده خير الدين على المقيمة الإسبانية في بجاية بمساعدة البيجائيين -دون انتظار دعوة شيخهم له-، ونتيجة لصعوبة تحصين القلعة انتقل إلى جيجل. ينظر:

- Fray Diego de Haedo, Histoire des rois d'Alger, traduite et annotée par De Grammont, Alger, 1881, pp11-16.

4- سيغيب عروج عن بعض الأحداث الهامة نتيجة لإصابته، حيث أرسله خير الدين إلى تونس للعلاج واتجه هو ناحية السواحل الإسبانية ونقل بعض الأندلسيين من مايورقة، وحمل على كورسيكا وصقلية إذ تحقق في يده غنائم ومراكب مهمة، كما بعث مع البحار الشهير محي الدين بييري رايس إلى الباب العالي سفينة محملة بالمواد الغذائية وحوالي 100 أسير ومعها هدايا للسلطان، وهذه الأخيرة كان لها دورها في استرضاء السلطان ورعايته وقبول مشروع خير الدين فيما بعد. ينظر: مذكرات خير الدين، مصدر سابق، ص59-77. و: أحمد جودت، تاريخ جودت، ترجمة عبد القادر أفندي الدنا، مج01، مطبعة جريدة بيروت، 1890، ص156، ص148-149.

5- دراج، الدخول العثماني، مرجع سابق، ص158.

6- الغزوات، مصدر سابق، ص25.

كانت الظروف خلال العقد الثاني من القرن 16م تتميز بدور عروج وأخيه في تعجيل سير الأحداث السياسية ببلاد المغرب¹، وعليه أرسل سكان مدينة الجزائر في سنة 1516م -على شاكلة البيجائيين- نحو الأخوين بريروس، وفادة من الشخصيات البارزة، تطلبهم للموضوع نفسه وهو تواجد المسيحيين بالمدينة ومظالمهم ومضايقاتهم لهم²، ويذكر خير الدين أن عروج توجه نحو مدينة الجزائر بمعيه 500 بحار³، حيث كان على موعد هناك مع الإسبان الذين فشلوا في أول حملة لافتكاك ميناء مدينة الجزائر منه⁴.

استقبل الأمير سالم التومي وأعيان المدينة عروج كمنقذ لهم، وتأمّلوا في مقدمه خلاصهم من حصن الإسبان الذي أعاق حياتهم ومصالحهم⁵، وبسبب معارك الإخضاع التي خاضها عروج يحارب بعض الزعامات الرافضة لمشروعه في جهات متفرقة من الجزائر، على غرار تنس وتلمسان وكوكو بعدهما، استشهد في تلمسان سنة 1518م⁶.

ضاق الحال بخير الدين لفقْدان أخيه وقرر الخروج إلى الجهاد في البحار ومغادرة الجزائر؛ إلا أن وجهاء وأعيان المدينة ألحوا عليه بالبقاء، فعرض عليهم مقابل ذلك مسألة ربط الجزائر بالدولة العثمانية. ولأجل المقصد هذا توجه وفد إلى السلطان العثماني سليم الأوّل لمقابلته في القاهرة، وبعد سنة من ذهاب الوفادة إلى السلطان العثماني وصل جواب

1- أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول 1519، المجلة التاريخية المغربية، تونس: العدد 6، جويلية 1976، ص ص117.

2- كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام مدينة الجزائر 1510-1541م، ترجمة جمال حمادنة، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2007، ص 27.

3- منكرات خير الدين، مصدر سابق، ص 82.

4- المصدر نفسه، ص ص85-86.

5 - Haedo, Op.Cit, pp16-18.

6- حول هذه الأحداث، ينظر: منكرات خير الدين، المصدر نفسه، ص ص93-102.

من اسطنبول في 1519م يتضمن موقف السلطان الذي قبل بدوره العرض، ووافق على تعيين خير الدين بايلربايا على الجزائر، وتأسست أول ولاية عثمانية في المغرب الإسلامي¹.

إلى هنا حدث أن قامت على يد الأخوين بربروس وبالأخص خير الدين- في الجزائر قاعدة لدولة جديدة، وتعاون أهل البلاد مع القادة الجدد، وارتبط مصير هذه الدولة بالدولة العثمانية²، فاعترفوا بالسلطان العثماني حاميا لهم وخطبوا على المنابر باسمه. كما اعترف هو بالسلطة المحلية الناشئة، وتعاون الجميع على بناء الدولة وطرد الإسبان الذين كانت حمايتهم في جهات مختلفة من ربوع البلاد³.

إسبانيا راعية الصليبية الحديثة في البحر المتوسط:

كان زواج إيزابيلا⁴ ملكة قشتالة من ابن عمها فرديناند¹ ملك أراغونا ممهدا لتوحيد إسبانيا النصرانية²، إذ عقد هذا القران في بلد الوليد³ ثم اتحدت المملكتان في عرش واحد

1- جواد سماحي، عامل الدين ضمن صراع القوى الفاعلة بالحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن 10هـ/16م، الجزائر: مجلة الواحات للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، مج14، العدد01، 2021، صص139-140.

2- تضمنت رسالة أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم على حيثيات تتضح من خلالها إحاطة الجزائريين بأهمية المرحلة والمخاطر التي تحق بالمسلمين في جهة المتوسط الغربي، وأبرزت على متابعة وحرص لجميع المجريات الإقليمية والمتوسطية والإسلامية الحاصلة، بداية بوقائع الأندلس. وعليه أبانت هذه الوثيقة الهامة وذات الأبعاد المصيرية المترتبة، على وعي للاهالي وبعد نظر في سياق التحديات التي كان يفرضها الوضع بين النصارى والمسلمين. ينظر: عبد الجليل التميمي، أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول 1519، المجلة التاريخية المغربية، تونس: العدد06، جويلية1976، صص119-120.

3- أبو القاسم سعد الله، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، مرجع سابق، صص481.

4- إيزابيلا الأولى أو الكاثوليكية (1451-1504م) ملكة قشتالة، تزوجت فرديناند ملك أراغونا وتوحدت على إثر هذا القران إسبانيا وأصبح نواة لحروب الاسترداد ضد المسلمين في بلاد الأندلس، وأطلق البابا ألكسندر السادس (1431-1503م) عليها وزوجها تسمية "الملكين الكاثوليكين" إشادة بجهودهما للمسيحية ضد المسلمين، وكانت إيزابيلا وراء رحلة كولومبس إلى العالم الجديد ينظر: عزيزة فؤال بابتي، موسوعة الأعلام العرب والمسلمين والعالميين، مرجع سابق، 2009، صص239. و: معجم أعلام المورد، بيروت: دار العلم، ط 01، 1992، صص80.

سنة 1479م، لتبتدئ إسبانيا قوية في ظل الملكين الكاثوليكين⁴، وتزداد بسببها مصائب الأندلس⁵، حيث انتقل إليها ميزان القوى الأوروبية ومركز القيادة الروحية، فأصبح ملوك إسبانيا الرعاة الأوائل للكاثوليكية⁶، وغدت إيبيريا دعامة المسيحيين في غرب المتوسط⁷.

أخذ الدين شعارا للضمير الإسباني وأساسا للوحدة خلال القرن 16م، وأصبح التأثير الديني يسيطر بعمق على الناس والمسؤولين معا في إسبانيا، وبالأخص بعد سقوط غرناطة 1492م⁸، كما تزامن هذا الواقع مع القضاء على السيادة الإسلامية في شبه الجزيرة الإيبيرية⁹. كما ظهر أن جماهير إسبانيا هي الأخرى أسهمت بقوة في الدفع بالسياسية

1- فرديناند الخامس (1452-1516م) ملك أراغونا من 1479م حتى وفاته، تزوج الأميرة إيزابيلا ملكة قشتالة عام 1469م، وهو فرديناند الثاني، وأطلق عليه فرديناند الخامس ولما رقيت زوجته من أميرة إلى ملكة عرف بالكاثوليكي، وكان سببا في القضاء على آخر أسرة إسلامية حاكمة في الأندلس عام 1492م. ينظر: منير البعلبكي، مرجع سابق، ص 320.

2- محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ص 180.

3- مقاطعة في إسبانيا وهي اليوم مدينة في وسط إسبانيا، يقال أن اسمها حُرّف غدا الأصح هو "بلد الوالي"، كانت مقرا لملوك قشتالة وهي ترتبط بأحداث تاريخية هامة من تاريخ إسبانيا، حيث شهدت الزواج الكاثوليكي الشهير بين إيزابيلا وفرديناند، كما توفي فيها الرحالة كريستوف كولومبس سنة 1506م، واتخذت مقرا لإقامة الملوك اللاحقين وهم "فيليب الثاني وفيليب الثالث"، كما يوجد في ساحتها قبالة الجامعة نصب تذكاري للأسير والاديب الشهير ميكال دي سيرفانتس. للمزيد، ينظر: شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، ج1، بيروت، لبنان: منشورات دار مكتبة الحياة، د.ت، ص 338-341.

4- عنان، المرجع نفسه، ص 184.

5- أوزتونا، مرجع سابق، ص 193.

6- أحمد سالم، مرجع سابق، ص 116.

7- زهراء النظام، العثمانيون والصراع المسيحي الإسلامي في غرب المتوسط "العثمانيون والعالم المتوسطي، مقاربات جديدة"، إشراف عبد الرحمان المودن وعبد الرحيم بنحادة، المملكة المغربية: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط01، 2003، ص 59.

8- عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية للصراع الإسباني العثماني على الأيالات المغربية في القرن 16م، تونس: المجلة التاريخية المغربية، العدد 10-11، 1978، ص 06.

9- نسيم يوسف، دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، 1988، ص 150.

الإسبانية نحو محاربة الأندلسيين الموريثيين، ومنح أرضية داعمة للحركة الصليبية في توجهاتها الدينية في العالم آنذاك¹، لأن هذا الجنس عرف بعبادة يكنها لجميع المسلمين².

ويعبر هذا الزواج عن حدث تاريخي هام توحدت فيه المسيحية الإسبانية، كان سببا في جعل ثلثي إسبانيا بيد الزوجين الكاثوليكين، في مقابل حالة التطاحن وتراجع المسلمين في الأندلس. كما يوصف هذا الزواج بالديني والمقدس على نعت كثير من الدارسين لما له من تأثيرات على العالم المسيحي، وعلى العالم الإسلامي، توحدت على إثره الجهود الدينية للمسيحية الكاثوليكية وتركزت في إسقاط إمارة غرناطة؛ حيث أمست في نظر الزوجين موطن تجمع القوة الباقية من المسلمين في الأندلس، والتي مازالت تربطها صلات وثيقة بمنطقة المغرب الإسلامي وثورها، وهو ما جعلها تمثل شغلا شاغلا للسياسة الإسبانية، وتحرك نزعة عدا الصليبية القديمة اتجاهها دونما انقطاع³.

وحتى قبل القضاء على آخر ملك المسلمين في غرناطة، أظهرت الدولة النصرانية الناشئة في إيبيريا نواياها العدوانية اتجاه المسلمين في المغرب⁴، حيث حمل بابا روما على عاتقه السعي في أوساط المسيحيين يحملهم على وضع جميع إمكاناتهم المالية والبشرية تحت تصرف ملوك إسبانيا حتى يتسنى لهم إبعاد المسلمين عن الأندلس، وبعدها إخضاع المتمركزين منهم في بلاد الشمال الإفريقي إلى الحكم المسيحي⁵. كما كانت الكنيسة وقتها تجيش بنزعة الصليبية القديمة ضد الأمة الإسلامية، فيما اعتبرت إسبانيا النصرانية وجود كتلة من المسلمين في قلب بلادها؛ شغلا شاغلا لسياساتها وملوكها⁶.

1- التميمي، مرجع سابق ص 07.

2- أحمد توفيق المدني، مذكرات أحمد شريف الزهار نقيب أشرف الجزائر، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، وزارة المجاهدين، طبعة خاصة، 2010، ص 41.

3- جواد سماحي، مرجع سابق، ص 141.

4- صلاح العقاد، مرجع سابق، ص 13.

5- توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة، مرجع سابق، ص ص 71-72.

6- عنان، مرجع سابق، ص 312.

وكانت هذه الجهة من المتوسط، حيث -بلاد المغرب العربي وديار الإسلام والمسلمين في الأندلس-، تمثل واجهة أمام ما تفرزه إرادة الجبهة المسيحية في تصدير الصراع خارج أراضيها، تظهر فيه إلى حد ما مقاصد الأنظمة الملكية وبالأخص إسبانيا في توجيه الأنظار المحلية والدولية اتجاهه. فالشمال الإفريقي أرادت إسبانيا أن تُشغل به أوروبا الغربية ومنافسيها من هناك بهاجس قديم جديد وهو الحرب مع المسلمين والترويج لمفهوم العدو المتربّص، وإن كانت هذه الجبهة المتطلّع إليها يخذلها واقعها وتُعتبر في كفة الضعف والمقدور على أمره؛ لمعطيات تناولناها في سياق الفصل التمهيدي، إلا أنها الأكثر انسجاماً في جانبها الديني وهي تدين بالإسلام منذ عهد الفتوحات الإسلامية.

أصبح هناك كره خاص يثير الغرب المسيحي ضد الإسلام وكل الحركات الدينية والسياسية المتّصلة بالمسلمين، وكانت أوروبا الغربية هي اللاعب الأساسي في المواجهة الشاملة مع المسلمين، تدفعها إلى ذلك حمى النهضة والإصلاح الديني¹. وهكذا انتقل مركز الحملات الصليبية الموجهة ضد المسلمين إلى غرب أوروبا، وعليه تحوّل الجزء الأكبر من الصراع الأزلي بين المسلمين والنصارى، إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط².

واعتبرت منطقة الغرب الإسلامي طيلة القرنين 15 و16م مسرحاً لحروب الدول المسيحية المتطلعة نحو استرجاع الأراضي المسيحية من يد المسلمين، وذلك في مفهومها من قبيل الرد على تواجد المسلمين في الأندلس لما يقرب 800 عام³. وعليه فإن المناخ الذي خيّم على بلدان أوروبا وعلى سياسات ملوكها، كان الواعز وراء تشديد حملات الإيبيرين ضد سواحل النطاق المغربي، وكذا الحروب الصليبية الطويلة بين الإسلام والمسيحية على مدار هذه الفترة⁴.

1- إيفانوف، مرجع سابق، ص ص31-32.

2- أحمد سالم، مرجع سابق، ص 116.

3- زهراء النظام، مرجع سابق، ص 57.

4- المرجع نفسه، ص 64.

المبحث الثاني: الوجه الاقتصادي للصدام الإسلامي النصراني في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن 10هـ / 16م:

اعتُبر الوجه الاقتصادي التجاري هو الآخر عاملاً ملحا لخوض غمار النزال بين الشرق والغرب، ويقدر ما برزت بلدان أوربا الغربية كفاعل في الساحة الدولية والإقليمية في هذه الحقبة من التاريخ، استطاعت الدولة العثمانية أن تقحم نفسها وتفرض منطق الندية ضمن الفضاءات الحساسة التي تدير سياسة العالم الحديث في مختلف مناحيها، وفي الشق الاستراتيجي والاقتصادي بوجه خاص. ولم يكن من السهل إدارة دواليب هذه المجابهة للتكافؤ تارة ولعدة اعتبارات تارة أخرى. بل كانت صعبة ومعقدة؛ تخضع لرهان الأولويات ومنطق القوة والتحالفات، فطال نفس المقارعة متخذة من الخلفية الاقتصادية وجها بارزا لها.

أهمية البحر المتوسط كفضاء للتجارة العالمية:

قامت حضارات الإنسان الأولى في الأراضي الواقعة حول حوض البحر الأبيض المتوسط واستمرت الحياة في هذه الأراضي وصار البحر المتوسط بمثابة محور وحلقة وصل بين المناطق المحيطة بمياهه. وبالنظر إلى خطورة وأهمية هذا البحر تصارعت قوى التاريخ للسيطرة عليه وللتحكم بالملاحة فيه، فالإمبراطوريات وكبار القادة طمحوا نحو بناء قواعد إستراتيجية تتحكم ببعض شواطئه وممراته، ونتيجة لتعدد الجزر داخل هذا البحر حدث صراع تاريخي مستمر في سبيل التحكم فيها ووضع اليد عليها¹.

والبحر بوصفه مساحة التنقلات هو الذي يجلب الثروة من بين ما يروج عليه من خيرات²، والبحر المتوسط وسواحله ولوقت طويل، كان أهم فضاء للصراع والاتصال بين

1- راضي العامري، الأنوار الحضارية في القطوف الأندلسية، عمان، الأردن: دار غيداء للنشر والتوزيع، 2014، ص133.

2- بروديل، مرجع سابق، ص99.

الشرق والغرب، وسوقا عالميا لقرون متتالية. وتركز من خلاله محور الالتقاء بين القارات الثالث¹.

وكان الاقتصاد أحد أوجه التجانس الذي اتصف به حوض المتوسط وتشاركته المناطق المطلة عليه منذ أكثر من ألف سنة قبل الميلاد، إذ دفع بالقوى المتمركزة في إحدى الضفتين إلى ضرورة العبور إلى الضفة الأخرى لأجل التوغل أكثر في البلاد المطلة على هذا الحوض وضم خيراتها وثرواتها إلى ما تملكه². ذلك أن البحر المتوسط اعتبر همزة الوصل بين أوروبا وبلاد الشرق، وشريان حيوي للاتصالات والمواصلات بين شقي العالم في ظروف السلم والحرب معا³.

ودفعت الظروف البحر المتوسط أن يؤدي دورا أكبر في التاريخ التجاري للبحار، وحاولت الدول التي تشكل ضفتيه الاحتفاظ بحقوقها وقسمتها في التنقل من خلال ممراته البحرية. وانطلاقا من هذا الوضع كانت الممرات البحرية القصيرة نسبيا والمعروفة ضمن البحر المتوسط، تخضع لإملاءات الحاجة الاقتصادية والنفوذ السياسي⁴.

وما يزال البحر المتوسط ولفترة طويلة أكثف مركزي للنقل البحري، تنتقل عبره أهم البضائع كالحرير والتوابل، القطن والقمح والخشب والعبود وغيرها⁵، حتى اكتسب البحر المتوسط في القرن 14م دفعة حيوية بفعل الاتجار مع بلدان الشرق، حيث تجوب القوافل التجارية عوالمه آتية من آسيا الوسطى. وتقدّم قوافل البصرة عبر الخليج العربي لتصل

1- مركز اتصال عالمي إلى حين اكتشاف قارة أمريكا أو ما يعرف بالعالم الجديد منذ سنة 1492م.

2- محمود أحمد أبوصوة، مرجع سابق، ص ص19-20.

3- نسيم يوسف، مرجع سابق، ص129.

4- ديدن فولو وجيمس فولو، عصر الملاحة البحرية، ترجمة خلود الخطيب، الإمارات العربية المتحدة: منشورات هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة "مشروع كلمة"، ط01، 2012، ص ص66-67.

5- ليلي الصباغ، مرجع سابق، ص2512.

سواحل الشامية في سوريا ولبنان، وبنسق مشابه نشط الطريق التجاري للبحر الأحمر مؤديا بتجارة الشرق إلى موانئ مصر¹.

وارتكزت حيوية البحر المتوسط على التجارة، فمن ناحية اضطلعت كل من البندقية وجنوة بدور التوسع في النشاط التجاري للجانب الأوروبي من البحر المتوسط، وعزز تاج مملكة أراغونا هو الآخر توسعه في البحر المتوسط بتحكمه في جزيرة صقلية ومصر المملوكية أدارت العلاقات التجارية مع كل من إفريقيا وآسيا².

سيطرة العالم الإسلامي على منافذ التجارة الرئيسية:

يقول موسنييه³: "جاء البرتغاليون والإسبانيون البحار مشرقين ومغربين، تفاديا منهم للإسلام الذي كانوا يجدونه أينما اتجهوا وفي أي مكان وطأته أقدامهم، ... إذ أنهم أينما اتجهوا وأنى حلوا انتصب المسلمون أمامهم، وقد اتضح للأوروبيين أن الإسلام يؤلف قوة أضخم مما ظنوا، وهي قوة آخذة دوما في الانتشار والامتداد والتوسع. فمن المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي، ومن شطآن المغرب الأقصى إلى هذه الجزر التي تفيض بالتوابل حتى في بكين نفسها، وفي هذه الفياضي والسباسب التي تحيط بالعالم القديم إحاطة السوار بالمعصم"⁴.

1- إميليو سولا، البحر المتوسط المركز الحيوي للقرن 14م "ابن خلدون البحر المتوسط في القرن 14م قيام وسقوط إمبراطوريات"، ترجمة إسحاق عبيد، مصر: منشورات مكتبة الإسكندرية، 2007، ص46.

2- خيرونيمو بايز لوبيز، ابن خلدون وعصره "ابن خلدون البحر المتوسط في القرن 14م قيام وسقوط إمبراطوريات"، مرجع سابق، ص36.

3- مؤرخ فرنسي شهير بكتابه ضمن الموسوعة التاريخية الموسومة ب: تاريخ الحضارات العام"، ولد سنة 1907 وتوفي في 1993م، من رواد المدرسة التاريخية الفرنسية وأبرزهم. دّرس بجامعة السوربون وباريس وجامعات وأكاديميات أخرى بقارة أوروبا.

4- رولان موسنييه، تاريخ الحضارات العام، تعريب أسعد وفريد زاغر، مج04، بيروت-باريس: منشورات عويدات، ط2، 1987، ص535.

كانت منافذ البحر الأحمر وموانئ البحر المتوسط وعلى رأسها المصرية أهم طرق التجارة الرئيسية بين الشرق والغرب، ولعب المسلمون من خلال المماليك دورا هاما في تسيير وتأمين هذا الطريق الحيوي، فمن الشرق تصل السلع والبضائع موانئ البحر الأحمر لتعبر نحو موانئ البحر المتوسط سليمة. وهناك يفد تجاور أوروبا وإيطاليا فيشترونها ويتوجهون بها إلى أوروبا. كما استطاع المماليك خلق سوق تجارية محورية من خلال إغراء زبائنهم الشرقيين على إحضار سلعهم لبيعها، واستقطاب زبائنهم الغربيين إلى بلادهم لشراء تلك البضائع¹.

وفي القرون التي امتلك فيها السلاطين المماليك السلطة في مصر والشام بلاد الحجاز وكذا أجزاء من اليمن (1250-1516م)، كان هناك طريقان تجاريان تحت سيطرتهم وهما طريق الخليج العربي-بلاد الشام وطريق البحر الأحمر-مصر. وذلك ما انعكس عليهم بالفائدة نتائج العوائد والأرباح المادية المعتبرة والضرائب الكثيرة والمتنوعة التي تقبض على التجارة العابرة لأراضيهم².

وكانت مصر هي البلاد الوحيدة التي فتحت أبوابها لتجارة أوروبا، ولم يكن يتسنى لهذه الأخيرة أن تستورد التوابل عبر غيرها، ومن خلال مصر تصل التوابل إلى البحر المتوسط، لذلك حرص البنادقة على حفظ مصالحهم ومركزهم في الإسكندرية³. وإلى غاية نهاية القرن 15م ظلت منتجات الهند تصل أوروبا بوساطة التجار المسلمين في مصر، الذين بدورهم يبيعونها لتجار البندقية⁴.

1- عبد الفتاح عاشور وآخرون، تاريخ مصر الإسلامية، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993، ص ص421-422.

2- محمد حميد السلطان، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج في الفترة ما بين 1507-1525م، الإمارات العربية المتحدة: منشورات مركز زايد للتراث والتاريخ، 2017، ص ص15-16.

3- شارل ديل، مرجع سابق، ص145.

4- المرجع نفسه، ص145.

كما حصلت تطورات مهمة على صعيد التجارة العالمية نهاية القرون الوسطى، وإضافة إلى التحكم في طريقي التجارة البري والبحري الأساسيين من طرف المسلمين، وضعت الدول الإسلامية في وسط وشرق آسيا يدها على مراكز التوابل منذ النصف الثاني للقرن 15م. والمسلمون عرب وفرنس أمسكوا بمقاليد الحركة التجارية في المحيط الهندي بين إفريقيا غربا وآسيا شرقا، لأنهم امتلكوا السفن العاملة في البحار¹.

دور إيطاليا في الوساطة التجارية بالبحر المتوسط:

استطاعت مدن شبه الجزيرة الإيطالية أن تكون مركزا ماليا وتجاريا بارزا على المستوى الأوروبي إلى حين الاكتشافات البحرية للبرتغاليين والأسبان، وذلك نتيجة لموقعها الجغرافي المهم الذي يربط دول أوروبا ودول البحر الأبيض المتوسط تجاريا². كما أدت من خلال البحر المتوسط، الوساطة بين أمم أوروبا وبلاد المشرق³.

وظل تجار البندقية أوفياء لمساهمهم التقليدي حيث كانت الوساطة التجارية بين الشرق من جهة وشمال غرب أوروبا من جهة أخرى من مهامهم، ولم يهملوا منطقة غرب المتوسط وتعاطوا التجارة مع صقلية و نابولي؛ بلنسية وبرشلونة وغيرها من البلدان مثل جنوة⁴، هذه الأخيرة التي ظلت لأمد طويل إحدى أقطاب التمويل العالمي⁵.

وبالنسبة لـ"بروديل" فإن إيطاليا كانت القطب الذي تمركز فيه اقتصاد أوروبا والمناطق التي تحت سيطرتها، وحصل ذلك لصالح البندقية منذ أواخر القرن 14م ومع النصف الثاني من القرن 16م حينما عادت السطوة للبحر المتوسط⁶، وأخذ يشهد نهضة اقتصادية تبتدى من

1- فوزية الجيب، تاريخ النفوذ البرتغالي في البحرين 1521-1602م، ط01، الأردن: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دار الفرس للنشر والتوزيع، 2003، ص43.

2- عبد الله محمد إسحق، محطات في حركة التنوير الأوروبية، ج01، دار ابن رشد، د.ت، ص57.

3- نسيم يوسف، مرجع سابق ص128.

4- فيليب كونتامين وآخرون، مرجع سلبق، ص126.

5- بروديل، مرجع سابق، ص107.

6- فرناند بروديل، ديناميكية الرأسمالية، ترجمة شفيق محسن، لبنان: دار الكتاب الجديد، ط1، 2008، ص72-74.

مضيق جبل طارق وتمتد وصولاً إلى بلدان المشرق¹. ويضاف إلى هذا أن الإمارات الإيطالية هي مهد الرأسمالية التجارية، حيث أن الاعتماد المالي كأساس لهذه الأخيرة ظهر في إمارتي البندقية وفلورنسا².

الكشوف الجغرافية وخلفياتها الاقتصادية:

ظل الذهب -ولعدة قرون- يُتقل إلى أوروبا عبر شمال أفريقيا وطرق القوافل عبر الصحراء الكبرى، فالذهب المستخرج من المناجم في السودان يُحوّل على طول هذه الطرق إلى تونس والقاهرة والإسكندرية، حيث كان يبادلته التجار الإيطاليون بالسلع الأوروبية. ومع بداية القرن 15م أدركت الإمبراطورية البرتغالية والتجار، أن السفر بالطرق البحرية على طول الساحل الأفريقي يمكن أن يوصلهم إلى أسواق الذهب والتوابل في مصادرها الأصلية، مع تجنب الضرائب المفروضة على طرق التجارة البرية خلال الأراضي العثمانية. وبحلول منتصف القرن 15م، أصبح التجار من ألمانيا وفلورنسا وجنوة وفينيسيا يسيرون رحلات بحرية برتغالية على طول ساحل غرب أفريقيا، ويقدمون نسبة مئوية من الأرباح للملك البرتغالي³. وجه البرتغاليون اهتمامهم خلال هذه الفترة نحو اكتشاف طرق بحرية جديدة خارج نطاق البحر المتوسط، ومنذ أول محاولاتهم ورحلاتهم الكشفية التي بدأها هنري الملاح؛ ركزوا على الوصول إلى الهند من خلال طرق وممرات لا تخضع للمسلمين وسيطرتهم. وفي الوقت نفسه تسهل تجارتهم وتوسع رقعتها، كما تؤدي بهم إلى خيارات المسلمين ومناطق نفوذهم⁴.

1- بروديل، ديناميكية الرأسمالية، مرجع سابق، ص 74.

2- موسنييه، مرجع سابق، ص 111.

3- جيري بروتون، عصر النهضة "مقدمة قصيرة جداً"، ترجمة إبراهيم البيلي محروس، مصر: منشورات مؤسسة هندواي، 2014، ص 35.

4- يسري الجوهري، الكشوف الجغرافية" دراسة لتاريخ الكشوف الجغرافية ولتطور الفكر الجغرافي، بيروت: دار النهضة العربية، 1984، ص ص 127-128.

وبدأ البرتغاليون التوسع البحري بدافع التعرف على نطاق هيمنة المغاربة واكتشاف مواطن ومدخرات الذهب، وتحصيل طرق جديدة للإفادة منها تجارياً¹. وامتزج لدى البرتغاليين دافعا الدين والاقتصاد في توجيه حملاتهم على بلاد المغرب وسواحلها. فمراكش اقترنت لديهم بغينيا وبخطتهم في إقامة إمبراطورية البرتغال الواسعة، حيث كان هدف القائمين بأعمال الكشوف الاستعمارية في سواحل إفريقيا الغربية هو التزود من مراكش بالقمح والخيول، حتى يتسنى بذلك شراء الذهب من متعاطليهم الأفارقة ومن ثمة يبتاعون بالذهب توابل الشرق الأقصى².

وفي هذا الظرف أصبح الاستقلال على الموردين العرب أكثر إلحاحاً لدى الأوروبيين، وفي ظل عدم اقتناعهم بفكرة العالم المغلق بحثوا عن منافذ في الجنوب الغربي أو في أقصى الجنوب³، ثم إن البحار والتجار الأوائل الذين كانوا في ركاب أوائل الكشوف الجغرافية خلال القرن 15م، كان التنقيب عن الذهب عامل الإثارة لديهم⁴. كما اعتبر اكتشاف أمريكا هو الآخر فتحة نحو تكوين عالم محوره المحيط الأطلسي⁵.

وكان الاحتكار التجاري الذي مارسه المماليك وخاصة فيما تعلق بالتوابل والبخور دافعا للأوروبيين نحو رفع هذا الضيق، بإيجاد طرق بديلة تجنبهم أزمة ارتفاع الأسعار ووطأتها على التجار والمستهلكين معاً⁶، حيث وقف المماليك على استبقاء تجارة التوابل المربحة سرا يقف عليهم وحدهم. ولأجله منعوا غير المراكب الإسلامية الإبحار في مياه البحر الأحمر، وأوقعوا العقوبات على كل من يحاول كسر هذا الحصار والمتعلق أساساً

1- كونتامين وآخرون، مرجع سابق، ص 134

2- يسري الجوهري، شمال إفريقية دراسة في الجغرافية التاريخية، الإسكندرية، مصر: دار الجامعات المصرية، 1970، ص 184.

3- كونتامين، المرجع نفسه، ص 201-202

4- المرجع نفسه، ص 31.

5- توماش ماستناك، مرجع سابق، ص 25.

6- عبد الفتاح عاشور وآخرون، مرجع سابق، ص 422.

بطرق التجارة الشرقية ومصادرها¹. وصحيح أن السلاطين المماليك أحاطوا التجارة المارة عبر بلاد المسلمين بالحماية والتأمين من عسف وأذى أهل اليمن والحجاز، لكنهم منذ منتصف القرن 15م ونتيجة لعائدات المرور والمقدرة بـ70 ألف دينار سنوي، ضاعفوا الضريبة وفرضوها ميناءً بميناء، وتتبعوها سوقاً بسوق حتى دفع هذا الوضع بالعلاقات التجارية مع أوروبا إلى الانقطاع².

وعلى الشاكلة نفسها مارست البندقية وفرنسا احتكار التجارة الأوروبية مع المسلمين، واتخذ ذلك وجهاً رسمياً مع الدولة العثمانية، فالمنافسة التجارية الأوروبية- الأوروبية بدورها من بين أسباب خروج إسبانيا والبرتغال في حركة البحث عن كسر الحصار. فانصرفت الأولى تفتش عن طريق آخر في إطار منافستها مع فرنسا، في حين سعت الثانية لتخرج من ضيق هيمنة البنادقة ووساطتهم إلى الهند³.

الصراع في شرق البحر المتوسط وأثره على الواقع الاقتصادي التجاري للحوض الغربي منه:

تسبب التواجد البرتغالي في منطقة الخليج العربي في إغلاق سواحلها نتيجة الاستيلاء على مضيق هرمز، وأمكن ذلك لهم من السيطرة على مصائد اللؤلؤ وعلى تجارة الخليج القائمة مع بلاد الهند⁴. وفي مدة قصيرة امتدت بين 1515 و1520م نشأة امبراطورية تجارية برتغالية سلبت من المسلمين ممراتهم التي تعبرها التجارة العالمية⁵، ثم إن انهيار الطريق التجاري البحري الممتد من مصر وبلاد الشام وعبر البحر الأحمر إلى الهند والصين، في

1- حميد السلطان، مرجع سابق، ص17.

2- حسين مؤنس، مرجع سابق، ص27.

3- مرجع السابق، ص42.

4- فاروق عثمان أباطة، أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن 16م، مصر: دار المعارف، ط 2، 1994، ص45.

5- كونتامين وآخرون، مرجع سابق، ص244.

خواتيم القرن 15 وأوائل القرن 16م نجمت عنه تداعيات قوية على بلاد المسلمين¹ سياسيا واقتصاديا، إذ يعد أحد أسباب ضعف ثم نهاية دولة المماليك.

ودون جدوى حاول المماليك في عهد السلطان الغوري إرجاع الأمور إلى نصابها معتمدين على أسلوب الحرب والدبلوماسية²، ويأتي التفهقر الاقتصادي واحدا من ضمن عوامل ضعف الدولة المملوكية. فاتخاذ التجارة العالمية طرقا جديدة ليست في المتناول أعدمهم المواقبة، كما أن هذه المستجدات تسببت في آثار سلبية وخسائر سريعة بالنسبة للمماليك وللعالم الإسلامي ككل.

كما كان ظهور العثمانيين وتقدمهم نحو مناطق تأثير البندقية ضربة لمصالحها الاقتصادية. ويضاف إليه ظهور طرق جديدة للتجارة الدولية أضعفت من دور البندقية وهددت أهمية البحر الأبيض المتوسط³. وهذا التقدم العثماني الباهر في جهة شرق المتوسط هدد المصالح التجارية الإيطالية، وتحولت الحركة التجارية البحرية لجمهورياتها إلى ناحية إفريقيا الشمالية، وحصل أن نشأ بين تلك الجمهوريات تنافس شديد نتيجة هذا التفهقر سيما بين تجار جنوة⁴.

الأثر الاقتصادي للكشوف الجغرافية:

لقد كانت الكشوف الجغرافية بذلا أوروبا لاخترق الحاجز الإسلامي الذي سدّ طريق سلع وبضائع الشرق أمامها⁵. بحيث كان الشرق في مفهوم⁶ الأوروبيين خلال العصور الوسطى يتحدد في البلاد الواقعة على السواحل الشرقية والجنوبية الشرقية للبحر المتوسط،

1- فوزية الجيب، مرجع سابق، ص 09.

2- أباطة، مرجع سابق، ص 69.

3- شارل ديل، مرجع سابق، ص 133.

4- روبير برانشفيك، مرجع سابق، ج 01، ص ص 298-299.

5- نسيم يوسف مرجع سابق، ص 148.

6- تدخل مصر ضمن هذا المفهوم في نطاق الشرق الإسلامي برغم موقعها الجغرافي في شمال إفريقيا وحدودها مع بداية الغرب الإسلامي. يُنظر: نسيم يوسف، المرجع نفسه، ص 130.

ومعها البلاد المتغلطة في اتجاه الشرق¹. وأما الشرق الإسلامي فهو بين أوروبا وآسيا وأغلبه يقع في منطقة البحر المتوسط².

والكشوف الجغرافية ساهمت في تنشيط الحركة التجارية الاستعمارية عن طريق إقامة محطات أو مراكز ثابتة في الأماكن المكتشفة. كما كانت هذه الحركة أيضا سببا في عملية التوسع التجاري، فاتحه أمام الأوروبيين أسواقا جديدة تدفقت من خلالها الأموال على أوروبا وهو ما كان وراء نمو البرجوازية الأوروبية³.

وبامتداد الحركة التجارية إلى نطاق الهيمنة الإسبانية في العالم الجديد والبرتغالية في المحيط الهندي؛ اتسع مجال الحركة التجارية وازدادت كميات المواد المنقولة للتسويق. وكل هذا اعتبر تغييرا أساسيا في النظام الاقتصادي، إذ اقتضى تشجيع المغامرين والمكتشفين والجغرافيين وكل ما له صلة بالنقل البحري⁴.

وهذه الرحلات المتزايدة والمتتالية كانت خلف حركة استعمارية متسارعة أدارتها القوى الأوروبية الراحية واهتمت الملكية كثيرا لشأنها، ففي سنة 1514م تقرر وضع تجارة المستعمرات البرتغالية تحت السلطة الاحتكارية للملكية، والتي بدورها نصبت إدارة على رأس الوكالات التجارية التي أسستها في أهم الممرات مثل هرمز ومالقة. وفي نفس السياق حرص الملوك الكاثوليك في إسبانيا على وضع جهاز ينظم مصالحهم التجارية فيما وراء البحار تحت إشرافهم المباشر⁵.

1- نسيم يوسف، مرجع سابق، ص130.

2- حسين مؤنس، مرجع سابق، ص36.

3- محمد مخزوم، مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي (عصر النهضة)، لبنان: دار الكتاب اللبناني، ط1 1983، ص60-61.

4- موسنييه، مرجع سابق، ص112.

5- فيليب كونتامين وآخرون، مرجع سابق، ص169-170.

وبين العقد الأخير من القرن 15م والعقد الرابع من القرن 16م فإن المساحات الشاسعة الواقعة وراء المحيط الأطلسي والعالم الجديد، أصبحت مجالا لحركة تجارية مشهودة وأسواق تجارية تنوعت منتوجاتها وموادها المتداولة¹.

الميركنتيلية وليدة الكشوف الجغرافية:

الحركة الاستعمارية الحديثة، الانقلاب التجاري والميركنتيلية، كلها ظواهر تاريخية وليدة الاختلالات والتغيرات الحاصلة في نطاق المتوسط والأطلسي مع نهاية القرن 15 وخلال القرن 16م. وهي الانعكاس الاقتصادي والمادي الحقيقي للنهضة الأوروبية، بحيث تظهر حركة الكشوف الجغرافية هي المشهد الأول والمظهر الجلي لها، والتحول البارز الذي طرأت في أعقابه عدة تفاصيل مسّت بلدان البحر المتوسط من الصفتين، وغيرها من البلدان الأخرى في قارتي آسيا وأمريكا.

ويعتبر مؤرخو الاقتصاد أن القرن 16م شهد تحولت أساسية في البنيات المادية، وفيه كانت الإنطلاقة الحقيقية للرأسمالية، في وضعها التجاري وكذا التحولات الاقتصادية والاجتماعية؛ المرتبطة بها والتمخضة عنها². وخلال القرن 16 و17م ظهرت في أوروبا مجموعة من الأفكار والسياسات الاقتصادية عرفت باسم الميركنتيلية، في ظرف الحاجة إلى المال والثروة وهو ما كان يمثل تصورا و هاجسا للملوك ورجال الدولة. والميركنتيلية هي صنيسة رجال ومفكري النهضة الأوروبية، منذ بداية عهد التدفق الهائل كنوز العالم الجديد على أوروبا في ظل الاقتصاد القومي الذي جعل هذه البلدان تهتم للذهب والفضة والملاحة البحرية³. وتبلورت الميركنتيلية في أعقاب شيوع الفكرة القومية في أوروبا، ما جعلها تصبح

1- موسنييه، مرجع سابق، ص 120.

2- محمد حبيدة، تاريخ أوروبا من الفيودالية إلى الأنوار، الرباط، المغرب: دار أبي رقرق، 2016، ص 92.

3- المرجع نفسه، ص 150.

قوة تحفّز وتحرك المشروع الاستعماري الأوروبي¹، كما حرّضت التجارة البحرية الاستعمارية الرأسمالية على النمو².

كما سادت المرحلة الميركنتيلية بعد اكتمال حركة الكشف الجغرافية حيث راحت القوى الأوروبية تبحث عن تدعيم مركزها السياسي والاقتصادي من خلال تلفف المستعمرات والاستيلاء على خيراتها. ثم أصبح التجار في وقت لاحق يؤدون دورا بارزا في شؤون الاقتصاد والتجارة بمؤازرة الملوك والأمراء والحكومات، بعد التحسينات التي توافرت لهم وساعدتهم في صناعة السفن والقدرة على الإبحار والتنقل. وأصبحت بين التجارة والسياسة علاقة متينة إذ أصبح التجار ينادون بمقولة: "إن من يحكم تجارة العالم يحكم ثروة العالم، وإن من يحكم ثروة العالم يحكم العالم ذاته"³.

فالأوروبيين نظروا لوصول دي جاما إلى الهند ودورانه حول القارة الأفريقية بعين العناية والاهتمام، والحدث بالنسبة إليهم له أثره البالغ في مدنيّتهم المادية الحديثة. بحيث دفع من خلال التهافت التجاري الأوروبي إلى تشكيل الشركات الاستعمارية لامتصاص موارد الشرق، والتي تدخلت الحكومات والملكيات في رعايتها وتبنيها⁴.

ويظهر ذلك في ارتباط حكام البرتغال بالمال إذ أضحت الرأسمالية ملكية تنبناها البلاط، واعتبرت التجارة سبيلا للرفع من موارد الدولة. وزاد الاهتمام الرسمي بالتجارة منذ

1- محمد عبد العزيز ربيع، مرجع سابق، ص 227.

2- ديلماس، مرجع سابق، ص 96.

3- عباس غالي الحديثي، نظريات السيطرة الإستراتيجية وصراع الحضارات، عمان، الأردن: دار أسامة للنشر والتوزيع، ط01، ص 15.

4- محمد عدنان، صراع القوى في المحيط الهندي والخليج العربي، بيروت، لبنان: دار دمشق للطباعة والنشر، 1984، ص 105.

احتلال بعض الثغور المغربية وظهور المصالح التجارية مع إفريقيا، وبذلك رعت الدولة سنة 1506م تجارة الذهب والفضة والتوابل الآسيوية¹.

ولقد كان التوسع الرأسمالي التجاري هو عنوان ولب التنافس الدولي في القرن 16م². وبصفة مباشرة احتكر البلاط البرتغالي تجارة التوابل، معتمدا نظام التعاقد التجاري الذي يقضي بتوكيل الملك حق الاتجار في هذه المادة الشركات التجارية الأوروبية. ويبرز تحكم الملك في هذه العملية في تموضعه في لشبونة حيث ملتقى الشركات الوافدة بالتوابل من الهند؛ مع الشركات المسوقة لها في أوروبا³.

الطريقة نفسها نجدها تُطبَّق في إسبانيا، حيث اتخذ الملك مركزا له في مدينة إشبيلية في شكل مصلحة للعقود التجارية. تقتطع الحقوق الضريبية المحددة للعرش الإسباني على السلع والموارد المستورة من أمريكا والهند⁴.

الكشوف الجغرافية والانقلاب التجاري العالمي:

شهد حوض المتوسط الانقلاب التجاري العالمي الذي تسببت فيه حركة الكشوف الجغرافية نهاية القرن 15م، حيث أصبح المجال المتضرر حيال هذه المستجدات الحاصلة في ميدان البحرية والتجارة، بل كان الالتفاف عن المتوسط هو المقصود من وراء البحث عن طرق بحرية بديلة للتحرك إلى شبه القارة الهندية وما عرف بالعالم الجديد.

ثم إن جمع الثروة وهاجس تنمية الاقتصاد الوطني والأزمات الداخلية، جميعها من بين الدوافع التي حملت البرتغاليين على ركوب البحر، سعيا وراء تعزيز موقعهم الأوروبي وإثبات تواجدهم في دائرة موازين القوى العالمية⁵. كما استهل الاستعمار مسيرته عند أول

1- أحمد بوشرب، دكالة والاستعمار البرتغالي الى سنة إخلاء أسفي وأزمور "قبل 28 أوت 1481- أكتوبر 1541"، الدار البيضاء، المغرب: منشورات الشركة الجديدة دار الثقافة، 1984، صص 156-157.

2- رايسي، مرجع سابق، ص 49.

3- حبيدة، مرجع سابق، ص 145.

4- موسنييه، مرجع سابق، ص 128.

5- فوزية الجيب، مرجع سابق، صص 52-53.

نجاح بارز للكشوف الجغرافية، بتأسيس الإمبراطورية البرتغالية الاستعمارية لتظهر على خطاها وللهدف نفسه الإمبراطوريات الاستعمارية المماثلة، الإسبانية وبعدها الهولندية والفرنسية والبريطانية¹.

والذي حدث مطلع الفترة الحديثة هو انتقال تمركز البحرية من المتوسط إلى الأطلسي، وأصبحت إشبيلية ميناء العلاقات مع العالم الجديد. ولأن المحيط الأطلسي غدا مجال التجارة الحيوي، فإن بلدان أوروبا اتجهت نحوه وتطلعت إلى المعادن القادمة من أمريكا والتي حدث على إثرها انقلاب اقتصاد أوروبا².

كما تركز ثقل ورواج التجارة العالمية خلال القرن 16م في محورين رئيسيين هما محور أوروبا-أمريكا والذي هيمنت عليه إشبيلية، ومحور أوروبا- الشرق الأقصى وتحكمت فيه لشبونة. وكان عدد السفن التجارية والحمولات³ في تزايد ملحوظ ومستمر، مما يؤكد تراكم رأس المال التجاري⁴ وسيطرته على الواقع الاقتصادي بما يفسح المجال أمام بداية عهد الصناعة في القرن الذي يلي.

فالمغامرات البحرية والرحلات الكشفية التي خرج فيها بحارة البرتغال وإسبانيا تسببت في انقلابٍ أوقع إيطاليا في وضع اختلال من النقيض إلى النقيض⁵، وانقلب النظام التجاري للسوق رأساً على عقب بعد نجاح رحلات البرتغاليين والأسبان نهاية القرن 15م، حيث غدا جلب السلع وتوابل الشرق وشبه القارة الهندية خارج نطاق الوسطاء التقليديين⁶.

ومع بداية العصور الحديثة اكتنف التبادلات التجارية التهديد، وبنشأة الدول المركزية تزايدت الحاجة للأموال وتضاعفت أهميتها. واقتضت هذه الحالة فرض الضرائب على

1- محمد عدنان، مرجع سابق، ص 105.

2- كلود ديلماس، مرجع سابق، ص 155.

3- يُنظر الملحق رقم 01.

4- حبيدة، مرجع سابق، ص ص 143-144.

5- كونتامين وأخرون، مرجع سابق، ص 169.

6- شارل ديل، مرجع سابق، ص ص 145-146.

الأشكال المختلفة لنشاط رعايا كل دولة، وأساساً على التجارة الخارجية بوصفها مورداً رئيسياً للنظام الرأسمالي النقدي. كما جرى تطبيق فرض الضرائب وتحصيلها عند الحدود البحرية وفي الموانئ¹. وعليه فإن الحدود الجمركية هي صنعة القرن 16م، وصنعه أوروبا الحديثة. وهي التي جعلت من نظام الامتيازات أساساً للاتفاقيات الثنائية والمعاهدات التجارية لتصبح القضايا التجارية حيزاً مهماً في العلاقات الدبلوماسية²، كما سيطراً في القرن 16م في سياق حفظ المصلحة التجارية والاقتصادية.

كما تعلقت التجارة العالمية أساساً بالتوابل، ومنذ رحلة دي جاما إلى حدود سنة 1540م احتكر البرتغاليون هذه المادة، وجلبوا كميات كبيرة من صنوفها المختلفة. وفي سنة 1503م جلبوا 26 ألف قنطار من البهار بكونها أهم التوابل قيمة، وقد كانت هناك شبكة تجارية تحتترف بيعها في أسواق أوروبا وبأثمان باهظة³.

الأهمية الاقتصادية للضفة الجنوبية من المتوسط الغربي:

اتسم البحر المتوسط بالرخاء الاقتصادي والتجاري قبل ظهور المنافسة الغربية الأوربية، حيث اضطلع العرب بالوساطة التجارية طويلة المسافات مع أوروبا⁴، وحظيت الطرق الرئيسية للتجارة بغالب الأهمية في الصراع بين أوروبا العصور الوسطى والشرق، فمحاولة إقامة تحالفات مع خصوم المسلمين من المغول، والحروب الصليبية، ورحلات التجار الأوروبيين إلى بلاد الشرق؛ كلها مسائل أريد بها تحصيل الغرض نفسه⁵، وهو ملكية زمام التجارة الدولية. ومنذ النصف الثاني من القرن 14م تعاظم اهتمام رجال الأعمال الإيطاليين ببلدان البحر الأبيض المتوسط الغربي والسبب في الأمر هو إشراف المنطقة

1- جلال يحيى، تاريخ العلاقات الدولية في العصور الحديثة، مصر: دار المعارف، 1982، ص 30-31.

2- ديلماس، مرجع سابق، ص 101.

3- حبيدة، مرجع سابق، ص 145.

4- نسيم يوسف، مرجع سابق، ص 142-144.

5- المرجع نفسه، ص 147-151.

الغربية من البحر المتوسط على مدخل المحيط الأطلسي، الذي أصبح طريق الاتصال الرئيسي مع أوروبا الشماليه الغربية¹.

دفعت الأطماع الاقتصادية الحكومة الإسبانية صوب الضفة الجنوبية للمتوسط، وأثار ساحل إفريقيا الرغبة في احتلاله وامتلاك موانئ وأسواق جديدة تقدم إمكانية احتكار التجارة العالمية "المعادن والتوابل"². كما عُدَّت إفريقيا في منظور الإسبان بأنها الاختيار المنطقي لاسترجاع الثروة، نتيجة قربها الشديد وكذلك بسبب خروج إسبانيا من معركة شبه الجزيرة الإيبيرية³.

وارتبطت مدن بلاد المغرب الساحلية باتفاقيات تجارية مع نظيراتها الأوروبية المطلّة على البحر المتوسط. ومنها قشتالة وأراغونا، جنوة وفرنسا، ميورقة وفلورنسا وغيرها⁴. ولم تزل أهميتها رغم الضعف الذي أصابها حيث وقع الصدام وحدثت المعارك بين القوتين العثمانية والإسبانية في القرن 16م على حدود حوضي المتوسط، وهي "الجزائر وطرابلس الغرب، جربة وتونس، ومالطا وليبانت"⁵ وغيرها.

كما انتظمت علاقات تجارية محكمة بين الموانئ الإسلامية لبلاد المغرب وبلدان أوروبا المسيحية منذ قبل الفتح العثماني. وحظيت إذ ذاك السفن الأوروبية بحرية دخول موانئ هذه البلدان من المغرب حتى طرابلس، واتسمت التجارة البيئية بالنشاط والحيوية، حيث تأتي في مصاف أهم الموانئ الجمركية الرئيسية كل من "بجاية ووهران، جربة وتونس وقابس، صفاقص وطرابلس"، إذ توفرت هذه الأخيرة على مكاتب لرجال الجمارك ومخازن تودع بها السلع والبضائع⁶. ويحدد مارمول ساحل بلاد المغرب على المتوسط الجنوبية قائلًا:

1- كلود يلماس، مرجع سابق، ص44.

2- رايسي، مرجع سابق، ص64.

3- سينسر، مرجع سابق، ص34.

4- صالح عباد، مرجع سابق، ص17.

5- بروديل، مرجع السابق، ص42.

6- سينسر، مرجع سابق، ص ص23-24.

"والساحل المواجه للبحر المتوسط من مضيق جبل طارق إلى نهاية إقليم طرابلس الغرب"¹، وهو امتداد واسع ترتبت عليه أهمية المنطقة الاقتصادية والتجارية.

وفي أواخر القرن 15م مالت تلك العلاقة إلى الاضطراب² متأثرة بوضع الانقلاب في أحوال الفريقيين. وانقطعت العلاقات التجارية الودية التي جمعت الأوروبيين بالمسلمين في ساحل الشمال الإفريقي³.

وهناك طريق آخر ليس أقل أهمية وهو طريق الحج، تسلكه القوافل المتجهة من بلدان المغرب العربي المطلة على جانب البحر المتوسط في جهة الغرب. وهي قوافل تجارية تحمل السلع من بلاد المغرب؛ تعبر سواحلها وتصل بها إلى موانئ ومدن الحوض الشرقي في مصر والشام والحجاز. كما ترجع القافلة بسلع وبضائع الشرق عائدة إلى بلادها بما يلزمها ويلزم الأسواق فيها⁴.

كما تسبب سقوط الإمبراطورية المغولية وتقدم الفتح العثماني في حالة اقتصادية وتجارية لها ملامحها المتوسطية، ذلك أن الحوض الغربي من البحر المتوسط أصبح محور تجارة نشطة. حيث أخذت نابولي وباليرمو في النمو، وشرعت جزر البليار وبرشلونة تتاجر مع وهران فيما فعلت البندقية وجنوة ذلك مع تونس. كما تصدرت أقاليم أوروبية أخرى المواصلات بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي وهي لشبونة؛ إشبيلية وقادس⁵. وحظيت بلاد المغرب ككل على دور اقتصادي وتجاري مفصلي يظهر لنا بالوقوف على ملامحه من خلال اهم المراكز معرفة للنشاط.

1- مارمول كارخال، إفريقيا، ج01، ترجمة محمد حجي وآخرون، الرباط، المغرب: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، 1984، ص28.

2- عثمان مجاهد، مرجع سابق، ص76.

3- شارل فيرو، تاريخ جيجلي، ترجمة عبد الحميد سرحان، الجزائر: دار الخلدونية للنشر والتوزيع، ط01، 2010، ص94.

4- أباطة، مرجع سابق، ص21.

5- ليلي الصباغ، مرجع سابق، ص26.

1-المغرب الأقصى:

لم يكن المغرب الأقصى مثار اهتمام يقتصر على القوى الأوروبية ذات الأطماع في الأطلسي، والتي اهتمت لإدارة شؤونها البحرية من خلاله، فالدولة العثمانية هي الأخرى نظرت إلى المغرب بعين الاعتبار، حيث اعتبر جزءاً من العالم الإسلامي الذي يتهده خطر الصليبية؛ ويتوجب تأمينه منها. ثم إن التمكّن من المغرب -بالنظر إلى إستراتيجية موقعه- يُكسب القدرة على مراقبة الحركة البحرية الأطلسية وحماية نطاق النفوذ في الشمال الإفريقي، الأمر الذي اعتبرته الدول الأوروبية خطراً على مصالحها التجارية والبحرية وعائقا بالنسبة لأطماعها في بلاد المغرب¹.

تبوّأت مدينة سبته دورها في التجارة المتوسطية منذ العصر الوسيط إلى حين استيلاء البرتغاليين عليها سنة 1415م، وبفعل التفوق البحري للدول الأيبيرية حصل حصار بحري على الساحل المغربي المتوسطي؛ متسببا في انغلاق الاقتصاد المغربي واختلال توازنه عمّا كان عليه قبل القرن 15م². وفي أعقاب فتح القسطنطينية سعت السلطة البرتغالية إلى كسب موافقة وترخيص الكنيسة على توسعاتها الاستعمارية، ولصالحها أصدر البابا نيقولا الخامس براءة في 08 يناير 1454م، تقضي بأحقية التاج البرتغالي امتلاك سبته وغيرها من المناطق والمنافذ التي وصلها³.

وفي نفس السنة التي وصل فيها البرتغاليون إلى أقصى جنوب إفريقيا مكتشفين رأس الرجاء الصالح 1497م، جهّز الأسبان حملة بحرية متظاهرين أنهم سيطلقونها نحو العالم الجديد، لكن سرعان ما تبينّت نواياها الحقيقية بعد أن أبحرت باتجاه القاعدة المغربية بمدينة

1- محمد مزين، طبيعة الحروب في المغرب في عهد السعديين، بحث لنيل شهادة الإجازة في التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية لجامعة محمد بن عبد الله بفاس، المغرب: 1979-1980، ص 06.

2- محمد زنيير، المغرب في العصر الوسيط "الدولة، المدينة، الاقتصاد"، المغرب: منشورات كلية الآداب بالرباط، ط01، 1999، ص 383.

3- أباطة، مرجع سابق، ص 38.

مليلية، واستولت عليها في شهر سبتمبر تحت قيادة الدوق دون خوان دي جيثمان. وعلى إثر ذلك ظهر الهدف وهو التحكم في مضيق جبل طارق، إذ لم تعد أهميته مقصورة بالنسبة للبلاد المطلة عليه من الضفتين الشمالية والجنوبية من المتوسط، بل غدا ممرا حيويا بين الشرق والغرب أو بين العالم القديم والجديد، وسيطراً بشأنه نزاع دولي في دور جديد¹.

مضيق جبل طارق:

ومضيق جبل طارق يفصل/يصل بين قارة أوروبا -مع جنوب إسبانيا- وقارة إفريقيا في شمالها الغربي حيث المغرب الأقصى، ويصل بين البحر المتوسط من جهة والمحيط الأطلسي من جهة ثانية. وقد كان سببا في تكالب القوى الإستعمارية والسيطرة عليه نظير أهميته الاستراتيجية وتميز موقعه تجاريا وعسكريا واستراتيجيا².

وعندما نجح المسلمون في إقفال طريق الملاحة في جبل طارق حرمت سفن جنوة الوصول إلى هناك، وأطبقت حصارا على تجارة الأراضي المنخفضة وبحر الشمال. كما تكونت نتيجة لذلك مجموعة من الموانئ البحرية الإسلامية متمثلة في جربة وبنزرت؛ بجاية ومراكش وغيرها، واتخذت الأساطيل منها مراكز للنشاط في البحر المتوسط³.

سيطرت مملكة قشتالة على مضيق جبل طارق وهو ضمن المنطقة التي استمرت في أيدي المسلمين منذ القرن 08م، وتوسعت البرتغال وإسبانيا قبالة الجنوب في إطار توسع مركز النشاط العالمي من المتوسط نحو الأطلسي⁴. وأثناء مرحلة التقلبات السياسية بين المؤثرين في جهة أقصى غرب المتوسط، استغل المرينيون الأوضاع وتوسعوا إلى الساحل الشمالي لمضيق جبل طارق حتى سنة 1344م. وضمن إطار ما عرف بمعركة المضيق

1- عبد العزيز سالم ومختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، بيروت، لبنان: دار النهضة العربية، 1969، ص370.

2- مصطفى أبو لقمة وعلي الأعور، الجغرافيا البحرية، بنغازي، ليبيا: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ط02، 1999، ص165.

3- رائسي، مرجع سابق، ص67.

4- خيرونيمو بايز لوبيز، مرجع سابق، ص ص35-36.

ركزت أراغونا وجنوة وقشتالة ومعهم البرتغال على هذه المنطقة الحساسة، وانتهى الصدام لصالح القشتاليين بمزايا فتح مجال التجارة البحرية العالمية وما نتج عنه من الرخاء اقتصاديا واجتماعيا، ليجد المغرب الأقصى نفسه أمام تبعات اقتصادية وسياسية سلبية اشتدت وطأتها على بلاد المسلمين بعد ما ألم بغرناطة من قبل التوافق الإسباني الكاثوليكي¹.

ومنذ القرن 14م ازدادت أهمية جبل طارق من موقعه كحلقة وصل بين العدوتين المغربية والأندلسية، وشهد محاولات الاستيلاء عليه من طرف القشتاليين والتحكم في مضيقه الذي انطلقت منه نجدة المسلمين في الأندلس، وفي سنة 1462م نجح القشتاليون في السيطرة على هذا المركز الحيوي وإنهاء السيادة الإسلامية عليه².

كذلك استولى البرتغاليون في سنة 1458م على القصر الصغير ثم على مدينة طنجة في 1464م؛ وهي السنة التي انتهت فيها الدولة المرينية. وقد اكتسبت المدن المغربية أهميتها من خلال مركزها الاقتصادي وتأتي في الدرجة الأولى كل من سبتة وطنجة، فاس ومراكش، أسفي وسلا،... وغيرها³. وكانت مطامح البرتغاليين ترى من وراء احتلال المغرب الأقصى سيطرتها على تجارة الذهب الراجعة⁴.

1- أنطونيو تورموكا سلفا، بنو نصر في غرناطة وبنو مرين في المغرب" ابن خلدون البحر المتوسط في القرن 14م قيام وسقوط إمبراطوريات"، مرجع سابق، ص 82.

2- نهلة أحمد، الأهمية الإستراتيجية لجبل طارق عند العرب المسلمين خلال القرون الوسطى 711-1462م، دبي: مركز المدج الإمارات العربية المتحدة، مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد 16، مارس 1997، ص ص 70-71.

3- محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، المغرب: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط3، 2000، ص ص 17-18.

4- هريك، مرجع سابق، ص 113.

الجزائر:

تقاسمت الجزائر من خلال مدن ساحلها الشرقي مصالح تجارية واسعة مع شبه جزيرة إيبيريا وشبه الجزيرة الإيطالية¹، وحصل تجار بيزا وجنوة والبندقية على معاملات هامة مع القل وجيجل وبجاية، حتى أنهم اتخذوا لهم في بجاية حمامات وخانا خاصا بهم. وتمتعوا بتسهيلات واسعة جعلتهم نشطاء في تجارة الشموع والجلود والأصواف بين هذه المناطق والتجار المسيحيين، واستمر على ذلك الحال قائما حتى مطلق القرن 16م². وفي الوقت نفسه كانت مناطق غرب البلاد أو مملكة بني زيان مفتوحة للأوروبيين، حيث عرفت حركة تجارية مزدهرة إلى حد كبير³، واستقبلت وجلبت بدورها التجار المسيحيين، ومما يذكر الوزان حول ذلك: "كانت وهران مهبط التجار القطلونيين والجنوبيين، وما زالت بها الآن دار تسمى دار الجنوبيين لأنهم كانوا يقيمون بها"⁴.

إلا أن هذه المبادلات التي جمعت بين الجزائر وبلدان أوروبا تجاريا استاءت من جراء التواجد الإسباني في سواحلها مع طلوع القرن 16م⁵، وتأثرت ثروات الجزائر بتأثير التغييرات التي جرت في المتوسط شرقه وغربه مع القرن 15م، والتي هزّت التوازن التجاري الذي كان بين المسلمين والنصارى من قبل في غرب البحر المتوسط⁶. وبصفة منتظمة كانت السفن التجارية الأوروبية تتراد مدينة الجزائر نتيجة كثافة العلاقة التجارية وخاصة مع الإمارات الإيطالية، بحيث وفر الثعالبية في مدينة الجزائر حماية هذه السفن من اعتداءات الحفصيين

1- أسست إمارة جنوة مركزا لصيد المرجان في خليج عنابة منذ سنة 1451م. ينظر: بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا 1500-1830، الجزائر: وزارة المجاهدين، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، 2009، ص59.

2- صالح عباد، مرجع سابق، ص ص16-17.

3- هاينريش فون مالتسان، ثلاث سنوات في غرب شمال إفريقيا، ترجمة أبو العيد دودو، ج02، الجزائر: وزارة المجاهدين، دار الأمة، طبعة خاصة، 2009، ص56.

4- الحسن الوزان، مصدر سابق، ج02، ص30.

5- عباد، المرجع نفسه، ص16.

6- نفسه، ص32.

والزيانيين والمرينيين¹، وإلى غاية نهاية القرن 16م كانت الجزائر ككل إحدى مناطق الانتشار البحري والتجاري للبندقية².

طرابلس:

بلغت طرابلس مطلع القرن 16م منزلة هامة في شق التجارة الإفريقية والمتوسطية، واتسمت بكونها مدينة تجارية فاقت أهمية تونس، وتردد عليها تجار جنوة ومالطة وصقلية³. كما انفردت بازدهار مشهود من بين جميع المراكز الحضرية الموجودة على الشواطئ الممتدة بينها وبين مدينة الإسكندرية⁴.

ونتيجة لما زخرت به طرابلس من موقع هام يؤدي إلى جهة شرق المتوسط، أتت ضمن إستراتيجية طرفي الصراع الإسلامي النصراني "الدولة العثمانية وإسبانيا". وهي قاعدة للنشاط البحري في المتوسط بأبعاده المختلفة ومنها الاقتصادية، علما أنها بجوار تونس وقبالة جزيرة كريت⁵ إحدى أهم جزر البحر المتوسط. علاوة عن قربها من مالطة وصقلية، كما أنها المدينة الأخيرة من بلاد المغرب والمؤدية إلى الإسكندرية؛ ومارست التجارة مع البنادقة الذين كانوا يأتونها كل سنة ويلتقون فيها تجارها وتجار مناطق أخرى غيرها⁶.

وخلال الأربعين سنة التي سبقت احتلال طرابلس من طرف الإسبان، عرفت طرابلس ثروة وافرة وحياة معيشية جيدة، جلبت عليها أطماع الراغبين في السيطرة عليها وعلى البلاد

1- عباد، مرجع سابق، ص ص32-33.

2- بروديل، مرجع سابق، ص90.

3- جواد سماحي، البعد الاقتصادي للصدام العثماني الأوروبي في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن 16م، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا، مخبر الدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا، جامعة تيارت، مج04، العدد02، ص ص498.

4- مارمول، مصدر سابق، ج01، ص121.

5- ثاني أكبر جزيرة في البحر المتوسط بعد جزيرة قبرص، تبلغ مساحتها 8393 كم² وتقع عند مدخل أرخبيل اليونان، وهي نقطة الوسط بين الدول العربية من جهة وتركيا (حاليا) من جهة أخرى. قسمها العثمانيون إلى أربع محافظات بعد ما فتحوها في القرن 17م. للمزيد ينظر: إبراهيم بكرابي، جزيرة كريت والمهاجرين، طرابلس، لبنان: دار المنى، ط01، 2004.

6- الوزان، مصدر سابق، ص98.

الإسلامية. وكانت ثروتها وما تزخر به من خيارات تثير إلى الاستيلاء عليها لإقامة القلاع والتمركز في طريق مثالي قريب من مالطا¹.

كما رافق دخول الإسبان مدينة طرابلس سنة 1510م مظاهر الاستيلاء على الممتلكات، حيث سطى الجنود النصارى على كميات وازنة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة. واثّر الحصول على وعد بالحفاظ على الحياة استسلم أميرها وحاشيته ، ومع دخول الكونت نافارو القصر هرع مستوليا على ما احتواه من كنوز. وكانت المدينة تعج بالخيرات وصنوف النفائس، واستنادا على رواية مارمول فإن سكانها استطاعوا عبر البادية أن يهربوا ما قيمته حمولة 05 آلاف رأس إبل، حيث يضيف بالقول: " كانت طرابلس برونقها وذخائرها تنافس مدينة تونس...، وكانت تتباهى بكنوزها وذهبها وفضتها وأحجارها، التي تجمعت لدى السكان بفضل الرواج التجاري الذي كان ينعشها. كان بطرابلس أكثر من مائة وخمسين معملا للنسيج؛ تصنع فيها الثياب الحريرية وملابس البحارة. وكانت تباع بالمدينة مختلف أنواع التوابل والعطور، وأحواضها البحرية مجهزة لإصلاح السفن وصناعتها، كان الكونت يحجز عدة سفن تجارية تركية محملة بأنفس البضائع وأغناها...²."

تونس:

اعترفت بلدان أوروبا بحيوية تونس كشريك تجاري قوي نتيجة قوة السلطة الحفصية خلال القرن 15م، وسعت كبريات البلدان النصرانية الأوروبية إلى إبرام أو تجديد المعاهدات التجارية معها، ومن بينها فرنسا وإمارات إيطاليا التي وجدت في البلدان المغاربية تعويضا لانحسار فاعليتها التجارية في شرق المتوسط³. وكانت تونس منذ الفترة الوسيطة معروفة

1- ابن غلبون الطرابلسي، تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، تحقيق وتعليق الطاهر الزاوي، بيروت، لبنان: دار المدار الإسلامي، ط1، 01، 2004، ص136.

2- مارمول كاريخال، مصدر سابق، ج03، ص ص123-124.

3- جوليان، مرجع سابق، ص188.

بالتجارة في مواد وطبوع شتى، كالحبوب والتمور والأقمشة والزيتون وغيرها من الأنماط الأخرى كالمرجان وبعض الأسلحة. وضربت تونس سكتها من معدن الذهب ومن الفضة، وهي أرفع قيمة وأعلى اعتبارا من السكة التي اعتمدها البلدان النصرانية¹.

ونتيجة لقوة تونس في فترة السلطان أبي العباس حدثت شبه منافسة بين دول أوروبا تتسابق فيها إلى كسب المصالح التجارية مع تونس، وشعرت كل واحدة بحاجتها الضرورية للتفاهم مع صاحب تونس ضمانا لحظوظ التجارة والملاحة معه. ودخلت الإمارات الإيطالية في مفاوضات تطلب الصلح وتروم توقيع هدنة رسمية، بحيث نجحت في ذلك بيزا وجنوة والبندقية وتبعتها الإمارات الأخريات².

واشتملت تونس على مدن ساحلية لها توجهها التجاري المفروض في بيئة المتوسط البحرية، وهي مراكز قَوي عليها الصراع طوال القرن 16م وقبله، ومنها مدينة المهدية التي تعاطى سكانها التجارة البحرية. وكذلك سوسة التي اشتهر سكانها بأنهم بحارة في السفن التجارية النشطة مع بلاد الشرق، كما كانوا يهاجمون بسفنهم السواحل المجاورة لإيطاليا وصقلية³. ناهيك عن جربة التي قصدها الإسكندريون والأتراك لرواج التجارة فيها⁴، حيث عرّضها موقعها المميز لاعتداءات الأوروبيين المتكررة كان أبرزها الحملة المسيحية بقيادة الإسبان سنة 1560م. دون أن ننسى حلق الوادي المدينة الساحلية التي أشاد التمكروتي بأهمية موقعها على المتوسط بما يشبه الجزيرة إضافة إلى صمود حصنها ومناعته⁵.

1- جوليان مرجع سابق، ص ص195-196.

2- روبرير برنشفيك، مرجع سابق، ج01، ص ص248-249.

3- الوزان، مصدر سابق، ص ص83-86.

4- الوزان، مصدر سابق، ص95.

5- علي بن محمد التمكروتي، النفحة المسكية في السفارة التركية، تحقيق عبد اللطيف الشادلي، الرباط: المطبعة الملكية،

2002، ص ص41-42.

جهود العثمانيين لفرض تأثير العالم الإسلامي واستعادته على التجارة الدولية:

عقب ضم الدولة العثمانية مناطق نفوذ بيزنطة إلى نطاقها اتجهت أنظار السلطة نحو الهيمنة الفعلية على المناطق الساحلية، بهدف إنهاء الدور التجاري الذي تلعبه البحرية المسيحية في المضائق وكذا البحار؛ البحر الأسود وبحار المتوسط "إيجا والأدرياتيك"، رغبة في الاستئثار بأمر التجارة ضمن هذه المنطقة الحيوية وتعزيزا لدورها الاقتصادي والإقليمي¹. وكذلك صاحب اتساع فتوحات العثمانيين حرمان التجار الغربيين الوافدين من جنوة والبندقية أو مقاطعتي البروفانس واللانغدونغ من تسوق مواد مختلفة؛ غذائية وغير غذائية، من موانئ الإسكندرية وبيروت².

وبعد انتصارها على المماليك اكتسبت الدولة العثمانية بلادا مهمة معمورة الأرجاء في آسيا وإفريقيا، وتحولت مصادر الاقتصاد المملوكي لصالح العثمانيين، حيث وافقت البندقية على دفع الضريبة نفسها التي أدتها التزاما عليها للسلطان المملوكي والمقدرة بـ 08 آلاف دوقة³ ذهبية⁴.

وزامن تنامي اتساع رحاب السيطرة العثمانية كشف طريق الرجاء الصالح، كما أصبحت التجارة أحد فصول العلاقات الإسلامية الأوروبية التي أنتجتها الحروب الصليبية. وبفعل المتغيرات بين العالمين منذ بروز العثمانيين طرفا والبلدان الأوروبية المسيحية طرفا ثانٍ، وتحت تأثير معطيات الصراع الموجود، وإمكانيات كل جهة على حدى؛ انقطعت إلى حد ما الصلات التجارية بين الشرق والغرب⁵. هذا الأخير الذي توفرت لديه محفزات وبدائل نسبية.

1- أحمد سالم، إستراتيجية الفتح العثماني، مرجع سابق، ص 91.

2- موسنبيه، مرجع سابق، ص 121.

3- قطعة نقدية ذهبية ضربت أول مرة سنة 1284م، كانت متداولة في البندقية وفي القرن 15م توسع تداولها في مناطق واسعة من العالم. ينظر: كات فليت، مرجع سابق، ص 337.

4- فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، ص 401.

5- حسين مؤنس، مرجع سابق، ص 28-29.

ولأن الاقتصاد أحد روافد الصراع الذي دام خلال القرن 16م، فإن تحرك الدولة العثمانية كان من قبيل مقاومة التواجد الإسباني في المتوسط والبرتغالي في المحيط الهندي وبلاد الشرق. وهو تواجد وضع أمامه فرض حصار اقتصادي يطوّق من خلاله العالم الإسلامي وينهي نفوذه في هذه المراكز¹.

ثم إنّ السلاطين العثمانيين لم يبقوا موقفاً عدائياً مع التجارة والتجار الغربيين، إنما ابقوا على سريان المعاهدات التجارية مع حكومتها جنوة والبندقية، وتقيّدوا بمضامينها. وحتى القوافل العابرة في بلاد فارس وطرق الخليج والبحر الأحمر، بقيت تتمتع بحرية المرور التي كانت تتمتع بها من قبل. ويضاف إلى هذا قيام السلطان سليم بتخفيض الرسوم على التجارة إغراءً للشركاء البنادقة².

وإدراكاً من السلطان سليم تبعات فقدان طرق العالم الإسلامي دورها الاقتصادي التجاري، عقد معاهدة مع البنادقة في 14 فبراير 1517م تشجيعاً لهم حتى يستمروا في معاملاتهم التجارية عبر الطرق التي غدت تحت حكم العثمانيين³. وللهدف ذاته أبرمت في فبراير 1535م المعاهدة الشهيرة باسم "معاهدة صداقة وتجارة بين الإمبراطورية العثمانية وفرنسا" بين السلطان القانوني والملك فرنسوا الأول، والرامية إلى تنفيذ سياسة التنشيط التجاري بين الدولة العثمانية وبلدان أوروبا المطلّة على البحر المتوسط. وكان العثمانيون يستهدفون منها تعويض الخسارة التجارية المترتبة من وراء تحول التجارة العالمية إلى طريق الرجاء الصالح⁴.

1- الناصر رائي، مرجع سابق، ص 37.

2- محمد حميد سليمان، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج في الفترة ما بين 1507-1565م، الإمارات العربية المتحدة: مركز زايد للتراث والتاريخ، 2000، ص 18-19.

3- أباطة، مرجع سابق، ص 73.

4- المرجع نفسه، ص 81.

وكثيرا ما تأثرت التجارة بالعلاقات السياسية، حيث نجحت العلاقات التجارية في إقامة شبكة مترابطة بين مختلف البلدان والممالك من عدة قارات¹، وعليه كان للتجارة وطأتها على الحياة السياسية حتى أن النظام القنصلي مع مطلع الفترة الحديثة كان له من حيث المبدأ صفة تجارية أساسية، إذ انحدر من يحمل لقب القنصل من فئة التجار، حيث يختارهم زملائهم ويتم تعيينهم بواسطة الملك أو السلطة المفوضة. ومع هذه المهمة قام القناصل بدور المندوب الدبلوماسي في بعض الظروف؛ وهذا هو وضع قناصل البلدان المسيحية في نطاق الدولة العثمانية².

وإذا كان هناك من يرى أن سيطرة العثمانيين على البحر الأسود وجنوب المتوسط أدت إلى توقف وسائل الاتصال التجاري التقليدي³، فإن الإجراءات التي اتخذتها إسطنبول في ما تعلق بالتجارة تؤكد العكس. ذلك أن العلاقة الحسنة بين الدولة العثمانية وبين البندقية وفرنسا من خلال المعاهدات المبرمة، استطاعت أن تستعيد حيوية طرق التجارة عبر العالم الإسلامي، والسفن التابعة للدولتين المذكورتين كانت في أغلب الأوقات تتولى نقل البضائع والتجار والحجيج من عاصمة الخلافة، ومن مناطق أخرى لتتجه بها إلى الأمصار المتوسطية⁴.

لذلك كان من شأن هذه المعاهدات والعلاقات أن أسهمت في حرية تنقل رؤوس الأموال واستقطاب تمركز اقتصادي في حوض المتوسط، بفضل الامتيازات العثمانية الممنوحة؛ استهدافا لإحداث حيوية تجارية في موانئ السواحل العثمانية في شرق وغرب المتوسط⁵.

1- خيرونيمو بايز لوبيز، مرجع سابق، ص 36.

2- جلال يحيى، مرجع سابق، ص 28.

3- نسيم يوسف، مرجع سابق، ص 151.

4- رائسي، مرجع سابق، ص 44.

5- المرجع نفسه، ص 44.

ومن مزايا سلمية العلاقة بين الجمهوريات الإيطالية والدولة العثمانية، أن استعاد التجار الإيطاليون علاقاتهم التجارية مع الموانئ العربية وتعاملاتهم مع بلاد الهند. وابتداءً من منتصف القرن 16م صار في مقدورهم منافسة تجار لشبونة وكسر الاستئثار الذي حُص به البرتغاليون؛ بسبب محاولات قطع صلات التجارة بين إيطاليا وبلاد العرب، بحيث بلغ حساب تجارة البندقية لوحدها ما معدله مليون و310 آلاف جنيه سنويا ما بين 1560 و1564م¹.

وبالنظر إلى أهمية تأمين طرق التجارة الإسلامية أقحم العثمانيون الحرب كل ما تطلبت الضرورة ذلك، إذ من المعلوم أن تموقع فرسان مالطا خلال القرن 16م أمام طريق التجارة البحرية الإسلامية في المتوسط، عرّضها لخطر الاعتداءات المتكررة وأنهك سفنها، إذ كانوا يقومون بعمليات متكررة ضد التجار، من مراكزهم في طرابلس ومالطا. واقتنع السلطان أنه لا أمان على مصالح المسلمين التجارية في وجود تنظيم الفرسان، خاصة وأنهم خرقوا المعاهدة التي التزموا فيها مع الدولة بعدم اعتراض شؤون البحرية العثمانية²، وذلك عند ما مكّتهم القانوني الخروج من جزيرة رودس دون إذائتهم. وعليه كان التركيز على افتكاك طرابلس 1551 وحصار مالطا 1565م³ معركة في إطار تأمين المصالح الإستراتيجية للدولة العثمانية ومن بينها الاقتصادية التجارية.

1- حبيدة، مرجع سابق، ص146.

2- وولف، مرجع سابق، ص68.

3- دعا البابا بول الرابع (1476-1559م) إلى توحيد الأساطيل الأوروبية المسيحية في إسبانيا وفرنسا وموناكو وجنوة وشن حملة صليبية ضد العثمانيين المسلمين بما يحقق الاستيلاء على مالطا وطرابلس وإغلاق الممر البحري بين تونس وصقلية أمام المسلمين ومن ثمة عزل الجزائر كقوة في الفضاء المتوسطي. يُنظر:

-Mouloud Gaid, Op.cit. p80.

وكانت جماعة الفرسان كمنظمة دينية وعسكرية تمتلك العديد من النقاط الاستراتيجية والمراكز التجارية في إيطاليا واليونان وصقلية، إضافة إلى امتلاكها أسطولاً كبيراً وقوياً. وكذلك اعتمدت عليها مالطا كثيراً في إدارة شؤونها ومصالحها¹.

ويتضح مما سبق أن الدولة العثمانية كانت جزءاً لا يتجزأ من المنظومة الاقتصادية لحوض البحر الأبيض المتوسط². بحيث استطاعت عن طريق إيالاتها وفضاء التأثير الذي دخلته، أن تفرض انتصاف التجارة والاقتصاد المتوسطيين بين العالم الإسلامي وأوروبا المسيحية، برغم مساعي ورهان هذه الأخيرة إقصاء المسلمين من ذلك.

1 - Gaid, Ibid, p83.

2- كات فيليت، التجارة بين أوروبا والبلدان الإسلامية في ظل الدولة العثمانية، ترجمة أيمن الأرماني، ط01، منشورات العبيكان، المملكة العربية السعودية، 2004، ص285.

المبحث الثالث: الوجه الاستراتيجي للصراع العثماني الأوربي في الجزء الغربي من المتوسط خلال القرن 10هـ / 16م

الحرب البحرية أمر واقع:

بقيَ العثمانيون لفترة غير قصيرة يخوضون الحرب البرية ضد خصومهم في الأناضول وآسيا الصغرى، وامتد أمر هذه المواجهة على هذا الحال طيلة فترة الدولة القارية والإقليمية عندما كان من الأهم تأمين الحدود القريبة.

ومن بين أهم الأسباب الملحة وراء بروز خيار بناء أسطول بحري كضرورة لدى سلاطين الدولة العثمانية؛ حادثة حربية تعود إلى سنة 1416م، انتصرت فيها قوات جمهورية البندقية على العثمانيين في غاليبولي¹، بحيث كان للأمر وقعه في التفكير الجدي حيال إنشاء قوة بحرية لمواجهة أساطيل الإمارات الإيطالية. وللتمكن من رعاية المصالح السياسية والاقتصادية للدولة العثمانية في غربي المتوسط، وفي المياه المحاذية والمؤدية لممتلكاتها في البحرين؛ الأسود والأحمر، إضافة إلى الخليج العربي والمحيط الهندي².

ومن وجهة النظر العالمية فإنه وُجد نوع من التوازن بين أوروبا العصور والوسطى والعالم الإسلامي منذ القرن 15م، وخلال أقل من نصف قرن تتضح معالم ذلك، حيث أن الاستيلاء على القسطنطينية عام 1453م سيقابله بعد فترة وجيزة فقدان المسلمين للأندلس نهائياً سنة 1492م.

كما يتضح أن العثمانيين وجدوا أنفسهم في مواجهة غير اختيارية مع الدولة البيزنطية، وهو ما طرح الحاجة إلى حتمية اكتساب قوة بحرية تواجه بحرية جنوة

1- شبه جزيرة مطلة على مضيق الدردنيل شمال غرب تركيا في قسمها الأوروبي.

2- طه مكي الرديني، المؤسسة العسكرية العثمانية 1299-1839م، الأردن: دار الحامد للنشر والتوزيع، ط01، 2014، صص 121-122.

والبنديقية، بحيث كان لكل من هاتين الأخيرتين أسطول بحري قوي يرجع تاريخه إلى الحروب الصليبية¹.

الجانب العسكري في رعاية المصالح السياسية:

يُعد الجانب العسكري أداة إجرائية لتفعيل الإرادة السياسية في الاصطدامات والتوسعات الحربية، فيكون في ذلك الجيش وسيلة لتنفيذ الخطط المسطرة والمدعومة من الجهاز الحاكم، الذي عادة ما تجتمع لديه السلطة في جميع مستوياتها.

والحروب البحرية تقوم على أساس السيطرة على البحر، أي التحكم في التجارة المنقولة وتأمين نقل الأفراد والجنود بحرا، وإمكانية رصد وتتبع تحركات العدو وعرقلتها. ويتأتى القول أن الحرب البحرية تركز على أمرين جوهريين يتمثلان في؛ الغارة الدائمة والإجهاز على أسطول العدو وإلحاق ضربات متواصلة بأجزائه، بغية تحطيمه والنيل من جاهزيته، ثم تضيق الحصار على سفن الخصم ومحاولة حشرها في موانئها دون إتاحة فرصة التحرك حتى تؤتمن هجوماتها².

ولما كان من مقتضيات طبيعة الحكم العثماني أن يستأثر السلطان بالسلطة المدنية والعسكرية، فإن ذلك في الغالب قد استوجب منه أن يكون سيد القرار السياسي وقائد الحياة العسكرية، فمنذ أواخر القرن 15م واجه العثمانيون جيرانهم المسيحيين في شبه جزيرة البلقان. وظل المتوسط منطقة نزاع ساخنة بالنسبة للسيطرة البحرية، كما استمرت حالة التأهب الحربية قائمة على امتداد القرن 16م لذلك كانت الحدود بين الطرفين حدودا عسكرية³.

ولم يكن في البحر المتوسط مع بواكير القرن 16م أسطولا إسلاميا في وسعه إيقاف الزحف الإسباني على بلاد المغرب وسواحلها، تزامنا مع حالة الانهيار والمشاكل السياسية

1- محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي 1514-1914م، مصر: دار الجليل للطباعة والنشر، د.ت، ص 81.

2- أحمد رمضان أحمد، تاريخ فن القتال البحري في البحر المتوسط "العصر الوسيط" من 655 إلى 1571م، مصر: هيئة الآثار المصرية، د.ت، ص ص 3-4.

3- ميلاد المقرحي، مرجع السابق، ص ص 74-75.

الطاحنة التي كانت تضطرم بها دويلات المغرب. فاستمر التقدم الأوربي في المنطقة يُنفذ سياسته التوسعية؛ استكمالاً لما بعد تراجع المسلمين في الأندلس مع عجز البلدان المستهدفة في دفع هذا الخطر¹.

الاهتمام العثماني بالبحرية:

بالنسبة إلى تاريخ الاهتمام العثماني بالبحرية فإنه قديم، أما في الفترة الحديثة فبيدوا على الأقل يظهر بشكل إجرائي وملحوظ مع السلطان محمد الفاتح، ذلك أنه أولى بالغ العناية بالقوة العسكرية البحرية استعداداً لمجابهة أعداءه وتنفيذ خطته التقدمية في توسيع امتداد الدولة. ومن المنطقي أن يعتمد فتح القسطنطينية عام 1453م على عمل عسكري بحت تدفعه رغبة وعناية سياسية من السلطان العثماني. وقد شكل سقوط هذه العاصمة في يد القوات العثمانية تحولا حاسما في الزعامة السياسية الدولية، إذ أكد على مكانة الدولة العثمانية كواحدة من أقوى الامبراطوريات المؤثرة في أوروبا كذلك². كما بات من الضروري عقب فتح القسطنطينية وبعد أن أصبحت الدولة العثمانية صاحبة البرين والبحرين³، مضاعفة

1- فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، ط01، 2007، ص ص 530-531.

2- جيري بروتون، مرجع سابق، ص31.

3- عبارة أطلقت على الدولة وعلى سلاطينها من عهد محمد الفاتح، وكانت قبل نعتت بها دولة المماليك. ولقب السلطان العثماني منذ انتصار 1453م بسلطان البرين والبحرين، ولقب القانوني هو الآخر وغيره من السلاطين بلقب "سلطان البرين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين"، وكانت العبارة تعني في العهد المملوكي البرين "المصري والشامي" والبحرين "الأحمر والمتوسط"، ودلالاتها هي شساعة الامتداد وقوة الاتساع التي بلغت في القرن 16م عدة أمصار وبحار. ينظر: محمد شفيق غريال، منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ما هي عليه اليوم، مصر: منشورات مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2017، ص ص 68-70.

الاهتمام بالبحرية والتفكير أكثر في بناء السفن والأساطيل، وتحديثها بما يُيسّر الوصول إلى السواحل ويحقق الاستيلاء على القلاع في كل من أوروبا والأناضول¹.

قدّم فتح القسطنطينية مكانة سياسية كبيرة للمسلمين، فقد أمّنت هذه العاصمة للعثمانيين معسكرا وسطا بين القارات الثلاث؛ آسيا وأوروبا وإفريقيا، كما غدت دعامة لامتداد لامتداد فصولٍ إضافية من الفتح والتوسع، وأكسب تحصيل هذه المدينة المركزية للعثمانيين للعثمانيين حُظوة محورية على الصعيد البحري².

وبقطع النظر عن الدلالة السياسية والدينية لمدينة القسطنطينية، فإنّ عثمنتها تعدّ تعدّ إنجازا له علاقته المباشرة مع البحر المتوسط، سمح للدولة أن تتخذ منها عاصمة بمعالمها وأبعادها المتوسطية في الحوضين الشرقي والغربي، ومركزا يتم منه إدارة العلاقات العلاقات الإسلامية المسيحية، والعلاقة بعالم البحرية وبالمتوسط خصوصا. كما ستفتح هذه ستفتح هذه المناسبة باب التوجه البحري المتوسطي للعثمانيين، إذ ستقوم استراتيجية القرن 16م تحديدا على مبدأ عثمانة الموانئ والضفاف المتوسطية، جعلها محورا إسلاميا عثمانيا بترابطه الحضاري؛ التاريخي والديني والتجاري³.

وكذلك قدّم الحصول على هذه المدينة العاصمة دفعا لخطة السلطان العثماني التوسعية نحو أوروبا، وبدأت مساعي تنفيذ مجموعة من العمليات التوسعية نحو القارة الأوروبية، مستهدفة الجزر والمعابر ذات الأهمية الإستراتيجية. كما استطاعت حصد انتصارات ومكاسب هامة في البحر الأبيض المتوسط أدت إلى اعتراف وإقرار عدد من

1- كاتب جلبي، تحفة الكبار في أسفار البحار، ترجمة محمد حرب وتسليم حرب، تركيا: دار البشير، ط01، 2016، ص65.

2- محمد جميل بيهيم، فلسفة التاريخ العثماني، لبنان: منشورات دار صادر، د.ت، 1925، ص167.

3- رائي، مرجع سابق، ص ص42-43.

الإمارات الأوربية المسيحية؛ ضمينا من خلال انتهاج سياسة المهادنة والتفاهات الدبلوماسية مع السلاطين العثمانيين اعتبارا للمصالح¹.

مضاعفة العناية بالأسطول البحري من طرف السلاطين:

كان بايزيد الثاني يضع في الحسبان أن القوة البحرية هي التي كانت وراء والده، وأن المعارك التي خاضها في البحر إنما تعتمد على تفوق الأساطيل ووفرة الرجال البحارة، الأمر الذي دفعه في عام 1498م نحو مضاعفة معدات الأسطول القباطنة ذوي الخبرة في قيادته. وحرص من خلال هؤلاء على إيجاد القباطنة الأكثر ونجاحًا، وبهذا يعتبر السلطان بايزيد الثاني مسهما في إرساء العلاقة بين أعمال القرصنة والأسطول العثماني، ليستمر بعده النشاط البحري بمثابة أهم مدرسة للملاحين العثمانيين والحرب البحرية².

كما أن خوض العثمانيين للتوسع على حساب أوروبا المسيحية سيدفعهم مرغمين على إتقان مهنة صناعة الأسطول، باعتباره الأداة اللازمة لعبور الممرات البحرية البينية والوصول للسواحل بداية من الدردنيل، ولإجلاء البنادقة والجنوبيين من المناطق التي سيطروا عليها شرقا منذ أيام الحروب الصليبية، ولغاية اللولج إلى عرض البحر الأبيض المتوسط حيث القوى الأوروبية البحرية، وعلى رأسها القوة الإسبانية³ كأبرز قوة بحرية أوروبية في المتوسط وما وراء الأطلسي⁴.

1- اتضح هذا في البداية من خلال سعي الإمارات التجارية والبحرية الإيطالية كسب علاقات مصلحة وصداقة مع إسطنبول، حفاظا على مستقبلها في دور الوساطة المتوسطية بين الضفتين والعالمين الإسلامي والمسيحي، وذلك مما تطرقنا إليه في المبحث السابق، حيث تناولنا الملمح الإقتصادي للصراع بين الشرق والغرب.

2-Colin Inber, The Ottoman Empire, 1300-1650, The Structure of Power, First Edition, London, 2002, p40.

3- بصورة دقيقة منذ نهاية القرن 15م حتى نهاية الحروب الإيطالية مع الفرنسيين بتوقيع معاهدة كاتو كامبريزس عام 1559م

4- شمس الدين الكيلاني، الإسلام وأوروبا المسيحية من القرن 11 إلى 16م، مرجع سابق، ص 194.

انكبّ السلاطين على تطوير القوة البحرية وإدخال التعزيزات عليها فيما تعلق بالعدد والعدّة، بحيث ضمّوا المدفعية إلى الأسطول؛ فغدت المدفعية ذات فضل في انتصارات المسلمين منذ القسطنطينية عام 1453م إلى بلغراد في 1521م؛ وفي جنوب المجر سنة 1526. واستفادت حروب الأتراك العثمانيين بما غنمته من قطع المدفعية المسلحة، إذ تشير بعض الدراسات إلى الاستحواذ على 05 آلاف قطعة مدفعية في العشرين سنة الممتدة ما بين 1521 إلى 1541م، كما أحدث الجيش العثماني بفضل المدفعية ربعاً غير مألوف في أوساط خصومه خلال هذه الفترة¹.

ويُردّ الفضل في ذلك إلى المدفعية، فهي التي ساهمت في تفكيك وشطر حشود المعركة في موهاكس² جنوب المجر؛ واتضحت سيطرتها الميدانية خلال هذه المعركة وما تلاها. ويشير المؤرخ بروديل إلى أن عدد القذائف التي سقطت من المدفعية العثمانية على القوات المسيحية المدافعة عن مالطا عام 1565 بلغت 60 ألف قذيفة، وبناءً على هذا يتأكد أكثر دور المدفعية في نجاح الأسطول العثماني، وإتاحة فرص التفوّق في المعارك البحرية ضد قوات الخصوم³.

وانطلاقاً من هذا الوضع فإن الدولة العثمانية وجدت نفسها في حرب دائمة دونما انقطاع، متعددة الجبهات بحيث لم تكن تحارب دولة ولا جبهة واحدة، بل كانت تحارب دائماً خمس أو عشر دول وأحياناً أكثر. وفي وضع كهذا كان التأهب ضرورة لقهر الأعداء، مع

1- فرناند بروديل، الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية، من القرن 15 حتى القرن 18م، ترجمة مصطفى ماهر، ج1، مصر: المركز القومي للترجمة، 2013، ص526.

2- مدينة مجرية في الجهة الجنوبية على مقربة من الحدود اليوغسلافية سابقاً، دارت عليها معركة بين الجيش العثماني والمجري انتهت بانتصار السلطان سليمان القانوني بفضل المدافع يوم 28 أوت 1526م، وسلمت له مفاتيح مدينة بود عاصمة المجر. ينظر: محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، لبنان: دار النفائس، ط1، 1981، صص 211-214.

3- بروديل، المرجع نفسه، ص526.

بذل كل ما في الوسع في سبيل إقامة جيش قوي وأسلحة متفوقة. وعليه فرضت هذه الظروف على السلاطين الاستعداد المستمر للحرب والجاهزية لخوضها دون غفلة أو تراخ¹.

الإرادة السياسية العثمانية في سياق الخلافة الإسلامية:

كان من هموم السلاطين العثمانيين منذ النصف الثاني من القرن 15م السعي للاستقرار السياسي في البلاد الإسلامية ابتداءً من الشرق الأوسط، وإخضاع الطاقات المتحمسة والخصوم لإرادة سلطة واحدة، إضافة إلى تأسيس قوة حربية صامدة تجعلهم على استعداد لإعلان الحرب ضد الغرب المسيحي².

كما أن وجود الدولة العثمانية - باعتبارها مركز العالم الإسلامي - في المنطقة اللصيقة ببيزنطة ذات المداخل المؤدية للعالم المسيحي الغربي، قد مهد لظهور قوة إسلامية في تلك المنطقة تستطيع المواجهة وتبادر إلى إطلاق الهجمات عبر حدود الإسلام الغربية³، خاصة مع تحصيل مدينة القسطنطينية مركز الإمبراطورية والتي مضت منطقة مساعدة، اتخذ منها السلاطين منطلقاً لمساعدتهم في سد الفراغ الناجم عن انتهاء النفوذ البيزنطي في جنوب شرق أوروبا⁴.

هذا وقد لعب العثمانيون دوراً عسكرياً وسياسياً فعالاً في جزء المتوسط الغربي وبلاد المغرب مع سنة 1486م، حيث مأمورية السلطان بايزيد الثاني لكمال رئيس التوجه بسفنه لمساعدة مسلمي الأندلس، ومنذ ذلك الحين لم ينقطع وجود الأسطول العثماني عن مياه غرب المتوسط، متخذاً له حركة في ترقب ومهاجمة السفن التجارية

1- يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، مج01، تركيا: منشورات مؤسسة فيصل، 1988، ص232.

2- كولز، مرجع سابق، ص23.

3- المرجع نفسه، ص24.

4- نفسه، ص29.

الأوربية. وكان هذا النشاط الرسمي أحيانا وغير الرسمي أحيانا أخرى¹؛ المسهم في ربط الصلات ببلاد المغرب وسواحلها وسكانها المسلمين، الذين أخذوا يكتشفون عن قرب نشاط البحارة المسلمين القادمين من الشرق².

السلطان سليم الأول وبوادر الدولة العالمية:

مع نهاية القرن 15م كان شرق البحر المتوسط تتجاذبه ثلاث قوى محلية، وهي الدولة العثمانية والدولة المملوكية والدولة الصفوية، وأما الضفة الجنوبية من ذات البحر؛ البحر؛ فوجدت فيها الدولة العثمانية أمام إمبراطورية مسيحية تتزعمها إسبانيا وتسير بها إلى غلق المتوسط في وجه أي طموح أو قوة سوها³.

أما السلطان سليم الأول فقد سطر سياسة تُكْمَل تلك التي نهج عليها أجداده، حيث حصلت مواجهاته للمماليك سبيلا إلى بسط سيطرته على بلاد الشام ومصر، وكخطوة ضرورية للتوسع في الجزء الشرقي من المتوسط، وإنقاذ البلاد الإسلامية من الخطر البرتغالي الداهم وحماية الأماكن المقدسة. وكل هذه المساعي تندرج ضمن سياسة الدولة العثمانية البحرية التي رسمها محمد الفاتح ومن بعده بايزيد الثاني، بغرض التحكم في حوضي البحر المتوسط، ومن ثم السير في خط تحقيق الطموح الذي يتيح الانسجام مع الوضع الدولي، وإبعاد نفوذ البنادقة والقراصنة الأوربيين، وتأمين امتدادات الدولة ومصالحتها المختلفة⁴.

1- لم يكن الوجود العثماني دائما ومتواصلا في هذا الوقت، إنما كان في شكل مبادرات ومحاولات استكشاف وجس لواقع المنطقة، كما توصف الجهود الأولى للبحارة على أنها عمليات فردية غير رسمية، لكن كان لها الأثر في التعريف بالعثمانيين المسلمين كقوة سياسية وعسكرية يتأمل فيها المساهمة في الوقوف بالدفاع عن بلاد المسلمين وتخليصها من خطر الصليبية؛ أو بالأحرى السعي إلى طلب معونتها في تفويت الفرصة على أهداف ملوك الأسبان الكاثوليكين، الذين وجدوا في حروب الاسترداد رغبة عارمة تقودهم للنيل من مسلمي الشمال الإفريقي الذين اعتبروهم سند لاجئي الأندلس ودعمتهم في رد الفعل المحتمل.

2- إيفانوف، مرجع سابق، ص 95.

3- الناصر رانسي، مرجع سابق، ص 39.

4- مفيد الزيدي، موسوعة التاريخ الإسلامي "العصر العثماني"، الأردن: دار أسامة للنشر، 2009، ص 27.

كما وضع السلطان سليم نصب عينيه وحدة العالم الإسلامي تحت راية واحدة، فانطلقت خطته لإخضاع خصوم الدولة بداية من الصفويين والمماليك، ثم نقل خدمة الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة إلى الدولة العثمانية. وكانت من الأفكار والقضايا التي شغلت ذهنه هي التصدي للأطماع الأوروبية في العالم باتجاه البحرين الأحمر والمتوسط، كما شهد عهده انتقال القوات العثمانية للقارة كانت ميدانا جديدا بالنسبة لها¹.

وعند توليه الحكم ورث ضمن عرش الدولة العثمانية؛ قوة سياسية إسلامية فتح القسطنطينية وجهادها في سبيل العقيدة ضد كفار أوروبا المسيحيين، وهذا ما الحماسة والحزم نحو تحويل الدولة إلى وارث وحيد لبيزنطة ولبغداد، وإلى قوة تمتد قارات، غير أن الوفاة في خريف 1520م تعجلته عن بلوغ ذلك².

علاقة سليم الأول بالأسطول البحري كمشروع استراتيجي:

يتناول بعض المؤرخين فترة حكم سليم الأول بوصفها المرحلة الثانية من تاريخ الأسطول البحري العثماني، خامرته فيها فكرة بناء قوة بحرية وألح عليه في ذلك تحسبه للخطر الأوروبي المسيحي المباغت؛ من جهة الغرب، في عز انشغاله بمواجهة خصومه من الصفويين في بلاد فارس والمماليك في مصر والشام³.

ولم يستمر التوجه الذي اتخذته الدولة في عهد السلطان بايزيد الثاني، والذي اعتمد خلال ثلاثين عاما تقريبا؛ على النزعة الدفاعية عن الحدود القائمة والتوسعات الموروثة. ويظهر منذ وصول سليم الأول إلى الحكم الرغبة في ولوج معترك الحيلولة دون إيجاد منافسين داخل القارة الآسيوية، والمبادرة بالخروج إلى ما وراء الحوض الشرقي للمتوسط، وفق

1- فاتح آقجة، السلطان سليم الأول، ترجمة أحمد كمال، مصر: دار النيل للطباعة والنشر، ط1، 01، 2016، ص233.

2 - روبري مانتران، مرجع سابق، ص215.

3 - محمد أنيس، مرجع سابق، ص82.

رؤية سياسية مازجة بين تأمين الممتلكات المتوفرة وتحصيل مناطق نفوذ جديدة وإضافية؛ ذات قيمة في منحى الخطو نحو الدولة العالمية¹.

تعلم السلطان سليم أمور البحر بشكل جيد جدا في طرابزون²، وكان يمتلك معلومات غزيرة بشأن الأسطول والسفن بشكل مختلف-مقارنة بمن سبقوه وعاصروه من الأمراء-، ولهذا السبب اهتم كثيرا بأمور البحار وأراد تعزيز قوة الأسطول الذي ورثه عن أبيه³.

وتتناول المصادر التاريخية وتقارير السفراء في عهد سليم تحضيرات السلطان الخاصة بالأسطول، وقد تحدث "الطفي باشا" عن الأهمية التي أولاها السلطان بأمور البحار عبر هذه الطرفة الخيالية؛ إذ يقول: "في يوم قال المرحوم السلطان سليم إلى المرحوم كمال باشا زادة": أريد بناء ثلاثمائة سفينة في الترسانة لتصطف في الميناء من جالطة⁴ إلى كاغد خانة⁵، ونيتي فتح بلاد الفرنجة...". فرد قائلا: أنتم محقون في هذا؛ فأنتم تقيمون

1 - نادية محمد مصطفى، العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي منظور حضاري مقارن، ج01، مصر: دار البشير للثقافة والعلوم، ط01، 2015، ص159.

2 - مدينة تركية ساحلية تقع على صخرة مرتفعة في الجزء الشمالي الشرقي المفتوح على البحر الأسود، وقد كانت إحدى أهم محطات طريق الحرير المؤدية إلى أوروبا والبحر المتوسط. للمزيد يُنظر: إيريك فرانك وديفيد بروانستون، طريق الحرير، ترجمة أحمد محمود، مصر: منشورات المجلس الأعلى للثقافة، د.ت، ص48.

3- فاتح أقجة، مرجع سابق، ص239.

4- أكبر جزر أرخبيل جالطة تمر بها السفن التي تقصد ميناء الإسكندرية عبر طريق المتوسط البحري باتجاه الجزء الشرقي في الفترة الوسيطة، وهي اليوم ضمن الحدود البحرية التونسية قبالة مدينة طبرقة، كانت السفن تتخذ منها محطة للنزول لوفرتها على الأشجار والأغنام الجبلية. ينظر: أبي حامد الغزناطي، المغرب في بعض عجائب المغرب، تعليق محمد أمين ضناوي، لبنان: دار الكتب العلمية، د.ت، ص68.

5- إحدى مقاطعات مدينة إسطنبول في الجهة الشمالية الغربية وتأخذ تسميتها نسبة إلى نهر كاغد خانة، وهي اليوم مدينة سياحية بنى فيها السلاطين بعض القصور. للمزيد ينظر: محمد شكري، دليل الأستانة، مصر: الإسكندرية، مطبعة جرجي غرزوزي، 1909، ص98-99.

في مدينة تطل على البحر، وعندما لا يكون البحر آمناً لا تأتي السفن، وإذا لم تأت السفن
فلن تكون إسطنبول عامرة...¹.

وامتدت رقعة الدولة في أوروبا عقب الانتصارات المحققة، كما فرضت القوة البحرية
العثمانية وجودها في شرقي البحر الأبيض المتوسط بعد فتح بلغراد وتحصيل جزيرة رودس،
ثم الانتصار الكبير في معركة موهاكس الممهدة لفتح المجر، والصراع المرير المتواصل مع
آل هابسبورغ للسيادة على أوروبا الوسطى²، وجنوب المتوسط الغربي.

ونالت منطقة بلاد المغرب الساحلية حظها من هذا الصدام الدائر بين العثمانيين
وأوروبا الغربية، فلم يكن باستطاعتها النأي عن الأحداث في قسم المتوسط الغربي طيلة
القرن 16م، لكنها كذلك عايشت حالة من الخصوصية فيما تعلق بطبيعة وحجم المنافسة التي
استهدفتها؛ كجزء هام يحسب على العالم الإسلامي، جُعل محط أنظار عيون القوى الأوروبية
الطامعة في توسيع رقعة المستعمرات، وديارا من الإسلام وجب للحكم العثماني أن يشملها
ويخلصها من قدر الأندلس.

لأجل هذا كان السلطان سليم أول من بدأ إرساء الوجود العثماني السياسي بها يوم
أجاب وفد خير الدين باشا القادم عليه من الجزائر، وبارك جهوده البحرية، وفي هذا الشأن
يقول حسين آغا رسول خير الدين باشا: "لقد صارت الجزائر تابعة للسلطان سليم، وسيدي
خير الدين بايلربايا عثمانيا عليها، كما أن أسطولنا صار قطعة من الأسطول العثماني،
ولذلك فإننا سوف نتحرك وفق الأوامر التي تأتينا من إسطنبول..."³.

الرغبة السياسية لدى الجبهة الأوروبية الغربية في خوض الصراع:

1- فاتح آقجة، مرجع سابق، ص 239.

2- برنار لويس، اسطنبول وحضارة الخلافة الإسلامية، ترجمة سيد رضوان علي، الرياض: الدار السعودية للنشر والتوزيع،
ط 02، 1982، ص 55.

3- مذكرات خير الدين بريروس، مصدر سابق، ص 107.

منذ خسارة الطرف المسيحي الأوروبي لمدينة القسطنطينية طرحت إستراتيجية مواجهة تقوم على فكرة ضرورة الإتحاد لضرب قوة المسلمين بقيادة العثمانيين، لأن احتمال هزيمتهم عسكريا دونما تكتل لم يكن مجديا بالنظر إلى القوة التي تمتعوا بها. وتولدت هذه الفكرة أساسا بعد ما زاد ثقل العثمانيين وتهديدهم للمصالح الأوروبية، حيث طرأ تنفيذ إغلاق المضائق¹ وحياسة القوة العسكرية التي أثرت على الحياة الاقتصادية والعمليات التجارية في البحار².

ولأن مجمل أحوال أوروبا وتحركاتها مع بداية الفترة الحديثة تتدرج ضمن تداعيات وانعكاسات النهضة، فإنه بإسقاط ذلك على الجانب السياسي يتضح أن مجتمعات أوروبا الغربية كغيرها عاشت حالة من اليقظة التي بدورها سرعان ما اتخذت العنف وسيلة في بلوغ الأقاليم الأخرى، سعيا للانتشار والتوسع وطلبا للسيطرة³. وعليه فإن العالم الإسلامي وبنفس منظار العلاقة العدائية الكلاسيكية، أضحي يشكل أول المخاطر في وجه هذه الجبهة التي تحدها الرغبة في تحصيل مناطق النفوذ. ومنذ ذلك الحين لازمت العالم المسيحي تلك النظرة للمسلمين كأعداء ألداء، بل وترسخت كذهنية غربية لكل التفاعلات التالية مع الآخر المسلم⁴.

الملكية الإسبانية وتوجيه سياسة الغلبة الأوربية:

كان قرار زواج إيزابيلا وفرديناند قرارا سياسيا دينيا لتقوية مكانة إسبانيا في أوروبا وكذا توحيد جهودها في محاربة المسلمين، كما يمثل هذا القرار نهاية للعصور الوسطى

1- بداية من مضيق البوسفور فور فتح مدينة القسطنطينية، كمعبر عالمي بين الشرق والغرب وممر بحري استراتيجي له رمزيته ومكانته.

2- يلماز أوزتونا، موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية السياسي والعسكري والحضاري، ترجمة عدنان محمد سلمان، مج01، لبنان: الدار العربية للموسوعات، ط01، 2010، ص ص154-156.

3- ميلاد المقرحي، مرجع سابق، ص30.

4- كارين أرمسترونغ، الحرب المقدسة الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم، ترجمة سامي الكعكي، لبنان: دار الكتاب العربية، 2005، ص ص543-544.

الإسبانية وتجسيدا لإرادة البابوية في إشعال فصل جديد من الحروب الصليبية ضد المسلمين. حينها راحت البابوية بدورها تقدم كل أشكال التحفيز والامتيازات إلى ملوك في جهودهم العدائية ضد العثمانيين، الأمر الذي أسهم في خلق استعداد لمهاجمة وتعزيز الشعور الانتقامي ورفض التعايش، وكذا الدفع بالملكية إلى إصدار مراسيم سقوط غرناطة مباشرة، تقضي بالتضييق والطرده والملاحقة¹.

ومن ثمار هذا الزواج على إسبانيا أن عزز مكانتها في البحر المتوسط، وبعد كانت قوتها في الحدود الغربية، امتد التأثير إلى منطقة وسط المتوسط وبعض مناطق إيطاليا التي سيطرت عليها².

وإذا نظرنا إلى الوجود الإسلامي في الأندلس نلمس أن نهايته سياسيا في سنة 1492م، لم تنفي بقاء وجوده أدبيا واجتماعيا واقتصاديا مستمرا، باعتبار الموريسكيين فئة واسعة عمرت في الأندلس فترة طويلة على الصعيد الحضاري الواسع، وظلت تأثيراتها قائمة في شؤون الحياة المختلفة. الشيء الذي أضحي مُتوجسا منه لدى النظام السياسي الحاكم ولدى الكنيسة، بالرغم من سياسة التنصير والإكراه التي لم توفق في النيل من هذه الفئة التي ظلت راسخة الصلات بالإسلام³.

وكان الملوك الأسبان على حذر شديد من فئة الموريسكيين بحيث كانت عمليات ملاحقتهم في مدن سواحل الشمال الإفريقي، تنبعث خوفا مما يمكن أن يثمره احتكاكهم بمسلمي هذه المناطق، وكذا صلاتهم بسلطان العثمانيين. ولم يزل ذلك شغلا شاغلا للسياسة الإسبانية طيلة القرن 16م، ليجعل من الموريسكيين خطرا قوميا يجب أن يُحتاط منه⁴.

1 - The crusades and the expansion of catholic Christendom 1000, 1714, Jhon France, London, 200, pp:289-290.

2- أروتونا، مرجع سابق، ص ص193-194.

3- عبد الله عنان، مرجع سابق، ص ص378-379.

4- المرجع نفسه، ص382.

ثم إن سياسة إسبانيا التي تنطلق من الاعتقاد بالإمبراطورية المقدسة، جعلت تركيزها وجهودها تتوزع إلى أكثر من جهة، وانشغل حكامها بالقارة الأمريكية وما حصله فيها من مستعمرات، واعتبروا في منطقة ديار المسلمين بالسواحل الجنوبية الغربية من المتوسط كبوة في طريق التوسع¹.

وبالرجوع قليلا إلى الأحداث التي سبقت بداية القرن 15م ينجلي لنا أن إسبانيا القرن 16م هي محصلة عدة محطات، أولها نجاح الملكية في توحيد الدولة ومن ثمة تركيز قوتها في الاستيلاء على زمام أمور أوروبا؛ أولويا بوضع حد للوجود الإسلامي السياسي في الأندلس، ثم التحرك وراء الأطماع الجشعة نحو قارة إفريقيا وداخل القارة الأوروبية، بحيث كان الملوك المتعاقبون حريصين ومتحمسين للقضاء على كل قوة منافسة بإمكانها منازعتهم السيادة على البحر المتوسط شرقا وغربا، ومشاركتهم الخيرات التي تعج بها المدن والسواحل من تجارة وثروات².

ويظهر أن وضع هذا الصدام الذي بدأت بوادره مع منتصف القرن 15م قد أخذ يتوسع بوتيرة أسرع مع بداية القرن الموالي داخل القارة الأوروبية نفسها، كما اتضح واقع الاشتغال على إنشاء وحدات سياسية وفق أسس قومية وحدود جغرافية في محاولة للقطيعة مع العصور الوسطى، فيما أحيط هذا المسعى بتنافس حاد لأجل الحصول على مستعمرات وأقطار فيما وراء البحار³.

واعتبارا مما عادت به رحلات المستكشفين الجغرافيين من نتائج أولية، انطلق الأوروبيون وهم في تلهف لغزو العالم ليس فكريا وحسب، بل تجاريا وروحيا أيضا، وسياسيا على المدى المتوسط والبعيد. ذلك أن غزو الأسبان للمكسيك (1519-1521م) والبيرو (1531 - 1534م)، تلاه الاستيلاء على كل البلاد التي لا تقوم عليها دولة معترف بها -

1- محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني حتى الاحتلال الفرنسي"، سوريا: ط01، 1969، ص15.

2- أحمد توفيق المدني، مرجع سابق، ص77.

3- ميلاد المقرحي، مرجع سابق، ص ص24-26.

جزر ومناطق ساحلية - من جانب الإسبانيين والبرتغاليين، وأنهمكوا في إنشاء وترسيم المستعمرات والمراكز التجارية، ثم أعقب هذه الحالة عمليات تنافسية لأجل التغلغل في جميع المناطق ذات الحيوية؛ اعتبر فيها حوض المتوسط الغربي قسماً طراً فيه صدام ساخن ضمن مبعغى السيطرة الدولية¹.

انتعاش البحرية الأوربية:

اقتربت النهضة التي عاشتها أوربا بمجال الملاحة وصناعة السفن في شبه الجزيرة الأيبيرية، فبقدر ما حارب شارل الخامس والكنيسة الحركة التجديدية والدراسات الإنسانية، وتشددا في كبحها تلافياً لبوادر حركة الإصلاح الدينية، دعماً المبادرات ذات الصلة بالبحرية والأسطول².

ومما ضاعف من اهتمام الأوروبيين بالأسطول البحري هو دخولهم عالم الكشوف الجغرافية بسرعة واضحة مع أواخر القرن 15م، كون الأسطول هو السبيل إلى بلوغ الأقطار والأمصار خارج البحار التي يملك المسلمين إدارتها. ثم إن قدرة القوة البحرية على الحركة التوسعية خولت الأوروبيين تأسيس مراكز تجارية في إطار فكرة الإمبراطورية مع بداية القرن 16م، لذلك اعتمدت البحرية ركيزة لدى الأنظمة الأوربية في خدمة الأهداف السياسية³.

1- رولان بريتون، جغرافية الحضارات، ترجمة خليل أحمد خليل، لبنان: دار عويدات للنشر والتوزيع، ط01، 1993، ص114.

2- عبد العظيم رمضان، تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث، ج01، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997، ص97 و236.

3- فيليب كورتين، العالم والغرب "التحدي الأوروبي والاستجابة في ما وراء البحار في عصور الإمبراطوريات"، ترجمة رضوان السيد، السعودية: العبيكان للنشر والتوزيع، ط01، 2007، صص11 و14.

القوى الأوروبية وسياسة البحث عن النفوذ:

إن مخرجات نهاية العصور الوسطى بأوروبا أنتجت وضعاً مغايراً عما كان عليه الواقع السياسي والاجتماعي وحتى الاقتصادي في فترة الإقطاع، حيث طرأ انعكاس واضح منذ بداية الفترة الحديثة وتحديدًا مع نهاية القرن 15م على تحركات الأنظمة السياسية الأوروبية وكذا تصورها في تسيير بلدانها وتوجيه مجتمعاتها. فبدأ الجنوح إلى توسيع رقعة الدولة وتحصيل مناطق نفوذ داخل وخارج القارة الأم، والسعي الحثيث إلى بناء الإمبراطوريات وإحياء أمجاد الإمبراطورية الرومانية. وحاولت هذه المطامح كلها أن تتبعث من إرادة سياسية تباركها البابوية ويدعمها رجال الدين.

وقد حصلت ممالك أوروبا عقب النهضة حالة من التقدم الذي طال الحياة الداخلية، كما اكتسب ملوكها قوة وتأييداً بحيث أصبح في مقدورهم تعبئة الجيوش وإقناع رعاياهم للانخراط في الحرب على الأقطار الأجنبية. لذلك اتسعت دائرة مشاريعهم الحربية التوسعية وعظمت مساعيهم في هذا الشأن. وهو ما كان يندرج مع مستهل القرن 16م بكثرة الوقائع الحربية¹ التي تشارك فيها هذه القوى بدءاً من الحروب الإيطالية².

واقنتع الملوك الكاثوليك أن عليهم تأسيس قوة مركزية حازمة، كما تعين عليهم توحيد أجزاء أوروبا التي كثرت فيها المجموعات السياسية. ويرجع الدور هنا إلى ملوك إسبانيا الذين يدينون بالفضل في ذلك إلى فرديناند وإيزابيلا باعتبارهما من وضعاً أسس الملكية المطلقة

1- روبرتسون، إتحاف ملوك الزمان بتاريخ الإمبراطور شارلكان، مسبقاً بمقدمته إتحاف الملوك الألبا بتقديم الجمعيات في أوروبا منذ انقراض الدولة الرومانية إلى أوائل القرن 16م، ترجمة خليفة بن محمود وراجي عبد الودود مج01، القاهرة: المطبعة الأميرية القاهرة، 1844، ص ص119-120.

2- عُرفت بهذا الاصطلاح تلك السلسلة من الحروب الدائرة بين القوى الأوروبية خلال الفترة 1494-1559م، بحيث كانت الأراضي الإيطالية مسرحاً لها لعدم وجود حكم مركزي يوحد إماراتها. وهو ما مهد للتدخل الأجنبي الأوربي سيما بين فرنسا وإسبانيا على أحقية وأولية وراثته العرش انطلاقاً من إمارة نابولي، وبذلك نجد إيطاليا بؤرة صراع دولي حاد خلال القرن 16م. للمزيد ينظر: يونس عباس نعمة، سياسة إنجلترا اتجاه الحروب الإيطالية، العراق: مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، مج12، العدد03، 2009، ص ص117-129.

الحديثة. إذ مكننا لأحفادهما من دولة غنية واسعة الامتداد، حيث حققت خطة تشييد إمبراطورية تتكون من اتحاد مقاطعاتها الشاسعة في أوروبا وأمريكا؛ مركز ثقل لإسبانيا عهد شارك الخامس، مدركا أهمية هذه المناطق في توفير أدوات خوض الحروب مع منافسيه خاصة داخل أوروبا¹.

ذلك لأن البحر الأبيض المتوسط كان يشهد حالة صراع استطاعت الدولة أن تُحكم أقدامها فيه، لكونها وُفقت في دخول هذا الفضاء الذي ظلت بعيدة عنه فعليا القرون السالفة، كما أقامت سيطرتها الجزئية منذ بداية القرن 16م على بعض مياهه، على هيمنتها في قسم هام من الشمال الإفريقي، مسببة قلق الدول الأوربية خاصة منها على سواحل المتوسط، وقد برز أن أكثر المتضررين من هذا الظهور العثماني هم ملوك إسبانيا².

ومضيا في البحث عن الهيمنة السياسية والاقتصادية انبرت الملكية الأوربية ممثلة في إسبانيا لأكثر من نصف قرن تقريبا متعجلة قطع الطريق على منازعتها في البحر المتوسط. ومعلنة خصومتها على العثمانيين وعلى الإمارات الإيطالية خوفا من الخطر المتفاقم من جهة شرق أوروبا³؛ الذي بات ينظر إليه تهديدا سافرا للمصالح العامة وعلى رأسها السيادة الحيوية على المتوسط وكذا الأطلسي.

وكانت الممرات البحرية الإستراتيجية والقصيرة نسبيا عبر المتوسط تخضع لعامل النفوذ السياسي والحاجة الاقتصادية أكثر من أي شيء آخر وفي ضوء هذه الخصوصية فرض على المتوسط أن يلعب دورا كبيرا في التاريخ العسكري والتجاري أكثر من أي تشكيل مائي آخر مماثل له. فحاولت قوى متعددة الظفر بالتحكم فيه،

1 - Charles Bratli, Philippe II roi d'Espagne étude sur sa vie et son caractère, Paris, 1912, pp57-58.

2 - فريدون أمجان، سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين، مصر: دار النيل للنشر والتوزيع، ط02، 2015، ص423.

3 - محمد محمود النشار، دراسات في تاريخ إسبانيا والبرتغال في العصور الوسطى، منشورات عين للبحوث والدراسات، مصر: ط01، 2007، ص ص167-168.

حيث سعت بلدان الشمال الإفريقي وبلدان أوروبا الغربية إلى الاحتفاظ بإمكانية الإبحار عبر ممراته وحضوة التمرکز بسواحله¹.

التنافس الأوربي الأوربي وتشكل القوى السياسية:

استهل التنافس داخل الجبهة الأوربية بين قوى الجهة الغربية من القارة وتحديدًا بين بين إسبانيا والبرتغال، فكل منهما وجد في الظروف السائدة في أيبيريا عاملاً مساعداً في في تبني فكرة النهوض بالدولة المسيحية واستعادة مجدها؛ وتصدير الهيمنة إلى خارج أراضيها انطلاقاً من الفضاء المتوسطي. فاحتدّ التنافس بينهما على الشمال الإفريقي والجزر الأطلسية فالعالم الجديد؛ ووصلت الخصومة حدّ الالتجاء إلى البابوية واستعمال كل وسائل الإغراء السياسية والمالية لانتزاع التزكية والمباركة لصالح طرف دون الآخر². ازدادت العلاقات بين الحكومات وأخذ التواصل بين الأنظمة ونشأت طريقة الإتحاد والمخالفة بين القوى والبلدان الأوربية، سواء على الحرب أو الصلح. ورسم هذا الحال معالم السياسة الخارجية بين هذه الأطراف، وهي السياسة التي يرجع ظهورها إلى القرن 15م. إلى أن برزت في ختامه أساليب المباحثات والتوافقات بين البابوات والأمراء والملوك³. وبتتبع التطورات التي سلكتها الدولة العثمانية في محاولتها بناء قوة وقيادة ممثلة للعالم الإسلامي طيلة النصف الثاني من القرن 15م، نقف على مسألة مفصلية أثرت على جو التنافس والخصومات؛ ألا وهي نوعية وحجم الخطر الذي مثلته هذه القوة بالنسبة لخصومها من القوى المسيحية في القارة الأوربية.

1 - دينين فولو وجيمس إم فول، عصر الملاحة البحرية، ترجمة خلود الخطيب، أبو ظبي: للسياحة والثقافة، دار كلمة للطباعة والنشر، منشورات هيئة أبو ظبي، ط01، 2012، صص 66-67.

2 - أحمد بوشرب، وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي ونتائجه، المغرب: دار الأمان للطباعة والنشر، ط01، 1991، صص 167-169.

3 - فرنسوا غيزو، التحفة الأدبية في تاريخ تمدن الممالك الأوروبوية، ترجمة حنين خوري، لبنان: دار الحمراء للطباعة والنشر، ط02، 1990، صص 132.

السلطان سليمان القانوني وفاعلية الدولة العثمانية في التوازنات:

مع حلول عام 1519م لم يعد في مقدور الأطراف الأوروبية المتنازعة على الزعامة القارية والإقليمية تحييد القوة العثمانية من هذا الصراع، حيث برز شارل الخامس من آل هابسبورغ وفرانسوا الأول ملك فرنسا كمرشحين لتاج الإمبراطورية الرومانية المقدسة. قدم كل منهما نفسه على أنه يحمل الإرادة والإصرار والقدرة على استتفار كل القوى الأوروبية ضد العثمانيين، وتماشيا مع ذلك رأت الهيئة المنتخبة حينئذ أن شارل الخامس هو الأفضل لهذا التاج¹.

ولكن بعد الانتخاب بفترة قصيرة وفي مارس 1521م اشتعلت الحرب بين هذين العاهلين الأوروبيين؛ محدثة انقساما أوروبيا في صالح العثمانيين، وجد فيه السلطان سليمان القانوني سانحة له في الانطلاق باتجاه مدينة بلغراد باعتبارها بوابة أوروبا الوسطى، والتي فتحها في 29 أوت 1521م. وفي 21 يناير 1522م حقق تقدما داعما لتقدم انتصاراته في أوربا بانتزاعه رودس من أيد فرسان القديس يوحنا².

إيطاليا الجبهة الساخنة للصراع الدولي:

ومن أهم حلقات هذه التجاذبات والتوازنات الحروب الإيطالية (1494-1559م)، فهي تعتبر فترة ساخنة في تاريخ أوروبا الحديث؛ لما ميزها من كثرة التحالفات وتداخل المصالح وبوجه أدق على ملكية إيطالية. خوفا من حصول طرف وحيد عليها وانفراجه بسلطتها، وتأكيدا على أهميتها ذات الأبعاد المتعددة التي تسمح بمركز فاعل في أوربا وفي لعب دور الوسيط بين ضفتي البحر المتوسط الشرقية والغربية³.

1 - كان هذا خيار وطرح البابا ليون العاشر والذي كان في حيرة على مصير الكنيسة الكاثوليكية من نشاط وتعاليم حركة الإصلاح الديني اللوثرية وتعاليمها، ومن الصراع المشتد حول دوقية ميلان الإيطالية بين شارل الخامس وفرانسوا الأول. ينظر: عزتلو، مرجع سابق، ص 61.

2 - خليل إنالجيك، مرجع سابق، ص 57.

3 - فرانسوا غيزو، مرجع سابق، ص 133.

انشغلا الملكان شارلكان وفرنسوا الأول في صراعهما التنافسي الدائر في حوض المتوسط بإيطاليا كجزء هام من أراضي القارة، وبالعودة إلى تاريخ إيطاليا الوسيطة تتضح أهميتها كقوة بحرية لها أواصرها التجارية الوطيدة مع الشرق. فهي واحدة من البلدان التي أعطاه حوض البحر المتوسط فرصة تقمص أدوار سياسية واقتصادية وحضارية لم تكن بالمقابل في متناول الشعوب الأوربية التي كانت في جهة الشمال. ثم نجدها منارة لعصر النهضة فكانت موطن بداية تشكيل شخصية أوربا الحديثة¹.

كما أعتبرها المؤرخون ملمة بجملة المميزات والاستعدادات لمعايشة حركة التغيير الجزرية الحاصلة ولاختلاف ملامح الحياة فيها إذا ما قورنت بباقي البلاد الأوربية التي كانت ترزخ تحت سيطرة الإقطاع على البنية الاقتصادية والاجتماعية، ناهيك عن خصائص المدنية بمقومات تمهد للتحول العام مع مطلع الفترة الحديثة². وبذلك تظهر كخزان ومورد أمم الأحداث الفارقة والفاصلة بصناعها من الرجال والشخصيات؛ فأعطت إسبانيا كولومبس وأندريا دوريا وغيرها من الشخصيات التي ارتبطت بها محطات بارزة في تاريخ أوربا منذ نهاية القرن 15م³.

وبما أن إيطاليا ظلت تلعب دور الوسيط التجاري بين المسلمين والمسيحيين لفترة زمنية طويلة، فإن أهمية إماراتها البحرية كروافد تجارية مع الشرق أخذت تتضاعف؛ بعد استحواد العثمانيين على الطرق التجارية التي كانت في حوزة المماليك، ونشب التنافس الأوربي عليها وكان قويا دفع كل من فرنسا والبندقية وجنوة إضافة إلى إسبانيا إلى الحرب المعروفة باسم الحروب الإيطالية⁴.

1- حسين جلال، فضل المسلمين في كشف الطريق البحري إلى الهند 1415-1498م، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1965، ص33.

2- عبد العزيز عمر، دراسات في التاريخ الأوربي والأمريكي الحديث، مصر: دار المعرفة الجامعية، د.ت، 1992، ص12-13.

3- المرجع نفسه، ص35.

4- جلال يحيى، أوروبا في العصور الحديثة، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1981، ص422.

ويضاف إلى ما سبق ذكره التأثير الكبير الذي مسّ إيطاليا نتيجة سقوط مدينة القسطنطينية 1453م، فالنبلاء وذوي الشأن من المسيحيين سرعان ما تركوا التاريخية وفرّوا ملتجئين إلى إيطاليا؛ حيث نزلت وفود من اليونانيين مصطحبين معهم المعارف والإمكانيات العلمية ونفائس الكتب القديمة، ومبادرين في خلق جو من الحضاري والرقى لصالح الإمارات الإيطالية، في مظاهر التمدن واللباس واستقرار ورجال الكنيسة الذين اصطحبوا معهم الثروة والمال، وكل هذا أصبح ينذر ويمهد لتحول إيطاليا إلى عاصمة للإمبراطورية الرومانية المسيحية بعد القسطنطينية¹.

والأهم من ذلك أن كبار رجال المال في إيطاليا من جنوه وفلوانس والبنديقيه لعبوا دورا هاما في مصير الأسرة الهابسبورغية خلال 16م، إذ وبفضل السلفات المالية التي قدموها لشارلكان ونفوذهم في ربط المصاهرة بالأسرة المالكة في المجر، أمنوا انتخاب شارلكان إمبراطورا عام 1519م ضد منافسه فرنسوا الأول وتحملوا معه عبء نفقات الحرب ضد فرنسوا وضد البروتستانت. وكذلك العثمانيين².

وفي عام 1580م ضم فيليب الثاني البرتغال وإمبراطوريتها الاستعمارية لأسبانيا مما جعل هذه الممتلكات مطمح أنظار الدول الأوروبية الأخرى؛ لاسيما تلك التي تطل على المحيط الأطلسي فنازع أسبانيا سلطتها كل من الإنجليز والفرنسيين والهولنديين، وذلك لأن كيان كل منها بل وديانة اثنين منها كانت مهددة بالنمو المضطرد في سلطة إسبانيا في أوروبا³.

أثر التنافس الأوربي الداخلي على مصالح العثمانيين:

لم يتقبل الملك الفرنسي فرنسوا الأول نتيجة انتخابات 21 مارس 1520 التي أوصلت شارل الخامس على رأس الإمبراطورية الرومانية فنشبت بينهما الحرب. وبالرغم من أن

1 - غيزو، مرجع سابق، ص 137.

2- رولان موسنييه، مرجع سابق، ص ص 124-125.

3- زينب راشد، مرجع سابق، ص ص 64-65.

فرنسوا الأول كان قد وعد قبل الانتخابات بالاجتهاد في تعبئة جميع قوى أوروبا ضد الدولة العثمانية؛ إلا أنه وجد في غريمه الإسباني تهديدا لمكانته وطموحاته في أوروبا وفي البحر المتوسط، لذلك بادر إلى كسب صداقة السلطان العثماني بهدف كبح سطوة وسيادة عدوه من سلالة الهابسبورغ¹.

وأما السلطان سليمان القانوني فإنه قدّر في هذا التحالف إقرارا لقوته وبدوره في هذا الجزء الحيوي من المتوسط، لأجل هذا كانت معاهدة 1535م تحمل أبعادا إستراتيجية لها أكثر من باعث، حيث تنطلق من التقديرات السياسية التي تتبنى تحالفات من شأنها إرباك تحركات شارل الخامس وهو من كان يقدم نفسه كراع لمشروع الزحف على الدولة العثمانية².

زيادة على ذلك فإن ربط علاقات مع فرنسا في هذه الظروف المعقدة يترتب عليه المزيد من التأثير في شؤون أوروبا الغربية لصالح العثمانيين وخاصة في إيطاليا، هذا من جهة، واستماله للفرنسيين دون عدم الاشتراك في العمليات البحرية المسيحية التي يقودها ملك إسبانيا ضد الدولة العثمانية في البحر المتوسط من جهة أخرى³.

ونظرا لاختلاف خصائص فترة حكم السلطان سليمان القانوني عن سابقه كونها شهدت فتوحات الدولة في أوروبا وتمكنها من أهم مدن البلقان، فإن جنوح السلطان إلى المضي في علاقات مع بعض الأطراف الأوروبية من خلال إبرام الاتفاقيات وعقد المعاهدات، يمثل خيارا من صلب خطة التحركات داخل القارة الأوروبية، تؤكد مساعي البحث عن بلورة أحلاف عسكرية ضد الطرف العثماني. فبعد خمس سنوات من تمكن

1- علي رابع الثقفي، معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية لعام 1535م، السعودية: مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، د.ت، ص ص 152-153.

2- المرجع نفسه، مرجع ، ص 150.

3- نفسه، ص 153.

الجيش العثماني في مدينة بلغراد عكف ملك المجر إلى محاولة جمع الأطراف الأوربية المؤثرة بغرض بناء قوة مشتركة تدر العثمانيين وتصرف تقدمهم، إلا أن ذلك لم يفلح في جو الصدام الفرنسي الإسباني والعمليات الظافرة لجيش السلطان سليمان في المجر 1526م¹.

ونتيجة للانتصارات التي حققها العثمانيون في أوروبا بين 1526 و1535م بحيث تمكنوا من الوصول إلى أسوار فيينا؛ كما اتجهوا شطر ألمانيا لتأديب أرشيدوق النمسا "فرديناند"، هذا الأخير وهو في وضع عدم الاستعداد للمواجهة؛ لإنقاذ التمس الصلح لإنقاذ نفسه وفق الشروط التي أملاها السلطان القانوني وعلى رأسها الاعتراف بأنه ليس ندا للسلطان العثماني².

ويُعزى قبول السلطان بهذا التحالف إلى رغبته إفهام الملوك المسيحيين الذين كانوا يعادونه بدافع الدين؛ أنه متعاون، وبغرض إعطاء انطباع على أن صداقته مفيدة ومجدية باعتبار ما توصل إليه من منافع وامتيازات كثيرة. فجاء خياره خطة وحيلة سياسية استطاعت قلب التوازن الأوروبي القديم رأساً على عقب؛ وجعلت منه فاعلاً في التوازنات الدولية. فصار العثمانيون قوة لها كلمتها المسموعة ورأيها المحترم في تقرير السياسة العامة وفي استقرار الأوضاع الأوروبية أو تغييرها. يضاف إلى هذا أن المعاهدة التي عقدها أعادت على الموانئ الشرقية العافية والنشاط اللذين نعمت بها قروناً طويلة ثم فقدتها إثر اكتشاف رأس الرجاء الصالح وتحول تجارة الهند إلى طريقه³.

1- محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مصر: المركز المصري للدراسات العثمانية، 1994، ص ص61-62.

2- المرجع نفسه، ص ص62-64.

3- إميل خوري وعادل إسماعيل، السياسة الدولية في الشرق العربي "من الرن 16 إلى مؤتمر فينا"، ج01، لبنان: دار النشر للسياسة والتاريخ، 1990، ص ص07.

ومن زاوية أخرى يمكن القول أن خطة الدولة في زمن القانوني نجحت في تفويت فرصة تجسيد إرادة التحالف الأوربي الأوروبي ضدها؛ والذي ينطلق من خلفية التحالف المسيحي ضد المسلمين، كما أسهمت تحركاته المستمرة اتجاه شمال أوربا في تفريق جموع قوى القارة وإشغال كل واحدة منها بالدفاع عن حدودها دون استطاعة إحراز المزيد من الامتدادات¹. بل كثيرا ما وجد بعض الأمراء في المسارعة للاعتراف بقوة السلطان وسلمية التعاطي الدبلوماسي معه حلا يحافظ على ممتلكاتهم أمام تزايد التوغل العثماني المتنامي.

1- محمد نامق كمال، فاتحة الفتوحات العثمانية، ترجمة عبد الله مخلص، فلسطين: مطبعة حيفا الوطنية، 1909، ص36.

الفصل الثاني

أدوار الجزائر في الصراع الإسلامي-النصراني بالحوض
الغربي للبحر المتوسط خلال القرن 16م

أسباب الاستهداف الأوروبي للجزائر مع بداية القرن 16م

يرتبط اتجاه أنظار القوى الأوروبية المسيحية شطر الجزائر بعدة مقومات شكلت في مجموعها أسبابا محفزة وراء إطلاق الأطماع والتكالبات، وكذا تنفيذ الخطط والمشاريع التوسعية والاستعمارية التي تستهدف الجزائر. وتتشعب هذه الأسباب مع عدّة خلفيات وملفات؛ دينية، اقتصادية، سياسية واستراتيجية.

السبب الديني:

اعتبرت الجزائر في منظور الموريسكيين وجهة الهجرة الكبرى التي بدؤوها عبر البحر، فرارا من بطش المسيحيين الأسبان وسيطرتهم منذ الشهور الأولى التي تلت سقوط غرناطة، وأضحت مدن السواحل الجزائرية مثل: "هنين، مزگران، مستغانم والجزائر، شرشال ودلس، بجاية وعنابة" ملاذ الفارين والمنفيين، وحمل هؤلاء الوافدون إلى هذه المناطق الروايات عن الظلم والغدر والانتهاك الذي حاق بهم من قبل المسيحيين، كما طلبوا من سكانها الأصليين مناصرتهم ومساعدة إخوانهم في الدين سيما أولئك الذين تقطعت بهم السبل في الضفة الأخرى¹.

وفي منظور أوربا وملوكها قُدرت بلاد المغرب امتدادا دينيا وحضاريا وحتى عرقيا للعنصر المسلم، فالحروب الصليبية التي حالت دون مراميها المنشودة خرجت تحمل معها ارتيابا تجاه الإسلام أينما كانت دياره، وغدا مجرد التفكير في المحمدية² يبعث بالفرع في نفوس رجال البابوية والبلاطات³، ومن هذا المنطلق جاء اعتبار الجزائر دار كفر ضمن التصور -المسيحي الكاثوليكي الغربي- لبلاد المغرب، وبمشهد واضح وصريح منذ سقوط غرناطة 1492.

1- D.Grammont, Histoire d'Alger sous la domination turque 1515-1830, Paris, 1887, pp:2-4.

2- أورد صاحب الكتاب هذا التوصيف لأمة الإسلام، وكثيرا من ينسب المسلمون في كتابات ودراسات الغربيين إلى نبيهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ينظر: كارين أرمسترونغ، مرجع سابق، ص542.

3- المرجع نفسه، ص ص540-542.

والواضح أن مسألة الهجرة كانت وراءها دوافع عسكرية ودينية انطلاقاً من هزيمة المسلمين أمام النصارى وما نجم عنها من تبعات، وقد أجاب الفقهاء على السؤال المتعلق ببقاء المسلم في أرض الكفر، حيث أفتى أحمد الونشريسي مثلاً بضرورتها واعتبرها واجبا دينيا إلا على من عجز عنه¹.

السبب الاقتصادي:

ركزت جميع الأطراف ذات السطوة في البحر المتوسط على امتلاك الشواطئ والتحكم في أهم النقاط الساحلية ذات البعد الاستراتيجي الحربي والاقتصادي من موانئ ومدن حيث الخلجان السهلة والمرافئ المناسبة. إذ يتبين أن المدن المغاربية حضيت بالوساطة التجارية التي مكنتها سمة مناطق العبور والتبادل؛ ويروي لنا مارمول عن خصوصية بعضها وهو يصف مدينة هنين في مملكة تلمسان الزيانية مدليا بمايلي: "مدينة هنين واقعة على الشاطئ، كانت سفن البندقية تنحدر إليها كل سنة عند ذهابها إلى تلمسان؛ سيما عندما احتل خمينيس المرسى الكبير ووهران"²، ويعرض زيادة على هنين أهمية عديد مراكز المغرب الأوسط التي اعتبرت مدعاة للأطماع الأوروبية، ومن ذلك وُجهت إمكانات الإسبان للنيل من نشاط الجزائريين البحري حرصا على إصابته والتضييق عليه³.

ويقول فرناند بروديل أن المتوسط ظل لعصور طويلة وحتى خلال 16م مقتصرا نشاطه على الشواطئ وبين الجزر القريبة من بعضها البعض، فالبحارة ماكانوا يغامرون

1- محمد القبلي وآخرون، تاريخ المغرب تحيين وتركيب، المغرب: منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب بالرباط، ط01، 2011، ص315.

2- مارمول كرخال، مصدر سابق، ص296.

3- أحمد السليمانى، تاريخ مدينة الجزائر، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1989، صص 10-11.

بالخوض في المساحات الشاسعة والبعيدة. والأساطيل الحربية مكانه تشعل ولا تدخل المعارك إلا في الامتداد الذي يتيح للعين رؤيتها على الشواطئ¹.

وبالعودة فقط إلى أحوال أوروبا عامة والغربية منها بشكل أخص؛ ندرك أن المسارعة إلى الاستحواذ على البلدان ذات الوزن الاستراتيجي والمؤهلات الاقتصادية المادية والمالية كانت واقعا قائما، سيما بين إسبانيا والبرتغال، إضافة إلى فرنسا وإنجلترا لكونها كانت مرشحة لأن تلعب دورا هاما في المجالات البحرية مركزة على التفوق في المجال المتوسطي². ويضاف إلى هذا سياسة الأوربيين في تحويل مسرح الصدام إلى الحوض الغربي من البحر المتوسط بعد أن أحكم العثمانيون سيطرتهم على حوضه الشرقي.

السبب السياسي والاستراتيجي:

كان وراء التعجيل بإطلاق الطاقات الإسبانية نحو افريقيا تراجع دور المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية، واعتبر القرب الجغرافي سببا معلا للتدخل الإسباني في المنطقة إذ ضاعف ذلك المخاوف التي انتابت البلاطات المسيحية عقب ثورة المسلمين في غرناطة 1501م. وقد راجت حينها مقولة مفادها أن المورسكيين نسجوا اتصالات بالسلطان العثماني وحكام الشمال الأفريقي قصد التهيئة لغزو إسلامي يبتغي استعادة الأندلس، وهو ما كان وراء الأرمادا الإسبانية التي انطلقت 1505م لإبطال هذا الاحتمال والتي انتهت إلى احتلال عدة مواقع وموانئ جزائرية وحصلت على احتلال طرابلس سنة 1511م³.

تبوت سواحل الشمال الإفريقي أهمية جعلتها ضرورية لكل اتصال بحري آمن بين السواحل الإسبانية وسواحل إيطاليا الهابسبورغية، كما كانت أساسية لنشاط الأسبان في البحر المتوسط. وقد أدرك الكاردينال خمينيس جيدا ما يمكن أن يقدمه احتلال الجزائر بلاده،

1- فيرناند بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي، تعريب مروان ابي سمراء، لبنان: دار المنتخب العربي للطباعة والنشر، ط01، 1993، ص35.

2- نور الدين حاطوم، تاريخ عصر النهضة الأوربية، سوريا: دار الفكر، ط02، 1985، ص18.

3- سبنسر، مرجع سابق، ص34-35.

لذلك حرص على المزج بين الدوافع الدينية والسياسية بغية إقناع ملوكه¹. حيث سخر لأجل ذلك جميع الإمكانيات المالية والدعائية الاستخباراتية منذ أيامه مع الملكة إيزابيلا إلى خلفائها، إذ أشرف بنفسه مشروع توجيه أولى الحملات على المدن الجزائرية وتحديدًا "المرسى الكبير، وهران ومدينة الجزائر". وهذا السياق التنافسي العام أوجد الجزائر ضمن الجزء الحيوي المتنازع عليه عالميا وإقليميا.

1- محمد خير فارس، مرجع سابق، ص 18-19.

المبحث الأول: الدور السياسي للجزائر في الصراع

ما بعد ارتسام الحكم العثماني في الجزائر:

بقدر ما كان المغرب الأوسط أكثر أجزاء بلاد المغرب العربي اهتلاكا بسقوط دولة المسلمين في الأندلس، فإن واقعه مع نهاية القرن 15م وبداية القرن الموالي تميز بجو سياسي موافق للعثمانيين، سمح بالاتخاذ من الجزائر مركزا لأدوار فاعلة ومؤثرة في القسم الغربي - بدرجة أولى - من حوض البحر الأبيض المتوسط، وهو ما تعذر حصوله نسبيا في الجارتين الشرقية؛ وبشكل صريح ورسمي بالنسبة للجارة الغربية آنذاك.

وتتدرج جهود الجزائر السياسية خلال القرن 16م ضمن الدور الاستراتيجي ورؤية الدولة العثمانية للمجال المتوسطي، بالإضافة إلى سياسة حكام الجزائر التي أرادوا تأسيس الدولة عليها، مبتغين إكسابها دور الفاعل ذو البعد الدولي والإقليمي. فمشاركة رجالات البحرية الجزائرية أسهمت في إنشاء ولايات المغرب العثمانية "الجزائر؛ طرابلس وتونس" ورسم أشكالها السياسية والعسكرية¹، بالإضافة إلى تقوية حركة الجهاد البحري في الحوض الغربي للمتوسط، حيث أصبح لها تأثيرها الواضح في بلاد المغرب العربي، وهو ما صنع منها قوة إسلامية تمثل الخيط الأول في علاقة الدولة العثمانية مع هذه البلدان².

ثم إن الباب العالي خصّ الجزائر بنسق مميز من العلاقة، والتي تظهر في الخطاب الرسمي من المركز إلى الحكام والأعيان. وتتخذ من الجزائر أكثر من مجرد ولاية، يعتبر حكامها في مقام القائمين على شؤون مناطق النفوذ في الشمال الإفريقي، والنافذين في إدارة مصالح الدولة المركزية في مستوياتها الإقليمية والدبلوماسية. كما تمتعت إزاء ذلك برحابة مجال الاستقلالية في تدبير شؤونها المختلفة، دون مساس -طبعاً- بفلسفة الولاء.

1- حنيفي هلايلي، بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، عين مليلة، الجزائر: دار الهدى، ط1، 2007، ص47.

2- أباطة، مرجع سابق، ص96.

فالجزائر تمتعت بدرجة كبيرة من الحكم الذاتي بوصفها تابعة فعلياً للدولة العثمانية، وعلى هذا الأساس كانت لها صلاحية التفاوض وأداء الدور الدبلوماسي داخل نفوذ الدولة العثمانية وكذلك خارجها¹. ومنذ بناء كيائها السياسي غدت قوة مناهضة للتواجد الإسباني وتهديداته في المعازل الجزائرية وفي طرابلس وتونس، كما اتسع مجال تواجد الفعل الجزائري إلى المغرب الأقصى في "وجدة ودبدو وبادس"².

مقتضيات البداية وتحديات الجبهة الداخلية:

إن تأسيس الدولة الجزائرية مطلع القرن 16م كان ينطلق من رؤية سياسية بدأها عروج وطفق فيها خير الدين، لكنها واجهت الكيانات السياسية والقوى الإقليمية المجاورة، التي ما كانت ترضى أن ينبعث من الجزائر مشروع سياسي له مقومات الاستقلال. فناولت في إجهاضه وأجهدت في المنع بواسطة التعبير صراحة عن استهجان تواجد عروج، والقلق من سمعته الحسنة لدى عامة الأهالي-مثل ما فعل سالم التومي-، ثم بمناجدة القوى الخارجية للغاية نفسها، على شاكلة أبو حمو الثالث الذي قصد الأسباب لإبقاء سلطته على تلمسان وتجنبيها الانقياد لعروج.

والجزائريون أدوا دوراً فارقاً في تثبيت الحكم التركي العثماني في بلادهم، من خلال المبادرة إلى الاتصال بعروج من طرف ابن القاضي ثم شيخ الثعالبة، وبعدها انخرط أهالي مدينة جيجل في جيش عروج المتوجه نحو الجزائر وشرشال ومنها إلى تنس³. ومن ثمة إلحاح أهالي مدينة الجزائر على خير الدين بالبقاء بعد تفكيره مغادرة المدينة إلى النشاط في

1- جيريمي بلاك، تاريخ الدبلوماسية، ترجمة علي سالم، الإمارات العربية المتحدة: ط1، منشورات هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، 2013، ص47.

2- أباطة، مرجع سابق، صص 96-97.

3- هذه امتدادات إقليم العاصمة أو ما عرف فيما بعد بدار السلطان.

البحر؛ نتيجة مقتل أخيه عروج في تلمسان، ثم التجائه إلى جيجل التي كان ما يزيد عن 2000 رجل من سكانها ضمن جيشه البحري، بعد سيطرة أمير كوكو على العاصمة¹.

يأتي هذا في ظرف الضيق الذي انتاب خليفة عروج لفقد أخيه، نتاج الخذلان والتآمر الذي لقيه من أكثر من جهة، الأمر الذي جعل خير الدين يواجه أهالي العاصمة بحقيقة التحدي ومتطلباته؛ أي حقيقة البلاد وما يتطلبه مستقبلها السياسي، فنقل لنا صاحب الزهرة النائرة جانبا من ذلك الحديث ومنه قول خير الدين: "لقد رأيتم ما وقع من الملاحين الكافرين ولا يؤمن من عواملهم، وقد ظهر لي من الرأي أن نصل يدنا بطاعة السلطان الأعظم، مولانا السلطان سليم، فيمدنا بالمال والرجال وجميع ما نحتاج إليه من آلة الجهاد، ولا يكون ذلك إلا بصرف الخطبة إليه وضرب السكة عليه"².

فالانتصار على عروج في تلمسان واستشهاده دفع بالثنائي الإسباني الزياني إلى جدية التفكير في مواصلة التعاون والاستعداد للقضاء نهائيا على قوات الدولة الجزائرية، لذلك حصل الاتفاق على خطة حربية يزحف فيها أبو حمو الثالث على مدينة الجزائر مركز الدولة، وينزل الإسبان بحرا بدورهم على شاطئ المدينة³.

وتحصيلا أثار الجبهة الإقليمية دخول الجزائر تحت الحماية العثمانية، وزادت مخاوف الطامعين والمنافسين وغدا حكام تونس وبقايا الزيانيين يُحرّضون الجزائريين على العصيان ويدفعون بهم إلى رفض التواجد التركي. وصحّ بذلك سيطرة الإسبان على مدينة الجزائر، وعليه اضطر خير الدين إلى المكوث في جيجل لمدة ثلاث سنوات، طيلة فترة إحكام أندري دوريا قبضته على حصن البنيون.

1- حول تفاصيل الأحداث والجهود الأولية المفضية إلى تثبيت الحكم وبسط السلطة وإلحاق الدولة بالباب العالي؛ ينظر: صالح عباد، مرجع سابق، ص 43-55. وينظر كذلك: محمد دراج، تأسيس إيالة الجزائر، الجزائر: جامعة وهران 1، مجلة عصور، مج 09، العدد 1، جوان 2010، ص 26-32.

2- الزهرة النائرة...، مصدر سابق، ص 107.

3- جمال قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا، الجزائر: وزارة المجاهدين، طبعة خاصة، 2009، ص 29.

فالتقارب الجزائري العثماني منذ أوله أزعج القيادات القديمة في بلاد المغرب، خشية من ذوبان نفوذها وسلطتها، مما أوجد خير الدين في موقع مواجهة أمام جبهتين؛ القوى المحلية من جهة والخطر الإسباني من جهة ثانية، وأحيانا تجتمع الجبهتان لتتحالفا ضد الجزائر¹.

وعليه انشغلت السلطة في الجزائر بالشأن الداخلي، وفرضت عليها عمليات الإخضاع ومحاولات الكيانات السياسية الانفراد بحكم بعض الأقاليم من البلاد؛ تركيز الجهود على تثبيت أقدامها في البلاد الجزائرية. هذا دون إغفال التهديدات الخارجية التي كانت تتزايد وبالأخص في السنوات الأولى من القرن 16م رامية إلى عرقلة الوجود العثماني ومحاولة إبطال ترسيخه.

إن التجاء خير الدين إلى جيجل منذ سنة 1520م هو انسحاب من الصراع الأهلي وليس من المعركة، ولعله خيار استراتيجي أثمر مد نفوذه في شرق البلاد، حيث تمكنت له في تلك السنوات السيطرة على القل وعنابة في 1521 و1522م، كما استطاع حينها خلق تحالف مع إمارة بني عباس، أفضى إلى طرد ابن القاضي من سهل المتيجة في 1525م².
والمكوث في جيجل لسنوات هو فرصة لالتقاط الأنفاس وتعزيز العزم والجاهزية البحرية³، وكلها محطات في تحقيق البرنامج السياسي الذي استهله عروج، تتضح معالمه أكثر بتحرير عاصمة البلاد من حرج وحاجز الإسبان في البينيون سنة 1529م.

القيمة السياسية للجزائر منذ تأسيس الإيالة:

لعله يناسب القرن 16م في الجزائر تسمية قرن البايبريات الرؤساء، حيث عُيّن حكام الجزائر باختيار مباشر من طرف السلطان. وكانوا كلهم من رياس البحر ومن مساعدي خير

1- أباطة، مرجع سابق، ص ص98-99.

2- المرجع نفسه، ص33.

3- كارل بروكلمان، الأتراك العثمانيون وحضارتهم، ترجمة منير البعلبكي وأمين فارس، بيروت، لبنان: دار العلم للملايين، ط1، 1949، ص69.

الدين، هذا الأخير الذي رغم ارتباطه نظريا بالسلطة العليا للخلافة، ما كان يُشعرها بقدرته على فرض إرادته الكاملة. وفي أغلب الأحيان لم يكن البايبربايات يمكنون بالجزائر العاصمة، حيث انهمكوا بالمشاركة في الحملات العسكرية ضد الأسبان وفي تونس وسواحل شرق الجزائر، وأحيانا أخرى منشغلين بأحوال الداخل غير المستقرة، وذلك كان الوضع الأكثر شيوعا، بقيادة الأسطول قدمتهم قباطنة للأسطول العثماني¹. لذلك بوفاة عالج علي رئيس قدر السلطان العثماني أن نظام البايبربايات لم يعد مناسباً لزوال رجالته ومبرراته.

وهناك رأي ينظر إلى مرحلة عالج علي -نتيجة أدوار الجزائر فيها- بداية للتراخي في خضوع الجزائر كأكثر أوجاق الغرب للباب العالي، لتبدأ بعدها وتحديدا سنة 1587م مرحلة تعيين والي الجزائر محليا². غير أن هذا لا يُفهم منه فتور العلاقة بين الجزائر وإسطنبول؛ إنما العكس، حيث عوّل السلاطين في الباب العالي على بحرية الجزائر، ونظروا إليها نظرة السند والذراع القوي في الزحف العثماني، وبالأخص مع بداية الشطر الثاني من فترة القانوني، حيث المواجهة مع الهابسبورغ وتحقيق الفوز بالقلع والمراكز العصية خطوة تلو الأخرى³.

ويشير جون بول وولف رؤية مفادها أن علاقة الجزائر بإسطنبول تطرح صعوبة في تقرير طبيعتها، ويقول أنه برغم وضوح الآلية التي يتقلد فيها حكام الأيالات رتبة البايبرباي إلا أن بايبربايات الجزائر ونوابهم كانوا يخضعون لقاعدة مختلفة. ويستدل بخير الدين باشا الذي تقلد أمير أمراء جزائر الغرب (الولايات العثمانية في شمال إفريقيا) وأدميرال البحرية السلطانية العثمانية، ثم يُعمم طرحه على البايبربايات خلال مرحلة القرن 16م، إذ يكاد جميعهم

1- Claude Bontems, Manuel des Institution Algérienne de la domination turque a l'indépendance, Tome, Edition Cujas, France, 1976, pp29-31.

2- فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2007، ص540.

3- مانتران، مرجع سابق، ص238.

يجمع بين المنصبين وينال ثقة سلطان الخلافة وتكون أعماله وسمعته سبيلا لهذه المناصب السامية¹.

كما مارس حكام الجزائر السلطة المباشرة غير مقيدين بوجهة نظر الديوان²، وامتد نفوذهم إلى حكام تونس وطرابلس يتصرفون تصرف الملوك³. كما ظهر تعاون وانسجام مائل بينهم وبين مركز الخلافة في الأستانة، إذ كانت فكرة الوحدة الجهادية لمواجهة التوسعات الاستعمارية مصلحة جامعة بين الطرفين⁴. ناهيك عن حرص الديوان الهيمايوني الشديد على الجانب الأمني للجزائر، معتبرا المحافظة عليه من أولويات المسائل⁵.

ولا يمكن إنكار محاولة الطبقة الحاكمة⁶ للجزائر العثمانية الاستقلال بها عن القسطنطينية منذ البداية، واستطاعت فعلا -مع الوقت- أن تحصل ذلك بحيث لم تُبق إلا على علاقة شكلية متراخية⁷. وفي مرحلة البايلربايات كانت الاستقلالية المرغوبة بمفهوم السيادة على مسائل الجهاد البحري ومضايقة الخصوم، بالإضافة إلى حجز مكان الجزائر كقوة متوسطة، مع الاحتفاظ بالولاء والانتماء للباب العالي كمركز الخلافة الإسلامية العثمانية.

1- وولف، مرجع سابق، ص 110.

2- المقصود هنا الديوان الخاص للدولة؛ على شاكلة مجلس الوزراء، ويتكون من الخزناسي والباشا آغا ووكيل الخرج وخوجة الخيل ووكيل بيت المال. ينظر: حليمي عبد القادر، مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830، الجزائر: المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي، ط1، 1972، ص 278.

3- أقحم جوليان هذا الوصف نقلا عن هايديو؛ وكما ورد في الجملة، وهو العنوان الذي وسم به هايديو كتابه عن الجزائر وملوكها في الفترة العثمانية.

4- عائشة غطاس وأخريات، مرجع سابق، ص 44.

5- فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية...، مرجع سابق، ص 66.

6- يطلق عليها الشيخ مبارك المليي تسمية "العنصر التركي" في جميع الفصول التي تناول فيها الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر، ويدلي بمبرراته في سياق المآخذ التي يراها عن تواجد العنصر التركي، حيث يرى أن هذا الأخير أحدث فجوة بينه وبين الجزائريين أصلا ومولدا ولم يستطع الذوبان فيهم، إلى أن يقدم محاولة مقارنة بين إيجابيات الفترة وسلبياتها.

7- مبارك المليي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، الجزائر: مكتبة النهضة الجزائرية: 1964، ص 12.

مظاهر الدور السياسي للجزائر:

خلافًا لجل ولايات الدولة العثمانية، صنعت الجزائر لنفسها كيانا قائما على الاقتدار في إدارة شؤونها الداخلية والخارجية، وأنشأت الدولة معتمدة على جهود قادتها الأشداء، فكانت في علاقتها مع المركزية في الباب العالي صاحبة فضل لا جبهة عبي؛ ومورد مدد لا عالة على السلطان.

وتجلت الجزائر قاعدة إسلامية من خلال احتضانها لتلك القيادة العامة التي فرضت نفسها، بفضل جهودها وحسن تفاعلها مع معمعة الحثيات والتنازعات الحاصلة في غرب المتوسط. وأسست من خلال نشاط حكامها الذين مارسوا جهودا مشهودة بمهارة وتنظيم، أدت من خلالهم إلى تحويل البحرية الإسلامية العثمانية إلى قوة مؤثرة ترتب التكافؤ في الصراع مع الهابسبورغ، وتحديدا مع بداية قيادة خير الدين للأسطول العثماني¹.

ويقول فاضل بيات أن الديوان الهيمايوني لم يكن يخاطب أي منطقة من بلاد الشمال الإفريقي إلا من خلال حاكم الجزائر، فإنه يخاطب الجزائر مباشرة باعتبارها مسؤولة عن جميع المجريات بهذه المنطقة من نفوذ الدولة العثمانية². وأفصح الباب العالي في كذا مراسلة رسمية إلى الجزائريين حكاما وأعيانا، عن المركز الذي تتموضع فيه الجزائر والقيمة التي تتأهلها لدى السلطة المركزية، بوصفها "دار جهاد يُفرض الخوف عليها بحرص أكثر"³.

1- إحسان أوغلي وآخرون، مرجع سابق، ص42.

2- لقاء في حصة متلفزة من تنشيط المؤسسة العمومية للتلفزيون الجزائري استضيف فيه الأستاذ فاضل بيات والأستاذ محمد دراج، بثت على قناة الذاكرة (TV08) بتاريخ 2022/03/12 من الـ: 20:00 إلى 21:00، في إطار فعاليات الملتقى الدولي الرابع حول الموروث الجزائري التركي المشترك؛ موسوما بـ "على خطى بيري رئيس؛ تاريخ الجزائر من خلال كتاب البحرية"، أيام 09-10-11 مارس 2022 بالجزائر.

3- دفتر المهمة رقم 18، ص134، فاضل بيات، الولايات العربية، ص37.

فالدولة العثمانية أدارت في فترات ومناسبات مختلفة شؤونها العلائقية عن طريق الجزائر، من خلال البايبربايات الذين تمتعوا بوسع الصلاحيات¹، وكانت مكانتهم خاصة ومختلفة لدى الباب العالي عن غيرهم من أمراء الولايات الأخرى².

المساهمة في توسيع امتداد نفوذ الدولة العثمانية:

1- جهود ضم تونس لسلطة الدولة العثمانية:

في صلة الجزائر بتونس وواقعها السياسي جانب من الخلفية التاريخية والعلائقية بينهما، فالسلطة الحفصية كانت امتدت إلى جزء كبير من شرق المغرب الأوسط، بلغت أقصاها إلى الأوراس؛ فجبال الحضنة ووادي الصومام³. وفي هذا السياق وجدت الجزائر مع إقرارها الولاية العثمانية الأولى في بلاد المغرب قسما هاما وواسعا من أراضيها ضمن حصّة الحفصيين، بما يمثله من ثقل سياسي واقتصادي، وبما له من أهمية استراتيجية في تقوية الجبهة الداخلية وتحرير الوحدة الترابية. وهذا ما وضع خير الدين وخلفاءه خلال القرن 16م أمام مسؤولية تحقيقه.

كما كانت الحدود الجزائرية مع تونس الأكثر تهديدا في القرن 16م، لأن الأمراء الحفصيين كان يمكنهم ادعاء السيادة على معظم المدن والقبائل الواقعة بين مدينتي تونس والجزائر، متحججين بالسوابق التاريخية⁴ التي ذكرناها. وعندما استتب الأمر للأتراك في مدينة الجزائر تحول اهتمامهم بالضرورة إلى تونس للاستيلاء عليها، وأحسّت السلطة القائمة في الجزائر أنه زيادة على الإسبان هنالك خطر يتهددها من جهتي تلمسان وتونس، لذلك

1- عبد الخالق محمود، العلاقات السياسية بين الدولة العثمانية والمغرب السعدي 1550-1603م، "العرب من مرجع دابق إلى سايكس بيكو، ص 03.

2- عزيز سامح ألتز، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، لبنان: دار النهضة العربية، ط1، 1989، ص 147.

3- توفيق البشروش، جمهورية الدايات في تونس 1591-1675م، تونس: د.ت، ص 28.

4- وولف، مرجع سابق، ص 114.

خطط خير الدين لإخضاع هتين الأخيرتين إلى سيطرته. وبما أن الجزائر كانت فيما سبق مرتبطة بالحفصيين، فإن سلطان تونس بدوره اعتبر بربروسا عاصٍ ومغتصب يستحق الطرد حتى يتأتى استرجاع النفوذ على الجزائر¹.

وجلبت تونس على الجزائر التهديدات والمؤامرات وكذلك على المصالح الإسلامية العثمانية، حيث أظهر الحفصيون² مولاتهم لملك إسبانيا³، مما دفع القيادة الجزائرية للإصرار على سد منافذ الخطر واحتواءه، باستباق العمل والمبادرة إلى إحلال السلطة الجزائرية العثمانية عليها. ومن مضامين برنامج خير الدين -القبودان باشا- تأتي تونس⁴ في الطليعة، وفور خروجه من إسطنبول جاء الأسطول العثماني في أوت 1533م إلى مدينة عنابة يتلقى منها مدداً أتى به حسن آغا. ومنها تحرك يتقدم برا نحو بنزرت وبحرا صوب حلق الوادي حيث تمكّن منهما بسهولة وقبولٍ من الأهالي⁵.

وتونس مركز مهم من شأن الاستيلاء عليه تعديل ميزان القوى في البحر المتوسط⁶، ولكي يضمن خير الدين حرية التنقل بين حوضي البحر الأبيض المتوسط، باشر حملته الأولى على تونس سنة 1534م، وكان وقتها يقوم على أمرها مولاي الحسن من سلالة

1- سامح أتر، مرجع سابق، ص ص79-80.

2- ويذكر أن أهالي مدينة تونس بدافع الظلم المسلط عليهم من سلطانهم مولاي الحسن بحيث قتل بعضاً من أعيانهم، اتصلوا سنة 1532م سرّياً بخير الدين في الجزائر لينقذهم مما كانوا فيه. ينظر: Haido, Op.cit, pp46-47.

3- محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري، مرجع سابق، ص123.

4- هناك رواية تقول بأن الرشيد وهو ابن السلطان الحفصي محمد بن الحسن المتوفى سنة 1525م، سلب منه أخوه من الأب مولاي الحسن الحكم، وبأشر ضده وأخوين آخرين له جهوداً لتصفيتهم، والرشيد نجا من بطشه وفر مستجيراً ببعض القبائل ثم قصد إلى خير الدين بربروس في الجزائر. وهذا الأخير اصطحبه معه في سفره إلى الباب العالي لملاقاة السلطان القانوني، وذلك حتى يؤكد له أن التواجد العثماني في تونس مطلوب من السلطة الشرعية التي يمثلها الرشيد ومن السكان الناقمين على الحسن. ينظر: ألفونسو روسو، الحوليات التونسية من الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، بنغازي، ليبيا: منشورات جامعة قار يونس، د.ت، ص ص83-84.

5- المدني، مرجع سابق، ص211.

6- بنحادة، مرجع سابق، ص43.

الحفصيين. وقد أحسن أهلها استقبال خير الدين، واستولى بسهولة على مدينة تونس في 18 أفريل سنة 1534م، ونادى بسقوط الحفصيين¹، بعد أن كانت بنزرت هي القاعدة قد سيطر عليها في البداية².

ويروي لنا ابن أبي الدينار هذه الأحداث تباعا مؤكدا أن تونس شهدت في هذه المرحلة ضعف السلطة وانحرافها، مع وجود أجزاء من الجزائر الشرقية تابعة لها فيقول: "سمعت من يذكر من أهل تونس أن السلطان الحسن ساءت سيرته في الناس واضطربت البلاد وخرجت عن طاعته مدينة سوسة...، وفي أيامه كانت قسنطينة في أيدي الترك وكان ولده أحمد نائبا ببلد الغاب، وفي أيامه جاءت عمارة من برّ الترك لأخذ تونس، أرسلها إبراهيم باشا وكان وزيرا للسلطان سليمان...، فأرسل خير الدين إلى تونس... فنازل تونس وأخذها وفرّ عنها الحسن، ودخل خير الدين إلى تونس واستقلّ بقصبتها"³.

أربك تحصيل خير الدين لتونس الثلاثي المسيحي "إسبانيا والبابوية والأمراء الإيطاليين"، وتأكدوا أن تواجده فيها هو تهديد خطير لمصالحهم ومستقبلهم في المنطقة⁴. ويذكر أن تمركز الحكم العثماني بتونس، قد دفع مولاي الحسن نحو طلب معونة الإمبراطور شارلكان الذي حرك أسطولا في 100 ألف مقاتل -حسب صاحب الرواية-، قابلهم خير الدين بمعية 18 ألف جندي. ونتيجة لخروج الأسرى الأعلاج من القسبة واندفاعهم إلى جانب قوات الإسبان، انسحب خير الدين متجها نحو عنابة، وأما أسطول النصارى فدخل المدينة وعات فيها قتلا ونهبا وكان ذلك ثمنا لاسترجاع السلطان الحسن عرشه⁵.

1- فؤاد متولي، تاريخ الدولة العثمانية من نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي، مصر: إيتراك للطباعة والنشر، 2005، ص259.

2- بنحادة، مرجع سابق، ص43.

3- ابن أبي الدينار، مصدر سابق، ص153.

4- خير فارس، مرجع سابق، ص35.

5- ابن أبي الدينار، المصدر نفسه، صص154-155.

فالوقوع إذا في تونس والعين على الجزائر، إذ سرعان ما ظهرت الأهداف البعيدة من الاستيلاء على تونس، وهي التطلع لحملة ضخمة على الجزائر¹. حيث أذاع شارلكان في جميع دول أوروبا المسيحية عزمه الانتصار للمسيحية والثأر من غارة المسلمين على جزر الباليار²، وجمع أسطولاً كان من أقوى التجمعات البحرية المقاتلة في القرن 16م، يتألف من أكثر من 36 ألف جندي³ ما بين ألمان وإيطاليين وإسبان وفرسان مالطا⁴. كما زاد الحماس الإسباني بإنهاء سيطرة خير الدين على تونس، واتجهت الأنظار إلى الهدف الرئيسي وهو الجزائر، ويقول صاحب المؤنس: "ولما تفرّق الإمبراطور عن تونس بعد نهبها، طلبته نفسه بأخذ الجزائر"⁵.

استمرار وتطور الصراع على تونس:

بقيت نفس المبررات تملّي مدّ النفوذ على تونس فهي أولاً تتوسط الجزائر وطرابلس⁶، ثم بالنظر إلى قربها من إيطاليا التي كانت أحد جناحي الإمبراطورية الرومانية المقدسة،

1- أفصح عن ذلك شارلكان في رسالته الموجهة إلى نائب بايلرباي الجزائر حسن آغا سنة 1541م، في أثناء تحرك حملته على مدينة الجزائر، ومما قال: "أنا ملك إسبانيا الذي استولى على تونس وأخرج منها خير الدين، وتونس أهم من الجزائر وخير الدين أقوى منك". ينظر: مسعود مجاهد، تاريخ الجزائر، ج1، الجزائر: د.ت، ص86.

2- نتيجة لعدم قدرة خير الدين الصمود في وجه الحملة الإسبانية الجارة على تونس، انسحب إلى عنابة وكان رده منها بغزو جزر الباليار وسواحل أوروبا الغربية، حيث غنم 06 آلاف أسير وأموال وعوائد متنوعة. ينظر: خير فارس، مرجع سابق، ص35.

3- يظهر من تضارب الروايات حول القوام العددي للحملة الإسبانية على تونس أن ما أورده ابن أبي الدينار رقم مبالغ فيه، بالنظر إلى تعداد حملة 1541م على الجزائر باعتبارها أكبر حملات الهابسبورغ الصليبية، إذ شاركت فيها مختلف البلدان والأطراف الأوروبية.

4- عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج2، القاهرة، مصر: مكتبة الأنجلو المصرية، 2004، ص194.

5- ابن أبي الدينار، مصدر سابق، ص155.

6- تطرقنا في المبحث الثاني من الفصل الأول للأطروحة إلى أهمية تونس من الوجهة الاقتصادية والإستراتيجية.

وكذلك لمجاورتها جزيرة مالطا مقر فرسان "مالطا" الحلفاء الطبيعيين للإمبراطور شارلمان، وأشد الطوائف المسيحية عداً للمسلمين¹.

كما يجيء تحرك حكام الجزائر إلى الساحل الإفريقي الشرقي لدواع إستراتيجية في خضم الحرب مع الإسبان، وخشية إقامة هذه الأخيرة قواعد في تونس؛ التي اعترتها فوضى العرش السائدة بين حكامها².

استمر بعد وفاة خير الدين خلفاؤه من حكام الجزائر في توجيه جهودهم نحو الجارة الشرقية؛ مستهدفين ضمها إلى ممتلكات الدولة العثمانية في الشمال الإفريقي، ويرجع ذلك إلى أيام عروج وخير الدين الذين أدركا أهمية تونس وموقعها الجيد الذي تتمتع به. بحيث كان مينائها صالحا ومناسبا لممارسة الجهاد البحري نتيجة توفره على الشروط المطلوبة، إضافة إلى تواجد حلق الوادي على برج صغير للمراقبة³.

وبعد خير الدين لم تؤول السلطة في الجزائر لغير رجاله؛ تلك الفئة من المجاهدين صنيعته، ومن هؤلاء كان درغوث باشا أحد رياس البحر الذين صقلهم خير الدين⁴، والذين فرض بفضلهم الجهاد البحري تواجده في البحر المتوسط¹.

1- الشناوي، مرجع سابق، ص 189.

2- عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون 1516-1916، دمشق، سوريا: الألف باء للطباعة والنشر، ط2، 1993، ص:79.

3- سامح ألتر، مرجع سابق، ص 42.

4- درغوث راييس: ولد سنة 1485م التحق بخير الدين وعمره 25 سنة؛ في السنوات الأولى لتواجد عروج خير الدين بالجزائر، وأصبح يده اليمنى. وبعد ما أسند لخير الدين الأسطول السلطاني اتخذه من القادة المقربين وشارك معه في معركة بروزة الشهيرة 1538م. بعدها سجن من طرف رجال جيناتينو دوريا (ابن شقيق أندري دوريا)، ومكث أسيرا ل30 سنوات (1540-1544) إلى أن افتداه خير الدين أثناء تمركزه بسواحل فرنسا تزامنا وهدنة نيس بين إسبانيا وفرنسا. له دور بارز وأثر بطولي في الجهاد البحري ونشاط توسيع رقعة الدولة العثمانية في منطقة غرب المتوسط وبالأخص التوسع في تونس وفتح طرابلس، إلى أن توفي جراء حصار مالطا 1565م. للمزيد ينظر باللغة التركية كتاب: جيهان يميكي وآخرون، درغوث راييس (1485-1565م)، أعمال ملتقى "درغوث راييس للتاريخ البحري والتركي" من تنظيم بلدية درغوث راييس ومركز الثقافة والفنون (27-28 ماي 2011)، أنقرة، تركيا: بوردوم للطباعة والنشر، جويلية 2013. وينظر كذلك:

وفي غضون الهدنة العثمانية الاسبانية بين القانوني وشارلكان سنة 1544م، وجدت جماعة الرياس في وضع الجزائر هذا حرجا لها، حيث تفرض عليها الهدنة تعطيل العمل الخارجي البحري المبني على الجهاد والتأثر للمسلمين ضد إسبانيا المسيحية². ونشأ درغوث في أسطول خير الدين وتدرج في جميع الرتب إلى أن حظي بنبابة خير الدين على بعض الشؤون البحرية المتصلة بالمتوسط والجهاد البحري³، ونتيجة لهزيمة الأسبان النكراء في الجزائر سنة 1541م نقل هؤلاء الصراع الإسلامي النصراني إلى تونس، وفي تلك الأثناء ظهر درغوث باشا ليملاً الفراغ السياسي والحربي الجهادي في تونس، وقد اتخذ من طرابلس قاعدة عسكرية من قواعد الجهاد الديني البحري في الشمال الإفريقي، ومن حصيلة ما حقق أنه تمكن من ميناء قفصة 1556م وتوغل إلى أن بلغ القيروان وأقام فيها حامية عام 1558م⁴.

مرحلة علق علي وإدخال تونس نهائيا لممتلكات السلطان:

ضيق تحرير طرابلس عام 1551م من دائرة التواجد الإسباني في بلاد المغرب العربي، كما ضايق درغوث رايس مصالحهم في تونس وكذا مصالح الحفصيين فيها. وبعد

-Cihan Yemişçi ve diğerleri, Turgut Reis - Türk Denizcilik Tarihi Sempozyumu 27-28 Mayıs 2011, Bodrum Ajans Yayın Grubu, Ankara, 2003.

1- مما كتبه مارمول حول درغوث، أنه دخل في خدمة خير الدين منذ صغره، وأن خير الدين عينه رئيسا للبحارة في المتوسط بعدما عين قبودانا باشا على الأسطول السلطاني. ونتيجة لحركة درغوث وخطره على السواحل الأوروبية، كلف شارلكان أندري دوريا بمطارته وتتبع أثره إذ تم القبض عليه أسيرا في سواحل كورسيكا (كما أوضحنا في الهامش الأسبق). ينظر: مارمول، مصدر سابق، ج03، ص ص71-72.

2- وولف، مرجع سابق، ص64.

3- كونستانزيو برينا، طرابلس من 1510 إلى 1850، ترجمة خليفة محمد التليسي، ليبيا: بنغازي، ط01، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، 1985، ص7.

4- وولف، مرجع نفسه، ص191.

استشهاده في معركة حصار مالطة أُلقيت مسؤولية تحرير تونس بصفة مباشرة على الجزائر، وأصبح بايلرباي الجزائر الذي يقود الأسطول السلطاني موكلا بالمهمة.

ومع تقلد عالج علي إمرة الجزائر سنة 1568م، اتصل به أعيان تونس قصد تخليصهم من تجبر السلطان الحفصي مولاي أحمد، فلم يحصل منه شيء لأجلهم يومها؛ نتيجة لانشغال الجزائر بمساندة ثورة البشرات لموريسكي غرناطة. وفي السنة الموالية عاود أهل تونس طلب تدخل الجزائر لتزايد تواطؤ سلطانهم مع الأسباب المتواجدين في حلق الوادي، وهذه المرة تحرك عالج علي في منتصف الخريف بمعية 05 آلاف رجل و10 مدافع، ليتعزز جيشه ب06 آلاف من متطوعي شرق الجزائر "بلاد القبائل، عنابة وقسنطينة"¹.

وعندما أسدى الباب العالي أمر أسطول تحرير تونس إلى سنان باشا، أوعز إلى والي الجزائر ووالي طرابلس الغرب المشاركة بقواتهما في هذه الحرب². ذلك أن عالج علي أصبح المهندس الوحيد للسياسة العثمانية بإيالاتي الجزائر وتونس، وعليه وحده يتوقف أخذ القرارات السياسية والعسكرية الهامة لمستقبل فضاء المغرب العربي، واندماجه كلياً ضمن المدار العثماني³.

ويؤكد حظوة تونس وتأخر الحسم فيها قول التمكروتي: "وتونس مدينة عظيمة آهلة...أخذها الأتراك من أيدي بقية الحفصيين، ثم أخذها النصارى منهم بواسطة من بقي من الحفصيين...، ثم إن الترك انتبدوا وخرجوا إليها فجأؤوهم في أربعمئة وخمسين سفينة من القسطنطينية ومن سائر إفريقية فيها مائة ألف مقاتل وأزيد. فنزلوا عليهم وحاصروهم بخلق الوادي أربعين يوماً فأخذوهم عنوة. ثم أخذوا الحصنين الآخرين وقلعة البلد وتملكوا

1- فكايير، مرجع سابق، ص165.

2- محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، تحقيق وعناية داوود بخاري ورايح قادري، ج01، الجزائر: دار الوعي، ط01، 2012، ص114.

3- التميمي، مرجع سابق، ص55.

البلاد. فهم بها الآن، وذلك عام اثنين وثمانين وتسع مائة. وهدموا ما قدروا عليه من القشتيل وأسكنوا في طرف منه من يمنع المرسى ويرعاه رباطا¹.

ضف إلى ما تقدم بقاء التواجد الإسباني على الساحل الجنوبي للمتوسط الغربي طيلة القرن 16م، وبرغم تراجع النفوذ بفقدان بجاية وطرابلس ودخول تلمسان تحت السلطة الرسمية في الجزائر، تشبّث الهابسبورغ بتونس ولم يتنازلوا عن أطماعهم فيها إلا سنة 1574م نتيجة حسم أمرها لصالح الدولة العثمانية.

وتونس مركز مهم من شأن الاستيلاء عليه تعديل ميزان القوى في البحر المتوسط²، وكانت نية إمبراطور إسبانيا منذ استعادة تونس من خير الدين المرة الأولى عزل بحارة مدينة الجزائر عن الشرق وعن القسطنطينية. كما أوصي خليفته فيليب الثاني هو الآخر من طرف نائبه على نابولي بضرورة تثبيت نفوذه وبقوة في تونس، باعتبارها طريقا بحريا يمنع -التحكم فيه- الأتراك القاصدين الجزائر ويحرمهم النزول إلى اليابسة³.

فالجارة الشرقية إذن لم تحظى بهذا الاهتمام الوافر من حكام الجزائر إلا لإدراكهم ما يمكن أن تضيفه حيازتها. لذلك نال ذكر تونس وأخبارها حفا واسعا في مذكرات خير الدين، وباعتباره شخصية قيادية سياسية وعسكرية لها ثقلها في منطقة حوض البحر المتوسط، وأثرها في الأحداث والتطورات الحاصلة على مدار القرن 16م، لم يفصل في تصور بسط نفوذه في المنطقة بين الجزائر وتونس؛ وبصورة أدق بين تشكيلة فضاء المغرب الإسلامي بحدوده المعلومة.

ونشير إلى أن تونس خضعت للسلطة المباشر والإشرافية للجزائر بعد فتحها وضمها للدولة العثمانية، حيث كانت في السنوات الأولى بالنسبة للباب العالي برتبة سنجق (محافظة

1- التمكروتي، مصدر سابق، ص41-42.

2- بنحادة، مرجع سابق، ص43.

3- Fernand Braudel, Les Espagnols et l'Afrique du Nord de 1492 à 1577 (suite) R.A, N69,04e trimestre, 1928, p353.

أو بايلك) ملحق ببایلرباي الجزائر. وهذا ما يفهم من فرمان التولية الخاص بإقرار رمضان باشا بايلربايا على الجزائر في ربيع سنة 1574م، إذ جاء مستهل فرمان بجملة: "حكم إلى أمير سنجق تونس السابق القائد رمضان¹". واتضح أن منصبه الجديد ترقية، حيث خاطبه الديوان الهيمايوني بعبارات دالة في قوله: "لقد تم شمولك بمزيد عنايتنا العلية السلطانية وعوارفنا الملكية السامية وأسندت إليك ولاية جزائر الغرب بنفس المخصصات التي كان يتقاضاها الولاية السابقون²".

2- الاهتمام بطرابلس:

عندما اعتبرت الإمبراطورية الإسبانية منطقة الشمال الأفريقي عالما مثاليا لحلول نفوذها³، مثلت طرابلس محطة من هذا الامتداد، وتيقن القائمون على تلك المخططات أن التمكن من جربة كمركز للوساطة والمرور البحري التجاري يتطلب الاستيلاء أولا على طرابلس، ضمانا لتموين الجيش واحتماه، وسيطرة على التجارة والملاحة⁴.

وبعد ما استحكم عروج في الجزائر، وعلى وجه الدقة حوالي سنة 1517م، طلب الطرابلسيون الذين سئمو النير الأسباني من خير الدين بربروس العمل على بسط سيطرته على طرابلس، ولكن هذه الفكرة لم تتحقق، إما لأن هذا القائد رأى أن مثل هذه العملية ليست مناسبة في ذلك الوقت، أو أن العاملين على الإطاحة بالحكم الأسباني لم يحسنوا التصرف في الخفاء لإعداد التمهيديات اللازمة، مما انعكس عليهم بإصدار الحكم بإعدامهم. وقد أخذ

1- دفتر المهمة رقم 12، ص 571، للإطلاع على النص المعرب، ينظر: فاضل بيات، الولايات العربية في الوثائق العثمانية، مج 08، مرجع سابق، ص ص 77-78.

2- عين خلفا للبايلرباي عالج علي الذي أسندت له رتبة أمير أمراء الأسطول السلطاني (قبودان باشا).

3- لم يكن بمفهوم النسق الحضاري المسيحي الغربي، إنما كان دينيا في لبه سياسيا واقتصاديا في أهدافه. حيث سلك الإسبان طريقة تنصيب الحاميات والاعتراف بالسلطة التي تقر الولاء مقابل الضرائب والأعطيات المالية الثابتة.

4- محمد الباروني، الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، طرابلس: مطبعة ماجي، 1952، ص 27.

الأمل يتبدد أكثر فأكثر بانتخاب الإمبراطور شارل الخامس سنة 1519، كما تضايق الطرابلسيون من تزايد السيطرة المسيحية عليهم¹.

وأثناء تقهقر خير الدين إلى شرق الجزائر بعد سيطرة ابن القاضي على دار السلطان وكذا سيطرة الأسبان من البينيون؛ استقر في جربة² مؤقتا، وحصلت معه من هناك اتصالات مع أعيان طرابلس ضد الأسبان، جعلت هؤلاء يحركون ديقو مونكادا بحملة على جربة، كانت سببا في إخضاع شيخها لمعاهدة التبعية ودفع الضريبة، حتى لا يفكر بالتعاون عليهم وتهديد مركزهم في طرابلس³.

وبعد عشرين سنة من خضوع طرابلس للإسبان؛ ونتيجة للصفقة عليها بين شارلكان وفرسان مالطة، عهد إليهم بحكمها وأناهم سلطته عليها. وفي سنة 1533م استطاع خير الدين في إطار بداية غاراته بالأسطول الهيمايوني تخليصها لفترة وجيزة من هيمنتهم⁴، إلا أن دخول السلطان الحفصي في تحالف مع الفرسان ضيق على الطرابلسين الأمر وزادت أوضاع تاجوراء سوءاً وخضوعا. وعلى إثر اتصال سكانها ببایلرباي الجزائر تحرك لإخضاعها وإعادتها لسلطنتهم تحت إمرة خير الدين قرمان⁵.

1- كونستانزيو برينا، مرجع سابق، ص32.

2- شنّ خير الدين في 1525م هجوما على الحامية الإسبانية في جربة في حوالي 80 مركبا وتمكن من زعزعة تواجدهم وإشعارهم بخطرهم.

3- رابحة محمد، مرجع سابق، ص ص110-111.

4- محمود ناجي، تاريخ طرابلس الغرب، ترجمة عبد السلام أدهم ومحمد الأسطى، بنغازي، ليبيا: منشورات الجامعة الليبية، 1970، ص146.

5- رابحة محمد، مرجع سابق، ص ص112-113.

دور درغوث باشا:

في الوقت نفسه كان النشاط العدائي لفرسان القديس يوحنا يتفاقم على طرابلس، وازدادت تحصيناتهم فيها وقويت، متخذين منها رודس الثانية في وجه ضعف المقاومة الدفاعية لدى أهلها لوحدهم¹.

وانطلاقاً من سنة 1541م كان الحضور المنتظم للأسطول العثماني في عرض طرابلس وجربة بفضل شخصيات بحرية وعلى رأسهم بايلربايات الجزائر؛ خير الدين ثم عرج علي، ويصاف إليهم كذلك درغوث رايس، وجميعهم سعوا إلى تجنب الفضاء المغاربي مصيراً مشابهاً لما حدث في أمريكا اللاتينية على يد الإسبان².

وعقب نجاح الجزائر في كبح الحملة الصليبية عليها سنة 1541م، حذر السلطان الحفصي الإسبان من مغبة استفحال هيمنة العثمانيين من الجزائر على سائر شمال إفريقيا، وبعث لفرسان مالطا يُحيطهم عزم البحرية العثمانية محاصرة طرابلس. ونظراً لخوفهم من المحتمل أحوال على شارلكان تعزيز قواهم وتوسيع صلاحياتهم، حتى أنّ حاكم طرابلس فرناند دي برانكامونت طلب إعفاهه من منصبه سنة 1542م³.

ولما تضاعفت ضربات درغوث⁴ على جماعة الفرسان في طرابلس، تبين أن هذا الأخير متشبث بتخليصها منهم، وفي أوت 1551م حيث عزز البابا العالي الإمكانيات في سبيل انتزاع طرابلس من نواب شارلكان، شارك بايلربايات الجزائر صالح رايس بفرقة بحرية

1- إسماعيل أحمد ياغي، العالم العربي في التاريخ الحديث، السعودية: العبيكان للنشر والتوزيع، 2003، ص 62.
2- عبد الجليل التميمي، "عثمة إيالات الجزائر و تونس و طرابلس الغرب على ضوء المهمة دفترية (1559-1595)"، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد 34، زغوان، تونس، 2006، ص 25.
3- الحوليات الليبية، مرجع سابق، ص 89.
4- يتحدث أحمد جودت عن هذه الشخصية بإعجاب وإكبار، حيث يروي أنه أحق القادة البحريين بخلافة خير الدين بعد وفاته وأجدرهم لتولي منصب القبودان البحري للترسانة السلطانية، حتى أن خير الدين في حياته كان يصفه بأنه أنفع منه ويشيد ببطولاته. ينظر: أحمد جودت، تاريخ جودت، مصدر سابق، ص 156.

تمركزت ضمن خطة الغارة؛ على يمين القلعة بثماني قطع من المدفعية. كما جاء أمر القانوني قبلها لدرغوث باشا بالتحرك، وكان متواجد في الجزائر بـ20 سفينة، وحصل تحريرها في 14 أوت بعد حصار ودفاع مستميت من حاكمها دي فالير¹.

وعندما ضمت طرابلس للممتلكات الدولة العثمانية بذل درغوث باشا فيها وسعه ليجعل من مرساها الجزائر² الثانية؛ التي تكون قاعدة بحرية ضمن قواعد الأسطول العثماني³. ومن حصيلة ما حقق أنه تمكن من ميناء قفصة 1556م وتوغل إلى أن بلغ القيروان وأقام فيها حامية عام 1558م⁴.

دور الجزائر في السياسات والتوازنات بين الضفتين:

لقد كان للحضور الذي فرضته جماعة الرياس للبحرية الجزائرية أثره في محور العلاقات بين الشرق والغرب، وعليه كان العداء الذي لازم الطرف الأوروبي، بسبب تحكم بحرية الجزائر في قضايا الغنائم والأسرى والامتيازات والمعاهدات، فأجبرت تلك الدول مكروهة على حقيقة الصلات المتعددة للجزائر بعالم البحر المتوسط⁵.

ومن جهة أخرى أدى بروز الجزائر على ساحة الأحداث الدولية إلى إشغال السياسة الدولية الأوروبية بها؛ والإسبانية خلال القرن 16م بوجه أخص. جعلت شارلكان يتخبط بين الاستمرار في تثبيت زعامته في أوروبا، وتصديه لحروب البروتستانت ومنافسة ملك فرنسا،

1- الحوليات الليبية، المرجع نفسه، ص ص90-94.

2- ذكر شارل فيرو في الحوليات الليبية أن السلطان العثماني عزم إسناد حكم الجزائر إلى درغوث نتيجة لتصاعد دوره الجهادي بعد استعادة طرابلس، إلا أن الصدر الأعظم (رستم باشا) لفت انتباهه إلى طبيعة درغوث في الخروج للبحر وعدم الاستقرار بحيث لا يلائم ذلك منصب البايبراي. ينظر: المصدر المذكور، ص 109.

3- وولف، مرجع سابق، ص 73.

4- عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج02، القاهرة، مصر: مكتبة الأنجلو المصرية، 2004، ص 194.

5- ناصر الدين سيدوني، الجزائر منطلقات وآفاق، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط2، 2009، ص 177.

وبين التفرغ الكامل للمسألة الجزائرية التي تَوْرَقه بغارات بحارتها على السواحل الإسبانية، وسائر السواحل الأوروبية على البحر المتوسط¹.

وبالموازاة مع التعثر الذي تسببت فيه القوّة الجزائرية للطرف الإسباني، أصبح التفاوض من بين الحلول المبحوث عنها من طرف الملك المُوكل بحماية لواء أوروبا المسيحية. ونتيجة للأحداث المتسلسلة والمتراطة منذ استقرار سلطة الجزائر بالعاصمة ثم تولية حاكمها لتسيير الأسطول السلطاني، والذي تحرك به مباشرة لغزو مراكز الهابسبورغ الحساسة من المتوسط ومنها تونس سنة 1535م، وبعدها موقعة بروزة 1538م، دأب أوصياء ومفوضي شارلكان في مد جسور مفاوضات إغرائية للسلطة الجزائرية، قصد تحييدها واستغلالها من الخطط التي تُعدّ لها في السنوات القريبة القادمة.

هكذا والتحضيرات لحملة 1541م على الجزائر جارية على هيئة المأمورية المقدسة، تبادر لشارلكان وحاكمه على وهران ألكوديت خطوات أخرى دبلوماسية تضرب السلطة الجزائرية السيادية والمفوضة ببعضها البعض، وتبثّ الدسياسة بينها في الآن الواحد. حيث تظاهرت هذه الأخيرة من جانبها بالاستحسان من خلال محادثات إسبانية مع خير الدين وأخرى مع حسن آغا تَصُبّ في باب تشييت الوحدة والنيل من الانسجام السياسي والعسكري للجزائر والباب العالي². ذلك أن النصف الأول من القرن 16م كان جزائريا بالنسبة للأدوار الكبرى في غرب البحر المتوسط، تحولت فيه الجزائر إلى قلعة أمامية للذّب عن الدولة العثمانية، وإحدى مراكز الصراع الأكثر حساسية بين القانوني وشارلكان³.

ناهيك عن صلة الجزائر بجميع قضايا الحوض الغربي للبحر المتوسط، إسلامية مسيحية، وإسلامية إسلامية، وحتى مسيحية مسيحية، وذلك كله ضمن قناعتها بالزامية

1- دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر، مرجع سابق، ص 240.

2- للمزيد حول هذه المفاوضات، ينظر: مبارك الملي، مرجع سابق، ص 63-64.

3- جوليان، مرجع سابق، ص 395.

صياغة مصير هذا الفضاء وفق ما يخدم المصالح العامة للعالم الإسلامي، ومصالحها كقوة لها إطار السيطرة والتأثير الواضح منذ إعلان قيام السلطة العثمانية فيها.

1- الجزائر ووقائع المغرب الأقصى:

إن الفوضى السياسية التي أنتجها سقوط الدولة الموحدية في بلاد المغرب، غدت على إثرها الغلبة هي من ترسم الحدود بين دويلاته الثلاث؛ وفقا للقوة والضعف. وبدا حال المغرب الأوسط منطاً توسيع الحدود من جاريه، فدولة الأشراف السعديين ما برحت تتأمل حوادث الجزائر وتتبع وقائع الدولة الزيانية باهتمام، وترقب فرصة الزحف إلى ضمها، وقد حصل زحف سلطانها المولى محمد الشيخ المهدي في 1550م فدخل تلمسان واحتلها¹.

وكان تأخر اشتغال السلطة السياسية للجزائر العثمانية على جهة غرب البلاد، مرده إلى تشبث الأمراء الزيانيين بمقاومة محاولات الإخضاع التي اشتغل عليها أكثر من بايلرباي. إضافة إلى الإسبان الذين رُسخت أقدامهم في وهران والمرسى الكبير وتحصلت مصالحهم مع أمراء تلمسان. ثم يأتي كذلك اندفاع الحكام بالمغرب الأقصى إلى البذل في مد السيطرة على تلمسان، تعبيرا عن قوة دولتهم واستبقا لمخطط الباب العالي وقادة الجزائر في إدخالهم ضمن مشروع ولايات الشمال الإفريقي العثمانية.

استغل سلطان المغرب محمد الشيخ هشاشة البلاط الزياني في تلمسان، فأمر ابنه الحرّان الخروج لاحتلالها في جيش استطاع السيطرة على المدينة، وبدلا من التحرك نحو الإسبان المتواجدين في وهران، قرر ابن السلطان الجواز إلى مستغانم حيث امتداد السلطة الجزائرية العثمانية. وهو العدوان الذي استدعى ردا قويا من حسن باشا، وأودى بحياة كل من في الحامية المغربية في مستغانم، بداية بقائدها ابن السلطان وأخيه، فكان من آثار ذلك انسحاب السعديين إلى ما وراء الملوية².

1- عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، الجزائر: الشركة الجزائرية للكتاب، ط2، 1965، ص229.

2- محمد خير فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، ج01، سورية: منشورات جامعة دمشق، 2000، ص40.

وقد كان صالح رايس من المهتمين لغزو سواحل جنوب إسبانيا واقتحام ميدان التنافس نحو جهة الغرب، وفي سنة 1553م وأثناء عملية هجومية، نجح في الاستيلاء على عشرة مراكب إسبانية حولها أمامه إلى الجزائر، وكان ضمن ما حملته تلك السفن الأمير المغربي الوطاسي أبو حسون، الذي دفعت به صراعات السلطة الاتجاه نحو ملوك إسبانيا يستعين بهم على استرجاع ملك آباءه المرينيين من السعديين¹.

كان أبو حسون قد تولى من والده أبو العباس الوطاسي بلاد منطقة الريف بعد انقسام السلطة بين السعديين في مراكش والمرينيين بفاس، وأمام اشتداد الواقع على السلطة بين الجانبين مات والده في فاس، فهرب هو ناحية الريف وقطع إلى عدوة الأندلس، وهناك اشار عليه الأسبان بالقصد إلى الجزائر لاسترداد حقه من خلال إنكشاريتها².

آل أمر أبي حسون إلى الجزائر³، حيث سرد لصالح رايس الوضع السياسي في المغرب الأقصى وكيف قُتل والده وكيف سلبوا الحكم تدريجياً، وطلب منه التدخل معه لإعادة الموازين⁴، فلم ترفض الجزائر دخول هذا المعترك الذي يظهر فيه دور الباب العالي وانحيازه لكفة أمراء فاس.

ولعل أكبر دليل على ذلك هو إقدام السلطان العثماني على عزل حسن باشا ترضية للسلطان الوطاسي، إذ عيّن على الجزائر صالح رايس، ويبدو أنه كلف بدور يلعبه في التنافس الحاد الحاصل بين فاس ومراكش، ومما جاء في كتاب القانوني إلى شريف فاس:

1- عبد الرحمان الجيلالي، مرجع سابق، ص 88.

2- مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، تحقيق عبد الرحيم بنحادة، مراكش، المغرب: تتميل للطباعة والنشر، ط1 01، 1995، ص ص 15-22.

3- تتفق أغلب الروايات بشأن ضلوع الإسبان في الصراع السعدي الوطاسي حيث اختار آخر أمير وطاسي طلب عونهم ضد منافسيه، لكنها تختلف في علاقتهم باتصال أبي حسون بالسلطة الرسمية في الجزائر. فمنها ما يطرح إشارة الإسبان عليه بذلك، وأخرى تروي رجوع أبي حسون ضمن سفينة إسبانية وقعت في أسر صالح رايس، لكننا نتساءل حول الوجهة التي كان يقصد لها قبل ذلك؟

4- الاستقصا، مصدر سابق، ج04، ص ص 159-160.

"ولما بلغ إلى سمعنا الشريف أن أمير الأمراء بولاية الجزائر سابقا حسن باشا لم يحسن المجاورة مع جيرانه...بدلناهم غيره فأنعمنا بولاية الجزائر على مملوك حضرتنا العلية...أمير الأمراء الكرام كبير الكبراء الفخام صالح باشا...، ولا بد لكم أن تحسنوا المجاورة وتذهبوا طريق حسن المعاشرة مع كونكم أولاد سيد الأنبياء وأحفاد سيد الأصفياء..."¹.

ويكاد يتأكد ومن خلال القرائن والتفاصيل المُصاحبة لحملة السعديين على تلمسان أنها خطوة غير محسوبة العواقب²، فالتحرش بالجزائر والعدوان على ترابها كلف المغاربة تقليص حدودهم، وهي نتيجة عكسية للأهداف المسطرة من الحملة. والحقيقة أن صراحة الاعتداء هي التي أمدت بايلرياي الجزائر الجزائري بشرعية الدفاع³ ولو أن الاقتتال كان إسلاميا في طرفيه.

ويقدم لنا صاحب تاريخ الشرفاء أرقاما عن جاهزية الحملة السعدية تؤكد على نواياها التوسعية، حيث استوفت 33 ألف جندي من حملة الرماح وحرس الملك مصاحبين للأمير قائدها. وبعد قبضتها على مدينة تلمسان وهي تستزيد نحو مستغانم مرت في الطريق على وهران، وتلقت تعليمات تمنع من التعرض للإسبان هناك⁴.

1- أرسلت هذه الرسالة في أوائل شهر جانفي 1552م، وتزامنت مع فرامان تولية صالح ريس بايلرياي على الجزائر. للمزيد ينظر: خليل ساحلي أوغلي، مرجع سابق، ص 326-339.

2- يعتبر الأستاذ بلحميسي في هذا الحدث العدواني فرصة في وقتها بالنسبة للسلطة المركزية في الجزائر، اتخذت منها سانحة استغلتها في إنهاء الدولة الزيانية بالنظر إلى الخطر الذي يتهدد الأمن القومي والوحدة الترابية للجزائر بسبب ضعف حكام تلمسان الذي أخذ يزداد فداحة بمرور منذ 1517م. ينظر: مولاي بلحميسي، نهاية دولة بني زيان، الجزائر: وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مجلة الأصالة، العدد 26، 1975، ص 36.

3- هزّ رد الجزائر البلاط السعدي، ومما يدل على التهور والمجازفة لهذا العدوان هو وفاة ثلاثة أمراء من أبناء السلطان، أحدهما مقتولا والآخرين متأثرين بصدمتهما، وهم (الحران، المولى عبد القادر والمولى عبد الرحمان).

4- ديفيو دي طوريس، تاريخ الشرفاء، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، المغرب: مطابع سلا، 1988، ص 168-170.

بعد وفاة السلطان محمد الشيخ¹ ضاعفت السلطة في اسطمبول اهتمامها بالشأن المغربي، ولعبت الجزائر دورا مباشرا ورسميا في إدارة الارتباط، كما راسل السلطان بايلرباي الجزائر يطلب منه التحرك للتأثير في الوضع السياسي السعودي من خلال تغليب الصراع، وتقديم العون فيه للطرف الموالي للعثمانيين، أو الأنسب في الرؤية العلائقية لمصالح الباب العالي والجزائر الاستراتيجية².

وامتثالا لذلك أتى الرد قويا على أول خلفاء محمد الشيخ بحيث رد حسن باشا³ بحزم اعتداء عبد الله الغالب على تلمسان سنة 1559م وفي السنة التي بعدها كذلك⁴، وغدا معلوما أن نجاح أي سلطان سعودي في اعتلاء سدة المملكة مرهون بتزكية العثمانيين والنجاح في كسبهم إلى صفه.

وبالنظر إلى إعلان الولاء كشرط أو أساس للتقارب راسلت الأستانة حسن باشا في أبريل 1565م تطلب منه بذل جهده في إنهاء الخلاف بين ورثة محمد الشيخ، وهم السلطان عبد الله وأخويه عبد المؤمن وعبد الكريم المنازعين إياه السلطة⁵، وذلك حرصا على تهدئة النزاع داخل البلاط السعودي، حيث جرى العمل بمد يد العون متى كان الإقرار بالطاعة.

وعقب وفاة عبد المؤمن تسبب عبد الله في فوضى واضطراب بمملكة فاس، دفعت بأخيه عبد الملك إلى التشكي ثم الحضور بين يدي السلطان العثماني يطلب الاعتراف به

1- تناول الإفرائي حادثة مقتل محمد الشيخ وضلوع القانوني فيها وتدبيرها بالتنسيق مع حاكم الجزائر، كما كان محمد الشيخ يرى في نفسه خليفة للمسلمين ويخاطب القانوني بسلطان القوارب أو الحوامة ويتوعد بالانزول إليه من مصر، وهو ما اعتبر جراءة وتحد لمقام السلطان سليمان. ينظر: محمد الصغير الإفرائي، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق عبد اللطيف الشاذلي، الدار البيضاء، المغرب: مطبعة النجاح الجديدة، ط1، 1998، صص 93-99.

2- لتفاصيل أكثر ينظر: عمار بن خروف، العلاقات بين الجزائر والمغرب 1517-1659م، مذكرة ماجستير في التاريخ، كلية الآداب، جامعة دمشق، سوريا، 1983.

3- حاول حسن باشا غزو المغرب في سنة 1558م والتقى في وادي اللبن مع عبد الله على رأس جيشه، وهناك تعرّ حسن راجعا.

4- بن خروف مرجع سابق، ص 189.

5- ينظر الملحق رقم 02.

وبسلطته على المغرب، فأوعز إلى عـلج علي الاستعداد للتحرك عسكريا نحو فاس وحسم أمرها لحليفهم عبد الملك¹. وبعد أن حصل المطلوب² كفت السلطة الجزائرية بالتعامل مع حاكم المغرب الجديد وفق ماكان عليه الأمر مع سلفه³.

ولم يزل السعديون يحتذرون وضعهم مع الجزائر التي أنابها سلاطين العثمانيين أمر بلاد المغرب، وإلى نهاية مرحلة البايـلربايات فضّل هؤلاء كسب رضـى جيرانهم ومن ورائهم الباب العالي. وهناك رسائل عديدة من السلطان أحمد المنصور تستميل الجزائر الدعم وترتجـيها عدم إـجارة المارقين على حال تمرد بن داود ابن أخ المنصور⁴.

ولما بدا للجزائر نية المنصور التملّص من الالتزامات التي ظل أخوه عبد الملك وفيها بها للباب العالي، أعلم عـلج علي السلطان بالأمر، وتجهز بعد موافقته للرد على المنصور بتجهيز 60 سفينة، وهو التصرف الجدّي الذي أرغم ملك المغرب إلى العجالة في إرسال وفادة للباب العالي تحمل الهدايا ورسالة الولاء⁵. وحسب ما ذكر الإفـراني فإن الوفادة هذه التقت بعـلج علي قبل تحركه للمغرب⁶، ونالت رضا السلطان مراد الثالث الذي كتب من جهته إلى أمير أمراء الجزائر يطلب منه العدول عن دخول المغرب واعتباره في حالة عهد الأمان⁷.

1- ينظر الملحق رقم 03.

2- تحركت الحملة بإمرة نائب بايلرباي الجزائر رمضان باشا في سنة 1575م، شارك عبد الملك ضمن جيش الجزائر وأثناء وصوله ضواحي فاس إنظت إليه بعض فرق الجيش المغربي نتيجة لتنسيق ونشاط سري مسبق. ولما حدث النصر على ابن أخيه مولاي محمد دخل فاس في مارس 1576م دخل رمضان باشا الجزائر بقواته تاركا فرقا من الأنكشارية والجزائريين المتطوعين لدعم حليفه في معارك الإخضاع الأخرى.

3- ينظر: دفتر المهمة رقم 12، ص 537 بتاريخ 27 شوال 979هـ/ 13 مارس 1572م.

4- عبد الله كنون، رسائل سعديّة، تطوان، المغرب: دار الطباعة المغربية، 1954، ص ص 254-261.

5- رسالة مطولة تتوّد السلطان العثماني وتعدّد أفضاله على البيت السعدي وتؤكد الوفاء له، وهي رسالة مطولة، ينظر: كنون، مرجع سابق، ص ص 18-31.

6- الإفـراني، مصدر سابق، ص ص 156-157.

7- دفتر المهمة رقم 42، ص 86، بتاريخ شهر رجب 989هـ/ أوت 1581م.

وبرغم هذه السياسة المتقلبة للمنصور لم يتخاذل بايلرباي الجزائر في تقديم العون عندما طلب منه ذلك سنة 1584م، حتى يتأتى له رد الاعتداءات الإسبانية على مملكته، حيث وصل علج علي السواحل المغربية وهو يبجر بالأسطول السلطاني بعد أن انطلق من عاصمة الخلافة نحو تونس¹.

وفي السنة ذاتها سجلت الجزائر اعتداء جنود السلطة السعدية على وحدة الجزائر الترابية لدخولهم إلى منطقة فلاوسن على الحدود مع تلمسان، متذرعين بأنها منطقة منحت لهم بموافقة الأستانة، بل أقدموا على قتل شيوخ العرب الذين يمثلون بايلرباي الجزائر فيها، ونتيجة لذلك أعلمت الجزائر السلطان لتتأكد من على مدى صحة ذريعة السعديين، إلا أنه رد عليهم بنفي صحة المسألة، وطلب استعادة المنطقة لتراب الدولة مع التحلي بالأسلوب السلمي².

2- الجزائر والتقارب العثماني الفرنسي:

أشرنا سابقا في الفصل الأول إلى التحالف العثماني الفرنسي وقد ظهر مع احتداد التنافس حول التموقع والهيمنة على البحر المتوسط، دفعت إليه المصلحة؛ والظرف وقتها تزداد فيه انتصارات الدولة العثمانية ومعها تزداد الأزمة بين إسبانيا وفرنسا.

وضعت معاهدة 1535م المبرمة بين -القانوني وملك فرنسا- الجزائر ضمن دائرة التأثير والتأثر المباشر في المعالم والمجالات التي شملتها بنود المعاهدة، وفي هذه المرحلة كان بايلربايات الجزائر الموجهين الرئيسيين للسياسة العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط³.

1- سعيدوني، وراقات جزائرية...، مرجع سابق، ص 148.

2- ينظر الملحق رقم 04.

3- جمال قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا، الجزائر: منشورات وزارة المجاهدين، طبعة خاصة، 2009، ص 47.

إن فرنسا أضحت لها مصالح تجارية ملفتة مع منتصف القرن 16م في صورة محلات تجارية أسسها تجار مرسيليا، وعلى إثر ذلك بحثت جاهدة على رعايتها، الأمر الذي قوبل بمعارضة السلطة الجزائرية، مما حدا بالملك الفرنسي إلى السعي لدى الباب العالي حتى يبلغ مبتغاه، وفعلا اعتُمد أول قنصل فرنسي بالجزائر ابتداءً من سنة 1564م¹.

فالتحالف العثماني الفرنسي إذن نتج عنه تحالف جزائري فرنسي أقل شيوعاً لكنه -في المنظور الفرنسي- ليس أقل فائدة. ذلك أن خير الدين بصفته بايلرباي الجزائر دفع كوسيط فعال إلى نجاح المفاوضات بين القانوني وفرنسا الأول، والتي خلُصت إلى ما عرف بالامتيازات الفرنسية في الأراضي العثمانية². ووجد الفرنسيون تقاربهم مع الباب العالي والجزائر مثمراً لما أمدهم به من مصالح تجارية في الساحل الإفريقي³.

وبرغم ما يثيره الانطباع الأولي من تساؤل حول هذه التسهيلات الممنوحة للأجانب في أوج دأب الطرف الإسلامي إلى تقويض مجال تحرك منافسيه، إلا أن خيارات سلاطين الدولة العثمانية اتُخذت كذلك واضحة في الحسبان الأمر الواقع وما تطلبت الضرورة في تلك المناسبات⁴.

ولا يفوتنا في هذا السياق حِيطة الطرف الإسباني من دور الجزائر في معمعة الأحداث هذه، بحيث مثلما حرص الفرنسيون على كسب خير الدين إلى صفهم، ابتغى شارلكان هو الآخر في إغراءه بحكم نفاذ شوكته في راهن ومستقبل التنافس الحاصل. وربط معه اتصالاً يعرض فيه على خير الدين الاعتراف به حاكماً لشمال إفريقيا مقابل قيام تحالف

1- جوليان، مرجع سابق، ص339.

2 - Paul Masson, Histoire Des Établissements Et Du Commerce Français Dans L'Afrique Barbaresque (1560-1793), Paris, 1903, p02.

3-Ibid, p03.

4- ثريا فاروقي، الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، ترجمة حاتم الطحاوي، بيروت، لبنان: دار المدار الإسلامي، ط1، 2008، ص39.

جزائري إسباني يعصف بنظيره العثماني الفرنسي، ويستأثر تبعا له بالنفوذ في غرب المتوسط¹.

فالحرص الهابسبورغي في تحييد فرنسا من دائرة الزعامة المسيحية وامتيازاتها؛ واجهه الفرنسيون بسياسة تطمح أساسا إلى عزل إسبانيا وقطع الاتصالات بين شبه جزيرة إيبيريا وإيطاليا، ووجدوا في الأسطول الجزائري دعامة قوية لذلك².

أما بالنسبة للجزائر فإنه كان في وسعها التوفيق بين استقلالية موقفها في صياغة سياستها مع أوروبا الغربية، والمحافظة على علاقات التعاون الوطيدة مع الباب العالي. والسبب في ذلك هو المرونة التي أبدتها إلى حد ما إضافة إلى تفهم السلاطين العثمانيين بدورهم لموقفها ومصالحها الحيوية³.

لذلك يظهر من خلال تأخر اعتماد القنصل الفرنسي من طرف السلطة في الجزائر، لمدة ثلاثة عقود كاملة بعد مضي المعاهدة العثمانية الفرنسية؛ رفض ومطالبة الطرف الجزائري السماح بالتواجد الرسمي الفرنسي في نطاق التأثير الجزائري، بغض النظر عن التنسيق العسكري الذي وقع بين الطرفين منذ ترسيم خير الدين على قبودانية الأسطول المركزي للدولة العثمانية.

ومن دلائل العرقلة الجزائرية المشار إليها؛ موقف البايبراي حسن بن خير الدين الصريح بصدد حرية الفرنسيين في الدولة العثمانية. عارضهم بكل صراحة دون اكتراث للعلاقات الرسمية، وعليه نزل سفير فرنسا لدى اسطنبول عند حسن باشا وعرض عليه الدعم ضد الإسبان، لكن حاكم الجزائر رفض مجيبا إياه أن مسألة الجهاد لا تعني غير المسلمين⁴.

1- خير فارس، مرجع سابق، ص 35.

2- تابليت، المرجع السابق، ص 63.

3- قنان، مرجع سابق، ص 48.

4- المدني، مرجع سابق، ص 313-314.

وضمن هذا السياق يوجد رأي يُرجع عزل حسن بن خير الدين في أول إمرة له إلى حزمه في رفض المصالح الفرنسية بالجزائر، السبب الذي دفع الفرنسيين إلى سعي حثيث لدى اسطنبول، أحاطوا فيه بايلرباي الجزائر بالريب الذي تمخض عليه قرار إنهاء ولايته¹. وبحسب جون وولف أن ملك فرنسا هنري الثاني أيقن أهمية كسب تعاون بايلرباي الجزائر وشمال إفريقيا في دعم مصالحه وحربه في البحر المتوسط، لكنه اصطدم وقتها بالبايلرباي حسن بن خير الدين الذي كان يعدم ثقته من ناحية الفرنسيين على شاكلة والده، وكان منشغلا بواقع الجزائر الداخلي ولم يولي الفرنسيين اهتماما أو استعدادا لتلبية طلبهم في معونته².

والحقيقة أن السلطة الجزائرية أخرجها استثناء سفن الفرنسيين من أتاوة البحر وما شابهها من التزامات ضريبية؛ فرضت على نطاق الملاحة في البحر المتوسط. وهو إعفاء مكنه القانوني لهم في إطار الامتيازات التي أوجبتها المعاهدة التاريخية المشار إليها سابقا³، لكنه لقي مواجهة من حكام الجزائر برغم اعتماد قنصل فرنسا لديهم، ورفضوا الصلاحيات الواسعة التي أُحظي بها الفرنسيون وبالأخص تجار مارسيليا⁴.

وتعبيرا عن هذا الرفض عامل بحارة الجزائر سفن ورعايا فرنسا كغيرها من الأعداء الغربيين، وفي أكثر من مناسبة رفعت فرنسا تظلمها بحكام الجزائر لدى الباب العالي شكاية على الأسر والمصادرة، واحتجاجا على تصنيفها من أهل الحرب⁵.

1- الحيلالي، مرجع سابق، ص 87.

2- وولف، مرجع سابق، ص 68.

3- ينظر: رابع التقفي، معاهدة الإمتيازات العثمانية الفرنسية لعام 1535م، مرجع سابق، ص 167-176.

4- جمال قنان، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، الجزائر: منشورات وزارة المجاهدين، طبعة خاصة، 2009، ص 53.

5- دفتر المهمة رقم 12، ص 579، بتاريخ 08 ذي الحجة 979هـ/ 22 أبريل 1572م.

ومنذ سنة 1565م نجد رسائل تتكرر من فرنسا إلى الأستانة حول إضرار بحرية الجزائر بمصالحها وتجاريتها، ومنها رسالة من القنصل أو المقيم العام الفرنسي في إسطنبول وجهها إلى ملكه شارل التاسع مؤرخة في 27 سبتمبر 1565م، تتناول قضية الاعتداءات المتكررة لبحرية الجزائر على سواحل البروفانس الفرنسية. ومن خلال الرسالة يُطلع الملك بأنه رفع الانشغال إلى الصدر الأعظم مصطفى باشا، والذي استمع إليه وكتب بدوره إلى بايلرباي الجزائر¹، يطلب منه إعادة جميع الأسرى والسفن التي تقع بين أيدي البحارة تحت سلطته².

ولأن مسؤولية بايلرباي الجزائر امتدت إلى طرابلس وتونس وغيرها من مراكز السيطرة فيما عرف بجزائر الغرب، حدث في صائفة سنة 1565م أن راسل -السلطان سليمان- حسن باشا نتيجة لشكوى من ملك فرنسا، بشأن استيلاء البحرية الإسلامية في جهة جربة على سفينة تجارية فرنسية شهيرة متجهة من الإسكندرية في طريق عودتها إلى مارسيليا. ويظهر أنها تعرضت لحجز النفائس التي كانت تحملها من بهار وأمتعة بقيمة 300 ألف قطعة ذهب³.

ورغم العناية السلطانية بمصالح الفرنسيين في الجزائر إلا أن السلطة المحلية استمرت في رفض هذا التواجد أو التعبير عن عدم الرضى حول طبيعته، حيث تعرّض الحصن الفرنسي "الباستيون" إلى هجوم رسمي بأمر من سلطة البايليك سنة 1568م، كما تعرّض في مرات أخرى إلى التهديم والتخريب⁴.

1- كاتّب الديوان الهيمايوني الجزائر في رسالة مؤرخة في 08 سبتمبر 1565م وفي آخرها كتبت ملاحظة بأنه تم تقديم نسخة من ذات الرسالة إلى السفارة الفرنسية بالباب العالي في تاريخ 11 من نفس الشهر. ينظر: دفتر المهمة رقم 05 المؤرخ في 1565/09/08، التميمي، المرجع السابق، ص79.

2- Ernest Charrière, *Négociations de la France dans le Levant, ou Correspondances, mémoires et actes diplomatiques des ambassadeurs de France*, T02, Imprimerie nationale de France, Paris, pp799-802.

3- ينظر الملحق رقم 05.

4- سعيدي، الجزائر في التاريخ، مرجع سابق، ص76.

وبعد الذي تقدم لابد أن نشير في موقف الجزائر مع الفرنسيين أنه ما كان ضد العلاقات كمبدأ، لأنها حصلت تعاملات منذ استتباب الحكم العثماني بالبلاد، ولكنه اعترض على الاستثناء الذي أفاد منه تجار وسفن ورعايا فرنسا، لأنه حرم بحرية الجزائر من المقابل المرتجى، والسلطة الجزائرية على مدار القرن 16م ظلت تعتبر الفرنسيين كأعداء من زمرة المسيحيين.

3- في العلاقات مع باقي بلدان أوروبا:

الحقيقة أن واجهة أوروبا الغربية السياسية خلال القرن 16م وإلى غاية معركة ليبانت، ظلت إسبانيا هي المستحوذ عليها من خلال ملوكها الثلاثة، الذين توارثوا عباءة وتاج المسيحية.

ورغم اتجاه البرتغاليين إلى الشرق عبر غرب المتوسط إلا أن أطماعهم هم الآخرين كانت -قبل ذلك- امتدت إلى الجزائر، حيث أقاموا مؤسسة تجارية في وهران في الفترة ما بين 1483-1487م، وبذلوا في فرض معاهدة على سلطنة مملكة تلمسان¹.

ثم تأتي فرنسا كمنافس لدود لهؤلاء -فيما سبق الإشارة إليه- منذ انتخاب شارلكان وريثا للإمبراطورية الرومانية المقدسة. وبعدها تتدرج دول أخرى أسفرت الظروف التدريجية إلى ظهورها كأطراف منافسة أوروبيا ودوليا وفي مقدمتها إنجلترا، هذه الأخيرة وفي خضم التفتيش عن التوازن في المصالح، تحركت لبلوغ العلاقات والامتيازات مع الجزائر وغيرها من مراكز ثقل نطاق الدولة العثمانية؛ تحقيقا لمصالحها الاستراتيجية التجارية والبحرية².

1- يسري الجوهري، الجغرافية التاريخية، مرجع سابق، ص 185.

2- أمام تضرر سفنها وبحارتها من أسر أسطول الجزائر الذي وقع في حوزته السير روبرت أوليفانت Robert Oliphant. ينظر: تابليت، مرجع سابق، ص 356.

تنسيق التعاون والعمل الاستخباراتي والعسكري ضد الجزائر:

اعتمد الإسبان بلاطاً وكنيسة على الجوسسة كأسلوب لتجميع المعطيات والمعلومات حيال مشروع استهداف الجزائر كبوابة لباقي القارة الإفريقية والمنطقة المغاربية، وبشرت الملكة الكاثوليكية إيزابيلا وأمين سرها الكاردينال خمينيس إرسال الجواسيس لاستطلاع أوضاع مملكة بني زيان العامة، ومن طلائع القائمين بالمهمة لورينثو دي باديا حاكم مدينة القلعة الأندلسية؛ والتجار المسيحيين المنحدرين من الإمارات الإيطالية على شاكلة البندقي جيرومينو فيانيللي، وغيرهما ممن أسهموا في إيجاد رصيد استخباراتي ساعد في غزو المرسى الكبير ووهران وما تلاهما¹.

واستمر الأمر حيث كثرت المراسلات والعمل الاستطلاعي الجوسسي وتبادل المعلومات حول تحرك الطرف الإسلامي في حوض المتوسط خلال القرن 16م، سيما بعد عودة خير الدين إلى مدينة الجزائر 1529م.

وتتخذ تلك المراسلات من خلال محتواها طابع العمل التحالفي الجوسسي الذي يرقب خطط العدو، وتزامن ذلك مع تقليد بايلرباي الجزائر منصب قبودان دوريا الأسطول الإسلامي العثماني، ويبدو أن ذلك قد زاد من مخاوف مختلف الأطراف التي وجدت مصالحها مهددة، سواءً تلك المسيحية كإسبانيا وفرنسا والبرتغال، أو سلاطين تونس والمغرب وتلمسان القابضين على عروشهم بالتوجس.

وتشير رسالة مؤرخة في 07 أكتوبر 1534م وجهها قس كنيسة أميغو في لشبونة إلى جون الثالث ملك البرتغال، إلى القلق من تحرك وشيك لأسطول خير الدين يهدف من وراءه الاستيلاء على مدينتي سبتة والجديدة المغربية، إذ يُلح فيه صاحب الرسالة على الملك إيلاء المدينة بالعناية الدفاعية، ومما جاء في الرسالة: "يجب تحصين سبتة ضد أعمال بربوسا

1- عبد القادر فكايير، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث 1518-1830م، الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر، 2018، صص 29-32.

كما أوضح شارلكان، نظرا لأهميتها المسيحية الكبيرة، كما يجب التخلي عن مدينتي آسفي وأزمور لعدم أهميتهما بالنظر إلى الإنفاق الذي يستوجبه الدفاع عن التواجد فيهما أو تقويتها"¹.

أعقت هذه الرسالة واحدة ثانية عن ذات الموضوع من طرف أحد القادة العسكريين إلى ملك البرتغال، تؤكد على ضرورة تحصين مدينة سبتة استعدادا للحملة المحتملة عليها، وعرض له تحالف الأسطول الإسباني معهم في حال ما وصل خير الدين السواحل المغربية، وذلك كله تأكيد لمساعي التحالف ضد التحرك العثماني الجزائري في المتوسط واعتباره مهددا للمصالح الأوروبية المسيحية².

وكانت هناك تقارير يبعث بها المخبرون كل سنة لمصلحة السلطة الإسبانية في مدريد، تفيد باستعدادات الأسطول العثماني الخروج للغزو وبسببها يعيش الإسبان كابوس الهجوم ووسوسته كل صائفة³.

ومن جهة أخرى استطاعت العلاقات العثمانية والجزائرية مع الدول الصديقة أن تكون في الصالح، وفي مرات عديدة أشاد الديوان الهيمايوني بأثر الحكومة الفرنسية الإيجابي حيال الدولة العثمانية وولاياتها، حيث قدّم الفرنسيون في أكثر من مناسبة معلومات هامة - استخباراتية وأمنية-، تتعلق بكشف تحالفات أو استعدادات لأطراف أوروبية تنوي الاعتداء عسكريا على الجزائر.

ففي سنة 1573م أرسل حاكم مرسليليا يُعلم بايلرباي الجزائر علج علي نية إسبانيا والبرتغال توجيه حملة مباغته ضد الجزائر، وقد يفهم من سياق رسالة الباب العالي أن سفير

1- Henry de Castries, les sources inédites de l'histoire du Maroc, Archives et bibliothèques de France, T1, 1ere partie 1530-1660, Paris, 1905, p57.

2- De Castries, Op.cit, pp64-67.

3- بنحادة، مرجع سابق، ص44.

فرنسا المعتمد لدى الجزائر هو من كان الوسيط بين الطرفين ومن حمل المعلومات إلى السلطة الجزائرية¹.

ومما تقدم تتوضح المكانة التي حظيت بها الجزائر والأدوار التي أدتها، حيث اعتبرت مركزا تجاريا مزدهرا وجبهة تطلّع قيّمة، مفتوحة على أوروبا وإفريقيا والمغرب وما وراء الأطلسي. كما كانت تمثل حلقة الوصل لعلاقات الصداقة والتعاون مع فرنسا والموطدة دعائمها منذ أيام سليمان القانوني وفرنسوا الأول، واستمرت تستخدم كملجأ ومرفاً لتجميع القوات البحرية والعسكرية العثمانية المعدة الهجوم على إيطاليا وإسبانيا والمغرب، وإلى ما وراء مضيق جبل طارق على العالم الأطلسي².

1- فاضل بيّات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، المجلد 8، مرجع سابق، ص 246.
2- يوسف نكروف، معركة وادي المخازن بين الملوك الثلاثة، ترجمة وفاء موسى وحسين حيدر، ط1، منشورات عويدات، بيروت-باريس، 1987، ص 69.

المبحث الثاني: الدور الاقتصادي للجزائر في الصراع

الجهاد البحري ليس القرصنة:

تسرّب مصطلح القرصنة إلى اللغة الأكاديمية المتداولة وغدا مستساغا لدى الأوساط العلمية -على الأقل لدى فئة ليست بالهينة- ممن ينتسبون إلى حقل البحث العلمي التاريخي، ويستند هذا الفصيل فيما يذهب إليه إلى تيار معروف من حيث خطه الأيديولوجي ومنطلقاته في ما يطرح. ولا تزال هذه الجدلية قائمة بين هذا الطرف وبين الطرف الثاني؛ والذي يمثله باحثون وكتاب يطرحون مقاربات جادة في محاولات جدية لضبط المفاهيم وفق سياقاتها وأطرها وظروفها.

ومصدر التصور الأول مرده إلى كتابات أجنبية غربية رسّخ في ميدان التخصص أنها مصادر، لكن بالمفهوم الموضوعي هي كتابات سبّاقة فعلا، لكنها طرحت تحليلات وتدلّيات لم تستوفي فيها الرؤية من النافذة المقابلة، وحصلت وثائق ومادة علمية حصرية في وقتها، إلا أنها نسجت على ما يناسبها، مستغلة الفراغ الحاصل حينها بما يقابلها من دراسات وردود نقدية. والحقيقة أن هذا الموضوع ما هو إلا حلقة من حلقات الجدلية الحضارية العامة، أو الجدلية الكلاسيكية؛ جدلية الغلبة أو عرف بجدلية الخير والشر.

ثم إن الأوربيين أشاعوا تسمية البربر على سكان الشمال الإفريقي أو المنطقة المغاربية، ونُقل ذلك في كتاباتهم التاريخية عن المنطقة، وقرنوا القرصنة بسكانها كحرفة، وحصروها زمنيا بوصول العنصر التركي إلى هذه الجهة من العالم الإسلامي مع مطلع القرن 16م. إلا أن القرصنة نشاط عرف به حوض المتوسط من قبل، لكن انتشاره بدا مع القرن 15م، حيث كان عدد كبير من المسيحيين يمارسونها-أي القرصنة- ومنهم فرسان

مالطا، واستمروا على ذلك حتى نهاية القرن 18م رغم انحسارها في باقي البلدان المسيحية الأخرى¹.

اعتُبرت المواجهة البحرية أبرز مظاهر الصراع الإسلامي النصراني، ولعلنا نصادف في مجمل محطات ومنعرجات العراك الطويل بين هذين النسيجين الحضاريين؛ نعت الأعمال والجهود الحاصلة في عرض البحر بالقرصنة، هذا المصطلح الذي دامت الدلالة السلبية لصيقة به إلى يومنا هذا. وهو أحد المواضيع التي تأرجحت على ميزان الجدل ولا تزال، بحيث مقتضيات الظروف ومنطقها جعل كتابة التاريخ من حظ الغالب²؛ يتعاطى فيها المفاهيم ويوظف المصطلحات على السجية التي تناسبه.

ولا زلنا للأسف نتناقل ذلك في لغتنا ومقارباتنا العلمية حتى تَبَوَّء هذا المصطلح منزلة التجوز، بدعوى الأمانة والإحالة على الرأي النقيض كما هو، دون أن نترصد له بالنقد والتأصيل الذي يفیه.

إن القرصنة التي يختزلها المغرضون -في ذلك الوقت- ليست نسقا وحيدا وهو ذاك المتمثل في أعمال السطو والنهب واللصوصية، إنها في المقابل فصل من فصول الجهاد

1- صالح عباد، مرجع سابق، ص 20.

2- شغلت مسألة تزييف التاريخ وإخراج الحقائق وفق مراد الرؤية الغربية؛ العلماء والناهبين من الجزائريين أيام الاستعمار الفرنسي، حيث أثار الإمام المصلح عبد الحميد بن باديس في الباب نفسه المسألة سنة 1937م، وهو يعرض لنا ضمن آثاره ما أطلق عليه "ثمار العقول والمطابع"، بمناسبة طبع كتاب الأستاذ توفيق المدني (محمد بن عثمان باشا) تعليقا اقتطفنا منه مايلي: "هذا اسم السفر الجليل الذي ألفه أخيرا الأخ الأستاذ أحمد توفيق المدني لخص فيه تاريخ الجزائر في العصر التركي، وعرض للتاريخ بين دلائل العلم ومناهج الفن؛ بروح إسلام"، إلى أن يقول: "إن من جبايات الاستعمار الأوربي على البشرية أن قلب حقائق التاريخ على الناس، فقد صور الأمم التي ابتليت بشره بصورة من الهمجية والتأخر والانحطاط. وهذا هو نفس ما وقع بالجزائر من تشويه تاريخها وتصويرها في جميع عصورها؛ خصوصا في العصر العثماني بأقبح الصور في الكتب التي تدرس في المكاتب الفرنسية. غير أن الجزائر ليس فيها جمعية تحتج على هذا الباطل القبيح"، ثم يثني على هذا الإنتاج. للمزيد ينظر: عمار الطالبی، آثار ابن باديس، ج 04، الجزائر: الشركة الجزائرية للطباعة والنشر، ط 01، 1968، ص ص 33-35.

وأسلوب صدام¹ تطلبتَه ظرفية المرحلة ومتغيراتها، كما أنها نمطية نزال أرادها العوز لحماية المصالح وبسط النفوذ ومجابهة تلك الأمواج العاتية من الهجمات والغارات المتتالية. فإذا كان المسيحيون يعتبرون في حملاتهم التي أطلقوها على الأمصار والبحار إذعانا لمشية الرب، واستجابة لنداءات الكنائس والباباوات، فلماذا تظل أعمال المسلمين وفزعاتهم الجهادية في كبح الهجمات والمداهمات المسيحية تُعيرُ بالقرصنة؛ تماما مثل ما يتصوره الآخر ومن نافذته ورؤيته المغرضة؟

لذلك بات بيننا أن تلك النُعت المشينة التي صدرت في أولها عن دوقات وباباوات أوروبا، ثم وظفها في حديثهم -الكتاب الغربيون- عن تاريخ الجهاد البحري الإسلامي منذ مطلع الفترة الحديثة، لم تعبر بحق وموضوعية عن نشاط البحرية الإسلامية الدفاعي في وجه طوفان الحركتين الصليبية والاستعمارية على القارات الثلاث.

ولأجل شرعنة مشاريعها أشارت إلى حركة المسلمين الدفاعية بـ "رعب المغاربة، الإرهاب العثماني وآفة الأتراك"² وغيرها من مرادفات القرصنة، مع أن الجهاد البحري في الغالب لم يكن اختيارا، إنما اضطرت إليه الأساطيل المعادية بما ترتكبه³.

ومن تمثّلات تلك الانتقائية حول مسألة القرصنة حينما يقول شاهد على ذلك وهو دان الأب⁴: "يجب الحذر من إساءة استخدام كلمة قرصان، يجب عدم إدراج من بين عدد القرصنة أولئك الذين يمارسون مهنة السباق من أجل المصالح العامة وليس المصالح

1- كوستانزيو برنيا، طرابلس من 1510 إلى 1830م، ترجمة خليفة محمد التليسي، بنغازي، ليبيا: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ط1، 1985، ص12.

2 - Moulay Belhamissi, les captifs Algériens et l'Europe chrétienne, E. N.A. L, Alger, 1988, p17.

3- جوليان، مرجع سابق، ص336.

4- هو الأب الفرنسي بيار دان (1580-1649): كان ضمن جماعة الثالوث المقدّس وجمعيات افتداء الأسرى المسيحيين، زار الجزائر وعاش فيها في فترات ما بين 1630 و1640م، وكتابه تاريخ بريارية (شمال إفريقيا) وقرصنتها (بحارتها) يتناول فيه جوانب من الحياة بالجزائر خلال القرنين 16 و17م، ينظر: وولف، مرجع سابق، ص462.

الخاصة، يوجد في بعض الجمهوريات المسيحية العديد من الرجال المشهورين والمتمرسين قدر الإمكان الذين تدفعهم الرغبة الشديدة في جعل التجارة على البحر أكثر حرية كما هي عليه، يخاطرون بحياتهم لتطهيرها من هؤلاء اللصوص"¹.

فهو ينعى البحارة المسلمين باللصوصية ويصفهم كذلك بأتباع محمد (صلى الله عليه وسلم) الذين ينهجون محجته - بشكل غير معقول - كما يصف، وفي المقابل يُسمي رجال الصليبية الضارية بالسعاة لأجل مصالح الأمة المسيحية، وذوي الشهرة والخبرة في توسيع دائرة التجارة والمصالح الاقتصادية.

وعندما ننظر على بعض من كتابات بربروجر بصفته اهتم بتاريخ الجزائر في الفترة العثمانية، نقف كذلك على عبارات متناقضة يُعبّر من خلالها على ظواهر البحر وشخصياته، فهو يصف مملكة الجزائر قائلاً: "إنّ هذا الشعب قد فرض السيطرة على المسيحية لأكثر من ثلاثة قرون"، ثم يطلق مباشرة عبارة أخرى عن ذات الفترة والمناسبة ووزن الجزائر فيها فيقول: "المشكلة التي يطرحها الوجود المطول لجمهورية اللصوص المنظمة ضد الحضارة المسيحية"².

وقد تطرق بروديل وهو يتحدث عن مدينة الجزائر كعاصمة للدولة شهدت مظاهر التنظيم والحيوية البحرية بعد 1529م، إلى مساحة من نظرة هايديو³ المتدين - كما وصفه - وهو في هذه المدينة أواخر القرن 16م، حيث أصيب هذا الأخير بالذهول وانتابه الغضب حتى كاد يفقد أعصابه وهو يرى أعداد المسيحيين الذين دخلوا الإسلام في مدينة الجزائر،

1 - P. Pierre Dan, histoire de barbarie et ses corsaires, imprimeur & libraire ordinaire du Roi, seconde édition, Paris, 1646, p10.

2 - Berbrugger, la mort du fondateur de la Régence d'Alger, R.A, Vol04, Alger, 1859-1860, p25.

3- فراي ديبكو هايديو (1555-1613م): من رجال الدين الإسبان، أسر في مدينة الجزائر ومكث بها ثلاث سنوات (1578-1581م)، وفيها تعرف عن حياة حكام الجزائر والحياة الاجتماعية، وكذا أحوال الجيش والأسطول والأسرى، كما ألّف عدة كتب ومن بينها ما له صلة بالجزائر ك"كتاب ملوك الجزائر" و"كتاب طبوغرافيا وتاريخ الجزائر العام". ينظر: أبو القاسم سعد الله، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، مرجع سابق، ص ص 494-495.

والذين وصفهم بـ"حثة المسيحية" لأن ذلك المشهد أأزنه كثيرا، خاصة وهو يدرك أن هذه الفئة من القراصنة المرتدين -كما ساهم- تعرف الشواطئ المسيحية أحسن المعرفة¹.

وبالنسبة للرأي الذي طرحه هايدو بشأن تركيب طائفة الرياس ونقله عنه جوليان في أن أغلب أفرادها من النصارى حديثي الإسلام، المنحدرين من ضفاف البحر المتوسط الذين سلكت بهم أنشطة البحر إلى ما يسميانه بحرفة القرصنة، من خلال الأسطول البحري الجزائري (غليونات الجزائر)، والذين اقتحموا الجهاد المقدس².

ويُردف جوليان بأن إسلام هذه الفئة كان ردّة الغرض منها جمع الغنائم³، لكنه تجاهل⁴ متعمدا كيف انتهى الإسلام بهؤلاء من الأسر إلى المجد. وفي فسحة استيعاب الدولة الإسلامية لهذه الشخصيات حولتهم وتحولت بهم إلى صياغة المؤسسات السياسية والعسكرية في نطاق نفوذها، وأولت لهم أمر الخوض والتدبير في كبرى منعطفات الثنائية التنافسية بين الشرق والغرب خلال القرن 16م.

بل كان ذلك ينم عن رؤية إستراتيجية من فلسفة الدولة الإسلامية العثمانية، حيث حصل الأمر نفسه مع الإنكشارية التي تكونت من الغلمان الذين أخذوا في إطار الضريبة⁵ المفروضة على الأمصار المفتوحة، وأنشؤوا تنشئة إسلامية علمية وعسكرية سنحت لهم

1 - Braudel, Op.Cit, p356.

2- جوليان، مرجع سابق، ص335.

3- المرجع نفسه، ص335.

4- في هذه المسألة؛ أي دخول المسيحيين الإسلام لأسباب مادية يرى بروديل أن ذلك مجرد افتراض، قد تطرحه ظروف بعض بلدان أوروبا التي كانت تعيش وضعاً حالكا وتعيسا في القرن 16م. نتيجة المجاعات وانتشار الملاريا والفقر مثل ما عاشته "صقلية والجزر اليونانية وجنوة وكورسيكا...". ينظر: Braudel, Op.Cit, pp357-358.

5- تسمى ضريبة الغلمان أو الفتيان تقوم على أخذ الأطفال واليتامى من البلاد المسيحية -دار الحرب- لإسعافهم من التشرد وأسلمتهم وتحويلهم إلى فئة مهمة تعود بالفضل والإيجاب على الأمة الإسلامية وعلى أنفسهم. ينظر: إيناس البهجي، تاريخ الدولة العثمانية، عمان، الأردن: مركز الكتاب الأكاديمي، د.ت، ص70.

الارتقاء في أهم مناصب الدولة وأسلاتها العسكرية، إلى الحد الذي تسمح به مواهبهم وقدراتهم¹.

منذ أول القرن 16م وحيث لوّحت ملامح مشروع بعث الدولة الجزائرية تحت غطاء الخلافة العثمانية، أطّرت البحرية معالمه²، والذين حازوا رتبة إمرة البلاد ومعها أحيانا إمرة الأسطول السلطاني المركزي؛ إنما كانت بطولاتهم الجهادية سبيلهم إلى ذلك، وقبلها كانوا من بين أسرى أسطول الجزائر المسيحيين المنحدرين من إيطاليا واليونان وبقية أوروبا الغربية، الذين سيقوا إلى الجزائر العاصمة وفيها اعتنقوا الإسلام.

وفئة أخرى أتت الجزائر طواعية عندما صارت وعاءً للرعايا الأوروبيين كغيرها من ولايات المغرب العثمانية فيما بعد. وفي أوطانهم لم تكن لديهم فرص تحسين أوضاعهم بما يناسب قدراتهم وتطلعاتهم، وإذّاك جعلت جاذبية الحرية وإمكانيات النجاح من الجزائر العاصمة قطبا عالميا لجذب البحّارة الذين توافدوا عليها بشكل من مختلف أمصار أوروبا وأعراقها³.

وإذا تمعنا فقط في ثلاث أو أربع نماذج من هؤلاء اعتبارا لأهمية أدائهم في مراحل المجابهة أو بناء الدولة الحساسة، سنقف على حسن آغا وحسن قورصو وعلج علي رايس وحسن فينزيانو، وجميعهم في الأصل من إيطاليا المسيحية معقل الكاثوليكية ووريثة روما، قدّمت لهم الجزائر كل الظروف ومجمل التسهيلات بما سمح لهم الارتقاء في السلم الاجتماعي وتقلد المناصب سياسية وعسكرية، حتى اضطلعوا بالإشراف على الجزائر وهي محور القوة العثمانية الإسلامية في غرب المتوسط⁴.

1- محمد دراج، الجزائر في المصادر العثمانية، الجزائر: شركة الأصالة للنشر، 2018، ص17.

2- جمال قنان، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص ص38-40.

3 - Belhamissi, marine et marins d'Alger..., Op.Cit, p116.

4- سلفاتور بونو، العلاقات بين الجزائر وإيطاليا خلال العهد التركي، ترجمة أبو القاسم بن التومي، ج01، الجزائر: وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مجلة الأصالة، العدد 06، 1972، ص ص98-103.

وإلى أبعد من ذلك نرى في عهد السلطان سليم الثاني (1566-1572م) وفي قلب عاصمة الدولة العثمانية، كيف شغل منصب الصدر الأعظم¹ ثمانية قادة من أصل عشرة كلهم من تلك الفئة المسيحية التي دخلت الإسلام² على إثر مقاديرها مع الإسلام في عوالم البحر.

إنّ اصطباغ القرصنة بعقيدة الجهاد أكسبها طابع الشرعية، واندفع البحارة إليها يحدوهم شرف خدمتهم لسلطان الخلافة، كما أصبح إثبات الكفاءة والجرأة يجعل في متناولهم بلوغ أعلى رتبة قيادية للبحرية آنذاك وهي رتبة قبودان دوريا³، دون أن نغفل بأن إسبانيا ومع استعادة الأندلس كانت الأبدأ في تلوين العمليات البحرية خاصة البحر المتوسط بلون ديني⁴. ومن الجزائر كوّن خير الدين مفرزة بتعداد 600 مسيحي من الذين أسلموا؛ أسندت لها المدفعية البحرية، كما أحاطها بالمتابعة والإشراف المباشرين. هذه الفئة هي نواة البحرية الرسمية التي ابتدأ بها خير الدين وغدت قوة أكثر تأثيراً من الإنكشارية⁵ الوافدة من مركز الخلافة.

حتى أن هؤلاء البحارة المجاهدين ما كانت لهم أجرة ثابتة جزاء ما يقدمونه من أعمال، ولكنهم كانوا يتحصلون على مكافآت من الغنائم التي يعودون بها⁶، والمفهوم من ذلك أنهم أصحاب جهد وصناع نصر يستحق العرفان. كما استمر الباب العالي في جل

1- هذا المنصب يأتي صاحبة في المقام الثاني بعد السلطان، وهو بمثابة الوزير الأول كما كان هو رئيس الديوان الهيمايوني الذي يتولى الشؤون الرئيسية للدولة. للمزيد ينظر: مفيد الزيدي، مرجع سابق، ص 107-108.

2- موسنييه، مرجع سابق، ص 538.

3- سبنسر، مرجع سابق، ص 11.

4- هريك، مرجع سابق، ص 112.

5- ألتر، مرجع سابق، ص 136.

6- تابليت، مرجع السابق، ص 60.

المعارك الفاصلة بين المسلمين والصليبيين يقر -زيادة على ما تجنيه بسالة هؤلاء- مبالغ مالية بأوامر سلطانية أو بتفويض منه للقادة والضباط المجتهدين¹.

ولم تكن موارد البحر تصب جميعها في خزينة الجزائر، وكان النصيب المترتب حقا للدولة يتراوح بين 1/5 و 1/12 حسب نوعية وأهمية العوائد، يُعطى منها للوالي على سبيل الهدية وأكثرها توزع بين الرياس وبحارتهم وغيرهم من الحمالين وعمال الموانئ، ومنها نصيب للأولياء الصالحين بمدينة الجزائر².

ومن الأمثلة التي تنفي القول بأن الثروة والغنى كانتا دافعا وحيدا وراء الجهاد وتقلد المناصب، ما أورده حمدان خوجة في أن هناك فئة كبيرة من أتراك الجزائر كان ارتباطها وثيقا وشديدا بالأيالة إلى درجة نجد فيها الكثير منهم لا يتزوجون عمدا، حتى يتركوا ثروتهم إلى بيت المال تصرف في سبيل حاجات الفقراء، ولهذا السبب كان دخل صندوق بيت المال معتبرا في وقت من الأوقات³.

وهناك مظهر أكثر دلالة ووضوحا في موضوع القرصنة، إذ أنه في فترات السلم والهدنة من أمد الصراع الإسلامي النصراني، كانت جماعة القراصنة المسيحية فيما بينها ينقض طرفها الأقوى على الأضعف، وهو ما لم يحدث أبدا عند مجاهدي البحر المسلمين⁴. وبحسب سبنسر فإن سجلات البندقية وبيزا ومرسيليا والجمهورية الأوروبية التجارية الأخرى، تحتفظ بكثير من الشكاوي بشأن أعمال القرصنة الفظيعة فيما بينها، في الوقت

1- دفاتر المهمة تناولت الأمر بصرف المبالغ للرياس وجدد البحرية الجزائريين المشاركين في المعارك الإسلامية المسيحية. ينظر مثلا: دفتر المهمة 3، ص. 549، حكم رقم 1611، 21 محرم 968هـ/12 أكتوبر 1560م

2- أرزقي شويتام، مرجع سابق، ص ص 57-58.

3- حمدان خوجة، المرأة، تعريب محمد العربي الزبيري، منشورات موفم، الجزائر، 2006، ص 97.

4- عبد الرحمان الشيخ، الدائرة المتوسطة "تأصيلات ثقافية واجتماعية وتاريخية"، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2009، ص 47.

الذي كانت فيه موانئ أوروبا معروفة بكونها قواعد تأوي قرصنة النصارى المشهورين بأعمال النهب في البحر وتقدم لهم المساعدة¹.

ثم إن الحكومة الإسبانية نفسها ومن مركزها كطرف في العمليات البحرية، اعترفت أن كل ما وُجد في عرض البحر خارج معاهدات السلم والهدنة فهو من أعمال القرصنة، واعترفت كذلك أن ما يبدر عن البحارة الخارجين عن سلطة الدولة فهو نشاط قرصني، وهذا ما يفهم من احتجاجها لدى السلطان العثماني وطلبها توضيحا بشأن الاعتداءات البحرية التي طالت سفنها ومصالحها البحرية والتجارية سنة 1550م في جهة السواحل التونسية².

حيث احتجز درغوث باشا سفينة مالطية كانت تحمل خزينة مال فرسان القديس يوحنا والمقدرة بحوالي 20 ألف دوقة ذهبية، وكان هذا الفعل ردا على الانتهاكات التي بدأها البحارة الصقليون والمالطيون وفرسان مالطا الذين ينشطون جميعهم لحساب إمبراطور إسبانيا، إذ مّست هذه الاعتداءات التجارة الإسلامية وسفن الحجاج المتوجهين من بلاد شمال إفريقيا إلى بلاد الحرمين، وتكررت هذه الاعتداءات على سواحل المهديّة غير مبالية بالهدنة³.

ومادامت القرصنة هي وسيلة التجارة المعروفة منذ العصر الوسيط فقد كان التجاء أهل بلاد المغرب إليها أمرا طبيعيا، خصوصا وأنهم يُحسنون الملاحة ولهم معرفة بشؤون البحار، ناهيك عن ممارسة جميع البلدان الأخرى لهذه الأعمال، ذلك أن إيطاليا وإسبانيا وفرنسا والبرتغال؛ ثم إنجلترا وهولندا، كانت جميعها تهاجم السفن وتقوم بالسلب في البحار غير مبالية بالانتماء الديني أو العرقي. وكثيرا ما تحالف الواحدة منها القوى الإسلامية على أخواتها⁴.

1- سبنسر، مرجع سابق، ص33.

2- وولف، مرجع سابق، ص66.

3- للمزيد يُنظر، وولف، المرجع نفسه، صص66-68.

4- حسين مؤنس، مرجع سابق، صص292-293.

وإذا كان الغزو (الجهاد) يتصاعد في فترة التفوق العثماني الذي تُحفز عليه رغبة الفتح والإحساس بحمل الرسالة، فإن آثاره الاقتصادية والاجتماعية تؤكد حقيقته، إذ قضت حروب الفتح على قسم كبير من الأرستقراطية الوراثية القديمة المالكة للأراضي، وأعطيت أملاكها للجنود العثمانيين بعد أن غدت بدون مالك. حيث ارتبطت هذه الإقطاعات بالمشاركة في العمليات العسكرية دون أي حق في السيادة عليها أو وراثتها¹.

إن اتساع مجال التسامح لدى العثمانيين جعلت من الطموحين والمضطهدين المسيحيين ينجذبون إليها، وإلى هذه المسألة أشار المصلح البروتستانتي مارتن لوثر في كتاب له صدر سنة 1541م تحت عنوان "النصح بالصلاة ضد الأتراك"، حيث لفت إلى أن الفقراء والمسحوقين في البلاد المسيحية يفضلون العيش في كنف الدولة العثمانية منه في بلدانهم².

ومنذ أول استيلاء فرديناند على غرناطة كان الأخبار الكاثوليكيون يطلبون إليه بإلحاح أن يعمل على سحق طائفة محمد (صلى الله عليه وسلم) من إسبانيا، وأن يطلب إلى المسلمين الذين يودون البقاء إما التتصر أو بيع أملاكهم والعبور إلى بلاد المغرب³. وعليه كان الجهاد البحري الجزائري رد فعل مباشر على التهديدات المسيحية التي ظهرت بُعيد سقوط الأندلس، والتي اتخذت طابعا صليبيا تباركه الكنيسة⁴.

إن فكرة الاسترداد التي اعتنقها المسيحيون سرعان ما تحولت إلى حركة راديكالية سلك عليها الملوك والباباوات في أوروبا الغربية مشروعهم التوسعي العام، الناتج أساسا من

1- برنار لويس، السياسة والحرب، تراث الإسلام، ترجمة حسين مؤنس وآخرون، ج1، الكويت: منشورات عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1986، ص ص228.

2- المرجع نفسه، ص229.

3- عنان، مرجع سابق، ص313.

4- ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ "العهد العثماني"، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص43.

طويّة مقاومة الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية؛ من خلال مهمة قومية كبرى موجه ضد المسلمين¹.

إن القرصنة الإسلامية هي الجهاد في سبيل الله، وكانت مراكز الجزائر وتونس وطرابلس تتبادل التحية في عرض البحر. كما خضعت التنقلات البحرية وشؤون الملاحة للاتفاقيات الدولية التي فرقت بين العداوة والصداقة، وظرفية المصلحة، ولو كانت القرصنة سلبا ونهبا لما فرقت بين المسلمين وغير المسلمين، ولما صنفت هذه الدولة في حالة الصداقة والأخرى في حالة الحرب².

وربما لم يكن ليُكتب نجاح البحرية الجزائرية في توجهاتها الدينية والسياسية وحتى الاقتصادية، لو لم يكن أساسها التظافر والتكامل بين العناصر التركية والأندلسية، ثم مجيء العناصر المسيحية التي اختلفت أصولها من بين الأمم الأوروبية، واعتنقت الإسلام واتخذت من الجزائر مستقرا لها³. إذ سرعان ما تطورت البحرية الجزائرية إلى قوة قاهرة في المنطقة الغربية للبحر الأبيض المتوسط خلال القرن 16م، وتحولت إلى مصدر تَرهّب منه الأمم والشعوب المسيحية أكثر من الباب العالي⁴.

وحتى لا ننجرف عن جوهر موضوعنا إلى إشكالية واسعة ليست القرصنة والجهاد البحري إلا رافدا من روافدها المتعددة؛ ألا وهي إشكالية الكتابة التاريخية⁵ بأبعادها العامة

1- سعدون الحسيني، حركة الاسترداد الإسبانية "الريكونكيستا" قراءة في المصطلح والمضمون، ج1، عمان، الأردن: ركز الكتاب الأكاديمي، ص05.

2- كوستانزيو برنيا، مرجع سابق، ص13.

3- للمزيد يُنظر: سعيدوني، الجزائر في التاريخ، مرجع سابق، ص ص43-44.

4- سينسر، مرجع سابق، ص09.

5- كأكثر فئة تثير هذه الإشكالية هي تلك الأكاديمية، بما يتوفر لها من أدوات المقارنة والمفاضلة وما تقف عليه من ملامح التحايل والتناقض، وما تحوجه من بت ونفي وإقرار. وباعتبار موضوع الجزائر ضمن حلقاتها التاريخية سيما الحديثة والمعاصرة يصادف هذه الحقيقة فإن المؤرخين وذوي الاختصاص فيها أهمهم ذلك. حول ذلك ينظر (على سبيل المثال): أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر: ج1، عالم المعرفة، طبعة خاصة، 2015، ص ص59-79- وينظر أيضا: ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية "دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني"، الجزائر: دار

والجزئية، نشير فقط إلى أن الذاتية المتبدية في تدوين تاريخ الآخر لدى التيار الأوروبي وعلى رأسه الفرنسي، تدفعها الاصطفائية أمام استبعاد الإنتاج الأصيل لمجتمعات العالم الإسلامي، هذه المجتمعات التي امتدت إلى مكاتبها وخزائن مخطوطاتها أيادي الاستعمار الحديث بالتخريب والمصادرة والطمس.

الطابع الإسلامي للجهاد البحري:

تتخذ معالم الدولة الإسلامية استراتيجية أكثر إجرائية ابتدأت معالمها إبان فترة السلطان سليم، كإحدى نتائج الوعي الجديد للحكام العثمانيين، وهي رفع الشريعة الدينية للإسلام إلى مكانة ذات أهمية قصوى في إدارة الدولة. وعلى هذا الأساس كانت النتيجة في مستوى أهمية غزوات سليم، ذلك أن العثمانيين غدوا يسيطرون على أغنى مراكز تجارة العبور في العالم، فتضاعف دخل الدولة العثمانية وتشتبّع إلى أقصاه في خزنة القصر الإحتياطية، ومع هذه الموارد تمكن الخليفة الموالي سليمان (1520-1566م) من دعم خطته للغزوات في جميع أنحاء العالم¹.

لذلك يتسنى القول بأنه على امتداد تاريخ الدولة العثمانية امتزجت علاقة وظيفية بين السياسة والدين، بين الغزو كعملية استراتيجية اقتصادية وعسكرية؛ والجهاد باعتباره عملية دينية إيمانية².

وهذا ما يجعل تجريد المشروع الإسلامي للعثمانيين بوسائله وحلقاته المختلفة من دلالاته الدينية والجهادية، أو محاولة عزل دور من أدواره منفردا لوحده، صعوبة فعلية تفتح

البصائر، ط 2، 2009، ص ص 29-45. كما أشار إلى ذلك الأستاذ بلحميسي في محتوى حديثه عن إشكالية المصادر بالنسبة لتاريخ الجزائر خلال الحقبة العثمانية، ينظر: مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص ص 12-15.

1 - Halil Inalcik, op.cit, p 46.

2- وجيه كوثراني، الفقيه والسلطان جدلية الدين والسياسة في تجربتين تاريخيتين "العثمانية والصفوية"، لبنان: المركز العربي للأبحاث والدراسات، ط4، 2015، ص 70.

باب الإغراض ونوايا التأويل. كما أنها لا تُفضي إلى الحقيقة العامة التي تقوم على التركيب؛ التركيب بين فصول وميادين الصنيع العثماني وفق الخصوصية الظرفية والمرحلية.

إن استرجاع موانئ ومراكز الإسلام في بلاد الشمال الإفريقي من يد الاحتلال الإسباني اعتبره العثمانيون واجبا رئيسيا، أولى من السعي في الحصول على أراضي المسيحيين والتوسع على الشواطئ المقابلة في البحر المتوسط¹.

جذور الجهاد البحري الجزائري:

لقد نتجت فكرة تجنيد سفن الجهاد البحري الجزائري (القرصنة) في الجزائر لثُباتّ الإسبان المعتدين، وكانت تراقب السواحل وتمارس التجارة وتقوم بتصفية النزاعات الدينية². ومن الذرائع التي اتخذها ملوك اسبانيا لغزو بلاد المغرب الإسلامي؛ نشاطها البحري، وراحوا يصفونها بـ أوكار القرصنة، وهذا نعتهم للمغرب الأوسط معتبرين إياه بابا يهدد مصالحهم المختلفة.

غير أن النشاط البحري للجزائر كان خلاف ذلك، فلم يكن أبدا الجهاد البحري رد فعل فقط، إذ فرض تحرك السفن والأساطيل وجوده خلال القرن 15م، وحتى في ظروف غياب السلطة الجامعه في المغرب الأوسط. ومدينة الجزائر وبجاية ووهران عرفت كل واحدة منها بصناعة السفن وتجهيزها وإطلاقها في سواحل المتوسط، تتعرض من خلالها للسفن المسيحية وتوجه ضربات لشواطئ اسبانيا وغارات ثأرية تستهدف الأسرى والمؤمن وما تؤدي إليه من فدية³.

1- سبنسر، مرجع سابق، ص10.

2- حمدان خوجة، مرجع سابق، ص79.

3- محمد بن عميرة ولطيفة بشاري، تاريخ بجاية، الجزائر: دار الفارابي، ط01، 2015، ص295.

كما أن وجود أجزاء من بلاد المسلمين تحت السيطرة المسيحية دفع الدولة العثمانية إلى الاهتمام بتشكيل جيش بحري فعال في غرب المتوسط يكون مكملًا لنظيره البري في جهة الشرق، ويندرج هذا ضمن الاستراتيجية الكبرى للدولة¹.

وبرغم حالة التفكك والانحيار التي طبعت الواقع السياسي العام لبلاد المغرب إلا أن مدنها الساحلية على امتدادها من الشرق إلى الغرب، زوّدت الموانئ والمراسي بالسفن الشراعية التي جابت البحر منطلقًا من تونس وبنزرت وبجاية، وكذا مدينة الجزائر ووهران وهنين، لتمارس نشاط البحر (يسميه جوليان دائمًا بالقرصنة) من باب الجهاد في سبيل الله ومقاومة النصارى. كما لم يكن الاعتبار إذًا للتجارة بالرقيق، في حين انصب الاهتمام على أسر المسيحيين، وضمن هذا الصدد يشير جوليان إلى أن بجاية رفعت من مبلغ الفدية إلى حد جعل جوارها محل اجتتاب من طرف القراصنة².

كما أريكت عمليات الجهاد البحري³ تجارة النصارى وأمن تنقلاتهم خاصة بعد سقوط غرناطة، نتيجة انتعاشها بفعل مساهمة العنصر الموريسكي النازح من إسبانيا، بينما تضاءل مفعول القرصنة النصرانية رغم عنفها واندفاعها للبحث عن الجدافين على حساب العدو، فكانت الحاجة إلى إزالة مخابئ القراصنة إحدى حوافز التدخل الإسباني في بلاد المغرب⁴.

إن الاستراتيجية البحرية العثمانية التي جعلت الجهاد أهم أهدافها واعتتقت به عاطفة شديدة هي نفسها المسؤولة عن بروز الجزائر⁵ كقوة من الدرجة الأولى⁶. وبالرجوع قليلًا إلى

1- سبنسر، مرجع سابق، ص10.

2- جوليان، مرجع سابق، ص322.

3- يصفها جوليان بالقرصنة في مقابل تعليقه في معظم أقسام دراسته عن إفريقيا الشمالية المنطلق الحربي الأوربي عن الديني الصليبي، وليس وحده من الكتاب الغربيين الذين أطلقوا على نشاط البحرية الإسلامية هذا المصطلح.

4- المرجع نفسه، ص ص322-323.

5- يطلق وليم سبنسر تسمية مدينة الجزائر للتعبير عن الدولة الجزائرية، وأحيانًا يقول دولة مدينة الجزائر من مركزها كعاصمة للدولة، ينظر: سبنسر، مرجع سابق، ص12.

6- المرجع نفسه، ص ص10-11.

بدايات الوجود العثماني في الجزائر تستوقفنا حادثة مفصلية ترتبت عليها صبغة الجزائر¹ كمرتكز للمغازي ودار جهاد².

حيث اشترط خير الدين أمام طلب الجزائريين بقاءه؛ الانضواء تحت مظلة الخلافة الإسلامية العثمانية، حيث الواقع يومها ينبئ بحرب طويلة بين الصليب والهلال، حرب ضروس العدو فيها إمبراطورية تقبض في يديها فواعل المسيحية وتوجهها ضد البلاد الإسلامية، وضد الجزائر بوصفها جبهة للدفاع الإسلامي المشروع أمام الكاثوليكية الزاحفة³. ولا بأس أن نشير إلى حسّ الالتزام العالي للبحرية الجزائرية وانضباطها في مهامها الموكلة، وأن ما تمتع به من كفاءة وقدرة عالية جعل منها محل إشادة وتتويه من طرف الأوروبيين والجهات الرسمية للدولة العثمانية كذلك، بحيث أصدرت هذه الأخير في مناسبات عديدة أوامر تقضي بصرف زيادات ومكافآت⁴ لبحارة الجزائر على عاتق الخزينة المركزية⁵. وقد عُرفت مدينة الجزائر لدى سكان القسطنطينية كمركز لأكثر الجيوش نجاحا في الأسطول العثماني⁶، وعليه لا غرابة أن يرتبط النشاط البحري الإسلامي في غرب المتوسط بالجزائر ارتباطا وثيقا، أصبحت الجزائر بيئته الطبيعية، وهو استمرار لأدوار وأطوار سابقة

1- يعلق الأستاذ مولاي بلحميسي على امتداد عمران العاصمة من الجبل نحو البحر؛ على أنها اختارت أن تواجه البحر وفكر حكامها وسكانها في مقارعة العدو والانشغال بالبحر ومجالاته الشاسعة. وهو ما جلب لها على مدار ثلاثة قرون الأرياح والهموم. ينظر:

-Belhamissi, op.cit. p36.

2- استبدل الأتراك كلمة جزائر بني مزغنة وجزائر الثعالبة في العهد الإسلامي؛ بجزائر الغرب في عهدهم، كما أطلقوا عليها في بعض الأحيان اسم (المحروسة ودار جهاد). ويظهر أثر هذه التسميات في تميز عمران العاصمة بالعمارة ذات التحصينات الحربية والأسوار. ينظر: عبد القادر حليمي، مرجع سابق، ص219.

3- أحمد توفيق المدني، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، 2010، صص 20-22.

4- تضمنت سجلات دفاتر المهمة (مهمة دفتري) مراسلات عديدة من الديوان الهيمايوني تأمر بصرف مبالغ مالية جزاء لبحارة وقادة سفن على حسن مساهماتهم في الحملات البحرية التي شاركوا الدولة العثمانية فيها. ينظر: فاضل بيات، الولايات العربية في الوثائق العثمانية، مرجع سابق.

5- سبنسر، مرجع سابق، ص11.

6- المرجع نفسه، ص14.

حيث يقول بروديل عن بجاية: "ولولا توافر الأخشاب في بجاية لا ما أمكن لابن خلدون أن يتحدث عن بحرية نشيطة في القرنين 13 و14م"¹.

الآثار الاقتصادية السلبية للتواجد الإسباني في السواحل الجزائرية:

ميز الجزائر موقعها الجغرافي المحوري، فهي منطقة عبور وملتقى للتجارة الخارجية مع أمصار أوروبا وبلاد السودان، ومركز لمقايسة بضائع المغرب العربي والأقطار العثمانية².

والإسبانيون حركوا جميع أذرع الحرب في انطلاقهم نحو الجزائر؛ فلم يكن هناك تشطير لأنماط هذه المواجهة، لذلك وردت تحرشاتهم بجميع دلالاتها، ومن ثمة اتصفت هذه الحرب التي صمم الأسبان على خوضها ضد الجبهة الإسلامية بالاستباقية والضرورية. وهي تهدف نحو ضمان الموائئ الهامة للمالك الزيانية والحفصية³، ولأجل هذا المبتغى صاحبت عملية الغزو، مظاهر النهب والسلب والارتهان، ووضع اليد على ما يمكن مصادفته من الخيرات والنفائس.

وكانت وراء جميع الحملات الإسبانية الأوروبية ضد الجزائر مخابر البابوية ورجال الكنيسة تقوم على التخطيط والتدبير، وتكلفت هذه الحملات الضخمة مصاريف مالية باهظة توزعت بين نفقات الطعام والشراب على الجنود، وكذا مستحقاتهم ورواتبهم، بالإضافة إلى الالتزامات المالية لصالح القادة.

كما عمدت اسبانيا ترك حكومة المدن التي احتلتها منذ البداية في يد الأهالي باستثناء المدن والموائئ التي تكتنف على قيمة إستراتيجية واقتصادية، فمدن الجزائر انطلقا من وهران والمرسى الكبير ثم بجاية ونفس الشيء مع طرابلس، نصبت فيها حصون ومدافع

1- بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي...، مرجع سابق، ص44.

2- سعيدوني، الجزائر في التاريخ، مرجع سابق، ص73.

3- كورين شوفاليه، مرجع سابق، ص21.

ترصد وتتابع جميع التحركات، مما يوضح أن مراد هذه السياسة هو وقف تحركات مجاهدي البحر البحر الموجه نشاطهم ضد التحركات والممتلكات الإسبانية¹.

وخلال الست سنوات الأولى من عمر التحرشات الإسبانية بالساحل المغربي أرغمت المناطق المحتلة على قبول حصون إسبانية في موانئها، مع مدافع تتحكم في كل التحركات، وهي سياسة لقيت استحسانا من الملك فرديناند، والهدف من ورائها وقف نشاط البحارة القراصنة العاملين ضد الممتلكات الإسبانية².

1- على غرب البلاد:

منذ أول الحملات تواجد في المرسي الكبير قيادة شؤون إسبانيا، مؤلفة من أساقفة ورجال دين، اصطحبوا لأداء مهمتهم المقدسة كما يزعمون. حيث تبادلوا مع الملك رسائل عن المستجدات والترتيبات المتخذة لإنجاح مشروعهم في الجزائر، كما زودهم البلاط هو الآخر بالتوصيات اللازمة.

ومن خلال الرسالة التي بعث بها الأسقف خوان لاسو دي لافيجا³ بتاريخ 12 جوان 1506م -المتواجد مع الحامية في المرسي الكبير- إلى الملك فرديناند، إشارة إلى ترتيبات وعمل تنسيقي تشاركي بين الملك وأسقف إشبيلية لافيجا، الذي يُعلم الملك بشأن اطلاعهم على التوصيات التي تضمنتها رسالة سموه الواردة إليه بالمرسي الكبير في 17 ماي الفائت. كما يثير إليه مجموعة انشغالات ومشاكل حول عدم تقاضي جنود الحامية لرواتبهم منذ ستة

1- وولف، مرجع سابق، ص ص 26-27.

2- وولف، المرجع نفسه، ص 26.

3- أحد أساقفة الكنيسة الكاثوليكية شغل منصب الأسقف المساعد لإشبيلية بأمر من البابا بول الثاني سنة 1506م، رافق الحملة الإسبانية على المرسي الكبير ووهران، واحتفظ بمنصبه حتى توفي سنة 1516م بوهران.

أشهر وعددهم 500 جندي¹. و كان الإسبان وبمجرد تمركز بالمرسى الكبير فتحو سوقا تجارية جوار المدينة، يهدفون بها تحصيل المواد الغذائية واللوازم المطلوبة لبقاء حاميتهم².

ويظهر من خلال مضمون هذه الرسالة أن هناك تخبط في نية الملك حيال طبيعة المشاركين في الحملة أهم متطوعين أم مرتزقة؟ حيث طرح هذا الاستفهام الأسقف خوان وهو يسأل علاوة على أجور الجند، الحاجة إلى مصاريف أخرى لإجراء ترميمات، وكذا قضية النقباء الأربع الذين شاركوا في الحملة وعادوا إلى إسبانيا بعد أن قبضوا رواتب من القائد دي فرنانديز³. كما يعبر صاحب الرسالة لملكه عن تخوفه بخصوص التزام قطعه لتاجرين برشلونيين قصد التموين بالقمح ومواد أخرى، مرتجيا منه الإمداد والتمكين من دفع مستحقتهما⁴.

إذ يبدوا الأمر أكثر صراحة من خلال رسالة فرديناند إلى شيوخ وأعيان ومرابطي مستغانم ومزگران عن طريق مفوضه ديبوقو فرنانيز دي قرطبة بتاريخ 26 ماي 1511م، يحثه فيها نحو إلزامهم (الأهالي) إعلان الطاعة والولاء، وإجبارية دفع الضرائب والهدايا الراتبة، وما كان يؤدي منهم إلى السلطان الزياني في تلمسان، كما حددت الرسالة شروطا وتدبيرا كثيرة من بينها⁵:

- أن يكون الدفع لأمين صندوق الملك بوهران في الفاتح من شهر جويلية لكل سنة.

1- Élie De La Primaudaie, l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique (1506- 1594) Documents inédits Recueillis et Mis en Ordre, Alger, 1875, p09.

2- المدني، مرجع سابق، ص91.

3- هو ديبوقو فرنانديز دي قرطبة وأريلانو (1469-1518م): قاد الحملة على المرسى الكبير سنة 1505م بمعية خمينيس، وبأمر من هذا الأخير بصفته وصيا على عرش إسبانيا عين حاكما على وهران لثلاثة مرات بين 1510 و1518م. ينحدر من عائلة فرنانديز دي قرطبة النبيلة؛ التي ساهمت في استعادة قرطبة من سلطة المسلمين في الأندلس سنة 1236م، وهي العائلة التي ملكت مدينتي قشتالة وبون. ورث لقب القائد وورثه عنه أبناؤه بالإضافة إلى لقب الماركيز وحكم وهران.

4 - Primaudaie, Op.Cit. p10.

5 - Ibid, pp17-19.

- تحرير جميع الأسرى المسيحيين من أيدي أهالي مستغانم ومزغران وتمكين دي قرطبة من استعادتهم.

-الالتزام ببيع الطعام وإمداد الحاميات الإسبانية في وهران والمرسى الكبير بما تحتاجه.

-توفير المواد اللازمة لإعادة ترميم الحصون أو بناء أخرى جديدة، مع عدم الاعتراض على ذلك.

-منع تفرغ أي سفينة بميناء وهران دون إذن وترخيص من الملك فرديناند.

-إمكانية وضع قابض للحقوق والضرائب يشرف على دخول وخروج البضائع في مستغانم ومزغران.

وكان قبول أهل مستغانم لهذه الشروط التعاهدية تجنباً لمواجهة غير متكافئة مع الإسبان، وقد اضطرتهم السلطات المفوضة من فرديناند إلى الإمضاء على وثيقة تعهد يلتزمون فيها أمام القاضي بتنفيذ محتوى المعاهدة التي مثلهم فيها بعض الشيوخ والأعيان والمرابطون¹.

وقد رجع احتلال وهران بدخل هام على الأسبان وتحولت التحصيلات الجمركية التي كانت تجنيها التجارة الخارجية لصالح المملكة الزيانية في تلمسان إلى خزينة الاحتلال². واعتبر الإسبان كل ما في وهران غنيمة من حقهم، وقدرت مسلوبات الجند بـ 48 مليون دينار، كما استولى الكاردينال خمينيس على أثنى الأسلحة واحتفظ بأنفس الكتب واستولى على مصباح المسجد الأعظم، وجميعها موجودة في مكتبة جامعة مدريد حسب ما أورده الأستاذ توفيق المدني³.

1- المدني، مرجع سابق، ص ص 133-137.

2- فكاير، مرجع سابق، ص 227.

3- المدني، المرجع نفسه، ص 102.

وفي هذا الوقت تيقّنت السلطة الزيانية أن احتلال المرسى الكبير ووهران يعني ارتقاب المصير نفسه على تلمسان، لهذا السبب أرسلت التعزيزات إلى مرسى هنين بغية تحصينها، لما لها من أهمية اقتصادية كمركز للمبادلات التجارية مع أوروبا ومع البندقية بالأخص¹. وقد كانت تلمسان مركزا تجاريا له أهميته في تبادل البضائع الإفريقية وبضائع البحر الأبيض المتوسط².

استمر خضوع الأمراء الزيانيين لشّرّ المعاهدة المهينة مع الإسبان متوارثا، وخضعوا لرقابة حاكم وهران غير المنقطعة، وهو ما تسبب عندهم في حالة اجتماعية واقتصادية ضيقة، دفعت صاحب تلمسان إلى تودد شارلكان من خلال رسالة مؤرخة في 15 جانفي 1530م، يطلب منه إرجاع جمرك تلمسان إليه، لأن مداخل الدولة شحت بعد تخويل جبايته إلى ملحقين لصالح الإمبراطور، أحدهما جنوي وآخر يهودي³.

إلا أن الوضع زاد تقاعما بفقدان ميناء هنين وتأثرت التجارة في مملكة تلمسان، باعتبار الميناء أقرب منفذ بحري للسلطنة، فتوقف تجار أوروبا من غير الإسبان، واستقرّد هؤلاء بالعمليات التجارية وغدوا وحدهم ينقلون المنتجات الفلاحية كالأصواف والجلود المدبوغة والخيول، وغيرها من المنتجات المستوردة من السودان الغربي وشرق المتوسط⁴.

كما استهدف الإسبان خزينة مملكة بني زيان في تلمسان، إثر الضريبة التي فرضوها على أبو حمو الثالث ثمن الاعتراف له بالسلطة ومناصرته على خصومه في مدينة الجزائر؛ سلطة عروج وبعده خير الدين، وعليه أُجبر سلطان تلمسان على 10 آلاف قطعة ذهبية و10 آلاف رأس غنم وألف ثور وألف كيلة قمح، و14 حصانا و14 عبدا أسودا، ضريبة

1- علي البيشي، الجهاد البحري العثماني من خلال معركة ليبانتو، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي الحديث، السعودية: جامعة أم القرى، 1997، ص39.

2- وولف، مرجع سابق، ص23.

3- بلحميسي، نهاية دولة بني زيان، مرجع سابق، ص35.

4- مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، ج2، مرجع سابق، ص139.

سنوية يؤديها لملك إسبانيا، إضافة إلى تأمين المؤونة والطعام لعساكره الموجودة في وهران والمرسى الكبير¹.

وحتى الحملة التي قادها الحاكم الإسباني على وهران الكوديت ضد تلمسان سنة 1543م، كان المنتظر منها احتلال المدينة لأهميتها الاقتصادية، بما أنها محور للمواصلات التجارية البرية والبحرية منها، على هيئة قوافل تجارية تعبر إلى العاصمة وتحط بها، ومنها تنطلق إلى باقي الاتجاهات شرقا وغربا ونحو الجنوب².

2- على شرق البلاد:

عادت على بجاية ثروة كبيرة نتاج علاقاتها التجارية الواسعة مع الإمارات الإيطالية "بيزا وجنوة ومالفي" ومع مرسيليا وبرشلونة، وشهدت حركة تجارية ظلت مستمرة وواسعة الامتداد. كما ارتبطت بها تلك الجمهوريات الأوربية من خلال معاهدات سلام وتجارة نتج عنها فتح قنصليات أجنبية فيها³.

ويظهر أن هؤلاء المتعاملين الأجانب نظروا إليها بعين الاهتمام، إذ هناك لفظة لها دلالتها بشأن سقوط بجاية تحت سيطرة الإسبان، وهي أن البنادقة والجنويين وخلافا لباقي الأمم الكاثوليكية لم يُفرحهم ما لحق ببجاية، حيث أن احتلالها أُنذر بنهاية حركتهم التجارية دفعة واحدة، وأعقب هذا الحدث طرد أغلب سكان بجاية من طرف الإسبان وتعيين أسقف عليها، وغدى يقطنها فقط الجنود والرهبان وتجمدت تجارتها⁴.

وكان بيدرو نافارو بعد أن قضى على السلطة الزيانية في وهران قد أبحر قاصدا بجاية، وقوام قواته حسب ما يذكره مارمول 14 سفينة كبيرة تحمل 15 ألف جنديا، تمكن بهم من الاستيلاء على المدينة عقب مواجهة غير مُكلفة بسبب عدم التكافؤ. وفي بجاية ولأول وهلة مع دخول قائد الحملة، تنكشف مطامح الاستنزاف لمخزونات الجزائر، ففي الليلة الأولى

1- سامح أتر، مرجع سابق، ص 60.

2- حساني، مرجع سابق، ص 140.

3- توفيق المدني، مرجع سابق، ص 113.

4- هاينريش، مرجع سابق، ص 119.

نزل نافارو اليابسة بمعية 1500 جندي جعلهم يلجون المدينة ويجمعون ما عجت به من الخيرات؛ ماشية من كل الأنواع ولباس وحرير وخاصة ملكها من الذهب والفضة والأحجار الكريمة¹.

وفي نفس السنة 1510م أعلن فرديناند رقابته للتجارة الإسبانية من بجاية، وأقرّ ضريبة قدرها 50 بالمائة تُفرض على الأقمشة الصوفية المستوردة من بجاية؛ ما لم تكن صادرة إلى مرسى برشلونة مباشرة. وكان لبجاية ما تُصدره نظير خيرات مناطقها الجبلية، الأخشاب واللوز والتين، وأقمشة الحرير المصنوعة يدويا والمطلوبة من قبل أهل الترف في أوروبا، ومنها أصبح كذلك مرجان شواطئها وأصوافها وجلودها، مواد تُحول إلى إسبانيا².

والى أبعد من ذلك أعلن الملك استثناء بجاية من أي رعاية أو دعم مالي من إسبانيا، على أن الأتاوة المفروضة على السكان والشيوخ وغيرها من الضرائب والموارد الممكنة، هي التي تُدفع منها أجور الجند ومصاريف الأعمال المنجزة والمطلوب أدائها³.

وقد أسالت حصيلة بجاية اللُعبا نحو مناطق أخرى في الترتيب ضمن خطة فرديناند، خرج قائده منها بغنائم تبعث على الدهشة، ثلاثين سفينة شحنت حصيلة النهب في عجلة، وأعقبتها خرابا وتشويها لبنيان المدينة ومعالمها⁴. ويُعيد بجاية مباشرة خرجت حملة نحو مدينة عنابة فاحتلتها بسهولة، وعاث فيها الجنود سلبا ونهبا ثم خلفوا فيها حامية⁵ للحراسة وضمان الخضوع.

1- مارمول كاريخال، مصدر سابق، ج2، ص ص377-378.

2- المدني، مرجع سابق، ص124.

3- المرجع نفسه، ص ص124-125.

4- نفسه، ص111.

5- نفسه، ص128.

علاوة على ما ذكر يشير الأستاذ دي إيبالزا¹ في مقال نشره بمجلة الأصالة إلى شروع الأسباب إثر احتلالهم عنابة² في مستهل حربهم على سواحل الجزائر، في استغلال المرجان والاتجار فيه، إذ ينعت إلى وجود وثائق ذات صلة بالموضوع في أرشيف سيمينكاس العام³.

3- على إقليم العاصمة:

انصرفت نحو مدينة الجزائر أنظار الطامعين والمتنافسين في الفترة الممتدة من القرن 10 إلى 16م، وفي مرحلة محددة أدار شؤونها الثعالبة، بسلطة محلية على نسق المشيخة، وطبع حياتها ازدهار النشاط البحري والمبادلات التجارية، حيث تردد على الميناء سفن المسلمين والمسيحيين من و إلى إمارات إيطاليا⁴.

وفي سنة 1510م قادما من بجاية تقدم دي نافارو نحو عاصمة الثعالبة ونجح في احتلال صخرة المرسى، لهذا السبب توجه مبعوثين من مشيخة المدينة إلى الكونت ووقعوا معه هدنة في 31 يناير، تنص على الاعتراف بسيادة الأسبان، إضافة إلى التعهد بدفع ضريبة سنوية⁵ ونفس القسط المالي الذي دفعوه لأمير بجاية سابقا⁶. وإذا كانت الحروب في

1- ميكال دي إيبالزا (1938-2009م) إسباني وهو أستاذ مختص في التاريخ والدراسات الاستشراقية، درّس في جامعات مدريد وبرشلونة وأليكانتي وكان عضوا ضمن هيئة التدريس لبعض الجامعات الجزائرية والأوروبية، من الباحثين المشتغلين على الدراسات المتوسطية والموريسكية، حيث ترك عدّة مؤلفات من بينها "الجدل بين المسلمين والمسيحيين، المسيحيون الذين يعيشون تحت النفوذ العربي في الأندلس". للمزيد ينظر: مجلة الهجرة والرحلة، عدد خاص تحت عنوان "تحية تقدير وامتان للأستاذ ميكال دي إيبالزا"، الجزائر: جامعة قسنطينة، العدد 03، أبريل 2010.

2- احتلت بعد بجاية وثبتت بها حامية واتخذت من قواعد الإنطلاق نحو طرابلس.

3- ميكال دي إيبالزا، ثلاث أحداث غير معروفة من العلاقات التاريخية بين عنابة وإسبانيا، ترجمة عبد الحميد حاجيات، الجزائر: وزارة التعليم القومي والشؤون الدينية، مجلة الأصالة، العدد 34-35، ص113.

4- العربي إيشبودان، مدينة الجزائر تاريخ عاصمة، ترجمة مسعود جناح، الجزائر: دار القصة للنشر والتوزيع، 2007، ص23.

5- فكايير، مرجع سابق، ص58.

6- المدني، مرجع سابق، ص115.

منظورها ترى في العاصمة رمزية الصمود أو السقوط، فإن أسبقية حملات الإسبان سحبت الأنظار نحو مدينة الجزائر قصد الاستحواذ عليها.

ولأن السلطة الزيانية كانت عاجزة أمام هذه التطورات الخطيرة على البلاد، دفع سكان الجزائر ودلس الضرائب المفروضة اضطرارا، وتبعهما اعتراف مملكة تلمسان للإسبان باستيلائهم على عدة موانئ في نطاق غرب البلاد¹.

ويتضح من خلال كتابة بروجر عن حصن البينون الإرهاق الاقتصادي والمالي الذي ترتب على الجزائريين بعد ذلك مباشرة، حيث فُرضت في المستهلك الهدايا الثمينة وحرر سالم التومي 130 أسيرا، ويضيف بالقول: "إن مدينتهم (الجزائر) كانت في السابق إرهاب إسبانيا وأنها (إسبانيا) أصبحت الآن غنية بغنائمها"².

وفي السياق نفسه يقول الأب دان: "يبدو أن دولة الجزائر تُعارض عقيدة أفلاطون في سعادة الجمهوريات، فكأنما الثروة اختارت مسكنها في الجزائر، لقد جعلتها تزدهر يوما بعد يوم"³. والحقيقة أن مدينة الجزائر تضمنت على ميناء نموذجي للمراقبة، وكان تحت سيطرتها جميع الطرق الكبرى في غرب البحر الأبيض المتوسط، وحظي موقعها هذا بقيمة جغرافية واقتصادية وكان عامل ثروتها. لكن هذه القيمة لم تعد ممكنة إلا عقب سقوط البينيون على يد خير الدين سنة 1529م⁴.

أخضع الإسبان من فورهم وعقب بنائهم البينيون 1510م صادرات وواردات الجزائر العاصمة إلى التفتيش والمضايقة، وراحوا يقطعون الصلات البحرية بين الجزائريين وغيرهم متى وكيفما شاؤوا⁵. كما فرض مجلس سرقسطة على وفد مدينة الجزائر الذي قدم لأجل

1- أباطة، مرجع سابق، ص ص95-96.

2 - Berbrugger, Le Pégno D'Alger u les origines du gouvernement Turc en Alger, Paris, 1860, pp15-16.

3 - P.Pierre Dan, Op.cit, pp100-101.

4 - Braudel, Op.Cit,p355.

5- عبد القادر نور الدين، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر "من أقدم عصورها إلى العهد التركي"، الجزائر: دار الحضارة، 2006، ص ص57-58.

التفاوض سنة 1511م، تسليم الجزيرة الصخرية للمدينة حتى يُشيد عليها الإسبان حصنا يحرس تجارتهم ويؤمن تحركاتهم البحرية¹.

هذه الوضعية تشي بأمد من الابتزاز والتضييق سيطول متى استمر الوضع هكذا، وتؤكد أن احتلال ميناء الجزائر هو ضربة اقتصادية قد تفوت الكثير من الأدوار التجارية المربحة للبحرية الجزائرية والإسلامية.

أشعر هذا الوضع المفروض الشيخ سالم التومي بالمهانة والخضوع، كما سببت الحامية التي مركزها فرديناند بالحصن المشيد على صخرة الميناء شلل النشاط البحري²، ذلك أنها أبقت رقابة دائمة على المدينة، وعرضت صادراتها ووارداتها للتفتيش؛ فضلا عن حرمان البحارة المسلمين الالتجاء إلى مينائها وهو ما أدى إلى تقليص الحيوية البحرية³.

وأكثر ما تخوفه سكان المدن الساحلية الجزائرية أثناء تمكن الاحتلال الإسباني منها؛ إقامة الحاميات عليها وبناء القلاع والحصون قبالة موانئها، وهو ما ينذر بالتهديد الاستيطاني والسطوة على المقدرات وأنشطة البحر، فعرض البعض مبادرة منهم دفع الضريبة أملا في اتقاء ذلك الخطر⁴.

لذلك عندما استجد أهالي مدينة الجزائر بعروج وأخيه سنة 1516م كان المرغوب يومها تخليصهم من حصن البينيون-هذا ما يطرحه بروديل-، ويقدر لو أن العملية تمت منذ تلك السنة، كانت سمحت لمدينة الجزائر استخدام مرساها بحرية تستعيد على إثرها الأرباح التي لا تُحصى⁵.

1- المدني، مرجع سابق، ص115.

2- سامح ألتز، مرجع سابق، ص ص49-50.

3- فهم لقوارة، ميناء مدينة الجزائر ودوره الإقتصادي في العهد العثماني ق16-17م، الجزائر: دار الإرشاد للنشر والتوزيع، 2015 ص41.

4- مبارك الملي، مرجع سابق، ص43.

5 - Braudel, Op.Cit, p355.

أثر البحرية الجزائرية في إرهاب اقتصاد إسبانيا:

ومن زاوية أخرى تسبب الشلل المرحلي الذي مني به نشاط البحرية الجزائرية بنتيجة مماثلة على الأسبان، فالجمود الحاصل في رواج المواد الغذائية ألقى بظلاله على الحامية الموجودة في قلعة البينيون، حيث حالة الحرب المتبادلة أنهكتها ومنعت عنها المؤن الغذائية¹ وفرضت عليها شبه عزلة تجارية².

وعندما دفعت الظروف خير الدين إلى التراجع نحو جيجل، ركز جهوده نحو جهاد البحر، ومكّنه ذلك إخضاع القالة سنة 1520م، وكان لمينائها أهمية اقتصادية واضحة. وبمنظور هايدو لم يكن في وسع التجار المسيحيين شراء الصوف والجلود والبطانيات والشموع إلا من خلاله هذا الميناء³، فاستمر خير الدين على ذلك وساهم وجوده بالقالة في خضوع قسنطينة، وتلتها عمليات أخرى ناجحة حتى سنة 1529م، الأمر الذي جعل مقدرات الغنائم والأسرى والسفن تزداد⁴.

إن استطاعت خير الدين تحطيم القلعة الإسبانية سنة 1529م هو تحرير لطريق بحري عالمي فقد دوره الجيوسياسي لمدة 15 سنة، أعاد النّفس والحركة للعاصمة التي أصبحت تمر جميع سفن العالم قبالتها⁵. وهو انتصار استراتيجي لما سينجرّ عنه من العمليات الموالية والمستقبلية انطلاقاً من العاصمة، لأنه طهر بصفة كاملة ساحل الجزائر

1- عزّج وولف عن هذه الحالة ونكر أن الخبز واللحم بل حتى الماء كان لا يأتي تلك المعسكرات إلا عن طريق البحر . ما جعلها في حالة حرجة نتيجة لخطر المواصلات والنقل البحري، في ظروف وصول خطر نشاط وتواجد البحارة الأتراك إلى أواسط وغرب المتوسط. ينظر، وولف، مرجع سابق، ص27.

2- هاينريش فون مالتسان، ثلاث سنوات في غربي شمال أفريقيا، ترجمة أبو العيد دودو، ج01، الجزائر: طبعة خاصة، دار الأمة، 2009، ص ص 50-52.

3 - F. D. Haedo, Histoire des rois d'Alger, Op.Cit, p37.

4 Haedo, Op.Cit, p39.

5- إيشبودان، مرجع سابق، ص29.

الأوسط وحصر الخطر الإسباني في الناحية الشرقية من بجاية وما إليها، ومن الناحية الغربية من وهران والمرسى الكبير وما إليهما¹.

وردا على استكمال تحرير عاصمة البلاد، سارع أسطول الجزائر بقيادة إدين رايس وصالح رايس إلى الفتك بسفن الاسبانية وغزوها، وقبيل سفر خير الدين إلى الباب العالي برز إيدين رئيس كقائد بحري شجاع على أسطول الجزائر، أبحر على رأس الأسطول نحو مضيق جبل طارق، ورجع بـ05 سفن بحرية على إثر عملية سريعة استغرقت 11 يوما بعد أول يوم للخروج، وضاعف من غاراته على سواحل جنوب اسبانيا، فكثُر أسراه من المسيحيين لدرجة فاقت قدرة استيعاب سفنه².

ويتحدث هايدو في هذا الظرف بالذات عن سفن إيدين وصالح رايس التي رست بالقرب من مرفأ أوليفا، وكيف تمكن رجالها بعد نزولهم اليابسة من تحرير ونقل 600 ألف أندلسي راغب بالهجرة. وهي حادثة أثارت ثائرة شارلكان ودفعته إلى النداء في قيادته البحرية بإعلان إعطية مالية مكافأة لمن يستطيع منع أولئك المورييسكيين من الهجرة، إذ كانوا-حسب هايدو- يصطحبون معهم أمولا طائلة وثرورات نفيسة³، مما يبرز أن تنامي قوة بحرية الجزائر كان له أثره في استنزاف مقدرات العدو المالية والاقتصادية.

أما حسن آغا ففي سبتمبر 1539م اندفع في 13 سفينة حربية بمعية 1300 رجل نحو بلدة جبل طارق، وفي غفلة ساكنيها من الأسبان استطاع النزول إلى اليابسة فاحتلها وتمكن من الاستحواذ على خيرات وأرزاق مختلفة، واستمر على ذلك في ساحل جنوب إسبانيا.، واصطحب كثيرا من الأموال والأسرى الذين توجه بهم إلى تطوان ومدن أخرى من شمال المغرب الأقصى قصد بيعهم⁴.

1- المدني، مرجع سابق، ص199.

2- مذكرات خير الدين بربروس، مصدر سابق، ص149.

3 - Haedo, Op.Cit, p38.

4- المدني، مرجع سابق، ص259.

وهناك ضريبة فرضها الإمبراطور شارلكان على التجار سميت بـ: "رسم البضائع المستوردة من الهند"، حيث خصصت قيمتها لتسليح أساطيل الإمبراطورية¹، علماً أن الحيز الأوسع الذي شكل الأساطيل الهابسبورغية هو في إطار مواجهة البحرية الجزائرية.

علاقة الاقتصاد بالحرب:

كان تجهيز الحرب أو تدمير قوامها اللوجيستيكي له أثره على خزينة ومقدرات كل طرف؛ الإسلامي بقيادة العثمانيين والمسيحي بزعامة الأسبان، يُرتب تكلفة على اقتصاد الدولة. فالأسطول البحري عُرف بازدواجية الدور الذي أنشئ له، التجارة وجلب الأسرى والحرب على الأعداء ضمن دائرة الصراع الواسعة.

وقد كان إنشاء السفن وإعدادها وتزويدها بالرجال يُلقي على القوى المتنافسة بعبء ثقيل، لأن كل منها لم تكن النتائج المحققة تبعث لديه على الاقتناع وهو يتذكر النفقات والموارد والمصروفات التي خصصها للصراع².

عددت بحرية الجزائر خرجاتها للغزو بصورة ملفتة منذ 1530م، وفي خرجة واحدة تأمّرها سنان راييس تم الاستحواذ على 06 سفن، إحداها كانت مشحونة بالبارود والرصاص وقذائف المدافع وضمّنها كذلك 60 قذيفة من البرونز، ومعها كذلك سفينة ثانية حُمّلت بالنفط والقطران والأعمدة والألواح، وأخرتان كانت شحنتاهما مواد غذائية متنوعة بين السكر والعسل والزيتون وزيت الزيتون، إضافة إلى قدر من الأموال التي وصفها خير الدين بالنفيسة التي تبعث على السرور³.

كما دفعت الحرب الملكيات غير مختارة إلى الاقتراض ورصدت أموال كبيرة لخوض غمارها، وهو ما سبب هزة مالية شديدة مع بداية النصف الثاني من القرن 16م، كانت أسرة

1- موسنييه، مرجع سابق، ص129.

2- كولز، مرجع سابق، ص91.

3- مذكرات خير الدين، مصدر سابق، ص142.

الهابسبورغ من ضحاياها حيث دخلت في عجز مالي تراوح بين 13 و 20 مليون دوقا بسبب إفلاسها الذي يظهر أكثر بعد 1557م¹.

ولأن إسبانيا كانت تشهد تدفقا للمال والذهب والفضة بفضل الكشوف الجغرافية الاستعمارية، هناك من يرى أن ملوكها الأقوياء وبدرجة أولى شارل الخامس وابنه فيليب؛ وهدما من استطاعا الاستفادة من هذا السيل من الأموال والثروات، وتمكنا من ضخها في شن الحرب على مناوئهم من العثمانيين والفرنسيين والإيطاليين، في سبيل ترسيخ الهيمنة على أوروبا وعلى خارج أوروبا².

ومنذ أن احتلت إسبانيا جزر الأنتيل في القرن 15م، أخذ الذهب الأمريكي والفضة يجريان كالبحر نحوها، وازدادت الكميات المستوردة من المعادن الثمينة بفضل احتلال المكسيك على يد فرناندو كورتيس، وبعد أن اكتشفت سنة 1545م مناجم الفضة في البيرو زاد تدفق هذا المعدن. وكل هذه القناطير المقنطرة ما لبثت أن خرجت من إسبانيا بسرعة، ثمنا لما استوردته من المدافع والبارود والحبوب وغيرها من الخمر والمعادن، كما كلفتها حروبها ضد العثمانيين وغيرهم من الفرنسيين والألمان والبلاد الواطئة اختلالا في نظامها الاقتصادي³.

وبينما كان بايلربايات الجزائر يمضون في الحرب لدعم سلطتهم وتمتينها في أرجاء البلاد، كان النزاع داخل أوروبا يستنفذ الموارد، بحيث اتخذت الحرب وسيلة لمشاريعهم وتطلبت الجيوش التي شكلها المرتزقة حمولة مالية باهظة؛ من حيث الرواتب والأسلحة

1- رولان موسنييه، مرجع سابق، ص 113.

2- جويس أبلبي، الرأسمالية ثورة لا تهدأ، ترجمة رحاب صلاح الدين، مصر: مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع، 2020، ص 43.

3- موسنييه، المرجع نفسه، ص 116-117.

والذخيرة، حتى أن السلام غدى ضرورة تملئها تكلفة الحرب التي لوحت بإفلاس أنظمة كاملة في مقدمتها إسبانيا وفرنسا¹.

ويضاف إلى ما سبق أن التحالف العثماني الفرنسي ضد إسبانيا، وهجمات الأسطول الهيمايوني والأسطول الجزائري المستمرة لشواطئها، تسبب لها في حالة من القلق وهددها في ممتلكاتها ضمن البحر المتوسط ب:"صقلية والبوي ونابولي"، وهي موارد تموينها الكبرى بالقمح. وهذه الضائقة أصبحت تطرح أزمة فقدان التجارة الإسبانية مع إيطاليا، بما تكتسبه من أهمية وما ينجر عنها من إخلال بالتزاماتها الضريبية إزاء مومنيها الجنوبيون والألمان، ناهيك عن تهديد أمنها الغذائي القومي في ظرف تزايد السكان².

4- تكلفة التوسع الإسباني في سواحل الشمال الإفريقي على الجزائر:

في محطة لاحقة سرعان ما تطلع الإسبان إلى إخضاع جبهة جديدة من بلاد المغرب، وخلال 1511م بادر الملك في إعداد حملة لاحتلال طرابلس، وبحثا عن مصدر تمويل تُدعم من خلاله الجهود العسكرية، فرض فرديناند على سكان مدينة الجزائر ضريبة إضافية قدرت بـ 50 بالمائة على مستورداتهم من الصوف، يُحمّلهم من خلالها تكاليف حملته الإفريقية³.

وهناك رسالة⁴ بعث بها فرديناند إلى بيدرو دي نافارو "مستشاره والقائد العام للجيش الملكي في شمال إفريقيا" في شهر ماي 1510م، احتوت معلومات ومعطيات حول إمدادات الغذاء والمؤن والجند ستلتحق بجيش الحملة المجهزة على طرابلس قادمة من بجاية. وإضافة إلى هذا تشير الرسالة إلى أهمية معاهدة الهدنة مع أهالي بجاية في ضمان تموين حامية

1- وولف، مرجع سابق، ص72.

2- ليلي الصباغ، مرجع سابق، ص139.

3- سبنسر، مصدر سابق، صص35-36.

4- ينظر الملحق رقم06.

النصارى كأساس للصمود واستمرار المشروع على ساحل الشمال الإفريقي، مؤكدة على ضرورة ضمان المصاريف من المستعمرات المُحصلة وهي المرسى الكبير ووهران وبجاية¹. و في سنة 1541م تكبّد الإسبان خسارة قوية التبعات وراء حملتهم على مدينة الجزائر 12000 مقاتل و 150 سفينة خلفوها وراءهم في الجزائر²، وهذا الزحف المتسارع يُفصح لنا عن أهداف الإسبان العامة والجزئية، وتقدم لنا هذه الأحداث قرائن عن سياسة الملوك الكاثوليك في حوض المتوسط، التي تتمحور حول إرادتهم في إصابة موارد شعوب الضفة الجنوبية ومنها الجزائر، من خلال خنق روح البحرية والحرص في عزلها وعرقلة كل محاولة للتقدم والتعافي.

ويوجد تقرير كتبه أحد الوكلاء والجواسيس الفرنسيين في خريف 1541م وبعث به إلى الملك فرنسوا الأول، يتحدث عن خسائر الإمبراطور شارلكان الفظيعة جراء حملته هذه على الجزائر، ومما يقول صاحبه: "لم يسبق له أن عانى في حياته (شارلكان) من خسارة كبيرة كما حصل معه هذه المرة، فأكثر من خسارة المدفعية وذخيرة والخيول التي فقدتها جميعها، مات الكثير من الرجال والبحارة لدرجة أن عددهم غير معروف، وهناك 130 سفينة و17 غاليرا فُقدوا على الساحل...، وتقدر خسارته بـ: 04ملايين من الذهب، وأصهار الإمبراطور ورؤساء إسبانيا هربوا، وصهر الإمبراطور خسر 100 ألف دوقا، وهناك ضرر أكبر مما يعتقد المرء ومما يمكنني أن أكتب لجلالتكم"³.

ومعاهدة كاتوا كامبريزي سنة 1559م بين الإسبان والفرنسيين دفعت إليها عوامل اقتصادية، حيث وصل الطرفان إلى حالة محطمة نتاج المصاريف التي تطلبتها الحروب

1- شارل فيرو، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة وتحقيق عبد الكريم الوافي، بنغازي، ليبيا: منشورات جامعة قان يونس، ط3، 1994، ص74.

2- بنحادة، مرجع سابق، ص43.

3- Ernest Charrière, Négociations de la France dans le Levant, ou Correspondances, mémoires et actes diplomatiques des ambassadeurs de France, T01, Paris, pp522-524.

على إيطاليا لأزيد من نصف قرن¹. كما كان للجزائر أثر في هذا الصدام المسيحي-المسيحي من خلال دخولها بعض المعارك والأدوار مثلما حدث في السواحل الفرنسية بين سنتي 1543 و1544م ضمن مساعدة الفرنسيين على خصومهم خصوم الدولة العثمانية. ولا شك أن اهتلاك مقدرات كل من الدولة العثمانية وإسبانيا دفعاهما نحو البحث عن تحاشي الحرب، لذلك شرعا في مفاوضات السلام وأمضيتا على هدنة رسمية سنة 1574م، وجدداها سنة 1587م، إلا أن التهديدات بقيت قائمة على إسبانيا في صورة ضغط إسلامي بحري وعمليات استنزاف من بحارة الشمال الإفريقي سارية إلى القرن الذي تلى². وفي القرن 16م على الخصوص تضاعف حرص إسبانيا في حماية تواجدها في المتوسط وحدودها في مستعمراتها المحققة أو المدرجة كمشاريع توسعية استعمارية، ولبلوغ ذلك وجدت في القلاقل والبحث عن التحالف مع أطراف النزاع في الجزائر وتونس والمغرب الأقصى أهدافا تتحقق بها مآربها الاقتصادية.

الجهاد البحري مصدر أساسي للدخل:

كانت أنشطة البحر تتماشى بطبيعتها مع فريضة الجهاد، كما أدت عائدات البحرية إلى ثراء وانتعاش الإيالات التي مارستها، وقدّم رياس البحر دورا اقتصاديا هاما، كما شكلوا عنصرا له تأثيره في التوازن بين الضفتين³ سياسيا واقتصاديا.

واقتضت الحالة الاقتصادية القائمة أن تجعل من النشاط البحري أساسا في تغذية خزينة الدولة، فجهاد البحر وفر موارد مالية ضخمة على مدار قرن كامل، لذلك يصعب علينا الفصل بين دور البحرية الجزائرية الجهادي الدفاعي والاقتصادي، كون الأسطول البحري امتزجت فيه جهودا دفاعية وئفاحية على بلاد الإسلام من خطر وتربص الأعداء، فضلا عن بذله في سبيل فرض نفسه ووزنه التجاري في ميدان التنافس الاقتصادي الشرس.

1- فراس البيطار، الموسوعة السياسية والعسكرية، ج06، عمان، الأردن: دار أسامة للنشر والتوزيع، د.ت، ص2317.

2- كولز، مرجع سابق، ص95.

3- مانتران، مرجع سابق، ص615.

ويُدان للأسطول البحري الجزائري كذلك بالفضل في تحقيق تلك الانتصارات الكبيرة والمتتالية على امتداد القرن 16م، تبدأ من حلول عروج وإخوته بجزيرة جربة، كما كبدت الجزائر القوى الأوروبية تكاليف مالية أرهقت تفكير وخزينة تلك الدول¹ لمجابهة وابتغاء الصمود في سياق التنافس في المجال المتوسطي.

وحكومة أوجاق الجزائر من فور تأسيسها عكفت تعمل لجلب الجهاد إلى البحر، وخلال أقل من خمسين سنة تم القضاء تماما على مصالح التجارة والملاحة الإسبانية في البحر المتوسط، حيث أن خير الدين بعد افتكاكه حصن البنيون من قبضة الإسبان سارع في ربطه بالميناء وعزز تحصينه، حيث أراد أن يصنع من الجزائر قاعدة للجهاد على شاكلة ما كان في مالطة بالنسبة للفرسان المسيحيين². هذا التصور يؤكد أن الجزائر لم تكن مجردة من التجارة في الفضاء المتوسطي؛ بل أثرت فيها بقدر بالغ سيبرز أكثر خلال القرنين المواليين 17 و18م.

وبشكل أساسي يُعبر دخول الطرف العثماني في المغرب العربي من خلال الرياس والأوجاقات، عن نية إيجاد سلطة عسكرية قادرة على النضال الفعال في وجه الأسباب ومحاولاتهم لاستعمار المنطقة، وعلى عزم الرياس ومن ورائهم الحكومة المركزية في تحصيل نصيبهم من التجارة الدولية رغم معطيات وممارسات تلك الآونة. وهو المنطلق الذي يتضح من خلاله أن القرصنة يومها هي رد فعل على الاحتكار الذي سعت لفرضه الأطراف الأوروبية، بل أمر واقع لكسر قيود الحصار المفروض ولعبة أحادية الأرباح التي أُريدت على البحرية الجزائرية من طرف البرجوازية التجارية الأوروبية³.

1- للمزيد، ينظر: وولف، مرجع سابق، ص ص33-34.

2- H. De GRAMMONT, Relations entre la France et la Régence d'Alger au XVIIe siècle, Revue Africaine, Paris, p06.

3- عبد القادر جغلون، تاريخ الجزائر الحديث دراسة سوسيوولوجية، ترجمة فيصل عباس، لبنان: دار الحداثة للطباعة والنشر، ط02، 1982، ص ص42-43.

فرّواد احتكار التجارة الدولية وعلى رأسهم اسبانيا وفرنسا وايطاليا، شغلهم منذ نهاية القرن 15م ضرورة تنظيم الدوائر التجارية والحفاظ على دورهم فيها، ذلك أنها ظلت ولفترة ليست بالقصيرة الجانب الأكبر الذي تستخرج منه إيراداتهم نتيجة الاقتراع الضريبي أو المساهمة المباشرة¹.

كما وجه الأتراك العثمانيون اقتصاد الجزائر ابتداء من العاصمة نحو البحر ونحو القرصنة بالخصوص، وهي من الحرف الرئيسية التي كانت سائدة آنذاك؛ لا بالنسبة للجزائر فقط ولكن بالنسبة لأغلب الدول الأوروبية. وقد اتخذ هؤلاء من جهاد بحرية الجزائر وحماية المسيحيين مبررات لتنظيم الحملات وتوجيه الهجمات على مدينة الجزائر².

غنيت الجزائر خاصة بمراد النشاط البحري وشُيّد بفضل تلك العائدات عدد كبير من المساجد والزوايا، ومهما بلغ تأثير القرصنة في إنعاش الاقتصاد في تونس كذلك فإنه لم يكن مثل الذي شهدته الجزائر، حيث كانت المورد الوحيد بل إن مقتضيات التجارة والعلاقات الدولية اضطرت الحكومة أحيانا إلى الحد منها³.

وعلاوة على الصنوف المتعددة لنشاط البحرية الاقتصادي، عادت مدهامات الأساطيل وأسر ما عليها من جند وعبيد ومسافرين؛ بدخل مالي على خزينة الدولة، وتحددت قيمة الفدية بالسلم الاجتماعي للأسير، حيث كان هناك الأثرياء وذوي الرتب العالية، كما كان الجنود البسطاء⁴.

فإلى حد ما كان لافتداء الأسرى الواقعين في قبضة الأسطول الجزائري من خلال المعارك -بوجه أكبر- أو اعتراض السفن التي لا توقع هدنة السلم مع الجزائر، نصيب في

1- جغلول، مرجع سابق، ص42.

2- حليمي عبد القادر، مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830، الجزائر: المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي، ط1، 1972، ص170.

3- جوليان، مرجع سابق، ص357.

4 - Vincenzo Scarpello, Storia e Strategia della Pirateria Barbaresca Secc xvi-xix, 2010, pp15-16.

إثراء الخزينة وإدراج المال على البحارة والبحرية. وكان ذلك إجراء يُمكن عائلة الأسير أو حكومته أو أقاربه تحريره من صاحب السفينة أو حكومة الدولة القائمة بالأسر مقابل مبلغ مالي محدد -تبعاً لأهمية الأسير-¹.

وقد تطلّب تحرير أسرى الجزائر أموالاً ضخمة وجبت على قناصل ومبعوثي الدول الأجنبية وكذا البعثات الدينية المسيحية، فإسبانيا مثلاً كان محتوم عليها دفع 60 ألف قرش سنوياً مقابل إطلاق سراح ما بين 200 إلى 300 أسير.²

ومن أجل خلاص الأسرى أنشأت في أوروبا جمعيات خيرية تُعنى بالتضامن والبحث في توفير الأموال المترتبة، تنتقل في أوروبا المسيحية لجمع الصدقات والمساهمات، واعتبرت المسألة محل مفاوضات تجارية حقيقية³، حيث قدر عدد الأسرى في مدينة الجزائر خلال القرن 16م بـ 25 ألف أسير.⁴

ونقلت لنا رواية التمكروتي عن الجزائر كذلك تأكيد لحالة البلاد الاقتصادية من خلال معاینته لمشاهد من العاصمة وغيرها، جاء فيها: " فبلادهم لذلك أفضل من جميع بلاد أفريقيا وأعمار وأكثر تجاراً وفضلاً، وأنفذ أسواقاً وأوجد سلعة ومتاعاً حتى أنهم يسمونها اسطمبول الصغرى"⁵.

وعليه كان النشاط المتصل بالبحر وما ينجر عنه من غنائم الجهاد وفداء الأسرى والأتاوة المؤداة -ثمناً للعبور-، هو المصدر الرئيس لودائع الخزينة ومداخيلها، ذلك أن الجهاد البحري وفرّ مداخيل طائلة للدولة الجزائرية سيما خلال القرن 16م والقرن الذي تلاه،

1- تابليت، مرجع سابق، ص ص 79-80.

2- سعيدوني، مرجع سابق، ص 29.

3 - Vincenzo, Ibid, p16.

4- سعيدوني، المرجع نفسه، ص 29.

5- التمكروتي، مصدر سابق، ص 129.

بفضل العتاد الحربي الذي يستولي عليه البحارة، وكذلك نصيب الخزينة من فدية الأسرى والمقدر بنسبة 12%¹.

دفعة الأندلسيين لعجلة الاقتصاد الجزائري:

دفعت جهود الكنسية الصليبية بقوة إلى سياسة طرد الموريسكيين من إسبانيا دون حسابان للمضار الناجمة عن ذلك من جميع المناحي، وألحّت حتى الطرد النهائي غير معتبرة لمعارضة الكثيرين من سكان إسبانيا، ومنهم أصحاب الأراضي والضّياغ، ومن جابهوا هذه السياسة المتهورة التي أفقدت البلاد طاقات هائلة عملا وإنتاجا².

ولم يشكل الموريسكيين المطرودين من إسبانيا إلى الضفة المقابلة دعامة الجهاد البحري فحسب، ولكن أصبحت منهم أيضا طبقة التجار والحرفيين، الأمر الذي يؤكد مدى التغريب العميق الذي اقترفته سياسة الطرد الإسبانية، سيما على مسألتي الخبرة الفنيّة والمهارة التجارية³.

وفي المقابل خلق احتضان الجزائر لفئة الأندلسيين قيمة مضافة على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي، كما أن الموجة الثالثة لهجرة الأندلسيين الموريسكيين إلى الجزائر قدّفت بعدد كبير من هؤلاء إلى دار السلطان، وكانت حركة إيجابية لفاعليتها في خلق مدن وتجمعات جديدة وإنشاء نشاط اقتصادي متنوع زراعيًا وصناعيًا، دعم إنتاجية الدولة وعوّض الحاجة إلى اليد العاملة⁴.

اختارت هذه الفئة بإرادتها الأماكن التي توافقت للقيام بالزراعة والصنائع، فمنهم من نزل بالعاصمة ومنهم استقر بفحوص المتيجة، ومجموعات أخرى نزلت بشرشال ودلس

1- سعيدوني، الجزائر في التاريخ، مرجع سابق، ص 29.

2- عبد الله الشيخ، مرجع سابق، ص 48.

3 - Vincenzo Scarpello, Op.Cit, pp14-15.

4- ناصر الدين سعيدوني، الأندلسيون الموريسكيون بمقاطعة الجزائر أثناء القرنين 16 و17م، الجزائر: جامعة الجزائر، حوليات جامعة الجزائر، مج 07، العدد 01، جويلية 1993، ص ص 107-111.

ووهران وتلمسان. ولأن حياتهم بالأندلس تميزت قبلُ بالترف والرفاهية في المسكن والمأكل واللباس، جلبوا معهم المهارة والدراية في أكثر الشؤون؛ اجتماعية اقتصادية وعلمية ثقافية¹. كما تحسنت أحوال البلاد الجزائرية طيلة القرن 16م وتعددت المصنوعات وكثُر الإنتاج الفلاحي، ونشطت حركة التجارة نتيجة قدوم مهاجري الأندلس لأن أعدادا كبيرة منهم استقرت على السواحل، وراحت تعمر مدنها وقراها وتزرع أراضيها وتستصلحها، ثم أصبحت -بفضل هؤلاء- مدن الجزائر من تلمسان إلى دلس تزخر بوافر مُنتج الخضر والفواكه، ومدن أخرى كالجزائر ومازونة وقسنطينة تنتوع فيها الحرف والصنائع بفعل مهن وورشات الأندلسيين².

أثر التحالف العثماني الفرنسي على الجزائر اقتصاديا:

يقتضي منطق التحالف تشارك المصلحة بين ثنائيته أو أطرافه المتعددة، لذلك من المؤكد أن الخدمات والمساعدات الكبيرة التي قدمها السلطان سليمان القانوني بإمكانيات دولته لصالح فرنسوا الأول لم تكن مجانية؛ من ناحية قيمتها الإستراتيجية بالنسبة للفرنسيين الذين تهددت مصالحهم ووحدتهم الترابية، ومن ناحية وطأتها على الهابسبورغ كون مشاطرة خصومهم في أوروبا من طرف العثمانيين حال دون مطامح الإمبراطورية المقدسة والموحدة، وقوت عليهم الفرص، وفرض عليهم متاعب حرب إضافية.

هكذا خوّل الجزائر وجودها معنية بالعلاقات الفرنسية العثمانية الحصول على مزايا لصالحها، كمحرك لبود الاتفاق المبرم ضمن شقه العسكري. وعندما توجه حاكمها خير الدين إلى سواحل مدينة نيس في شتاء 1543-1544م، لتنفيذا لأوامر السلطان بعد استجداء الفرنسيين تدخله لاستعادتهم مدينة نيس من شارلكان الذي احتلها وألحقها بتاجه، أثمر نشاط أسطوله العثماني الجزائري هناك رصيذا حافلا بالغنائم والأسرى، هؤلاء الذين

1- عبد القادر نور الدين، مرجع سابق، صص 61-62.

2- سعيدي، الجزائر في التاريخ، مرجع سابق، ص 49.

تداولهم تجار ليفورنو اليهود؛ افتداءً لهم على عاتق وحساب شارلكان، مقابل أموال كبيرة ضخت لصالح بايلرباي الجزائر¹.

فجهاد البحر إذن أصاب إسبانيا بنزيف اقتصادي وتهديد دائم لشواطئها، واستنزف التأهب لمجابهتها سيل المعادن النفيسة التي وصلتها من مستعمراتها في العالم الجديد، بحيث معظم الأساطيل التي كانت تخوض بها الحرب في البحر المتوسط كانت مستأجرة من الجنوبيين والإيطاليين والمغامرين ولم تكن ملكا للتاج².

لكنّ الإفادة لم تكن أحادية الطرف، فالفرنسيون تحصلوا على امتياز صيد مرجان سواحل شرق الجزائر، وأسسوا في سنة 1561م وكالة الباستيون، وبدأت في صورة مركز تجاري في القالة على يد التاجرين المارسييليين **توماس لانش** و**كارلين ديديه**، بحيث تعتبر أساس المؤسسات التجارية الفرنسية في شمال إفريقيا³، وسيتحول هذا الحضور الفرنسي إلى محاولات غير منقطعة للتوسع والاستزادة مع مرور الوقت.

وعن هذه المسألة الشائكة بين الإرادتين؛ السلطة الجزائرية والسلطان العثمانية، نفهم الاعتداءات المتكررة بعد 1561م على المصالح والرعايا الفرنسيين في الجزائر بسبب عدم الرغبة في تواجدهم بهذا الشكل على أرض الجزائر، ففي البداية حصلوا على موافقة الأهالي القاطنين بين عنابة والقالة، ثم غدى نشاطهم يتوسع من صيد المرجان إلى امتياز شراء منتوج الأهالي من الأصواف والجلود والشمع وكذلك الحبوب⁴.

فالبعد الاقتصادي للعلاقات الجزائرية الفرنسية بدأ حقيقة في القرن 16م لكن نفوذه استمر يظهر جليا مع مرور الزمن، ظهر في صورة تواجد بحري شرق الجزائر في إطار

1- المدني، حرب الثلاثمائة سنة، مرجع سابق، ص 294.

2- عبد الله محمد الشيخ، مرجع سابق، ص 89.

3- الشيخ لكحل، نشاط وكالة الباستيون وأثره على العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال النصف الأول من القرن 17م، الجزائر: رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة غرداية، 2012-2013، ص ص 19-20.

4- المرجع نفسه، ص 22.

صيد المرجان منذ سنة 1520م، ثم حصول شركة لانش وديديه على حق تصدير المواد الأولية من هذه المنطقة، وبعد ذلك تدعم أكثر بتتصيب القنصل بمدينة الجزائر¹.

ومن خلال محتوى فرمان موجه من الباب العالي إلى بايلرباي الجزائر سنة 1578م، يُفهم أن الإيطاليين الجنوبيين كانت لهم مصالح وعلاقات مع الجزائر خلال القرن 16م قبل ما كان للفرنسيين، وأنهم تواجدوا في سواحل شرق الجزائر في إطار مصالح اقتصادية تجارية مكنتهم من حق صيد المرجان، وفي فرمان هذا يأمر السلطان حاكم الجزائر بأن يمكن الفرنسيين من التواجد في نفس المكان الذي تواجد فيه الجنوبيون سابقا، والذي يقع بين الجزائر وتونس²، إذ يرجح أنه على سواحل القالة أو عنابة.

ولعل مرور الفرنسيين إلى مرحلة توغل مصالحهم الاقتصادية أكثر بالجزائر منذ نهاية القرن 16م، سببه طبيعة حكام الجزائر والسلطة ما بعد مرحلة البايبربايات، ذلك أن نظام إمرة الأمراء أداره ولاة لهم شخصية قوية ونزعة سيادية بارزة في التعاطي مع مسائل العلاقات الخارجية، سيما مع الطرف الأجنبي الأوروبي والمسيحي، اعتبارا من مهامهم في دفع التهديد والقضاء على ما ينازع البلاد وحدتها الترابية واستقلاليتها كدولة قائمة.

وتأكيدا على ذلك تطرح قضية أثارها بايلرباي الجزائر خضر باشا مع نهاية القرن 16م سنة 1595م، تمادي الفرنسيين وانحرافهم عن موضوع الامتيازات الممنوحة لهم في سواحل الشرق الجزائري. وضمن ذلك أطلعت السلطة الجزائرية اسطمبول عن تطورات خطيرة يُقدم عليها الفرنسيون، حيث يبيعون القمح للبلدان المسيحية رغم تشديد السلطة العثمانية على بيعه للأمم الواقعة في دار الحرب. إضافة إلى بناء القلاع والحصون بما يوحي لمآرب

1- للمزيد يُنظر: سعيدوني، الجزائر في التاريخ، مرجع سابق، ص 75.

2- دفتر المهمة رقم 35، ص 122، حكم 314، بتاريخ 02 جمادى الثانية 986هـ/06 أوت 1578م.

وأغراض عسكرية تثير الشكوك والمخاوف، وكان الرد الهيمائيوني يؤكد على ضرورة التصدي لذلك وتأديب الفرنسيين واصفا إياهم بالكفار وأمرًا بتهديم حصونهم وقلاعهم¹.

1- ينظر الملحق رقم 07.

المبحث الثالث: الدور العسكري للجزائر في الصراع

تتدرج جهود الجزائر العسكرية خلال القرن 16م في إطار الدور الاستراتيجي ورؤية الدولة العثمانية للمجال المتوسطي، بالإضافة إلى سياسة حكام الجزائر التي أرادوا تأسيس الدولة عليها ضمن إكسابها دور الفاعل ذو البعد الدولي والإقليمي.

وعلى امتداد هذه الفترة يظهر التحالف الجزائري مع سلاطين الباب العالي حول الأهداف المشتركة، والمتمثلة أساسا في مواجهة الخصوم الأسبان وتطهير السواحل الإسلامية من هيمنتهم. حيث شاركت الجزائر في جميع المعارك والمواجهات ذات البعد الإسلامي المسيحي في حوض المتوسط، من الحملة على تونس سنة 1534م إلى معركة بروزة الشهيرة 1538م، ثم الصدمات على سواحل المغرب العربي الشرقية في طرابلس وتونس "جربة وحلق الوادي". كما لم تتخلف الجزائر عسكرية نظامية ومتطوعة للجهاد؛ عن معركة حصار مالطة 1565م وموقعة ليبانت 1571م وكذا مجموع جولات حسم الأمر في تونس بين 1569 و1574م.

ومع بداية عهد البايلربايات اعتبرت الجزائر قاعدة حربية تتوزع عليها مراكز محصنة لدراء الهجمات البحرية، وقد اضطرتها خصوصيتها البحرية إلى الأهبة والتسلح للقيام برد الفعل على الأساطيل المعادية¹، في حين شارك الأسطول الجزائري في جميع الحملات العثمانية بالبحر الأبيض المتوسط، كجزء لا يتجزأ من الدولة العثمانية².

كما أشهرت البحرية سلاحا للسيطرة وأساسا للتوازن والثبات، فرضته حدود الجزائر البحرية مع الأعداء التقليديين والمتجددين، فشريط الساحل الجزائري الذي يمتد على 1200 كلم؛ هو جبهة بحرية مفتوحة على أوروبا الجنوبية الغربية، وفي أقصاه من جهتي الشرق والغرب على أهم المنافذ ذات البعد الإقليمي والعالمي.

1- جوليان، مرجع سابق، ص336.

2 -Mouloud Gaid.Op.Cit, p83.

نشأة البحرية الجزائرية العثمانية وأسسها:

إن الظروف التي برزت فيها القوة البحرية الجزائرية تتزامن وظهور الدولة الجزائرية الحديثة، فالمبادرات الأولى التي قام بها السكان ضد الغزو الإسباني والتحرشات الأوروبية البحرية، سرعان ما تعززت بظهور الأخوين عروج وخير الدين. ومع السنوات القليلة قوية لعامل التحالف والإصرار، وكذلك لأن الجزائريين والعثمانيين والأندلسيين أهمهم الاهتمام نفسه¹.

فالتدخل التركي العثماني الذي حصل في القرن 16م أنعش البحرية المغاربية، وأعاد التوازن في الميدان تدريجياً². وبالتزامن انشغلت السلطة الجزائرية بالشأن الداخلي، وفرضت عليها عمليات الإخضاع ومحاولات الانفراد بحكم بعض الأقاليم من البلاد تركيز الجهود على تقوية الجبهة الداخلية، هذا دون إغفال التهديدات الخارجية التي كانت تتزايد سيما في السنوات الأولى من القرن 16م رامية إلى عرقلة الوجود العثماني ومحاولة إبطال ترسيخه.

كما ظل الوجود العسكري هو الظاهرة المميزة للحكم العثماني في الجزائر، وفي جميع أنحاء بلدان النفوذ العثماني، وبقي الجهاد البحري باعثاً نحو التواجد على شواطئ الشمال الإفريقي³. فيما يُدان للأسطول البحري الجزائري بالفضل في تحقيق تلك الانتصارات الكبيرة والمتتالية على امتداد القرن 16م؛ تبدأ من وصول عروج وإخوته إلى جزيرة جربة وتستمر حتى الظفر بها وفتحها سنة 1574م.

ومنذ نهاية القرن 15م وأثناء القرن الموالي كانت الحركة العالمية بحرية؛ إن على مستوى البحرين المتوسط والأحمر أو المحيطين الأطلسي والهندي. وتماشياً وتلك الظروف

1- جمال قنان، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، الجزائر: وزارة المجاهدين، طبعة خاصة، 2009، صص 38-39.

2- روبرت برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، ترجمة حمادي الساحلي، ج 02، لبنان: دار الغرب الإسلامي، ط 01، 1988، ص 98.

3- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 01، مرجع سابق، ص 141.

ابتدأت الجزائر الحديثة دولة بحرية، تألف جيشها من رجال البحر وانتصبت سلطتها السياسية من العثمانيين البحارة في أصلهم، لذلك فالنواة الأولى للجيش الجزائري كانت بحرية¹.

علما أن الجزائر وجدت في منطقة التماس الحساسة بين المتوسط والأطلسي، وهي بداية الخط الشرقي للقناة المتوسطية التي يرى بروديل أنها أحد البحار الضيقة من البحر المتوسط، بحيث يمتد من رأس ماتيفو (برج البحري حاليا) بالقرب من مدينة الجزائر إلى رأس دي لانو قرب فالنسيا ويمضي شرقا نحو جبل طارق مؤديا المحيط الأطلسي².

والبحرية هي القوة التي تشكلت حولها القوات البرية في الجزائر، حيث تبلورت نواتها الأولى من سفن وبحارة المشرق الذين قدم بهم الإخوة بربروس. وما أن تثبتت سلطتهم في الجزائر حتى باشروا في تطوير هذه اللبنة من الناحيتين المادية والبشرية، ورصدوا لها من اهتمام الدولة إلى أن أصبحت الجزائر تملك بفضلها أسطولا لا يُستهان به في حوض البحر المتوسط الغربي خلال القرن الأول من عمر الجزائر العثمانية³.

أهمية البحرية الجزائرية على الصعيد المتوسطي:

عَوّل السلاطين في الباب العالي على بحرية الجزائر، ونظروا إليها نظرة السند والذراع القوي في أسطول الدولة العثمانية، ولولا البحرية الجزائرية لكانت نهاية جل المبارزات الإسلامية المسيحية تختلف كثيرا إن لم نقل تماما عما خلصت إليه خلال القرن 16م والقرن الذي تلاه. وبلغت هذه القوة من التنظيم والقوام حد الاعتماد على النفس وأكدت مكانة

1- أرزقي شويتام، مرجع سابق، ص 41.

2 - Braudel, The Mediterranean and the Mediterranean world in the age of Philip II, Translated from Sian Reynolds, T01, pp108-109.

3- صالح عباد، مرجع سابق، ص ص 320-321.

الجزائر كدولة مدنية بحرية، وأسهمت في تطبيق سياستها الخارجية لتصبح رهان الحكومة العثمانية في ضرب بحرية الأعداء¹.

وإذا كان هناك من يرى في سنة 1529م البداية الفعلية لسلطة بايلربايات الجزائر، فإن الرجال الذين أوكلوا بالمهام البحرية هم أولئك القادة ممن نشؤوا على الجهاد البحري تحت إمرة عروج وخير الدين، وجميعهم من جماعة الرياس أمثال صالح رايس وشعبان ويوسف وإيدين رايس² وغيرهم.

وإلى نهاية فترة الباييربايات في الجزائر كان أسطولها البحري على درجة من الجاهزية والتنظيم عدة وعددا، ونورد في هذا الشأن شهادة التمكروتي سنة 1590 إذ يقول فيها: "ثم دخلنا الجزائر ومرساها عامر بالسفن، ورياسها موصوفون بالشجاعة وقوة الجأش ونفوذ البصيرة في البحر، يقهرون النصارى في بلادهم فهم أفضل من رياس القسطنطينية بكثير وأعظم هيبة وأكثر رعبا في قلوب العدو"³.

كما تمكن للدولة العثمانية تحصيل أسطول بحري قوي مع نهاية فترة حكم سليم الأول، هذا الأخير الذي بذل جهودا مضنية حيال تصوره في إقامة دولة قوية تحسم أمر الزعامة داخل القارة الآسيوية. وكان السلطان سليم ينشد توسيع نطاق دور أسطوله حيث يسخره لمختلف الأدوار التي تقتضيها دولة الخلافة، غير أن أولويات الخصومة في عهده وضعت في حالة انشغال غير اختياري بكسر منافسه الشاه، وتأهب في الوقت نفسه لإبطال ترصد منافسيه من إخوته التواقين إلى منازعته الحكم⁴.

1- سبنسر، مرجع سابق، ص 167.

2- F.D.Haedo, Op.Cit.p39.

3- التمكروتي، مصدر سابق، ص 129.

4- حول الصراع بين أبناء بايزيد الثاني فيما بينهم وكذا بين السلطان سليم والصفويين، ينظر: أوزتونا، مرجع سابق، ص 201-220.

وأوجدت جهود الآباء السلطان سليمان القانوني في وضع استراتيجي ومناسب جعله أكثر جرأة وإقدام على المواصلة، ففتوحات والده في الأراضي الإسلامية أورثته هيبة في العالم الإسلامي وهالة في عيون الأوروبيين جعلتهم يصفونه بالفخم والعظيم¹، ناهيك عن مصادر الدخل الوفيرة ما شجعه على توسيع الجيش وتحريكه نحو أكثر من وجهة.

قيمة البحرية الجزائرية بالنسبة للباب العالي:

قد تُبدي لنا معطيات مطلع القرن 15م أن الجزائر هي تلك المنطقة المنكوبة؛ أرض بلا راع وسواحل مهملة متاحة للمتربصين من الأسبان ومشاريعهم التوسعية والتمسيحية، إلا أنّ التغييرات الحاسمة التي طرأت في غضون عشر سنوات فقط من إعلان انضوائها تحت الدولة العثمانية (من 1519 إلى 1529م)، جعلت منها مركزا سياسيا ودفاعيا -استراتيجيا- متقدما للعالم الإسلامي في حدوده مع العالم المسيحي، من الجهة الغربية للبحر الأبيض المتوسط.

وكان الخط الهمايوني الذي حمّله البحار بييري رايس من السلطان سليم إلى عروج قد احتوى التصورات والانطباعات الأولية لتواجد الإخوة بربروس في منطقة غرب المتوسط. وهذا خير الدين يطلعنا عن بعض ما تضمنته مكاتبة السلطان الأولية لهم وهم في ديار السلطان الحفصي إذ يقول: "إلى أمير تونس إذا وصلك كتابي هذا عليك أن تعمل به، واحذر أن تخالفه وإياك أن تقصر في تقديم أي عون لخادمينا عروج وخير الدين"².

والبارز هنا هو وصف السلطان لهما برجاله الناشطين تحت لوائه، حيث اعتبر تحركاتهم البحرية خدمة للعثمانيين، كما يتسنى أن يفهم من فحوى هذا الخطاب الموجه لسلطان تونس، تحذيره من استغلال الأخوين لصالح مشاريعه أو التحالف معهم أو ضدهم. ويعكس هذا الجواب تصور السلطان سليم شطر هذا الجزء من البحر المتوسط، وهو الذي عقد النية على فتح الجزر والسواحل الواقعة فيه، حيث أفشى لبعض المقربين وذوي

1- عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، لبنان: دار الشروق، ط1، 01، 1986، ص88.

2- مذكرات خير الدين بربروس، مصدر سابق، ص77.

المشورة ومنهم إدريس البدليسي¹ أن المتوسط خليج واحد يمتد من دار الخلافة في الأستانة إلى سبته المغربية، وفيه مللٌ مختلفة فكيف يتسنى لها أن لا تكون تحت سلطة الدولة العلية؟ ثم يردف السلطان قائلاً: "إني قطعت على نفسي وعاهدتها إذا مد الله في عمري أن أحرمها الراحة والسكون ما لم أنشئ الأساطيل لأنال هذا المرغوب وأستولي على ثغور البحر المتوسط"².

ومنذ بداية المتغيرات والتطورات مطلع القرن 16م أقلق وضع مدينة الجزائر تحت حماية السلطان جيرانها سواءً من المسلمين أو المسيحيين، وقبل وصول خبر الجواب³ من استنبول إلى تلمسان ووهران وبجاية وكذا تونس، كانت هذه المدن قد هاجت وثار، بينما كانت قبائل ابن القاضي القاطنة في جبالها تخضع لضغوطات من قبل تونس وبجاية لحمل السلاح ضد مدينة الجزائر. كما راح الأسبان المتواجدين في مدينة وهران يجهزون حملة بحرية يدعمها ملك تلمسان بجيشه من ناحية البر ونجح خير الدين في تجميع الآراء خلال شهور قليلة، بحيث اجتمع ضده كل من الحفصيون والأسبان، القبائل والزيانيون⁴.

ومن الطبيعي جداً لمدينة إسلامية مهددة من قبل المسيحية المتربصة أن تضع نفسها تحت حماية أمير المؤمنين، ذلك أن الوفاة التي وجهها خير الدين إلى استنبول توخى منها شرعية الوجود وتقوية المكانة، وطلباً للعون من العثمانيين الذين سيصبح من ولاتهم. فالجزائر سوف تحتضن الإخوة بربروس وتكون نواة لمشروعهم الكبير بمختلف روافده، فلو

1- شخصية تاريخية ودبلوماسية كردية (1452-1520م)، أعجب به السلطان بايزيد الثاني لكفاءته العالية في المكاتبات الرسمية واستمر مقرباً من سليم الأول؛ حيث لعب دوراً دبلوماسياً مهماً في إقناع ودعوة الأمراء الأكراد إلى الانضمام تحت الحكم العثماني دون عناء المواجهة. للمزيد ينظر: بشرى الساعدي، الدبلوماسية السياسية وأثرها في تثبيت الوجود العثماني في منطقة شمال العراق إدريس البدليسي أنموذجاً، مجلة الطريق للتربية والعلوم الاجتماعية، المجلد 05، العدد 13، جامعة المستنصرية، العراق، 2018، ص ص 1299-1316.

2- أحمد جودت باشا، تاريخ جودت، تعريب عبد القادر أفندي، الشام: مطبعة جريدة بيروت، 1890، ص 146.

3- المقصود الرد السلطاني على رسالة أعيان وشيوخ وأهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم سنة 1519م.

4- كورين شوفالبيه، مرجع سابق، ص 38.

اعتبرنا الوضع الذي وصلوا فيه معقدا؛ يمكننا في المقابل أن نعتبر الوقت مناسباً، ذلك أن السنوات القليلة بعد 1516م أثبتت مدى نجاعة المبادرة الجزائرية العثمانية.

مظاهر الدور العسكري الاستراتيجي للجزائر:

تشاركت الأطراف الأوربية المؤثرة في ساحة المتوسط نظرتها الامتعاضية بشأن الأسطول العثماني؛ تواجهه وتنامي تقليصه امتيازاتها وتعريضها للخطر، حيث زاد من قلقها التناغم الحاصل بين الأندلسيين والمغاربة مع العثمانيين، والذي انجر عنه عرقلة النشاط البحري الأوروبي¹.

كما اتخذت المشاركة الجزائرية إلى جانب الأسطول العثماني شكلها الرسمي في وقت مبكر، وكجزء لا يتجزأ من القوات العثمانية شارك الأسطول الجزائري في جميع الحملات العثمانية في البحر الأبيض المتوسط، وينسق ملفت بعد الاستيلاء على طرابلس². ويبدو ذلك طبيعياً وهي الولاية العثمانية الأساس في منطقة شمال إفريقيا، كما أنه وفي أثناء انصراف العثمانيين نحو المعركة مع خصومهم في ساحة الشرق، عوضت الجزائر بحضورها -غير المنقطع- في ناحية الغرب هذا الغياب.

تولية بايلربايات الجزائر منصب قبودان باشا:

اقترن منصب أمير أمراء البحر "القبودان" بتثبيت دعائم الحكم العثماني في منطقة غرب المتوسط، وكان قائد القوات البحرية ينحدر من قادة وأمراء ولاية الجزائر. وتميزت هذه الأخيرة وقتها بواقع غالب وهو تربص العدو الخارجي المسيحي واستهدافاته لها، سيما الإسبان والبنادقة والقراصنة المتوزعون في عرض البحر³.

ثم إن التواجد العثماني في منطقة المغرب العربي هو نتيجة تحصيلية للموقف الرسمي حول قضية المسلمين الذين استصرخوا السلطان من الضفتين؛ أندلسيين ومغاربة،

1- روبرت شوسوا، المعارك البحرية الكبرى في التاريخ، ترجمة عبد الرحمن حميدة، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، سوريا: 1984، ص28.

2 - Mouloud Gaid, Op.Cit, p83

3- فاضل بيات، الولايات العربية...، مرجع سابق، ص135.

فالخليفة سليم وهو يستقبل الأعيان ويستمتع لعرض الجزائر إنما أدرك جيدا أهمية الدولة الجزائرية بالنسبة للجهاد القائم ضد الاستعمار الإسباني، وقدّر حجم المسؤولية التي ارتضى حملها، لذلك انطبع الرد بالملموس، وتلك السفن التي وصلت بعدها مباشرة خير الدين تحمل 4000 تركيا متطوعا، دليل مبدئي على الرسالة السلطانية المراد إشاعتها في المجال المتوسطي؛ مفادها أن الجزائر قد دخلت في إطار الدولة العثمانية الواسع¹.

وليس من باب الصدفة أن يكون والي الجزائر أو حاكمها هو نفسه القائد الأول للأسطول البحري المركزي لسائر الدولة العثمانية، وفي وقت صار فيه الأعداء كثر والمنافسون معلنون على أكثر من جبهة. وكيف للقانوني وهو الذي يعج بلاطه بالقادة الأكفاء والخبراء، يجاوره ولاية مصر والشام والحجاز، أن يتجاوز هؤلاء وغيرهم ثم يستقر رأيه على اختيار خير الدين؟ بربروسا هذا الذي أخلط أوراق ملوك أوروبا ظهوره غير المرتقب فُجأة على سواحل المتوسط.

ثم إن لقب أمير الأمراء وهو تسمية لمنصب من أرفع المناصب في الدولة، يُخول لصاحبه اختصاصات وسلطات واسعة، كما يجعله قائدا أعلى للقوات المسلحة وممثلا للسلطان، وهو منصب بالغ الأهمية في المواجهة بين الإسلام والمسيحية، وكذا في خضم السيطرة على البحر المتوسط². فالقبطان باشا أو أمير أمراء البحر يرأس قيادة الأسطول الحربي، وتمتد سلطته فوق الجزر ويشرف على علاقات الدولة العثمانية مع البلدان المسيحية³.

1- توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، مرجع سابق، ص182.

2- أميرة علي، تاريخ البيليركية العثماني في بعض الولايات العربية في القرن16م، مصر: جامعة القاهرة، مجلة رسالة المشرق، مج08، العدد، 04، مركز الدراسات الشرقية، 1999، ص420.

3- موسنييه، مرجع سابق، ص547.

أ- تولية خير الدين باشا:

من المعروف أن خير الدين كان وإلى غاية وفاته يقود التيار الداعي إلى الحرب البحرية ضد المسيحيين -في جهاز الدولة العثمانية-، وكان يدفع نحو فرض التوجه البحري كاتجاه جديد للسياسة العثمانية في القرن 16م¹. وتعبيرا على أهمية هذه الشخصية في انتصارات المسلمين خلال الفترة المذكورة يذكر جودت باشا في تاريخه أن هناك عبارة محددة وواضحة الدلالة أطلقت لإعلان وفاة خير الدين في 14 جويلية 1546 وهي عبارة "مات الرئيس البحري"².

كما لم تدفع الانتصارات التي حققها خير الدين جزاء غزواته البحرية إلى بروز الروح الانفصالية لديه، بل أسعفه إعلان الولاء للسلطان العثماني في تقوية مكانته ليس في الجزائر فقط وإنما على الصعيد الإقليمي لمنطقة المتوسط.

واتضح أن ملاحمه البحرية لم تقتصر على طابع رد الفعل إنما غلبت عليها صفة المبادرة، فتنوع نشاطه بين تحرير الأسرى من قبضة الغزاة المسيحيين والاستيلاء على سفنهم ومصادرتها³. وبقدر ما كان التفوق وحصد الغنائم كانت للباب العالي حصته من الهدايا والأعطيات⁴ عربون وفاء وولاء، هذه البصيرة والحكمة السياسية أكسبت حاكم الجزائر ثقة وهالة لدى هرم الدولة العثمانية.

1- كولز، مرجع سابق، ص92.

2- تاريخ جودت، مصدر سابق، ص157.

3- بجوي إبراهيم أفندي، مج01، مرجع سابق، ص74.

4- حول ظروف استدعاء خير الدين يرجح أنه عقب طرده الإسبان من البينيون بمدينة الجزائر ثم العمليات التي قامت بها البحرية الجزائرية في نجدة الأندلسيين والغارات على بعض سواحل إسبانيا، راسل خير الدين الباب العالي بوفادة يطلعه من خلالها على المستجدات والحديثات الحاصلة من مكوث خير الدين بجيجل إلى القضاء على الخصوم والمتمردين في إقليم العاصمة وتلمسان؛ حتى استقرار الأمور بالعاصمة. كما أرسل له الهدايا وقسمة من الغنائم كعربون ولاء. فخير التولية كان يضع في الحسبان هذه الإنجازات والأعمال المحققة. ينظر: سيرة المجاهد خير الدين بربوس، مصدر سابق، ص148.

كانت هجمات خير الدين على سواحل إيطاليا من قاعدته البحرية بمدينة الجزائر؛ وراء إعجاب السلطان به وبإقدامه¹، ووجد القانوني في خير الدين عوناً وسنده وهو ينصرف إلى تعزيز مركزه وقوته البحرية².

وفي خريف عام 1533م كاتب القانوني في طلب خير الدين على سبيل الاستعجال، وما أن استلم هذا الأخير رسالة السلطان من مبعوثه سنان آغا حتى شرع في التأهب للتلبية. إذ يصف لنا صاحب سيرة المجاهد خير الدين بربروس موضوع الحدث قائلاً: "ومثل خير الدين بين يدي حضرة السلطان، فأمر بأن يخلع عليه وعلى خواص أصحابه، وأنزله بقصر من قصور الملك، وفوض إليه النظر في دار الصناعة"³.

ويعلق بشأن ذلك الأب دان وهو يقول: "لم يكن للمسيحيين أبداً مثل هذا العدو القاسي، وعندما عينه السلطان سليمان أدميرال بحرية كان سعيداً جداً لتنفيذ هذه المهمة"⁴، ومع ذلك فإن قيادة الأسطول السلطاني -وفي تلك الظروف والتحديات بالذات- مهمة ليست بالهينة، ثم إن الرجل الذي يوكلها لا بد أن يكون قد اشتمل على صفات الاقتدار وتوسم فيه الباب العالي الأهلية والاستعداد لها.

من أجل ذلك لقب خير الدين بالقبودان باشا، وعليه فإن هذا اللقب حُصّ بمسؤولية قيادة الأسطول والحروب مع البلدان التي يظل العداء معها قائماً، وكذا حماية المسلمين والدفاع عنهم إضافة إلى التكليف بإدارة العلاقات الخارجية⁵.

1- كونستانزيو، مرجع سابق، ص32.

2- بروكلمان، الأتراك العثمانيون وحضارتهم، ترجمة منير البعلبكي وأمين فارس، بيروت، لبنان: دار العلم للملايين، ط1، 1949، ص68.

3- سيرة المجاهد خير الدين، مصدر سابق، ص175.

4 - P.Dan, Op.Cit.p19.

5- تابلت، مرجع سابق، ص82.

ظروف ورمزية التولية:

استاء الأسبان بخبر إسناد الباب العالي مهمة قيادة أسطول الخلافة لبابيلريبي الجزائر، وأربك كذلك الملك شارلكان، ومن منطلق الخدعة في الحرب اغتتم هذا الأخير سانحة سفر خير الدين إلى اسطنبول وتوجه في أسطوله المجهز إلى السواحل الجزائرية سنة 1535م، لكنه تكبد هزيمة وشتاتا اضطراره إلى الانسحاب¹.

وكان نشاط أندريه دوريا في البحر المتوسط قد أشعر الدولة العثمانية التي كانت تحقق انتصارات وازنة في الجبهات البرية شرقا وغربا، بحاجتها الماسة لقائد فذ يعكس مكانتها العالمية في البحار أيضا. ولما استقر الخيار السلطاني على حاكم الجزائر اهتز بلاط شارلكان وتزعزعت نفسه، حيث أدرك جيدا أن أمره يسوء خاصة وأن خير الدين باشر فور رجعه من عنابة غزوات موجعة لسواحل مملكة إسبانيا².

وبالمناسبة جمع شارلكان ديوانه وكبار قادة الأسطول وافتتح مجلسه الطارئ قائلا: "كيف يكون العمل مع بربروس؟ ما يُسافر لنا جفنٌ إلاّ أخذه، والبلاد التي على الساحل قد سبى منها الكثير من أهلها، حتى أنّ أهلها أخلوها وذهبوا عنها خوفا منه". ولأن لا أحد من الحاضرين أجابه، أتمّ يقول: "مالكم ساكتون؟ وأنا قد احترق فؤادي وتفتت كبدي بسبب هذا المورو"³.

وشهادات الخصوم هذه تقرب لنا صورة عن كذب وتدل أكثر على وزن بحرية الجزائر وكيف وصلت انتصاراتها لاصطفاء حاكمها، قائدا تآتمر بأمره بحرية الخلافة

1- ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط01، 2003، ص ص25-26.

2- سيرة المجاهد خير الدين، مصدر سابق، ص148.

3- المصدر نفسه، ص148.

الإسلامية، ويأتي في مذكرات خير الدين أن عين المهمة التي استهل بها دوره الجديد هي غزو الأسبان والتصميم على كسر شوكة نظيره أندري دوريا¹.

وفي السياق نفسه يذكر جودت باشا أن اسم باربروسا "خير الدين" قد ملأ قلوب الأوروبيين رعبا، وكان أندري دوريا يحترز من ملاقاته، علما أن شارلكان وضع تحت أمره أسطولا استوفى جميع المعدات والتجهيزات لأجل مواجهة خير الدين. ويضيف وهو يتناول بدايات ظهور خير الدين في غرب المتوسط على أنه أحدث قلعا لدى أوروبا وبعث الخوف في أوساطها، حتى أن بعضهم كان يذكر اسمه لتخويف أطفالهم².

فالمهارة الحربية لـ خير الدين جعلته الأجدر على التكليف بالمهمة الثقيلة، ونجاحه في مقارعة الأخطار المحدقة بالجزائر -داخلية وخارجية- صنعت من البلاد قوة دافعة للمتربصين من التقدم في غرب البحر المتوسط³. ومن أفضل أول بايلربايات الجزائر على البحرية الإسلامية؛ ولما كان الأسطول الأداة الفعالة في يد السلطان لتنفيذ سياسته ومشاريعه، أن ترك للدولة العثمانية أسطولا مجهزا تجهيزا جيدا وبحارة متمرسين⁴، يتحفظ التاريخ للجزائر بشرف احتوائهم وتوفيرها جو النشاط لهم.

ب-تولية صالح راييس:

انحدر صالح راييس من بين رجال خير الدين ومعاونيه، كما اعتلى منصب بايلرباي الجزائر خليفة لحسن بن خير الدين سنة 1552م، وعرفت عهده بأعمال مهمة⁵، ونظير

1- مذكرات خير الدين، مصدر سابق، ص 176 وص 182-188.

2- أحمد جودت، مصدر سابق، ص 149-151.

3- أباطة، مرجع سابق، ص 99.

4- بروكلمان، مرجع سابق، ص 70.

5- اهتم صالح راييس باستكمال الوحدة الداخلية للجزائر فاتجه نحو الجنوب أين أعاد أخضاع بني جلاب وبني وارجلان في تقرت وورقلة، كما تمكن من إنهاء الدولة الزيانية وكذلك شارك في دعم الأمير الوطاسي أبي حسون ضد خصومه السعديين، إضافة إلى تمكنه من تحرير بجاية وبعدها الحملة على الإسبان بوهران. للمزيد، ينظر: المدني، مرجع سابق، ص 317-345.

هذه الجهود كسب ثقة وسمعة حسنة لدى الباب العالي أجازته قيادة الأسطول السلطاني إذ أختير لمنصب أميرال باشا¹.

وكان صالح ريس في رفقة خير الدين أثناء سفره إلى السلطان سليمان القانوني الذي طلبه إليه ليسلمه قيادة أسطول الدولة، كما كلفه خير الدين بالمشاركة في العمليات البحرية ضد الإسبان في سواحل فرنسا ومنها الطولون سنة 1543م، بحيث استطاع إلحاق خسائر كبيرة بمصالح الإسبان وسواحلهم، كما نال شرف قيادة سفينة السلطان التي يخرج فيها إلى البحر للنزهة والسياحة، وهي مهمة توكلها الشخصيات الرئيسية محل الثقة من السلطة المركزية².

وصالح ريس هو من خلف خير الدين -قبودانا- على الأسطول العثماني بعد وفاته سنة 1546م، وذكر هذا ضمن تفاصيل تناولتها رسالة المقيم الفرنسي "دو كاميري" في الباب العالي وجهها إلى ملكه فرنسوا الأول بشأن الوضع العام في القسطنطينية³، كما وصف هذا القبودان الجديد بأنه كان ملازما لبربروسا⁴.

ب- تولية حسن بن خير الدين:

وُلِّي حسن باشا نيابة الجزائر باقتراح من والده خير الدين ووكالة عليه سنة 1544م، حيث زوده أثناء توجهه نحو الجزائر بـ 12 سفينة مسلحة يصطحبها معه⁵. وإثر وفاة والده سنة 1546م أسندت له رسمياً إمرة الجزائر برتبة بايلرباي، وفي عهده هذه أنهى حكم الزيانيين على تلمسان وألحقها بالسلطة في الجزائر⁶.

1- وولف، مرجع سابق، ص110.

2 - Haido, Op.cit, pp85-86.

3- Ernest Charrière, T01, Op.Cit, pp623-625.

4- يصف صاحب الرسالة خليفة خير الدين بأنه لن يكون في مثل قوة خير الدين وسلطته وخطورته.

5 -Ibid, p73.

6- فاضل بيات، مرجع سابق، ص66.

وخلال عهده الثانية¹ على إدارة الجزائر بداية من 1557م كان له الدور في رد الاعتداء السعودي على تلمسان وغرب الجزائر، وكذلك هزيمة الإسبان ومقتل حاكمهم على وهران الكونت ألكوديت إثر معركة مزگران في السنة الموالية².

وفي سنة 1567م أسند منصب القائد العام للأسطول العثماني إلى حسن بن خير الدين؛ فترك الجزائر متوجها إلى إستانبول³، وتولى منصب بايلرباي الجزائر خلفا له محمد بن صالح رئيس في شهر جويلية 1567م.

ج- تولية محمد باشا "ابن صالح ريس":

عُيّن محمد باشا بن صالح ريس بايلربايا على الجزائر سنة 1566م خليفة لحسن باشا، وكان رئيسا لديوان هذا الأخير، حكم البلاد لمدة جاوزت السنة⁴ وعرفت عهده أجواء من تمردات الإنكشارية وكذا بعض قبائل قسنطينة التي كانت السلطة في تونس تدفعها إلى العصيان⁵.

وكان لغياب حسن باشا أثره على أوضاع الجزائر الداخلية؛ إذ صادف في تلك السنة انتشار الأوبئة والمجاعة والتي صاحبها تمرد الإنكشارية، فاضطر خليفة حسن باشا إلى صرف وقته في مواساة المصابين وتسكين الفتن، ثم فاجأت محمد صالح رئيس ثورة عامل قسنطينة، فعزل هذا الأخير وقضى على ثورته وولي على قسنطينة القائد رمضان. وفي ذات

1- زيادة على الأسباب الأخرى التي ذكرت بخصوص عزل حسن الباشا في عهده الأولى يروي هايدو سببا آخر، حيث يقول أن أحدهم يدعى "روستان" وهو صهر السلطان سليمان، كان يرغب في الاستيلاء على حمام لخير الدين في اسطمبول إلا أن حسن باشا توجه في 06 سفن إلى الأستانة بعد سماع الخبر وعارض الأمر. ونتيجة لمقام روستان لدى السلطان كان وراء عزله. ينظر: Haido, Ibid, pp81-82.

2- Ibid, pp114-117.

3- Gaid, Op.Cit, p85.

3- فيما يذكر مولود قايد أنه تقلد هذا المنصب في سنة 1566م، ينظر:

والحقيقة أن قضية تضارب الروايات وبالأخص التواريخ نجددها تتكرر في عديد المناسبات من القرن 16، بحيث حتى تولية خير الدين قبودانا ترتبط بأكثر من تاريخ، ويحدد فاضل بيات أنها كانت في أوت 1532م. أما هايدو يحدد سفر خير الدين إلى القسطنطينية في سنة 1535م. للمزيد ينظر: بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، ص 537.

وكذلك: Haido, Op.Cit, p85.

4- يذكر هايدو أن عهده دامت 12 شهرا فيما يذكر مولود قايد 15 شهرا.

5- Gaid, Op.Cit, p85.

السنة هاجم الأسبان مدينة الجزائر إلا أنهم ردوا على أعقابهم، وكان ذلك في عهد السلطان سليم الثاني خليفة السلطان سليمان القانوني، حيث أحدث تغيرات بما تلائمها الظروف الجديدة، فلم تطل ولاية محمد بن صالح رئيس إذ تعين نقله إلى ولاية أخرى في أنحاء الدولة¹.

د-تولية عرج علي:

انتقل عرج علي في 23 أكتوبر 1571م إلى أدرنة حيث كان السلطان، وأخبره بنتيجة لبيانات وتقهر المسلمين فيها، فحزن لذلك وأطلع على التفاصيل. ثم قرر تقليد بايلرباي الجزائر قيادة الأسطول العامة وأمر بتغيير اسمه من عرج إلى قليج بمعنى السيف، وكان ذلك نظير حسن تدبيره وبلائه².

وكان عرج علي نصّب حاكماً على الجزائر عرفانا بالخدمات العظيمة التي قدمها للسلطان سليم الثاني، حيث تولى عدة مهمات وشارك درغوث في حصار مالطا، ثم القيادة في معركة لبيانتو كأدميرال وقدم فيها على الشجاعة والخبرة، إذ استطاع النجاة بمائه سفينة من خلال الانسحاب وتجنب الأسوأ، وبهذه الكيفية أبدى شجاعة ومهارة في غاية الروعة³.

معركة بروزة وأثرها على المكانة الدولية للجزائر:

دارت هذه المعركة على سواحل اليونان كرد فعل بعد خيبة حملة سنة 1535م على مدينة الجزائر، حيث انتفض البابا في روما مُدركاً خطورة خير الدين كمجاهد يهدد النصارى على البحر، فاجتمع مع ملوك وأمراء أوروبا "أسبانيا، النمسا، البندقية؛ جنوة وفرسان القديس يوحنا"⁴، للبحث في كيفية إزالة هذا التهديد من طريق مصالحتهم.

1- لحسن قروود، دور الجزائر في تدعيم الحكم العثماني في تونس خلال القرن 16م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر 02، 2017-2018، ص231.

2- حجي خليفة، تحفة الكبار...، مصدر سابق، ص164.

3- P.Dan, Op.Cit, p22.

4- وليد مهدي، بغية السائل من أوابد المسائل، دار الراف للنشر والتوزيع، 2018، صص 4292-4294.

وبروزة أو بريفيزا مدينة ساحلية مفتوحة هي الأخرى كانت ميدانا للمجابهة، تحركت لها أوروبا استجابة لنداء بابا روما بول الثالث¹، حيث انتظمت عُصبة صليبية مقدسة ضد الأسطول العثماني بقيادة خير الدين، هذا الأخير الذي باغت خصمه أندري دوريا قبل أن يستعد للقتال متسببا في حالة صدمة وهول دفعت بقائد الأسطول الصليبي إلى الفرار². أدت براعة وحسن قيادة خير الدين للأسطول إلى نصر كاسح في المعركة، نتج عنه تشتت تحالف العصبة المقدسة 1538م الذي دعت إليه البابوية ونادى بتشكيله البابا بول الثالث من موقعه رئيسا للكنيسة الكاثوليكية.

وتستوقفنا هذه المعركة لثقل قائديها، فكل جبهة وقف على طليعة أسطولها رجل دفعته لهذه المهمة سلطة سياسية ودينية حاولت أن تقدم من خلاله النموذج الأول الذي يكون في مستوى المهمة. فالقانوني قدم خير الدين كعصارة التجربة البحرية الإسلامية النافذ بلاؤها في السجلات الحاصلة منذ بروز الدولة الجزائرية طرفا قويا وذراعا يحرك التوازنات في البحر المتوسط. وشارلكان وهو يشاور رجالات الكاثوليكية انتدب أندري دوريا في الصفوف الأولى لمعركة أعلنتها الإرادة التوافقية بين ملكية الإمبراطورية المقدسة والبابوية، استجداءً للغلبة على التقدم العثماني الإسلامي الدايم، وانتقاما من التوافق الذي نشأ بين الأستانة والملك الفرنسي المارق في عيون البيت الأوروبي.

بلغت ترسانة الحلف المسيحي حوالي 302 سفينة حريسة كبيرة تحمل 60 ألف جنديا من إسبانيا وإيطاليا والنمسا، فيما تكونت القوة العثمانية الإسلامية من 20 ألف بحارا على متن حوالي 122 سفينة³. كما حسمت المعركة يوم 28 سبتمبر 1538م لصالح الأسطول

1- بابا روما خلال الفترة الممتدة بين (1534 و1549م) أنشأ ديوان التفيتش الروماني سنة 1542م لمقاومة البروتستانتية، وهو الداعي إلى عقد مجمع ترنت 1545م الذي تدارست فيه الكنيسة البروتستانتية كحركة إصلاح مضاد تهدد الكاثوليكية.

ينظر: منير البعلبكي، معجم أعلام المورد، مرجع سابق، ص121.

2- مذكرات خير الدين بربروس، مصدر سابق، ص193 ووص197.

3- نجاة محمود محاسيس، معجم المعارك التاريخية، الأردن: دار زهران للنشر والتوزيع، 2011، ص ص97-98.

العثماني، ويُعزى النصر فيها لحنكة خير الدين وحسن تكتيكة الحربي، كما كان لهذا التفوق الأثر الإيجابي على سمعة الجيش العثماني حيث زُفَّ خبر الظفر للسلطان من خلال القبطان حسن بن خير الدين، فابتهج القانوني لذلك وأمر بقراءة خبر الفتح في كافة مناطق الدولة كما أمر لخير الدين بـ100 ألف آقجة تصرف له إكباراً وجزاءً لفضله في النصر¹.

ويزودنا بايلرباي الجزائر في الإخباريات التي انطوت عليها مذكراته على جوانب من تفاصيل هذه المعركة الهامة، فيربط عامل قوة أسطوله بقدرة تحكم قاداته الذين تحت إمرته ومنهم حسن ابنه ودرغوث باشا وشعبان وصالح باشا وغيرهم، وكلهم انسجام وخفة في الحركة وعزم على الجهاد. فيما تكوّن أسطول المسيحيين من بحاره تعددت جنسياتهم ولغاتهم والمحاسنات بينهم².

أما عن أبعاد هذه المعركة وآثارها فقد ترتب عنها تبديد الاعتقاد الواهم الذي تملك العصابة الصليبية بشأن القضاء على التواجد الإسلامي في مياه المتوسط، حيث يقول خير الدين: "لقد كانوا يحلمون بانتزاع البحر المتوسط من أيدينا ويستولوا على ممالكنا، بل تمادى بهم خيالهم الساذج إلى تقاسم ولايات مولانا السلطان، واتفقوا فيما بينهم على أيهم يملك هذه الولاية أو تلك"³.

ويتبيّن أن النتيجة كان لها وقعها على الأوروبيين، وثبتت أنها ضربة موجعة وكارثة مدوية للبحرية المسيحية، والتي ولّت متراجعة وتاركة المجال مفتوحاً للأسطول العثماني لينتشر في جميع أنحاء البحر الأبيض المتوسط. وكذلك أكدت على أحقية التوجس المسيحي من القرصنة الإسلامية، والتي ظهرت أكثرها رعباً في الجزائر ثم زادها التحالف الناشئ بين الباب العالي والجزائر، لذلك لم يكن التحالف الطبيعي للثنتين خطوة سياسية منطقية فحسب؛ بل كان أيضاً اقتراحاً عملياً. وهكذا عندما قبل بربروسا في عام 1534م سيادة البحرية

1- حجي خليفة، مصدر سابق، ص ص118-121.

2- مذكرات خير الدين بربروس، مصدر سابق، ص ص197-199.

3- المصدر نفسه، ص ص197-202.

العثمانية، لتتحول هذه الأخيرة بسرعة إلى واحدة من القوى العظمى في مشهد البحر الأبيض المتوسط في القرن 16م¹.

في حين تُرجع أكثر من دراسة أجنبية غربية -تناولت المعركة أسباب- الهزيمة إلى ثلاث عوامل رئيسية هي: التشكيك في إخلاص وكفاءة أندري دوريا، تضرر شارلكان من التقارب الفرنسي العثماني، إضافة إلى الإصلاح البروتستانتي الذي أدى إلى فتور المصوغات الدينية للحروب مع المسلمين حيث اعتبرته حركة هدامة أصابت البيت المسيحي².

وعليه أعادت معركة بروزة السيطرة الإسلامية العثمانية على الملاحة من خلال تأمرها على المنافذ البحرية المتوسطية، وهذا ما يراه بروديل إذ يقرن كذلك معركة الحدود والتوسع الجغرافي في هذه الفترة، بانفراد الانتصارات الجزائرية ضمن النشاط البحري للمسلمين في البحر المتوسط إلى غاية معركة ليبانت 1571م³.

شارلكان يفاوض بايلرباي الجزائر ونائبه:

ابتدأت مفاوضات إسبانيا المنهزمة مع الجزائر عقب معركة بروزة 1538م التي أوقعت هزيمتها شارلكان في إحراج سياسي دفع به نحو البحث عن سبل إضعاف البحرية

1-The Great Siege1565, Separating Fact From Fiction, Edited by George Cassar, Published by Sacra Militia Foundation, Malta, 2005, pp01-03.

2- للمزيد ينظر:

Emmanuelle Pujeau. Preveza in 1538: The Background of a Very Complex Situation. Second International Symposium on the History and Culture of Preveza, Sep 2009, Preveza, Greece, pp121-138.

3- فرناند بروديل، تاريخ وقواعد الحضارات، ترجمة حسين شريف، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999، ص63.

العثمانية¹، والتي كانت تسير بإمرة بايلرباي الجزائر وقتها، ولأجل ذلك كلف الأسبان من جهتهم أندري دوريا بمهمة دبلوماسية مع خير الدين.

أطلع خير الدين اسطنبول بفحوى الرسالة التي بادره بها الإمبراطور الكاثوليكي، وكاتب الصدر الأعظم بالتفاصيل. هذا الأخير أشار على بربروس من طرفه أن يستغل ذلك العرض خدمة للأهداف الإستراتيجية العثمانية الجزائرية، وتلقى من خلاله الضوء الأخضر لإيهاهم الإسبان بقبول مقترحهم².

وأصبحت -في هذا الظرف- المصالح العثمانية بفضل الجزائر تدار بإتقان وتحكم عال، لدرجة أن المفاوضات المسيحيين الأكثر دهاء ومكرا وتشبعا لعقيدهم الكاثوليكية، انطلت عليهم الحيلة واستُدْرجوا³ إلى هذه الخدعة⁴ الدبلوماسية⁵. كما كسرت المواجهة في بروزة شوكة دوريا وجعلته مثار للسخط والمهانة في أوساط أوروبا المسيحية.

من حصار جربة 1560م إلى تحرير تونس 1574م:

من المهمات الأولوية التي استهل بها وريث العرش الهابسبورغي فيليب الثاني عهدته، هي حماية ممتلكات والده في سواحل المتوسط. ففي ربيع 1559م أرسل الدوق كويلي في مهمة استطلاعية إلى طرابلس الغرب، قصد لملمة المعطيات بخصوص مدى الحضور البحري الإسلامي في منطقة الشمال الإفريقي⁶، إذ يبدو أن المراكز المعنية بالتحديد هي جربة وحلق الوادي.

1- Monnerreau et Watbled, négociations entre Charl-Quint et Kheir-ed-in 1538-1540, R.A, vol 15, Paris, 1871, p140.

2- مذكرات خير الدين، مصدر سابق، ص ص 205-206.

3- يصفهم صاحب المقال بالجمالان الضعيفة التي تتفاوض مع الذئاب.

4- لم ينتبه أندري دوريا إلى نوايا خير الدين حتى سنة 1540م من خلال تقرير راسله به أحد مفوضيه من رعايا الدولة العثمانية اليهود في إسطنبول وهو الطبيب روميرو. ينظر: -Monnerreau et Watbled, Op.Cit, pp141-148.

5- Ibid, pp140-141.

6 - Godefroid Kurth, Philippe II roi d'Espagne, traduit de l'allemand du par Reinhold Baumstark, Liège, Belgique, 1877, pp154.

وبالتزامن مع ذلك كان السلطان القانوني أمر بإعداد حملة بحرية كبيرة لحماية المصالح الإستراتيجية للدولة في الجزائر وتونس وطرابلس؛ بناءً على إلحاح درغوث رايس¹. وراسل الباب العالي بايلرباي الجزائر حسن باشا يزوده بمعلومات استخباراتية² ذات صلة بالحملة الإسبانية المزمعة "قوامها والمشاركين فيها"، إضافة إلى أمره بدعم درغوث بما يعوزه³، وكذا تحضير العسكر والرجال وإرسالهم إلى السواحل المذكورة، مع ضرورة الحيطة والسعي في تلقف أخبار الحملة وتتبع مستجداتها. كما كانت نية الإسبان ومشاركيهم في الحملة على جربة هي القضاء على درغوث باشا كخليفة لخير الدين في نشاطه البارز والخطير ضد النصارى في المتوسط⁴.

وفي حصار مالطا دخلت البحرية الإسلامية العثمانية بـ181 سفينة وأزيد من 25 ألف رجل في مقارعة أخرى للأسبان، ودام الحصار أزيد من ثلاثة أشهر (من 20 ماي إلى 11 سبتمبر). وعلى غرار مسلمي الساحل الشمالي الإفريقي أسهمت الجزائر في حرب مالطا الدينية، ووصل الباييرباي حسن باشا ومعه 2500 جندي؛ وعلى الفور منه تكلف مهمة مهاجمة حصن القديس ميخائيل وهو أصعب حصون الجزيرة⁵.

وفي مالطا أبدى الأسطول الجزائري كل المعاونة بما استحق إشادة الديوان الهيمايوني، حتى صرّحت رسالة السلطان بأثر التحاق عساكر الجزائر⁶ في تحقيق الانتصار وتغيير نسق المعركة بما يدعو للافتخار⁷.

1- إبراهيم سعيود، الأسرى المغارب في إيطاليا خلال الفترة الحديثة "من القرن 16 إلى 18م"، الجزائر: شركة الأصالة للنشر، 2020، ص94.

2- ينظر الملحق رقم 08.

3- ينظر الملحق رقم 09.

4- كولز، مرجع سابق، ص92.

5- فيرو، مصدر سابق، ص126.

6- وردت في الوثيقة كلمة سفن أيلة الجزائر؛ والمقصود معها سفن الجزائر وسفن طرابلس بقيادة درغوث باشا.

7- دفتر المهمة رقم 05، ص313، بتاريخ 23 جمادى الثانية 973هـ/13 جانفي 1566م.

فيما يروي هايدو أن الجزائر شاركت في مالطا بـ28 سفينة شراعية وغيرها من السفن الأخرى وهي ترسانة تميزت بأحسن التجهيز والجاهزية وعلى متنها 3000 رجل، مع العلم أن السلطان سنة قبل الواقعة -ومن خلال رسائل سرية- أعلم بايلرباي الجزائر نية الدولة في توجيه حملة عسكرية على مالطا، وذلك لكون الجزائر القوة الأولى والأكثر التزاما وطاعة في الدولة العثمانية¹.

وكذلك في موقعة تونس وحلق الوادي يعود النصر على الأسبان فيهما إلى التكتيك الحربي الناجح الذي تبناه بايلرباي الجزائر علق علي، وإلى مساهمة الجزائر في جميع التحضيرات والعمليات ذات الصلة باللوجيستيك والمدد بالجند والذخيرة والمواد الغذائية². وكان الفرمان السلطاني قد ورد على نائب بايلرباي الجزائر وهو عرب أحمد³ في 25 ماي 1573م يأمره المشاركة بأسطوله وجنده وأسلحته ومباشرة المهمة فور إشارة القبودان علق علي⁴.

معركة ليبانت 1571م:

هناك واقعتين تظل كل منهما حاضرة في الوعي الأوروبي تجاه المسلمين أو ضمن الذاكرة الأوروبية في جزئها المتعلق بالمسلمين، الأولى معركة بلاط الشهداء عام 732م والثانية هي معركة ليبانت 1571م، وهذه الأخيرة تتخذ منها أوروبا مناسبة تاريخية لوحدة الموقف والوسيلة لدى الصليبية، حيث نادى إلى خوضها بابا روما، وحشدت فيها إسبانيا والبندقية أسطولا مشتركا بهدف إيقاف حالة السيطرة الإسلامية العثمانية المفروضة على غرب المتوسط⁵.

1 - Haido, Op.cit, pp129-130.

2- التميمي، عثمانة إيالات الجزائر وتونس وطرابلس...، مرجع سابق، ص28.

3- أناب علق علي في حكم الجزائر من مارس 1572 إلى ماي 1574م، نتيجة لإستدعاء القبودان باشا لترأس مهامه من العاصمة إسطنبول.

4- دفتر المهمة رقم 21، ص211، بتاريخ 21 ذي القعدة 980هـ/25 مارس 1573م.

5- خالد زيادة، لم يعد لأوروبا ما تقدمه للعرب، الدار المصرية اللبنانية، ط01، 2015، ص19.

تطورت الحرب بين الطرفين، وغدت أكثر خطرا بعد بروز الجزائر كولاية قوية نسج حكمها تحالفا مع السلطة المركزية في الأستانة لأجل استهداف السفن الأوروبية والأجنبية. وهذا الوضع فرض على الفصيل الأوروبي إجراءات التفاوض بالحسنى وابتياح التراخيص قصد تمكين القوافل التجارية البرية من المرور والتجوال دون ما مواجهتها لخطر التعرض والاحتجاز¹.

وتلونت المواجهة العثمانية الأوروبية في معركة ليبانت بلون الجهاد والصليبية، سواءً أخذنا بطبيعة الصراع القائم بين الطرفين على مدها البعيد، أو وقفنا على الأسباب المباشرة للمعركة، ذلك أن وقعة ليبانت رتب لها التحالف الأوروبي الصليبي المعتاد كرد فعل على الهزيمة في قبرص، فيما اعتد الطرف الإسلامي باتحاد الأسطول الهيمايوني مع أسطول الجزائر تحت قيادة بايلرياي الجزائر عالج علي.

ولم يكن متاحا اختيار المواجهة من الإعراض عنها، بحيث تقدم الأسطول المسيحي معترضا غريمه بالقرب من مكان المعركة البحرية وهو يحتوي على أكثر من 200 سفينة، جاوزت حمولتها الـ 50 ألف جَدّاف وبحار، يضاف إليهم 30 ألف جندي في هيئة أرمادة موسعة من إسبانيا والبندقية والإمارات الإيطالية يأتي ضمن قياداتها دون خوان شقيق الإمبراطور فيليب الثاني².

انتهت هذه المعركة إلى نتيجة سلبية الآثار على الأسطول الإسلامي الذي تحطمت حوالي 190³ سفينة منه، وهنا تشيد مصادر عدة تناولت المعركة بدور وخبرة البحرية الجزائرية التي استطاعت النجاة بأسطولها ودفع الأسطول العثماني للخروج بأخف الأضرار، على إثر الشجاعة والحنكة القيادية للقبودان عالج علي باشا، إذ استطاع النجاة بمائه سفينة

1- خالد زيادة، مرجع سابق، ص 29.

2- أيرينا بيتروسيان، الإنكشاريون في الإمبراطورية العثمانية، الإمارات العربية المتحدة، دبي: مراجعة ونشر مركز جمعية الماجد للثقافة والتراث، 2006، ص 170.

3- هناك تضارب كبير في التعداد من مرجع إلى آخر، ويبدو الفرق كبيرا بين كل رواية وغيرها.

من خلال الانسحاب وتجنب الأسوأ، وبهذه الكيفية أبدى تمارسا ومهارة في منهى الشجاعة¹، حيث أن معرفة بحرية الجزائر أسلوب ونمط القتال الحربي الإسباني جعل الانسحاب أمام اختلال ظروف وعدة المواجهة خيارا استراتيجيا بامتياز².

إن معركة ليبانت بوزنها كأكبر معركة بحرية في القرن 16م، وأكبر معركة للسفن الشراعية الحربية عرفها التاريخ -كما يصفها بروديل³-، وبرغم تسببها في دمار شبه كامل للأسطول العثماني وظن أوروبا أن لا عافية بعدها للبحرية الإسلامية، إلا أن نتيجة النزال النهائية في تونس أثبتت أن آثارها كانت شبه معدومة، بحيث تم في وقت وجيز إعادة تأهيل الأسطول واسترجاع هيئته⁴.

وعليه يؤكد بروديل على أن معركة ليبانت ستعرض البحر المتوسط للخطر وتهدد سلامته، ذلك أن قرصنة إفريقيا الشمالية والأساطيل العثمانية ستسبب في إرهاقه⁵. ورغم غرق 70 قطعة بحرية عثمانية والخسائر التي معها، علق السلطان عنها قائلا: "لم يزد الكفرة على نتف شعيرات من لحياتي، وستنمو مرة أخرى"⁶.

ويذكر كولز ثلاث مناسبات قريبة من ليبانت كلها انتصارات للعثمانيين، حيث استطاعوا الاحتفاظ بقبرص، وأجبروا البندقية على الانسحاب من الحلف المقدس سنة 1573م، وفي السنة التي أعقبت سيتمكنون من فتح تونس⁷.

كما اشدت وقع ضربات البحرية الجزائرية على السواحل الإسبانية وقامت بعدة أنشطة عسكرية، وباشرة الأسطول العثماني بغارات ومعارك كثيرة عقب دوره البارز في تحرير

1- P.Dan, Op.Cit, p22.

2- إيرينا، المرجع نفسه، ص170.

3- فرناند بروديل، تاريخ المتوسط الفضاء والتاريخ، تعريب محمد بولعش، مجلة بيت الحكمة، العدد05، 1987، ص 87-88.

4- مانتران، مرجع سابق، ص232.

5- بروديل، مرجع السابق، ص96.

6- كولز، مرجع سابق، ص91.

7- كولز، المرجع نفسه، ص95.

تونس. وقد شنّ حسن فنويانو هجوماً على جزر الباليار سنة 1578م، وصعد عملياته مستهدفاً سواحل أوروبا من جزر "كورسيكا؛ جنوة وسردينيا" وماطا إلى حتى برشلونة، وما كانت لتتوقف تلك الغارات إلا بعد إبرام المعاهدة الإسبانية العثمانية في السنة نفسها¹. وهكذا يتأكد لدينا أن دعامة التوجه السياسي للجزائر خلال القرن 16م كانت هي المؤسسة العسكرية وعلى رأسها الأسطول البحري، وأثناء الفترة الممتدة من 1528 إلى 1584م تمكن بحارة الجزائر من شن 33 غارة بحرية ناجحة على سواحل إسبانيا². ونتيجة لحيازة القوة البحرية القدرة على دخول معمعة العراك العسكري في جهات مختلفة من البحر الأبيض المتوسط؛ إما ضمن رد الفعل و إزاحة العدوان الإسباني أو التحالف أحيانا إلى الورا، وإما في شكل مبادرة تنقل المعركة إلى مركز العدو في صورة عمل عسكري جزائري أو مهمة تشاركية مع الأسطول البحري السلطاني. و عليه كان هذا البروز لبحرية الجزائر سبب التأكيد عليها طرفا يفرض نفسه في دائرة تقرير مصير حوض المتوسط على مدار القرن 16م، والتأثير في صياغة إستراتيجيته العسكرية والسياسية.

1- سعيدوني، ورفقات جزائرية، مرجع سابق، ص148.

2- سعيدوني، الجزائر في التاريخ، مرجع سابق، ص44.

الفصل الثالث

دور الجزائر الديني في الصراع الإسلامي النصراني ضمن
الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن 16م

المبحث الأول: خطوات المشروع الصليبي الإسباني على الجزائر ودور الكاردينال خمينيس فيه:

يرى الأستاذ عبد الجليل التميمي أن السياسة الإسبانية اتجاه الإيالات العثمانية والمغربية خلال القرن 16م، لا يمكن أن يتّضح مفهومها إلا بالوقوف على الخلفية الدينية لها، حيث يستحيل تحليل حالة الغليان والتعصب والاستماتة التي لازمتها في محاربة المسلمين طوال القرن 16م دون إدراك الباعث الديني كمحرك نحو ذلك. فالخلفية الدينية الإسبانية تعتبر المحور الأساسي الذي انبثقت عنه كل التحركات العسكرية، بل وكانت وراء توجيهها وجهة صليبية ومساوية أكثر حدة من طباع القرون الوسطى¹.

فبرغم تأثر الحياة الدينية الأوربية بالنهضة ونتائجها من إصلاحات وحركات تغيير واسعة، لم يجد الملوك بديلا عن الاستمرار في تلبيس مخططاتهم بالأهداف والمنطلقات الدينية ذات البعد المقدس، لغرض الدفع بالمجتمعات إلى التحرك والإسهام الطوعي ضمن هذا الخط، الذي يشحذ العقول باستحضار الحرب الصليبية والعداء للذين يدينون غير النصرانية. وفي سبيل ذلك تعاقب خلال نهاية القرن 15 وعلى مدار القرن 16م أربعة ملوك نهجوا على نفس الطريق والقناعة وجميعهم لُقّبوا بالملوك الكاثوليك (فرديناند وإيزابيلا، شارلكان، فيليب الثاني).

كما كانت أول نتائج استيلاء الأسبان على غرناطة هي جذب اهتمامهم إلى بوابات الشمال الإفريقي حيث أصبح مضيق جبل طارق هو الحدود الجنوبية لإسبانيا، ومع مميزات غرب المتوسط كونه يتمتع بسهولة الإبحار وامتلاك الأسبان لساحله الأندلسي الجنوبي الغربي، غدا التفكير في بلوغ الضفة المقابلة من يابسة واجبا يخامر عقول الملوك الأسبان ضد المسلمين، فيما اعتقد هؤلاء في انتصارهم على المسلمين في غرناطة إطفاءً لجذوة

1- عبد الجليل التميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين، تونس، زغوان: مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية، 1989، ص 80.

الحملة الصليبية عليهم والتي كلفتهم الكثير، وهذه النظرة ترسم صورة لمنطقة الشمال الإفريقي كأرضية للتوسع والمغامرات¹.

فرديناند وبداية الحرب المقدسة على الجزائر وبلاد المغرب:

مع أواخر القرن 15م استأنف البرتغال والأسبان صراعهم الصليبي من خلال نقله إلى جزء المتوسط الغربي وتصديره اتجاه بلاد المغرب العربي، ونجد في الرسائل الأولى بين الملوك الكاثوليك ومفوضيهم في المرسى الكبير ووهران، وصفهم وتصورهم لهذه الحرب، حيث وردت في رسالة مقيدة بتاريخ 08 نوفمبر 1509م من مفوض الملكة إلى بلاطه عبارات: "نحن ألونزو دي لابيونتي؛ مفوض الملكة على هذه الأرض المحتلة، وأثناء الحرب التي تُشن في إفريقيا ضد المغاربة؛ أعداء إيماننا الكاثوليكي المقدس..."².

ويأتي وراء التدبير في دفع حدود الإسلام إلى الوراء من سنة 1492م وطوال القرن 16م، التعصب الديني ورغبة الأسبان التدخل في بلدان شمال إفريقيا الإسلامية، ذلك أن طابع الدين أضحى مميزا لسياساتهم واهتماماتهم في إفريقيا، إذ اقتنع فرديناند بفكرة أنه يقاتل من أجل خدمة الله وأنه في حرب مقدسة ضد أعداء المسيحية الكاثوليكية³.

ونستدل هنا بوجهة نظر بروديل حينما يجعل الحس الديني وفكرة الصليبية ينشآن معا بالنسبة لإسبانيا خيارا متوسطيا لتحقيق أهداف الإمبراطورية الثلاث، وهي وحدة شبه الجزيرة الأيبيرية كخطوة ضرورية أولى؛ ثم استجماع الطاقات الجماعية لاحتلال غرناطة ثانية، والتوجه نحو شمال إفريقيا حيث الإسلام الذي يهدد المسيحية كمحطة ثالثة⁴.

وتقترن الصليبية الإسبانية الحديثة بدورها الجديد في أوروبا والعالم المسيحي من موقع إطلاق الاسترداد والكشوف الجغرافية. فإفريقيا أصبحت محطة للطاقات الإسبانية المستعرة

1 - Fernand Braudel, Les Espagnols en Afrique d, Op.Cit, pp 193-194.

2 - É.De La Primaudaie, pp10-11.

3 - Ibid, p199.

4- بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي، مرجع سابق، ص124.

بعد الحرب على غرناطة، حيث اعتبرت هجرة الموريسكيين سببا يعطل التدخل في المنطقة ويستتبع إبطال الهجمات المضادة المحتملة، والتي يشنها المسلمون النازحون من الأندلس، فضلا عن زعم -الإسبان- اكتشاف حيثيات مؤامرة تفيد باتصال هؤلاء مع السلطان العثماني وبقية حكام الشمال الإفريقي تحضيرا لغزو إسلامي انتقامي مضاد¹.

وعلى الرغم من تراجع وفشل الحركة الصليبية في شرق المتوسط إلا أن فكرة الحرب المقدسة استقرت في وجدان البلدان الأوروبية، وكانت روح الصليبية تطغى على التفاعلات الحاصلة، كما غلبت هذه النزعة الدينية على عصر الكشوف الجغرافية بل إنها كانت من بين أهم وألح دوافعها، خاصة لدى أولئك المغامرين المتحمسين للمساهمة في تحقيق هدف تطويق العالم الإسلامي والالتفاف حول مناطق نفوذه وامتداداته².

والواقع هذا أعطى الاستعمار الأيبيري منذ بدايته نزعة كاثوليكية صليبية لاشك فيها، والأسبان وقبلهم البرتغاليون خرجوا أولا يشهرون شعار الكاثوليكية³، وظلوا كذلك طويلا فيما بعد. ومن الإثبات على ذلك أن البابوية باركت أكثر من مرة امتلاك الأسبان والبرتغال لكل ما قد يكتشفونه خارج العالم المسيحي، كما أنها هي التي قسمت العالم بعد قليل ما بين القوتين الجديدتين⁴.

1- ويليام سبنسر، مرجع سابق، ص34.

2- حسين جلال، فضل المسلمين في كشف الطريق البحري إلى الهند 1415-1498م، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1965، ص44.

3- حدث صراع بين الملوك الأسبان والبرتغال على سواحل الشمال الإفريقي خاصة مع تنامي الرحلات البحرية وظهور بوادر نجاح الكشوف الجغرافية التي أطلقها كل طرف، لذلك تدخلت البابوية ممثلة في البابا ألكسندر السادس وبحضور مفوضين من التاجين وعقد لقاء بتاريخ 12 نوفمبر 1494م بمدينة تورديزيبلاس بقشتالة، انتهى بالتوقيع على معاهدة قضت بأحقية ملوك إسبانيا في غزو وملكية جميع أراضي إفريقية الواقعة شرق ملوية. ينظر:

-L.Didier, histoire d'Oran période 1501-1550,Oran,1927,p 06.

4- جمال حمدان، إستراتيجية الاستعمار والتحرر، لبنان: دار الشرق للطباعة والنشر، ط1، 1983، ص ص54-55.

الكشوف الجغرافية مشهد للحرب الصليبية:

في الوقت الذي يربط فيه فريق من المؤرخين انطلاق الحروب الصليبية الحديثة على العالم الإسلامي بمآل دولة المسلمين في الأندلس، يرجع آخرون ذلك إلى الحملة البرتغالية على مدينة سبتة المغربية سنة 1415م، كبادرة لانتقال الحرب الصليبية من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، ومن الحرب ضد الإسلام في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى صراع عام يستهدف منه الطرف الإيبيري نشر المسيحية وتوسيع السيطرة الإستراتيجية والحضارية لأوروبا¹.

كما فكّر الملكين الكاثوليكين² مباشرة بعد الإفراغ من غزو مملكة غرناطة في ملاحقة العنصر الموريسكي إلى الأراضي المغاربية انطلاقاً من الجزائر والمغرب الأقصى، تماشياً مع الحلم الذي روادهم وهو إنشاء إمبراطورية إفريقية على هذه البلدان وغيرها من المناطق التي لا تزال غير معروفة لهم. وهنا يتعين التذكير بأن انشغالهم بمواجهة الفرنسيين في إيطاليا اعتبروه مجرد سبب تأجيل لا يمكنه إلغاء مشروعهم هذا³.

وقد أوجدت الأوضاع التي كانت في صالح بلدان العالم المسيحي الأوروبية مع نهاية القرن 15م، واقعا كان في فائدة هذه القوى مقارنة بالعالم الإسلامي، فالكشوفات الجغرافية لإسبانيا والبرتغال أدت إلى تسارع وتيرة تحركاتهم وإرسالياتهم التوسعية في الأراضي التي وصلوها. ومن بين المناطق التي كانت من أولويات خططهم تلك المناطق المهمة والإستراتيجية في العالم الإسلامي، والتي تشهد حالة معقدة يكتنفها الضعف والتمزق السياسي

1- حسين جلال، مرجع سابق، ص103.

2- تجدر الإشارة إلى أن البابا ألكسندر السادس(1431-1503م) المنحدر من عائلة بورجيا الإسبانية، أطلق لقب "الملكين الأكثر كاثوليكية" على فرديناند وإيزابيلا، تقديراً لهما وتشجيعاً للقرار الذي أصدره عام 1492م والذي يؤكد ضرورة تحول المسلمين واليهود إلى المسيحية؛ تحت طائلة العقوبات الصارمة. ينظر: إلياس موريس معلوف، الأباء اليسوعيون من الإيمان إلى المعرفة، بيروت، لبنان: دار الفارابي للنشر والتوزيع، ط01، 2013، ص30.

3- L.Didier, Op.Cit ,p05.

مع شتات الجهود والأزمات الداخلية والإقليمية، وبالتحديد في تواخم البحار الحيوية حيث البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط. ومن أجل ذلك الغرض أعطي الإذن لكريستوفر كولومبس لمحاولة الوصول إلى الهند ومقاطعات أمراء الصين عن طريق الأطلسي¹.

حيث دُوّن هدف تلك البعثة بدقة بالغة في الجريدة التي كتبها كولومبس والتي تضمنت ضمن تقريره الدقيق عن مجريات مهمته، لإذ يوجه هذا المكتشف خطابا إلى الملوك الذين ساعدوه بتلك الكلمات التي من بينها قوله: "إن جلالتم بوصفكم من المسيحيين الطيبين، والأمراء الكاثوليك المتدينين، والناشرين العقيدة المسيحية. وإنكم فوق ذلك باعتباركم عدوا لمذهب محمد (صلى الله عليه وسلم) وكل الوثنيين والكفرة قد اعتنقتم فكرة إرسالي أنا كريستوفر كولومبس إلى بلاد الهند لأرى الأمراء والشعوب والحدود ومواقعها وكل شيء آخر، والطريق الذي نستطيع أن نتقدم به لتحويل تلك المناطق إلى إيماننا المقدس"².

ويجيء تطلع الأسبان إلى منطقة الشمال الإفريقي -بدءً بالجزائر- من منطلق استراتيجي وديني يضع في الحسبان السيطرة على الساحل الغربي للبحر الأبيض المتوسط والاستئثار بالسيادة عليه، وبعدها إطلاق مشروعهم الكبير في التبشير والتنصير لبلاد المغرب وجميع القارة الإفريقية. ولما كانت الحملات المتجهة لأجل تحصيل هذه الأهداف تحوي ضمنها أفواجا من الرهبان ومجموعات من القساوسة، فإن ذلك لم يكن عبثا إنما من باب الصليبية كنيّة مبيتة³.

1- تبنت إسبانيا وتحديدا قشتالة مشروع كولومبس لبلوغ الهند عبر الابحار من جهة الغرب، وقبلت إيزابيلا مقترح كريستوفر بعد أخذ ورد دام مابين سنتي 1486 و1492م. وعقب سقوط غرناطة أُعطي الضوء الأخضر لمباشرة مهمته، كما أفصحت رسالة ملكية مؤرخة في 17 أبريل 1492 عن تعيينه نائبا للملك في الأراضي التي يُرتجى الحصول عليها، مع منحه نسبة 10% من خيراتها وثروتاتها. ينظر: حبيدة، مرجع سابق، ص 126.

2- عزيز سوريال عطية، مرجع سابق، ص ص 114-115.

3- عبد الحميد بن أشنهو، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، مرجع سابق، ص ص 54-55.

ومن فور وصول كولومبس إلى العالم الجديد نقل من هناك وصفا يُقدّر منه حجم الثروة والغرض منها حيث يقول: "إنها ثروة ضخمة بما يكفي لتمويل جيش ضخم يمكنه استرداد القبر المقدس"¹.

كما يتضح الأمر أكثر من خلال شهادة أخرى لكولومبس متمثلة في رسالته إلى ملوك إسبانيا توضح المزيد من المآرب المنتظرة والمسطرة من رحلات الكشوف الجغرافية، حيث يقول: "أصحاب الجلالة؛ لقد استطعتم خلال هذه السنة (1492م) أن تنهوا حروبكم ضد المسلمين الذين كانوا يحكمون في أوروبا، أخرجتموهم من غرناطة، ورأيت الأعلام الملكية ترفرف فوق أبراج قصر الحمراء وأسوار غرناطة في الثاني من يناير 1492. وشاهدت آخر أمير مسلم وهو يغادر المدينة بعدما قبّل يديكما الكريمتين...، بعد ما تعرفتم على تفاصيل مشروعني وأردتم أن تحركوا أمراء مؤمنين بنشر المسيحية ومعادين للدين المحمدي ولكل الوثنيات والبدع، قررتم إرسالني لبلاد الهند وأصدرتم إليّ الأمر بالتوجه إلى الشرق لا عن طريق البر كما كان معتادا، ولكن عن طريق الغرب عبر المحيط وهو الطريق الذي لا نعرف عنه حتى اليوم أي شيء، لأن أحدا لم يسلكه من قبل"².

الكاردينال خمينيس دي سيسنيروس وأثره في الحرب الصليبية على الجزائر:

استطاع خمينيس³ أن يصنع لنفسه مكانة ليست فقط في إسبانيا إنما في عيون جميع كاثوليك أوروبا ما بعد سقوط غرناطة ومستهل القرن 16م، فاعتُبر شخصية إيجابية قوية لها

1- توماش ماستناك، مرجع سابق، ص26.

2- عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا ما بين القرنين 15 و18م (مسألة التجاوز)، الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي، ط02، 2012، ص81.

3- خمينيس دي سيسنيروس، ولد بالقرب من مدريد الإسبانية سنة 1439، ويقال أنه زيادة على نشأته الدينية الكاثوليكية انصرف نحو دراسة اللغات الشرقية ومنها العربية، كما تزامن ظهوره وذاعت شهرته كأبرز رجال الكنيسة مع سقوط غرناطة 1492م. وأسندت له مهام دينية ومنها تنظيم الرهينة وأحوال رجال الكهنوت، كان المدير الأساسي والقائد للحملة الإسبانية على وهران وبعد نجاحه في ما أراد قتل في وهران 04 آلاف مسلم وأسر 08 آلاف، إضافة إلى جمعه من الحملة ½ مليون

من التبجيل ما كان للملوك آنذاك. وفي الوقت الذي نجده -ونحن ننتبع مسار حياته- أنه ينحدر من أسرة نبيلة بعثت بابنها هذا منذ طفولته إلى الكنيسة واهتمت برعايته وتعليمه حتى كان من ثمره ذلك تتويجه بالدكتوراه من جامعة سلامنكا الإسبانية في كل من القانونين المدني والكنسي¹، لتتضح حقيقة هذا الكاردينال على أنها لا تقتصر في كونه مجرد رجل دين متعصب على نهج الزهاد الفرنسيين.

ظروف ظهوره على مسرح الأحداث:

طرح مرض ثم وفاة أسقف طليطلة الكاردينال دي موندوزا² إشكالية استخلافه لدى الملكين الكاثوليكين، ونالت هذه المسألة اهتماما وتفكيراً جدياً شغل إيزابيلا وتبادر إليها الأب خمينيس دي سينسيروس الذي كان معتكفاً في دير القديس فرانسيس، لترسل في طلبه ثم عرضت عليه المنصب إكراماً لسمعته وثقة في ولاءه للكاثوليكية، لكنه رفض بشدة واعتذر وانصرف، فبعثت وراءه ثلاثة من رجال الدين الوجهاء الذين حرصوا على إقناعه بأن الله أختاره لهذه المهمة الإيمانية وخدمة للأمة النصرانية وأنه لا يمكن التخلي عن نداء الملكة³.

كما يرجع انتقاء الملكة إيزابيلا خمينيس أمينا لسرها وراعيا لكنيستها سنة 1492م، إلى توفره على مجموعة ميزات جعلته رجل المهمة المناسب، بالإضافة إلى إلمامه بمعارف الكنيسة والكاثوليكية واستيفائه على تجربة مثمرة وهو في الستين من عمره، تؤهله للقيام بدور

دوقة ذهبية، توفي سنة 1517م. ينظر: هنري تشارلس لي، العرب والمسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة، ترجمة سعيد الكرمي، لبنان: منشورات دار لبنان، ط01، 1988، ص ص45-46.

1- ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة عبد الحميد يونس، ج02 من مج06، لبنان: دار الجيل للطباعة والنشر، ص 76.

2- بيدرو غونزاليس دي ميندوزا (1428-1495م) ترأس عدة أسقفيات في عهد الملكين الكاثوليكين آخرها أسقفية طليطلة، من مؤيدي رحلة كريستوف كولومبس. ألح على الملكة إيزابيلا خيار التصير رعاياها الجدد من المسلمين أو إجلاءهم من البلاد من باب خدمة الرب.

3- L'évêque de Nevers, Vie du cardinal de Ximenès, régent d'Espagne, bibliothèque des écoles chrétiennes, Paris, 1845, pp 27-28.

قائد الحرب المقدسة وأحد أهم مدبريها. حيث اشتغل لسنوات قسيسا وناظرا في أسقفية مدينة سيجونزا بمقاطعة قشتالة، كما التحق بأكثر الأديرة صرامة وانقيادا لتعاليم الالتزام الكهنوتي؛ وقد دفعته هذه الحياة التي عاشها نحو الإلحاح على إيزابيلا الاستمرار في ارتياد الأديرة وتطبيق طقوسها لأجل قبوله عرضها¹.

وفي إطار جهود الملكية الاسبانية في مواجهة تبعات انهيار دولة المسلمين في الأندلس والبحث عن الوسائل الموصلة لتتصير العنصر المسلم أو القضاء على وجوده نهائيا في شبه الجزيرة الأيبيرية، قُدم البلاط خمينيس سنة 1495م منصب كبير أساقفة طليطلة².

وكان للكاردينالات الكنسيين الكاثوليك وزن في عيون البلاط، ذلك أنهم طرحوا لدى ملوكهم الكاثوليك وحدة الإيمان ضرورة سياسية تخدم أغراض الدولة، إذ يفيدهم ذلك تعزيز الحماية الدينية المسيحية حسب تصورهم في تخليص العنصر المسيحي من الخضوع لحكم المسلمين الذي يعتبر خطرا دينيا بشكل أولى³. ويظهر أن هذا التصور استمر بالتوالي لدى رجال البابوية⁴.

وسبق خمينيس عدة أسماء رافقت الملكين في مشروعهما منذ الوحدة الإسبانية بين المملكتين الكاثوليكيتين، من بينهم مؤسس دير القديسة ماريا دي باردو الذي ترأسه لمدة عشرين سنة وهو الكاردينال دي تلافيرا من مواليد مدينة تلافيرا⁵. أستدعي إلى بلاط الملكين

1- ديورانت، مرجع سابق، ص ص76-77.

2- المرجع نفسه، ص76..

3- هنري تشارلس لي، مرجع سابق، ص44.

4- نتيجة هذا التقاهم كان الملوك الكاثوليك الإسبان يرفضون أي مبادرة إصلاحية أخرى خارجهم، بل كانوا ينظرون إليها كحركة تمردية من شأنها تهديد إمكانياتهم وتشتيت جهودهم على حساب مطامحهم ذات الأهداف البعيدة في خدمة المسيحية وإنجاز مشروع بناء الإمبراطورية المقدسة التي تجعل الصليب شعارا لها، وعلى هذه القناعة بقي الملوك والبابوات يناهضون الإصلاح الديني طيلة القرن 16م.

5- في بلد الوليد، تخضع في تسييرها ضمن نطاق أسقفيات طليطلة.

وعين مستشارا وقسيس الاعتراف لهما، ثم اصطحباه أثناء الاستيلاء على غرناطة بحيث كان دوره جزءاً من تلك العمليات، ليختار على إثرها رئيساً لأسقفية غرناطة بمباركة البابا أليخاندر (ألكسندر) السادس¹.

ولافيرا هذا واحد من رجال الكنيسة المقربين في بلاط إيزابيلا، عين بدوره رئيس أسقفية غرناطة، طرح فكرة تنصير المسلمين وحظي بمنزلة صاحب الرأي والمشورة في مساعي تنصير المسلمين، كما طرح إلى التنصير بالترغيب وحسن القدوة، وكان ينفق من مداخل الكنيسة على مساعدة ذوي الحاجة وتعليم الراغبين تعاليم المسيحية وحتى تلقين اللغة العربية. وقد استطاع بهذا الأسلوب تنصير جزء لا بأس به في قنطرة منه بأن هذه الطرق تروج حسن الظن بالمسيحية لدى المسلمين².

وفي عام 1499 استدعى الملكين خمينيس لمساعدة لافيرا في إدارة شؤون أسقفية غرناطة وفي إطار القيام بمهام التنصير والإشراف على عملياتها، وأبدى هذا الأخير من جهته رغبة كبيرة وحماساً أكثر من اللازم في إذكاء فتيل الحرب على المسلمين، حيث ذكر بأنه استطاع تعميد 3000 مسلم في يوم واحد 18 ديسمبر م 1499 وحول جامع البيازين في غرناطة إلى كنيسة سان سالفادور³.

مظاهر جهوده ومساهماته:

بالنظر إلى ما أشارنا إليه سابقاً في حصول الكاردينال خمينيس على تعليم أكاديمي بمستويات أعلى وتحصيله لعلوم متنوعة وتضلعه في المعارف الكنسية، نجد ما يناقض ذلك في ممارساته غير الإنسانية والعنيفة مع المسلمين الراضين للتصل عن مبادئ انتمائهم الحضاري وإيمانهم الديني بالإسلام.

1- مارمول كاربخال، وقائع ثورة المورييسكيين، ترجمة، محمد جزر، ج01، القاهرة، مصر: المركز القومي للترجمة، ط01، 2012، ص ص141-142.

2- تشارلس لي، المرجع نفسه، ص44.

3- تشارلس لي، مرجع سابق، ص46.

وقد سعى هذا الأب تنفيذاً للإرادة الانتقامية من مسلمي الأندلس إلى الخوض في مباحثات حثيثة مع الملوك الكاثوليك، الهدف منها استصدار القرارات والأوامر السياسية الملكية التي تقضي بالنتصير القهري¹، وكذا تنصيب المحاكم الفظيعة وترتيب العقوبات الشديدة التي تتضمن مختلف أنواع التعذيب الجسدي والتكيل بالعنصر المسلم².

ومما تشترك فيه جل الكتابات التي تناولت أعمال التنصير والعنف مستهدفة المسلمين عقب سقوط غرناطة -حسب ما اطلعنا عليه- وما استقى منه بعض الدارسين للفترة؛ مسألة الحظوة والمكانة التي كانت للكاردينال دي سيسنيروس عند الملكة إيزابيلا، وهي مكانة لم ينل مثلها بعض الساسة ومقربين البلاط، لدرجة أن البعض ذكر مدى إثارة هذه الصلة حفيفة الملك فرديناند.

ومرد ذلك إلى تعصبه الحاد الذي لقي في مسامرة إيزابيلا تلبية لمزاجه الحاد وعناية بأفكاره، ولتي تثير الاعتقاد بأن الرب يجب أن لا يهان في وجود شعائر دينية للكفار -وهو يقصد المسلمين-، وأن البلاد يجب أن تعود تحت ظل المسيحية حتى تعود البركة الإلهية³. وأسبق من أثار طرح الوحدة الدينية كضرورة بعد الوحدة السياسية في إسبانيا هو خمينيس، وفعلاً تُوّج ذلك سنة 1499م بصدور أمر حكومي يقضي بالنتصير⁴. كما تنوه أكثر من دراسة إلى أن خمينيس وبمباركة ودراية فرديناند أرغم 50 ألف من المسلمين على اعتناق مذهبه، ولما رفضوا ذلك سلط عليهم فنون مختلفة من التعذيب والتعسف، وهي واحدة

1- للمزيد، ينظر: علي المنتصر الكتاني، مرجع سابق، ص ص61-63.

2- علي مظهر، محاكم التفتيش بإسبانيا والبرتغال وفرنسا وغيرها، مصر: مطبعة أنصار السنة المحمدية، 1947، ص25.

3- تشارلس لي، مرجع سابق، ص ص56-57.

4- ليلي الصباغ، ثورة مسلمي غرناطة أواخر عام 1568م والدولة العثمانية، الجزائر: وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مجلة الأصالة، العدد 27، 1975، ص117.

من الحوادث المأساوية التي دفعت بآلاف المسلمين إلى الفرار نحو ثغور وسواحل شمال افريقيا¹.

ويتعين هنا التعرّيج على جانب من الأساليب التي سلكها هذا الكاردينال في بدايات دعايته للنيل من الإسلام وأهله، إذ حاول في بادئ الأمر استدعاء الفقهاء المسلمين إلى كنيسة كانت مسجداً وحاول أن يناظرهم ليثبت صحة عقيدته، وعندما فشل خرج إلى البسطاء من العامة أملاً في إقناعهم لكنهم واجهوه باللبصق والضرب والشتم وهو يبكي ويصرخ. وكان من الطبيعي ألا يقبل أي مسلم عاقل هذه الخرافات التي خرج هذا الراهب يحارب بها إله التوحيد، وحين أخفق هذا الأخير في إقناعهم بالنصرانية أخذ يُرشهم بالمال والحريير والملابس الفاخرة، ويعدّهم بالأراضي والضياع والمنازل².

ثم اهتدى هذا المنصر إلى خدعة أخرى بحيث دعا كبير فقهاء مسلمي غرناطة إلى مناظرته في الكنيسة الجديدة، ولكن المعني فوجئ أن خمينيس يحاول رشوته بالمال والهدايا بغية إصدار فتوى تحبّذ اعتناق المسلمين للنصرانية. وحين رفض الفقيه وقام ليمضي أمر بالقبض عليه في الكنيسة وأودعه السجن، وأنزل عليه هو ومعاونيه كل صنوف التعذيب، وفي نهاية فترة السجن خرج خمينيس على أهل غرناطة ليقول لهم إن فقيهم رأى حلماً في منامه وأمره صوت من السماء بدخول النصرانية، وإنه يحثّ كل المسلمين على الاحتذاء به³. ومع كل هذه الأساليب والأراجيف المجنونة كان يمضي دونما يأس في الانتقام من المسلمين وخذش علاقتهم بدينهم.

1- كما أصدرت أوامر تقضي بتقفي أثر المسلمين الراضين للتصير وأخرى تلزم المسيحيين بالإبلاغ عن هؤلاء إذا ما ابدوا رغبة أو محاولة في الهجرة إلى سواحل الشمال الأفريقي لمنعهم وارجاعهم بالقوة. ينظر: علي مظهر، مرجع سابق، ص 27.

2- علي الرئيس، الحروب الصليبية وجورها الدينية من عهد قسطنطين إلى اليوم، مصر: دار طيبة للطباعة والنشر، ط1، 01، 2008، ص 165.

3- علي الرئيس، مرجع سابق، ص ص 165-166.

تنوعت مقترحات رجل الدين هذا وباعتباره كان على رأس محاكم التفتيش نصح بقطع رؤوس جميع من لم يتنصر من العرب المسلمين؛ من فئات الرجال والنساء وحتى الأطفال والشيخ، بل وأشار بضرب رقاب حتى أولئك الذين أظهروا تنصرهم وحجته في ذلك أنه من المستحيل معرفة صدق إيمان هؤلاء واعتناقهم المسيحية فعلا، فوجد في إبادتهم سبيلا للخلاص منهم وتقربا للرب¹.

وقد طالت يده المقدسات والنفائس وكل ما في يد أهالي غرناطة المسلمين من صلات يبدوا فيها رائحة العربية والإسلام، فتناولت المصاحف بالحرق واقتحم خزانات الكتب والمخطوطات القيمة والوثائق المهمة والنادرة فخربها ومزقها، وأضرم النيران على أكوام الورق في ساحات المدينة. ونتيجة لهذا التزمت عمّت غرناطة حالة من الاستياء العام والغضب والفوضى في أوساط المسلمين هناك، ووقعت اصطدامات وقتل كثير من المسلمين، ومع هذا كله نُصّب خمينيس رئيسا لديوان محاكم التفتيش الإسبانية².

ضلوعه وراء الحملة على المرسى الكبير ووهران:

نالت مدينة وهران لدى الأسبان أهمية لم تحظى بها غيرها من مدن الشمال الأفريقي، فكانوا ينعنونها بباب إسبانيا، كما وصفوها في أدبياتهم ووثائقهم الرسمية بالمدينة الشريفة والوفية، وعليه بذلوا كل ما في وسعهم للاستيلاء عليها وللحفاظ على وجودهم فيها؛ لأنهم اعتبروها بابا مفتوحا على المشرق العرب والبلاد الإسلامية ومحطة إلى بيت المقدس³. ثم أنه من الطبيعي أن يستهدف الجهد الأسباني التوسعي المنطقة الغربية من الجزائر، وذلك لاعتبارات جغرافية وإستراتيجية استطاعت منذ 1505م أن تتخذ من المرسى الكبير نقطة ارتكاز تباشر منها الحملة على وهران وتلمسان.

1- غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مصر: مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع، 2013، ص 285.
2- محمد عبده حتامله، التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكين 1474-1516م، الأردن: ط1، 1980، ص ص 65-66. وينظر: علي مظهر، مرجع سابق، ص ص 61-62.
3- بن أشنهو، مرجع سابق، ص 54.

وكان سبق الخطوة الأولى وهي الحملة على المرسى الكبير جهودا لوجيستكية في الإعداد للجيش وتسليحه والتفكير في مصدر كفالاته. فجمعت أموال من الضرائب التي فرضت على الفلاحين والحرفيين، أما بقية المصاريف فقد جمعها وقدمها رجال الدين، حيث دفع خمينيس رواتب الجند لمدة شهرين، وأنفق 11 مليون دينار على الحملة من أموال الكنيسة التي يشرف عليها¹.

ويظهر من خلال رسالة من شارلكان إلى قياداته ومندوبيه السياسيين والدينيين أن هؤلاء لعبوا دور جُباة الضرائب الثابتة لتسيير شؤون معيشة ومؤونة وسلاح الجند الأسباب في الجزائر، وقد وردت في شكل تذكير للمعنيين بالتزاماتهم هذه، ومما جاء فيها: "من الإمبراطور كارلوس القوي المعظم ملك ألمانيا ودون خوانة والدوقين والكونتات والمركزيين والمبشرين، ومجالس القساوسة المكلفين بالإتاوة والضرائب والرجال القديسون لغرناطة، وممثل المدن والقرى الأخرى والأماكن التابعة للقسيس الأكبر بطليطلة، والذين لهم علاقة برسالتنا نتمنى لهم الصحة والعافية وعليهم أن يحافظوا ويدفعوا الإعانة لمدينة وهران ومدينة بجاية والقرى التابعة لهما والحصون والمرسى الكبير"².

ولأن بواكير الغزو الإسباني خرجت من الكنيسة فإن الاستيلاء على المرسى الكبير ووهران حمل الرمز الصليبية من خلال إلحاق شؤونهما إلى كنيسة طليطلة وتحت إدارتها الدينية التي يرأسها خمينيس. وتعبيرا عن الانتصار للكاتوليكية حُوّلت إلى طليطلة ثريا مسجد وهران ومفتاحا مدينتي وهران والمرسى الكبير³.

ومن المرسى الكبير اتخذت الصليبية الإسبانية مركزها للتوسع أكثر، كما أصبح بقاء الحامية واستمرار الحملة الأسبانية خارج المرسى الكبير مرهونا بالقدرة على الإمداد وتوفير

1- مختار حساني، مرجع سابق، ج1، ص70.

2- حساني، مرجع سابق، ص153.

3- مولود قاسم نايت بلقاسم، مرجع سابق، ص129.

المتطلبات، لذلك من الأولى أن فرض هذا الانشغال الالتفات إلى تدبيره من خلال البحث عن موارد مالية ومناطق لجباية الضرائب.

ولأن رجال الدين وجدوا في الحملة نشوتهم الصليبية فإن حماسهم أخذ يزداد، إذ يبرز من عبارات الاستجداء والتوسل التي خاطب بها **خوان لاسو ملكه**، الأمل والطموح في استمرار الحملة ونجاحها خارج المرسى الكبير، حيث ألح عليه طلب الدعم وأكثر في خطابه بعبارات "سموك، إذا أردت نجاح مشروعك وإعلاء كلمتك"، رغبة في إثارة عواطفه وتعصبه الديني¹.

فرديناند يكلف خمينيس قائدا للحملة الصليبية على وهران 1509م:

أشرف الكاردينال دي سيسنيروس شخصيا على قيادة حملة غزو وهران، وكان المتابع الرئيسي والمنسق للعمل الاستخباراتي والجوسسة، بوصفه من أوائل الذين شجعوا وعملوا على اختراق بلاد المغرب بالجواسيس وعيون المخبرين. كما تبع استكمال كل الخطوات تجهيز الحملة التي ضمت 15 ألف رجل، ونفذت كل أعمال القتل والأسر والتخريب ومختلف طرق وسلوكات الانتهاك التي أبيضت².

وبذلك فإن جميع التصرفات التي باشرها خمينيس في وهران ومن بينها المسارعة في زرع محاكم التفتيش، تثبت نيته في خلق جو من التعصب والكراهية ضد المسلمين شبيها بما أثير في إسبانيا بين المورييسكيين والمسيحيين³.

لقد فكر خمينيس أولا في حرب صليبية ذات بعد مقدس K ومن أجل تحقيق هذه الرغبة تفاوض بهدف تكوين تحالف يجمع الملوك، "فرديناند" ملك إسبانيا، "ومانويل" ملك البرتغال، و"هنري" ملك إنكلترا. ووراء هذا الطموح التوسعي راحت الكتابات الغربية تنسب

1 - Primaudaie, Op.Cit, pp08-10.

2- شوقي عبد الكريم، الاستخبارات الجزائرية في العصر الحديث 1492-1830م، الجزائر: دار هومة للنشر والتوزيع، ط1، 01، 2017، ص ص 126-127.

3-Didier Op.Cit, p 05.

إلى الكاردينال المذكور اكتتافه على تجربة كبيرة في الميدان العسكري وفي ميدان البحرية، وكذا الاختيار الحكيم للقادة الذين يتولون أمر المهمة المقدسة. كما كان لديه مخطط مدروس في شأن هذا التحرك¹.

وتأتي هذه الحملة كمحطة انطلاق في اتجاه الأسبان التوسعي والاستعماري الصليبي في إفريقيا بعد سقوط غرناطة مباشرة، متخذة أولاً من المناطق الساحلية مستهلاً لها، ثم التوغل فيما بعد إلى الجهات الداخلية.

وقد تحدثت بعض الكتابات الأوربية في هذا السياق أن هدف الكاردينال خيمينيس ليس العزم على احتلال وهران كهدف نهائي، ولكنها وسيلة للتوغل والانطلاق من أجل احتلال كل إفريقيا، فبعد ثلاثة أيام من احتلال وهران كتب الكاردينال زعماء بلاده يدعوهم إلى إرسال المزيد من الإسبانين. كما طلب من السلطات العسكرية البقاء، والشروع في تنفيذ المخطط الاستعماري للأراضي الإفريقية. وفي هذا السياق أرسل الملك فرديناند خطاباً إلى "بيدرو نافارو" في شهر ماي من سنة 1510م يدعو فيه، أن عليه ألا يترك أحداً من سكان المدن التي يحتلها في شمال إفريقيا، وذلك من أجل إعمارها مستقبلاً بالمسيحيين فقط².

محاولاته الاستباقية لإحباط المشروع الجهادي للدولة في الجزائر:

منذ بداية التطورات الحاصلة في الجزائر والمتوسط الغربي كان كل طرف يسارع إلى حجز التمويع ومباشرة مشروعه الديني والسياسي بين الجهاد والصليبية، وكما هو معلوم وواضح من خلال ما سبق طرحه من فصول؛ قدّر كل طرف ما للجزائر من أهمية كمنقطة ارتكاز.

1- عبد القادر فكاير، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره 1505-1792، الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر، ط02، 2015، ص 40.

2- فكاير، مرجع سابق، ص 49.

وحرصا من حكام بقايا الإمارات الزيانية وتشبثا بالسلطة على تلك المدن والمناطق التي بقيت في أيديهم، مدّ هؤلاء يد العون للأسبان وتحالفوا معهم ضد عروج وخير الدين الذين اعتبر دورهما المتنامي في سواحل الشمال الإفريقي خطرا، ووجودهما في الجزائر وجودا لعدو مشترك.

ولما كان نزاع العرش قائما بين أبي حمو وابن أخيه في مملكة تلمسان، التقت هذا الأخير إلى الأسبان وطلب من الكاردينال خمينيس¹ أن يجند أسطوله ويشن حملة لضرب عروج، كما وعده فيها بتسخير جنوده لمساعدته برا بما يُمكنه من البلاد المجاورة، وكذا حصار جنود عروج وشل طريق الإمدادات عنه. وشرح له أن الحيلولة دون وصول بربروس إلى تلمسان تؤمّن شواطئ إسبانيا من خطر القراصنة، وتوسع في مناطق نفوذهم سيما بعد احتلالهم المرسى الكبير ووهران².

ولم يترك الأسبان سبيلا يتوخون منه إحباط مقاومة مشروعهم إلا وحاربوه، حتى أنه في سنة 1509م أصدرت محكمة بلد الوليد قرارا يقضي ببراءة مرتكبي الجرائم في إسبانيا إذا ما قبلوا الانضمام إلى الأرمادا الصليبية في وهران، على أن يُقاتلوا المسلمين هناك مع تحمل نفقاتهم الغذائية وغيرها لمدة شهرين كاملين³.

لذلك اعتبر الأوربيين المسيحيين وبرتبة أولى الأسبان -بلاطا وبابوية- استشهاد عروج حدثا هاما ونصرا للكاتوليكية، دُقت له الأجراس وأمرت له الصلوات الكنسية في ربوع البلاد المسيحية، كما حُص قاتله أو المشارك في ذلك **قارسيا دي لابلاسا** بالتبجيل والاهتمام، ومما خاطبته به الرسالة الملكية مايلي: " **لقد أدت خدمات جليلة ومخلصة في**

1- كان في هذه الفترة وصيا على عرش اسبانيا؛ وهي الفترة التي ورث فيها شارل الخامس الحكم بعد وفاة والده، ونظرا لصغر سنه عهد إلى خمينيس بوكالة في إدارة بعض شؤون المملكة والاشراف عليها، لكنه لم يلبث كثيرا، حيث ورد أنه وصي على العرش سنة 1516م ووفاته كانت 1517م.

2- مارمول كاربخال، مصدر سابق، ص 306.

3- ينظر الملحق رقم:10.

الحملة العسكرية التي بعثها ضد بربروسا التركي، منحك بموجب هذه الوثيقة الرسمية
علائم الشرف المشتملة على ترس ومعه رأس بربروسا المذكور وعمامته وبيرقه وصفيحتة
المجردة والمثبتة على خلفية من المينا الخزفي، مع خمسة رؤوس أخرى لجنود أتراك؛
تحفا بهذه الشارة، منحناك كل ذلك تذكارا ودليلا على أنك نلت هذا الشعار في خدمة الله
وخدمتنا¹.

وعلى هذا الشعور استمر تَوَقُّان البابوية من خلال الكاردينال خمينيس لقتل خليفة
عروج على الجزائر، حيث راهن سيسنيروس على فرسانه الصليبيين في أن يأتوه يوما برأس
خير الدين ليصفو له السبيل تجاه مناه².

وصايته على عرش إسبانيا:

إنَّ الممتلكات الإسبانية في إفريقيا هي ثمار الحملات التي قام بها الكاردينال
خمينيس (العظيم) في وهران والمرسى الكبير³، لأنها تثبتت أقدام الأسبان هناك ومنها اتخذت
خطوات التوسع إلى طرابلس وتونس عبر موانئ وسواحل شرق الجزائر.

في جوان 1516 توفي الملك فرديناند ليصبح الكاردينال خمينيس الحاكم الفعلي
لإسبانيا نتيجة وصايته على عرش كارلوس الأول الذي كان وقتئذ دون سن الرشد. شرع
الوصي في الإعداد لحملة بحرية تستهدف مدينه الجزائر وتحاصر تقدم الأخوين بربروس،
واضعا في الحسبان ضعف ولاء بعض سكان المدينة وتآلب شيخها التومي على عروج
سيكون في صالحه⁴.

1- بن أشنهو، مرجع سابق، ص81.

2- مجهول، سيرة المجاهد خير الدين بربروس، تحقيق عبد الله حمادي، دار القصة للنشر، الجزائر، 2009، ص18.
3 - Godefroid Kurth, Op.Cit, pp154-155.

4- محمود القيسي، النشاط البحري العثماني في البحر المتوسط خلال القرن16م، جامعة بغداد: أطروحة دكتوراه في
التاريخ الحديث، مارس 2008، ص115.

ومن منطلق عدو العدو صديق ثبت من خلال الرسائل الإغرائية التي ارتجى منها الأسباب استمالة الأطراف التواقفة إلى الحكم والسلطة في الجزائر، أن خمينيس مارس تدبير المؤامرات والدسائس السياسية لفتح المجال أمام أهداف الصليبية الكاثوليكية. ففي سنة 1516م وبعد قضاء عروج على سالم التومي بعث ديقو ديفيرا رسالة إلى يحيى ابن سالم، يؤكد محتواها أنها كانت بواعز من سيسنيروس ومما ورد فيها: "أيها الشريف الشجاع والسيد الأمين إن مولانا الملك...وقداسة الكاردينال بلغتهما موت أبيك الصادق الأمين...وللأخذ بالثأر ومعاقبة المجرمين فإن الأمر صدر لجمع أسطول كبير وجيش عظيم؛ ولهذا تهياً واستعد لمساعدتنا عندما نصل إلى مدينة الجزائر حتى نقضي على الأتراك ومن تبعهم من العرب، الذين كانوا سببا في قتل أبيك¹ وحتى لا ينجو أحدهم من البر. أما من جهة البحر فسأكفيك شرهم، إن قداسة الكاردينال قد حملني وصية تخص شرفك وشرف أهلك..."².

وبقي هذا الراهب يعتبر الوجود المتنامي للأخوين بربروس ضربة لهيبة إسبانيا في المنطقة وتهديدا لمصالحها وحاميتها في الجزائر، وفي تصوره أن نطاق تحرك القوة الإسبانية لا يقتصر على استهداف الجزائر بل يتعداه إلى جزيرة جربة كقاعدة مهمة للقباطنة المسلمين، لذلك أرسل إلى نائبي الملك في صقلية ونابولي قصد التأهب والاستعداد تحسبا لشن حملة على جربة³.

وعلى ذكر تونس فإنه لدى الجبهة المسيحية مجرد الاقتراب العثماني من تونس يشكل مساسا وشيكا بالمصالح والمراكز التقليدية للإمبراطورية المقدسة. وعندما أصبح اهتمام حكام الجزائر بتونس صريحا أثار ذلك مخاوف فرسان مالطا، ذلك أن وجود هذه الأخيرة تحت

1- عندما دخل عروج مدينة الجزائر سنة 1516م بطلب من أعيانها وأصحاب الرأي فيها، ظهر بعد أيام تبدل نية شيخها سالم التومي اتجاهه، وحيكت مؤامرة بين الثعلبية والإسبان انتهى اكتافها من طرف عروج قتله لسالم، وفر ابنه يحيى إلى طليطلة عبر اتصاله بالإسبان في وهران.

2- عبد الرحمان الجيلالي، مرجع سابق، ص ص41-42.

3- القيسي، مرجع سابق، ص115.

سلطة إسلامية يهدد مصالحهم، مما يُنذر بقلب الموازين في هذه المنطقة التي اصطبغت
المواجهة الإسلامية النصرانية فيها بالروح الدينية المتأججة¹.

وتتيح لنا هذه المعطيات المتعلقة بخمينيس أنه رجل دين متعصب بلغ به الكيد والحقد
حد العمى، وهو ليس برجل الدين المخلص للمسيحيه بقدر ما هو واحد من أولئك الذين
وجدوا في إنكاء جذوة الصليبية تماشيا ونفسياتهم المريضة، التي تتعارض بشكل فاضح مع
سيرته في طلب اللاهوت وتكوينه المتشدد.

فكيف لرجل خدم المسيحية أن يتنكر لسبعة قرون أبدى فيها مسلمو الأندلس كل
صور التسامح ومظاهر التعايش وتقبل الآخر، وكيف لمن درس أصول الكاثوليكية أن يتمكن
منه التعصب لدرجة تلغي فيها نفسه كل مظاهر الحضارة الإنسانية لدولة عمرت في عمر
التاريخ مدة ليست بالهزيلة.

ومن خلال ما تقدم يمكن لنا أن نُخمن ونتخيل المكانة التي تمثلها هذه الشخصية
بالنسبة للتراث والتاريخ المسيحي، فهذا بربروجير يكتب عنه قائلا: "سيكون الكاردينال
خمينيس اسما لامعا للأجيال القادمة، من خلال تفكيره على الأقل في انتزاع شمال إفريقيا
من الهمجية الإسلامية من أجل تحقيق النصر المسيحي والحضاري هناك"².

فهو ينظر إلى هذا الراهب كمسار من الإنجاز في خدمة المسيحية، حيث نراه أنفق
من ماله ومن أملاك الكنيسة في اطلاق الصليبية نحو إفريقيا، ولم يبخل في سبيل إطلاق
الحملة وجمع لها التبرعات والنفقات، بل حمل القساوسة والرهبان على عرض بعض أمتعتهم
للبيع بغية المشاركة في تجهيز جيش هذه الحملة³.

1- إيليتش بروشين، تاريخ ليبيا في العصر الحديث، ترجمة عماد حاتم، لبنان: دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط2، 2001،
ص29.

2- Adrien Berbrugger, Le Pégnon d'Alger, Cit, p 06.

3- أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، مرجع سابق، ص 73.

وعلى شاكلة خمينيس كان كثير من رجال المسيحية الكاثوليكية من وجدوا لذتهم وغايتهم إزاء الحرب الصليبية أوالمقدسة في سبيل قتال المسالمين، ونادوا في الحكومات لدعمها والعناية بها سياسيا وماديا. وعلى سبيل المثال نجد في أسطول أندري دوريا كقائد لترسانة شارلكان البحرية، نجد سنة 1537م من بين تركيبة أسطوله 28 سفينة بابوية¹ وكان ذلك بمناسبة الحملات على المسلمين حيث ستحدث معركة بروزة بعد أشهر.

1- كولز، مرجع سابق، ص ص90-91.

المبحث الثاني: التدخل الكنيسي في توجيه الحروب الإسبانية ضد الجزائر:

فكرة الإمبراطورية المقدسة وظروفها:

حرصت البلاطات المسيحية على إقحام رجال الدين من باباوات وقساوسة في مشاريعها التوسعية ومساعي تحصيل المستعمرات وتوسيع رقعة الإمبراطورية. وتوسمت إسبانيا في استثمار فكرة العداء الديني عاملا مساعدا لحشد الداعمين المادي والمعنوي في إطلاق مشروعها السياسي الجامح.

وعليه فإن فكرة الإمبراطورية المقدسة في سياق قوة مسيحية تسيّرها الإدارة المشتركة للبابا والإمبراطور، حتى وإن أخذت تفقد قوتها وثقلها في الأوساط الأوربية بسبب جهود الإصلاح الديني الناقم على تقاليد العصور الوسطى ونظمها¹، والساخط على انحرافات الكنيسة وهيمنتها على الملكية، فإنها في إسبانيا كانت تبلغ ذروة اعتناقها والإيمان بها لدى الملوك الكاثوليك².

حيث بحثت البابوية جاهدة عن سبيل إقامة اتحادات أو تحالفات بين الأطراف الأوربية المتنازعة، فالبابا أدريان السادس³ جند جميع إمكانياته لاستعادة الوفاق بين الأمراء المسيحيين من أجل توحيد قواتهم ضد العثمانيين كونهم خطر ازدادت وطأته يوم بعد آخر⁴. كما يبين كم المراسلات المتداولة بين أدريان وشارلكان قدر العناية التي أعطتها الكنيسة

1- طرح الإصلاح الديني تصورا لقيام الدول أساسه رفض فكرة سيطرة القوة الواحدة أو الإمبراطورية على مجموعة دول، في مقابل ضرورة وجود مجموعة من الدول ذات السيادة؛ متساوية في الحقوق ومستقلة في تدبير شؤونها ضمن مفهوم التوازن الأوربي.

2- كلود يلماس، تاريخ الحضارة الأوربية، ترجمة كوليت حبيب، سوريا: دار الفن الحديث العالمي، ط1، د.ت، ص98.
3- (1459-1523) بابا روما خلال سنتي 1522-1523م، هولندي المولد، حاول إصلاح الكنيسة ورأب الصدع الحاصل بين الأطراف الأوربية المتصادمة لكنه لم يفلح في ذلك، كما ترأس البابوية لفترة قصيرة. ينظر: عزيزة بابتي، موسوعة الأعلام العرب والمسلمين والعالميين، ج01، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، 1971، ص106.

4- M. Gachard, Correspondance de Charles-Quint et d'Adrien VI, Première Edition, Bruxelles, 1859, pp 43-44.

الكاثوليكية لوقف التوتر والحرب بين الأسبان وفرنسا الأول ملك فرنسا، لاستغلال هذه الأعباء في التصدي للمسلمين¹.

واهتمت البابوية في هذا الظرف باستحضار عصر الفروسية والحرب الصليبية في مواجهة العثمانيين (المسلمين)، وذلك في سياق تغذية الخطط العدوانية من قبل البلاطات ضد الخصوم المسلمين. فقد دعا البابا ليون العاشر إلى تنظيم حملة عالمية ضد العثمانيين، تتألف من جميع قوى المسيحية وتركز على ضرب حكومة السلطان سليم².

ويمكن الذهاب بالقول إلى أن واقع البحث عن الغلبة الذي انخرطت فيه الدول المتنافسة ممثلة في فرنسا وإسبانيا بشكل أحدّ على مدار القرن 16م، أدى إلى إحلال الفكرة الاستعمارية مكان الفكرة الإمبراطورية، وتعدى التطلع إلى الظفر بالمستعمرات خارج القارة الأوروبية³.

عهد الملكين الكاثوليكين:

تنكر الإسبان لمعاهدة غرناطة:

تمثل معاهدة غرناطة التزاما بين الطرفين الإسلامي والمسيحي الإسباني بخصوص انتهاء الحرب، وتسليم آخر أمير للمسلمين هناك للسلطة والمدينة، اتقاءً للحرب وحفظاً لأرواح وأعراض وحرّيات المسلمين الأندلسيين⁴، وهي بمثابة اتفاق قطع فيه الملكين الكاثوليكين للمسلمين عهداً باحترام الحياة والحريّة والمعتقدات، وضمان سلامة الأملاك بالنسبة للمسلمين الذين يرجع تواجدهم في إسبانيا إلى حوالي ثمانية قرون⁵. إلا أن ذلك لم يحصل

1- يتضمن الكتاب المشار إليه أعلاه جميع مراسلات البابا أدريان السادس أثناء عهده على كنيسة روما مع الإمبراطور شارل الخامس. ينظر: M. Gachard, Correspondance de Charles-Quint et d'Adrien VI, Op.Cit.

2- كولز، مرجع سابق، ص 98.

3- المرجع نفسه، ص 97.

4- ينظر: نبذة العصر، مصدر سابق، ص 41-43.

5- حول بنود المعاهدة المفصلة، ينظر: عنان، مرجع سابق، ص 244-254.

للأسف وسرعان ما دلت الممارسات الانتقامية لدى الإسبان على أن بنود المعاهدة لا تعدوا أن تكون حبرا على ورق.

ومع بداية عدم الوفاء لم يقابل الملكين في خرق المعاهدة أي رد من طرف الكنيسة أو القادة الأسبان، إذ كانوا جميعا يتفقون في أن هذه المعاهدات أملتتها الضرورات العسكرية التي زالت بزوال حكم العرب في اسبانيا، بل أشارت البابوية على الملوك بأنه من الميسور لهم خرق المعاهدة لكونها مُضرة بنشر الدين المسيحي. وكما يرى الكونت سيركور أن الملكة إيزابيلا هي من كان وراء الدفع إلى خرق مضامين المعاهدة قائلا: "إن الإنسان مضطر لأن يلقي بالمسؤولية في جميع هذه الأعمال والتصرفات التعسفية الجائرة على عاتق الملك إيزابيلا، فهي المرأة العاطفية القاسية التي لا تعرف اللين ولا الاعتدال وقد أعمى بصيرتها الكره العنصري والديني الذي تكنه للعرب ودينهم ولذلك فإنها في سبيلي إرواء غليلها وشفاء حقدتها لم تحترم كلمتها ولا العدالة ولا مصلحة عرشها وفي مقابل ذلك اتبعت سلطة الكنيسة السبيل نفسه وعبر ممثلوها متحججين على السخط العام في أوساط المسلمين جراء الأساليب الإجرامية التي قوبلوا بها"، وحيث يجيب سيسنيروس عن ذلك بقوله: "إن المعاهدة غير مشروعة لأنها تتعلق بمرتدين عن النصرانية، ويجب أن يعتبر أنسألمهم نصارى مرتدين، وأن الحقوق الكنسية تعارض المعاهدة ولا تعترف بها" وهو يقصد أن أجداد المسلمين كانوا نصارى مرتدين¹.

ثم إن بحث الكنيسة عن دورها في المشاركة ضمن الحروب العدائية النصرانية ضد المسلمين لا يخرج عن سياق الحرب الصليبية، لكن تدخلها لم تواتيه عوامل مساعدة في مرحلة قوة المسلمين؛ غير أنه عندما عمّ التقهقر والانفلات في الأندلس لمست قدرة مضاعفته وبروزه، وأصبح هذا الدور يفرض وجوده ويضع لنفسه المخططات الحربية والسياسية والاجتماعية، بحيث لم يستطع أي ملك من ملوك اسبانيا الشعور بالطمأنينة في

1- محمد حسن العيدروس، العصر الأندلسي، مصر: دار الكتاب الحديث، ط1، 01، 2012، ص66.

اتخاذ قراراته وتسيير عرشه دون خضوعه لرجال الكنيسة. هؤلاء الذين فرضوا مكانتهم في الأمم النصرانية إدارة وتوجيها¹.

الخطاب الحماسي والحرب النفسية:

أدرجت الحرب النفسية واحدة من أساليب السجال بين الجزائر وإسبانيا، استعملها كل فصيل للتأثير على معنويات خصمه وابتغاء النيل من عزائمه. وما دامت الخصومة قائمة بين دارين واحدة للجهاد والثانية للحرب² فإنها قد مهدت لكل معركة أو مناسبة صدامية رسائل وخطابات متبادلة تداولها القادة فيما بينهم كعادة أي نزال في تكتيكه.

وباعتبار أن الحملات التي حُرّكت اتجاه الجزائر من طرف ملوك إسبانيا وأعاونهم من أتباع رأي الإمبراطورية المقدسة لم تتخذ مزية الخصومة القائمة على سبب وحيد؛ وإنما أعطتها الظروف والمنطلقات المؤشر الديني، فإنها أظهرت طابع الحماسة وروح الافتداء، وجعلت الوصف الدقيق للعدو ذلك المهدد للدين.

وانطلاقاً من ذلك انعكست هذه الرؤية في التراسلات داخل أجهزة المعسكر الواحد كذلك في تلك المكاتبات الموجهة إلى المعسكر المقابل، ومن أمثلة ذلك رد حسن آغا على رسالة³ شارلكان وهو يقلع حملته العارمة على الجزائر سنة 1541م. كما ذكر أن حاكم

1- علي حسن الشطشاط، نهاية الوجود العربي في الأندلس، مصر: دار قباء للنشر والتوزيع، 2001، ص89.

2- أطلقت هذه التسمية على البلاد التي ليست في حوزة المسلمين ولا يسير عليها حكمهم؛ بحيث لا يحظى فيها المسلمون بالسيادة وحق إقامة أحكامهم. وهناك تفصيل في دار الحرب إذ هي ما يقابل دار الإسلام من ديار غير المسلمين وفيها صورتين (دار الحرب ودار العهد)... للمزيد ينظر: محمد السفياني، دار الإسلام ودار الحرب وأصل العلاقة بينهما، جدة، السعودية: رسالة ماجستير، جامعة الملك عبد العزيز، 1980-1981.

3- تضمنت هذه الرسالة إنذار ومحاولة تخويف بايلرباي الجزائر من حجم ومعدات الإسبان لمعركة 1541م، أملا في استسلامه واثقاء لعناء المواجهة العسكرية، وبالنظر إلى أحول الجزائر حينها فإن المعطيات كانت تنذر ربما بجنوح القيادة الجزائرية نحو الهدنة أو الاستسلام نتيجة لعدم التكافؤ في العدد والعدة بين الجبهتين. للمزيد ينظر: بلحميسي، غارة الأمبراطور شارل الخامس على مدينة الجزائر 948هـ/1541م بين المصادر الإسلامية والمصادر الغربية، الجزائر: وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مجلة الأصاله، العدد08، جوان 1972، صص91-111.

الجزائر قد أجاب على استفزازات وإغراءات ملك إسبانيا بكل ثقة وشجاعة، وذلك نظير خبرته الحربية¹.

إذ تتجلى فيه شواهد الخطاب الذي نقصده، عبارات ترصد لنا صورة حرب دينية في إحدى منعطفات الحروب الصليبية. ومما جاء في ذلك قوله: "وهل أنت إلا كلب من كلاب النصارى وأضعف ما في بلاد البربريه من القلاع لا تقدر على أخذها فكيف بمدينة الجزائر. ولو سمع بك سيدنا السلطان الأعظم لأرسل إليك عبدا من عبيده مع شردمة قليلة من عسكره لاستأصلك ومن معك. ومع ذلك فإن في عسكر الجزائري ما يقابلك وسنرى عاقبة أمرك فأجهد جهدك غير موفق"².

تقدمت قبل هذه الرسالة واحدة وجهها الأسبان إلى يحيى بن سالم التومي تضمّنت فيها مواساته في وفاة والده المغتال، ويُظهرون له أحقيته في خلفته على الملك في مدينة الجزائر. وكان يحيى قد فرّ بعد قتل أبيه إلى الأسبان في وهران التي استقبله حاكمها الماركيز دي كوماريس، والذي أرسله بدوره إلى إسبانيا حيث الكاردينال خمينيس³، وفي السنة الموالية 1519م عاد يحيى مرافقا للحملة الإسبانية على مدينة الجزائر بقيادة فرانسيس دي فيتا، تتشكل من 10 آلاف إسباني حسب رواية الأب دان⁴.

عهد شارل الخامس:

وجدت الفكرة الدينية أو الروحية -باعتبارها أساسا لإسبانيا الحديثة- تجسيدها في شارلكان، حيث كوّن جيشا يجب جميع البلدان، يثير الحماس الديني والحمية التضامنية

1- إتحاف ملوك الزمان بتاريخ الإمبراطور شارلكان، مج02، مصدر سابق، ص154.

2- جمال قنان، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830م، الجزائر: منشورات وزارة المجاهدين، 2009، ص60.

3- P.Dan, Op.Cit, 1646, p80.

4-P.Dan, Op.Cit, p81.

الكاثوليكية التي أثارت المسيحيين ضد المسلمين في إيبيريا¹، خاصة وأن هذا الملك شبَّ على تربية وتعليم دينيين لاهوتيين ورثهما مع عرشه، وكان خلفهما الولاء للمسيحية ثم الدور الوصائي الذي لعبته البابوية من خلال الكاردينال خمينيس.

ومع تاج الإمبراطورية تقلد كذلك شارلكان إعلان الحرب الصليبية ضد المسلمين على اعتبارها مسؤولية تاريخية، يُلقى بها الوازع الديني الذي يُستحضر من الصليبية سبيلا لاستعادة القسطنطينية، وطريقا يضع حدا للتفوق الإسلامي في غضون التراجع والانقسام المسيحي المسيحي².

حيث تضمنت الوصية التي تركها فرديناند الكاثوليكي عند وفاته سنة 1516م لحفيده شارلكان حثّه على حماية الكتلة والكنيسة، واختيار المحققين ذوي الضمائر الذين يتوقدون حماسة وخدمة للكاثوليكية، كما يجب أن لا يدّخروا طاقة لسحق دين محمد (صلى الله عليه وسلم)³.

وفي عهد شارلكان لم تعد اسبانيا مركز ثقل أوروبا لوحدها، إنما وسّعت أذرع التأثير المسيحي، والدافع إلى ذلك هو التقدم لدفع حدود المنافسين وهما سليمان القانوني وفرنسوا الأول. وعليه حرص شارلكان عن قصد وسعى بكل حرص على إعطاء الصليبية اتساعا أكثر لتشمل جميع أوروبا⁴.

ثم إن حملات الضغط على الموريسكيين في إسبانيا اقترنت بتطور الأحداث في الضفة الأخرى للمتوسط، فكلما حدث انتصار عثماني أو انتصار سعدي على البرتغاليين، ازدادت حملات الضغط والتنصير⁵.

1- ديلماس، مرجع سابق، ص 98.

2- التميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين، مرجع سابق، ص 72.

3- عبد الله عنان، مرجع سابق، ص 339.

4- بروديل، مرجع سابق، ص 124.

5- جمال يحيوي، مرجع سابق، ص 95.

وفي سنة 1524م تحرر شارل الخامس من تعهده الذي قطعه للمسلمين في إسبانيا بحماية أرواحهم وممتلكاتهم، إذ حصل من البابا كليمنت السابع على براءة أحلته من اليمين الذي أقسمه سنة 1519م، وهو تدبير أشاره به البابا ونوّه عليه بمواصلة التصير وتكليف ديوان الموكل بذلك. كما اقتضى هذا الرأي أن يترتب على كل مسلم يرفض التصير وصفه تحت طائلة الاسترقاق طيلة حياته، وهو التضييق الذي دفع المسلمين الأندلسيين إلى المجازفة بحياتهم وعائلاتهم وركوب البحر وتحمل مخاطره إلى بلاد الشمال الإفريقي هرباً بدينهم¹.

وحدث أن خلف خمينيس الكاردينال ألفونسو مانريك وحجز مكانه على محاكم التفتيش الإسبانية، وكان شديد التحمس لاستئصال التواجد الإسلامي في أوروبا مصطلحاً عليه بالكفر، واستصدر في ذلك أوامر جد قاسية على المسلمين في قشتالة².

الحملة على الجزائر 1541م:

بعد أن تم لشارلكان الاستيلاء على تونس عول على تطهير الساحل الإفريقي كله من القراصنة الأتراك ولا سيما أتراك مدينة الجزائر الذين كانوا يلحقون أعظم الأضرار بالمسيحية، وتملكته كراهية مقدسة بشأنهم وشأن العدد الكبير من المسيحيين الذين كانوا أسرى في أيدي المسلمين، وأراد أن يحضر الحملة بنفسه ويقودها حتى لا تنتهي إلى الفشل مثل سابقاتها³.

ومن خلال شهادات المصادر يتّضح حجم الأمل المعقود على هذه الحملة من طرف الإمبراطور شارلكان، والتي توصف بأنها أكبر وأكثر من الترسانة التي جهزت لخوض الحملة على تونس سنة 1534م. وفي المقابل لم تتجاوز الجبهة الجزائرية 06 آلاف رجل،

1- محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17م، الدار البيضاء، المغرب: دار إفريقيا الشرق، ط3، 1998، ص 81.

2- علي مظهر، مرجع سابق، ص 29.

3- مارمول، مصدر سابق، ص 366.

ناهيك عن أن القيادة الجزائرية ليس فيها خير الدين في هذه المناسبة¹، وذلك نتيجة لانشغاله بالمهام المسندة إليه في إطار منصبه القيادي كرئيس لأسطول الدولة العثمانية المركزي أو السلطاني.

أولت الكنيسة حرصها وأنفقت من خزينتها على الحملات المسلطة على مسلمي بلاد المغرب، وفي إطار الحشد والتنظيم وافق البابا في سنة 1539م على منح الإمبراطورية نصف مداخل الكنيسة الكاثوليكية، وأسدى في هذا الصدد أوامره وتعليماته التنفيذية إلى كرادلة طليطلة وبورغوس وأسقف إشبيلية ومطران قرطبة².

وانزعجت محكمة روما من السباقات التي كان يقوم بها القراصنة (البحارة المسلمون) في بعض الأحيان على أراضي الدولة الكنسية، وطلبت بشدة من شارلكان حمل السلاح لقمعهم، وكل هذه الأسباب كانت تدفع بالإمبراطور نحو تجهيز أسطول قوي. وفي عام 1541م وفي عهد البابا "بول الثالث" اجتمع شارل الخامس بمعية مجلسه إعادة تأسيس شؤون الجزائر العاصمة، وقرر أن يضع نفسه على رأس قواته لغزو مدينة ومملكة الجزائر ثم إخضاع بقية أهلها، وزاده تحمسا الوصف الذي أعطي له من البابوية عن حالته وقوته، حيث وعدته بنجاح كبير يخلد اسمه بوضع هذه الأراضي الشاسعة تحت سلطة المسيح³.

إلا أنّ هذه المعركة خلّدت الجزائر كجبهة صامدة تحطمت على أعتابها مشاريع الصليبية الأوروبية، وأظهر فيها خليفة خير الدين حسّا جهاديا مباركا وقدرة على التعبئة، وهي نموذج لأخطر التحالفات المقدسة ضد الجزائر وهي القوة الإسلامية في جزء المتوسط

1- إتحاف ملوك الزمان بتاريخ الإمبراطور شارلكان، مصدر سابق، ص154.

2- صالح عباد، مرجع سابق، ص65.

3- Laugier De Tassy, Histoire du royaume d'Alger, Amsterdam, 1725, pp 42-43

الغربي. كما يعبر هايدو على شجاعة حسن آغا وبسالته الخارقة ويصفهما أساسا لهزيمة جيوش الإمبراطور¹.

"من أراد أن يضع التاج على رأسه فليتقدم إلى الجزائر ويأخذها"؛ عبارة تقطر اعترافا صرخ بها الملك الإسباني شارلكان في أعقاب هزيمته إثر الحملة العسكرية البحرية على مدينة الجزائر 1541م، حينما أحس أنها كسرت كبريائه وبخّرت أحلامه².

وعن المناسبة نفسها ذُكر أن الملك لما رجع إلى حيث عرشه رمى التاج غاضبا وأقسم ألا يضعه مجددا على رأسه إلا بعد القضاء على الجزائر³، وحول ذات الحادثة وردت رواية ابن أبي الدينار في قوله: "ولما تفرّق الإمبراطور عن تونس طالبتة نفسه بأخذ الجزائر فبعث إليها عمارة فكان من أمرها ما تقدم ذكره، ومن ذلك الوقت لم يضع تاجا على رأسه ولا أحد من ذريته إلى يومنا هذا، وذلك أنه لما سمع بفساد عمارته على الجزائر رمى بتاجه إلى الأرض وأقسم لا يضعه على رأسه إلا بعد أخذه الجزائر"⁴.

كما يرجع الأب دان هذه الهزيمة إلى لعنة أحد المرابطين الجزائريين ودعاءه على جيش شارلكان، ويقول أن هذا المرابط⁵ بنى له الجزائريون بعد ذلك مسجدا وضريحا دفنوه فيه، وغدا مزارا تبجيلا له على كرامته⁶. وقد أشار دان إلى مكان مزار هذا الولي الصالح

1- دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة زكي خورشيد وآخرون، المجلد السابع، مصر: وزارة المعارف العمومية، د.ت، ص 382-383.

2- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج03، الجزائر: دار الأمة للطباعة والنشر، 2014، ص68.

3- مسعود مجاهد، مرجع سابق، ص87.

4- ابن أبي الدينار، مصدر سابق، ص155.

5- أورد دان اسما مبهما، ويبدو أنه كتبه وفقا لنطقه غير الصحيح بـ (Cidi Utica).

6- P. Pierre Dan, Op.Cit, p106.

بأعالي القصبة، والمقصود هنا حسب الرواية الشعبية المتواترة هو الولي الصالح سيدي بَنْقَة (أبو الثقي) الذي كان ضريحة بساحة بور سعيد¹.

وفي ذات السنة 1541م صدر قرار يُحرّم على الموريسكيين تغيير مساكنهم، وكذا النزوح إلى بلنسية² كونها طريقهم المفضل لركوب البحر. ثم أُتبع ذلك بقرار يُحرم الهجرة من أي ثغر إلا بترخيص ملكي يوجب رسوما جد باهظة، وهي إجراءات تنم عن الخشية الدائمة من اتصال الموريسكيين بمسلمي بلاد المغرب³.

ويسرد لنا الحسن الوزان روايته عن تمسك شارلكان بالجزائر فيقول: "لقد عزم الإمبراطور كارلوس الخامس مرتين - حسب ما قيل لي - على الاستيلاء على الجزائر، وأرسل في سنتين مختلفتين أسطولا للإغارة على المدينة، فهزم الأول وغرق معظمه في المرسى واستطاع الأسطول الثاني أن ينزل الجنود إلى البر، فحاضوا الحرب ثلاثة أيام بدون انقطاع، إلا أنهم غلبوا فقتل بعضهم، وأسر البعض الآخر فأصبحوا عبيدا لبربروس، ولم ينج منهم إلا القليل"⁴.

وهذه الحملة عبئت لها الكنيسة والبلاط الملكي على أنها مهمة دينية فيصلية لإعدام التهديد الجزائري الذي توسع إلى تونس وجزر الباليار وتوجد في السواحل الفرنسية المتوسطية، حيث أقام البابا بول الثالث صلاة وفق طقوس المسيحية لأجل إنجاح هذه

1- هناك أكثر من رواية حول أثر دعوة الصالحين في قلب موازين هذه المعركة. ينظر، فوزي سعد الله، قصبة الجزائر "الذاكرة؛ الحاضر والخواطر"، الجزائر: دار الإرشاد للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت، ص 53.

2- توافقت الرؤية السياسية والدينية الإسبانية على اعتبار بلنسية خزان للموريسكيين الذين يمثلون طليعة الخطر الإسلامي، لذلك جرى إجماع بعد اتخاذ قرار الطرد سنة 1608م يحدد ابتداءه من مملكة بلنسية، لكن أسقفها تردد خوفا من عواقب الطرد على الاقتصاد البلنسي لكون موريسكييها يشكلون ثلثي تركيبها السكانية. ينظر: علي مظهر، مرجع سابق، ص 162.

3- عنان، مرجع سابق، ص 355.

4- الحسن بن محمد الوزان، مصدر سابق، ج02، ص40.

الحملة¹، كما نصّب لقيادتها خبراءه وأكفأه الحرب في أوروبا وعلى رأسهم دوريا وكورتيز²، وحسب دان فإن ترسانة الحملة قدر بـ 22 ألف رجل إضافة إلى ثلاثة آلاف متطوع من جنسيات مختلفة، في 118 سفينة³.

عهد فيليب الثاني:

لما قرر شارلكان الاعتزال عن الملك إلى الرهبنة والحياة الديرية، تنازل عن العرش إلى ابنه فيليب الذي اعتلاه سنة 1556م، وكانت امتدادات مملكته شاسعة منها وهران وسبتة المغربية، ومما روي عن هذا الأخير كان يعمل في مكتبه بجهد يفوق طاقة البشر لمحاربة الأفكار التي تخالف الكاثوليكية وتهدد مملكته⁴. كما كان حكمه مبسوطا على إمبراطورية تمتد من أجزاء إيطاليا إلى الأراضي المنخفضة، الأمر الذي دفعه إلى رسم سياسة خارجية لمملكته يقوم هو عليها من تصوره رئيسا زمنيا للعالم الكاثوليكي⁵.

كما حازت المسألة الدينية لدى فيليب الثاني رتبة الأولوية، فقاوم بشدة كل من لا يدين بالكاثوليكية، والتي جعلها أساسا لبرنامج حكمه مبتغيا من ذلك تحقيق الوحدة الدينية، فيما اتجه مع مسلمي الأندلس إلى استعمال الأساليب والطرق الأكثر عنفا وإلزاما لتتصيرهم وتهجيرهم قسرا⁶.

1- تابلين، مرجع سابق، ص354.

2- مغامر وبحار وقائد كورتيز شارك في احتلال المكسيك.

3-Dan, Op.Cit, p116.

4- مطهر المضواحي، الأندلسيون عقب سقوط غرناطة مأساة شعب لأكثر من مائة عام 1492-1609م، الإسكندرية، مصر: كتوبا للنشر والتوزيع، 2019، ص ص187-188.

5- جلال يحيى، تاريخ العلاقات الدولية في العصور الحديثة، مرجع سابق، ص47.

6- محمد عبده حتاملة، مرجع سابق، ص21.

وعندما اعتلى البابا كارفا¹ سدة البطرسية في سنة 1555م، أثار ذلك فُجاءة رجال الكنيسة باعتباره من أعداء فيليب الثاني، حيث عارض هذا البابا استغلاله الكبير للبابوية واتهمه بتحويل مقرات الآباء اليسوعيين إلى مستودعات للأسلحة²، وكان فيليب وقتها يعتبر الملك الكاثوليكي بما تحمله الكلمة من دلالة³.

وخلال كامل عهد فيليب الثاني 1555-1598م عُدَّ المورييسكيون خطرا على الدولة والكنيسة معا، وحامت حولهم الشكوك بأن يكونوا طابورا خامسا⁴ في وقت تنامي قوة الدولة العثمانية، الأمر الذي اقتضى محاربتهم والاحتراز من أي متعاون وإياهم؛ يمكن أن يساعدهم في استرجاع حقوقهم ومجدهم⁵.

كما عزم وريث شارلكان بعد اصطلاحه مع الفرنسيين مباشرة على إنشاء أساطيل بحرية في أحواض إيطاليا وكاتالونيا، وتلقّى في سبيل ذلك عوناً مالياً من البابوية، كما عقد برلمان قشتالة دورة سنة 1562م لأجل المشروع نفسه، وابتدأ يجسد ذلك بتوجيهه أول الضربات والخرجات على سواحل مدينتي الجزائر ووهران في سنة 1563م⁶.

جماعة الفرسان (يوحنا/رودس/مالطا) دعامة للصليبية:

فرسان الهيكل أو فرسان مالطا أو جنود يسوع المسيح الفقراء؛ تنظيم نشأ في أواخر القرن 12م وظهر تأثيره في أواخر العصور الوسطى، وفي غضون نصف قرن انتشرفي

1- هو جيوفاني بييترو كارفا، كان أسقف نابولي ثم كاردينا سنة 1536م، ليصبح في 23 ماي 1555م البابا الثالث والعشرين للكنيسة الكاثوليكية تحت إسم بولس الرابع. ينظر: كمال شكاط، حقائق وأباطيل "ردود علمية على دعاوي إستشراقية"، الجزائر: تديكلت للطباعة والنشر، 2013، ص ص 51-52.

2- مورييس معلوف، مرجع سابق، ص 74.

3- جلال يحيى، مرجع سابق، ص 47.

4- مصطلح حديث ظهر في غضون الحرب الأهلية الإسبانية في القرن 19، وهو يعني الخطر المتوخى من التيار الداخلي المعدود على الأمة الواحدة.

5- آصف حسين، مرجع سابق، ص 46.

6- كولز، مرجع سابق، ص 94.

مختلف ممالك العالم المسيحي من الدنمارك إلى إسبانيا ومن إيرلندا إلى أرمينيا. وخلافا لطبيعتهم في البداية والقائمة على حياة التقشف والطاعة، أصبحوا من أكبر رجال المال الصيارفة في العالم، واشتغلوا في تمويل نصف أوروبا بالمال حتى اقترض منهم ملوك انجلترا وفرنسا¹.

تزايد نفوذهم وقوي حتى وُصفوا بأنهم يشكلون في فرنسا دولة داخل دولة، وأمام قوة تأثيرهم هذه تعرضوا إلى مؤامرة بابوية وملكية أدت بهم وبرؤوس تنظيمهم إلى مكائد المحاكمات والسجن والتصفية. وبعد هذه الحوادث وهذا المنحى آلت مكانه فرسان الهيكل إلى ما عُرف بالإسبارتية وهو تنظيم كان ينضوي تحتهم، وذلك بقرار من البابوية مؤرخ في 02 مارس 1312م، يقضي بتحويل ميراث وممتلكات فرسان الهيكل إلى الإسبارتية في المناطق خارج مملكة قشتالة وأرجونا والبرتغال ومايوركا، وكلاهما كان تنظيمًا عسكريًا².

أصبحت جزيرة رودس³ المركز الرسمي لقيادة التنظيم، وعلى إثر دعم البابوية واتفاق مع أحد قراصنة جنوة يدعى **فيجنولو دي فيجنولي Vi-gnôle de Vignoli**، قامت جماعة الفرسان بالهجوم على جزيرة رودس التابعة وقتها إلى الإمبراطورية البيزنطية، وكان أهلها ذوي علاقة تاريخية بالملاحة البحرية، وقد شدهم إليها موقعها الجغرافي المثالي كمرر لأغلب السفن التجارية بين موانئ غرب أوروبا والشرق، ضف إلى ذلك غناها بالغابات الشاسعة التي توفر الأخشاب لبناء السفن، ثم أقر -فيما بعد- مرسوم بابوي حق ملكيتهم هذه الجزيرة⁴.

1- جون جوليوس نورويش، مرجع سابق، ص 250.

2- المرجع نفسه، ص ص 251-252.

3- جزيرة يونانية تعد من أشهر وأهم جزر البحر الأبيض المتوسط في جزءه الشرقي، وهي بوابة آسيا الصغرى عبر البحر، وهي مستطيلة الشكل بحيث يبلغ طولها حوالي 77 كلم ويختلف عرضها باختلاف شكلها، كما كانت على مدار الحضارات مركزا تجاريا هاما، اتخذتها جماعة الفرسان أو الرهبان موطنًا وملجأ لها منذ عام 1309م أيام الإمبراطورية البيزنطية، واتخذوها مركزا لأعمال القرصنة في البحر الأبيض المتوسط. للمزيد ينظر: حبيب غزالة بك، جزيرة رودس" جغرافيتها وتاريخها وآثارها"، مصر: مطبعة الاعتماد، 1929.

4- وولف، مرجع سابق، ص 253.

تملّكت جزيرة رودس فرسان القديس يوحنا(مالطا) نتيجة لكونها جزءاً من أراضي الإمبراطورية البيزنطية، يتّخذ منها الفرسان مُستقراً لأفعالهم في ممارسة القرصنة وتعرض السفن. كما استثمر هذا التنظيم فيما بعد من خلال الزج به كآلة حرب في المواجهات بين الملوك الكاثوليك والمسلمين، وتوافرت مجموعة مؤشرات تاريخية ودينية وجغرافية صنعت من هؤلاء الفرسان وجزيرتهم مكاناً وفصيلاً جيداً للحروب الصليبية ضد المسلمين¹.

وكانت رودس من أهم المراسي التجارية والعسكرية، وأشهر ملتقى تتقاطع فيه سفن العالم البحرية على اختلاف جنسياتها وأعرافها²، إذ جعل الفرسان القوادس منها بؤرة يمارسون منها حرفتهم، واحتضنت هذه الجزيرة ذات الموقع الاستراتيجي اللّصومية البحرية المسيحية. كما أكسبها ميناؤها الحساس الوساطة التجارية والخطورة الحربية على مصالح المسلمين واتصالاتهم في رحاب البحر المتوسط³. ومنذ العقد الثاني من القرن 16م توطدت هيمنة الفرسان على قسط بالغ من بحر إيجه، حتى شملت خمسة جزر متاخمة لمركز العثمانيين في شرق المتوسط⁴.

وجمعت رودس بقايا حصون الصليبية المشرقية المهددة لخط الاتصال البحري للدولة العثمانية عن طريق مصر وبلاد الشام⁵. وتمّوق الفرسان في فروع عديدة منتشرين في إيطاليا والبروفانس وأسبانيا وحتى إنجلترا وألمانيا، واتصفوا بالتنسيق والإقبال على خوض الحرب المقدسة، إذ انحدر غالبيتهم من فئة النبلاء وتلقوا تكويناً أهلهم للحرب البحرية والالتزام بالإخلاص للتنظيم وخدمته⁶.

1- عبد الرحيم العباسي، منح رب البرية في فتح رودس الأبية، تحقيق عبد الله الكندري، الكويت: جامعة الكويت، حوليات كل كلية الآداب، العدد 18، 1998، ص 19.

2- عبد الله حمادي، سيرة المجاهد خير الدين، مصدر سابق، ص 07.

3- المصدر نفسه، ص 26.

4- نفسه، ص 48.

5- ليلي الصباغ، مرجع سابق، ص 138.

6- وولف، مرجع يابق، ص 77.

توسّط البابا كليمنت السابع من مركزه لدى الإمبراطور وطلب من شارلكان أن يبذل في رعاية هذا التنظيم ورعايته كونه مؤسسة دينية وعسكرية تدافع عن المسيحية، وكان وقتها بحاجة إلى جزيرة يتخذ منها مقرا له بعد أن فقد¹ جزيرة رودس وأخرجه منها المسلمون العثمانيون. وتم ذلك لصالح الفرسان حيث أصدر التاج الهابسبورغي وثيقة التنازل لهم عن جزيرة مالطا وطرابلس في 23 مارس 1530م².

وبسبب استيلاء خير الدين بربروس على أرخبيل جزر سيكلاد³ جنوب اليونان، استحال نجاحهم في استرجاع أي جزيرة كنقطة ساحلية يرتكزون فيها لعرقلة القوة الإسلامية ومنع انتشارها، كما يُذكر أن بايلرباي الجزائر خير الدين كان قد استولى على 25 جزيرة وهدم ثمان قلاع ومبانٍ⁴، وذلك في إطار جهود تجفيف منابع الخطر المسيحي في المتوسط. وفي فترة تسلط تنظيم الفرسان على طرابلس تعرّضت حصونهم إلى هجمات عنيفة من البحارة العثمانيين والسفن الجزائرية، إضافة إلى المقاومة الداخلية من الطرابلسيين⁵. وخلال القرن 16م ساهم فرسان مالطا في الحملات الصليبية على بلاد المغرب، وتجنّدوا خلف دعوة البابا بول الرابع سنة 1560م للمشاركة في حملة عسكرية بحرية ضد طرابلس وتونس والجزائر، كما تشكلت الحملة بهم إلى جانب رجال من مملكة نابولي واندفعت في 15 ألف مسيحي يقودهم ملك صقلية الدوق دي ميدينا⁶.

1- حول استعادة السلطان القانوني جزيرة رودس وطرد تنظيم الفرسان منها إثر الحملة والحصار سنة 1522، ينظر: جواد سماحي، مرجع سابق، ص ص500-502.

2- كوستانزيو برينيا، مرجع سابق، ص 20.

3- تقع ضمن ما يسمى ببحر الأرخبيل في الجزء الشرقي من البحر الأبيض المتوسط المؤدي من اليونان إلى آسيا الصغرى، وجزيرة سيكلاد هي القسم الغربي من هذا الأرخبيل بالنسبة لليونان. للمزيد يُنظر: حبيب غزلة، جزيرة رودس، مرجع سابق، ص ص11-12.

4- كوستانزيو، مرجع سابق، ص 20.

5- المرجع نفسه، ص ص29-30.

6- سعيديوني، ورقات جزائرية، مرجع سابق، ص ص146-147.

ولعله من باب التدليل أن يقوم كثير من الكتاب بجعل جماعة الفرسان وبحرية الجزائر مضربا لمثال واحد من كل جبهة، ذلك أن موقع فرسان مالطا على الحدود البحرية المتوسطية المفضية إلى الشرق، يقابله موقع الجزائر في الجهة الغربية. وفي هذا يتحدث جون وولف حول توطين شارلكان لتنظيم الفرسان في جزيرة مالطا وإنابته على سواحل طرابلس الغرب، فيقول: "استأنفت سفن الدين مهاجمتها للسفن التجارية التركية...، وهكذا كانت مالطا في أعين الأتراك عبارة عن عش للنسور تماما كما كانت الجزائر في أعين الإسبان"¹.

البابوية وتوجيه السياسة الملكية خدمة للصليبية:

لم تكن السياسة الإسبانية منذ سقوط غرناطة سوى أداة لينة في يد الكنيسة والتي بلغت عندئذ ذروة قوتها ونفوذها، ويتضح في هذه الفترة مدى إذعان الملكية الإسبانية لوحى الكنيسة²، وبرغم تبؤد الوحدة الدينية المسيحية في أوروبا بسبب الإصلاح الديني إلا أنها كانت تجد في عداوة المسلمين ما يجمعها³. ومن المعلوم أن أشد صراع أوروبي-أوروبي في النصف الأول من القرن 16م هو ذلك الحاصل بين إسبانيا وفرنسا، حيث اتخذ كل واحد من الطرفين، الشأن الديني جوهرًا للحكم وسبيلًا للسيطرة داخل وخارج أوروبا، فيما تدخلت البابوية في هذه الحلقة الحادة بما تراه أقرب لمصلحتها.

وكان لفرنسوا الأول رغبة في حسم المنافسة لصالحه ونيل شرف التأمير على أوروبا المسيحية، فطلب مساعدة الكنيسة وتعهد للبابا ليون العاشر بإعلان حرب صليبية دينية على المسلمين، ومما كتب فرنسوا الأول لرئاسة البابوية في ذلك: "أنت تعلم يا أبي السعيد أن هذا الهم ما فتئ يساور قلبي منذ حدثتي، ولكم تمنيت أن تنتهي الحروب والخلافات بين الأمراء المسيحيين ويسود السلام باتفاقهم جميعا؛ فيحين الوقت للقيام بأجمل وأقدس حرب

1- وولف، مرجع سابق، ص78.

2- عبد الله عنان، مرجع سابق، ص313.

3- ديلماس، مرجع سابق، ص ص99-100.

ضد الترك (المسلمين) وكل عدو للعقيدة المسيحية، وبهذه النية وفي سبيل هذه الغاية، أقدمت حال تسلمي مقاليد مملكتي على إرسال الكتب والسفراء إلى كل من هؤلاء الأمراء"¹. وفي سنة 1529م أنجز أحد رجال الدين الكاثوليكين بحثا مفصلا يتعلق بأهمية الحرب المقدسة ضد (الأتراك) المسلمين، أرسله إلى شارلكان، وكان هذا الرجل "خوان خينيس دي سيبوليدا" يستحث الإمبراطور على هذه الحرب وأولييتها بالنسبة لغيرها من الحروب، وفي الوقت الذي يُحرضه على هذه المأمورية الدينية يطلب منه السعي في المصالحة مع جميع الأعداء المسيحيين حتى يتسنى مواجهة المسلمين. ومما جاء في تلك الرسالة: "إلى شارك الخامس... من أجل التوصل إلى السلم مع جميع المسيحيين وخوض حرب ضد الأتراك،...، فالموضوع هنا لا هو الثروة بل الوطن والدار والحرية والخلاص والدين"².

كما أعاب الرأي العام الأوربي الهابسبورغي الرسمي على فرنسا تحالفها مع المسلمين، كما وصفته البابوية بالتحالف المدنس³ وأحيانا بالتحالف غير المقدس. وتُعتت هذه العلاقة في أوساط زمرة من الباحثين بالدبلوماسية الميكيافيلية⁴. حتى أن الملك شارلكان بعث إلى خصمه فرنسوا الأول عقب ذبوع نبأ تولي خير الدين العمارة العثمانية قائلاً: "أنت تعلم ما لحقني من هذا الرجل التركي، ولا بد أن يتفرغ إليك فيلحقك منه مثل ما لحقني والرأي أن نتفق ونكون عليه يدا واحدة"⁵.

وعن ذلك قال حاكم وهران الكونت ألكوديت لإمبراطوره الملك شارلكان: "إن لم تستطع جلالتم القيام كما ينبغي بالحرب الصليبية المقدسة التي شهرتها على الكفار

1- إيميل خوري وعادل إسماعيل، مرجع سابق، ص 03.

2- ماستناك، مرجع سابق، ص ص 26-27.

3- عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ص

4 - Vincenzo Scarpello, Storia e Strategia della Pirateria Barbaresca (Secc. XVI – XIX), Italia, 2010, p12.

5- سيرة المجاهد خير الدين بربروس، مصدر سابق، ص 149.

(يقصد المسلمين)، فإن السبب في ذلك هو ملك فرنسا. فإننا نتألم لذلك لأننا نعلم أننا كنا أمورا هائلة بإفريقيا هذه السنة¹.

وفي غضون هذا التحالف أتهم فرنسوا الأول بالمروق، وتحت ضغط كبير من الباب بول الثالث دُفع به إلى إبرام معاهدة نيس سنة 1538م كصلح بين الملكين، تعهد فيه ملك فرنسا -شرفيا- بعدم إعلان الحرب على شارلكان في مرحلة حملاته المسلطة على الجزائر². وتأتي هذه المساعي إلى تركيز الهدف على الجزائر من خلال الحملة التي استنزفت حوالي ثلاث سنوات من التحضير والاستعداد³.

وبعد شارلكان اعتُبر فيليب درع الكنيسة وحامل لوائها، وكان عليه تحمل الصدام مع الأمة الإسلامية على سواحل المتوسط؛ أين كانت جمهورية البندقية تتعرض للإذلال من طرف السلاطين العثمانيين⁴، وألقي عليه أولا عبئ إنهاء حروبه الدينية والتنافسية داخل أوروبا والتحول من الأراضي المنخفضة للاستقرار بإسبانيا تفرغا لشأنها⁵.

كما أتت القضية الدينية ضمن أهم كواليس معاهدة كاتو كامبريزي سنة 1559م، تتعجل إنهاء الحرب التي دامت نصف القرن 16م الأول بين الهابسبورغ والفالوا. وبعد أن هادن فيليب الثاني الفرنسيين التفت نحو الجبهة الإسلامية وكلف عمه فرديناند بمباحثات مع السلطان العثماني تبحث عن سلام يقي شر الحرب، وهنا اشترط خصمه القانوني تعويضات باهظة حالت إلى تردد فيليب بعد موافقة مبدئية⁶.

1- بن أشنهو، مرجع سابق، ص 223.

2- المدني، مرجع سابق، ص 255.

3- منذ نتيجة معركة بروزة 1538م الثقيلة على أسطول العصبة المسيحية.

4- Godefroid Kurth, Op.Cit, Ibid, p153.

5- نبيل عبد الحي رضوان، تطور الأسطول العثماني في ظل أبرز الحضارات البحرية للبحر المتوسط، مصر: كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلة المؤرخ المصري، العدد 20، جويلية 1998، ص 232.

6- وولف، مرجع سابق، ص ص 72-73.

المبحث الثالث: مظاهر المجابهة الدينية للجزائر

ستظل الجزائر هي القاعدة التي تنطلق منها الغارات الإسلامية الأساسية ضد إسبانيا وإيطاليا (الإمبراطورية والبابوية)¹، كما لم تفاجئها تلك الجبهة المسيحية الضارية، فجمع من العلماء والفقهاء سبق موقفه فترة عموم المحنة، حيث تفتنوا إلى أن السياسة المعلنة على مسلمي الأندلس سيدرك شرها في الجزائر العباد والبلاد لا محالة.

ومن الجزائر اتخذت المقاومة الدينية عدة صور في حماية البلاد من جميع العمليات والمحاولات المسيحية المنبعثة من أوروبا، فضلا عن المبادرة إلى تقوية الجبهة الداخلية والعمل على ترصّ الصفوف حكومة وشعبا.

1- قبل إعلان الالتحاق بالدولة العثمانية:

انتهت مصائر بعض أمراء الدولة الإسلامية في الأندلس إلى المغرب الأوسط، وعبر بعضهم إلى المملكة الزيانية، وكان من جملة اللاجئين إلى وهران من هؤلاء؛ السلطان الزغل² أمير مالقة وأحد ملوك غرناطة السابقين وعم آخر ملوكها، وقد نزل إلى وهران ثم انتقل إلى تلمسان التي توفي ودفن فيها سنة 1494م³.

وفي سنة 1857م اكتشفت رخامة أثناء أشغال هدم بعض المباني والدور القديمة في قلب مدينة تلمسان على مقربة من جامع سيدي براهيم المصمودي⁴، تؤكد فيما بعد أنها شاهد

1- كولز، مرجع سابق، ص92.

2- الزغل في العامية الأندلسية تعني البطل، كما لقب السلطان الزغل بالمجاهد والبطل، وهو عبد الله محمد بن سعد استطاع رد القشتاليين عن مالقة في معركة الشرقية وتزعم المقاومة ضد الأسبان إلى آخر أيامه حيث لم فرض عليه تعاون أبي عبد الله الصغير مع فرديناند الاستسلام الذي أشعره بالهانة، فاختر العبور إبي عدوة المغرب. ينظر: عبد الرحمان البشر، مباحث الأندلس، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، 1971، ص503. و: محمد عطيات، الأندلس من السقوط إلى محاكم التفتيش، الأردن: أمواج للطباعة والنشر، ط01، 2012، صص100-103.

3- ابن سحنون الراشد، مصدر سابق، ص17.

4- يقع في قلب مدينة تلمسان بمحاذاة قلعة المشور في حي باب الجديد، يرجح أنه بني في القرن 14م عهد الأمير الزياني أبي حمو موسى الثاني حمل اسم العالم الشيخ سيدي براهيم المصمودي المتوفى سنة 1402م. للمزيد ينظر: يحيى

قبر، وبعد أن عُنيَت باهتمام السلطات الفرنسية العسكرية والأثرية، رجّح بروسلاّر أنها شاهد قبر الأمير عبد الله الزغل¹.

وعندما اشتدّ الحال على غرناطة ناشد أميرها أبو عبد الله السلطنة الزيانية في تلمسان من خلال قصيدة إلى "أبي حمو" نظمها الشيخ الفقيه أبي البركات، غير أن غرق الزيانيين في ضعفهم أعجزهم عن العون، ونستشهد من القصيدة بالبيت التالي²:

هل من مجيب دعوة المستنجد أم من مجير للغريب المفرد

وكذلك اختار بعض علماء الأندلس بلاد المغرب الأوسط لودا لهم، إثر المضار التي مستهم من قبل ملوك قشتالة وأراغونا الكاثوليكيين، وذلك بعد نكبة غرناطة مباشرة، إذ يذكر المقري أخبارا عن هؤلاء حين يقول: "وكان جماعة من علماء الأندلس خرجوا إلى تلمسان، منهم القاضي الشهير عبد الله بن الأزرق، صاحب الشرح العجيب في مختصر خليل، وكتاب السياسة الملخّص من مقدمة ابن خلدون، وكتاب روضة الإسلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام،... ومنهم بنو داود المذكورون في فهرسة الشيخ ابن غازي، وهؤلاء خرجوا من الأندلس قبل سقوط غرناطة؛ ولكن لما رأوا استتالة العدو عليها، وأنه آخذها لا محالة، قوّضوا رجالهم عنها ونزلوا بتلمسان المحروسة"³.

بوعزيز، المساجد العتيقة في الغرب الجزائري، الجزائر: عالم المعرفة، وزارة المجاهدين، طبعة خاصة، 2009، ص 122-127.

1- بن أشنهو، أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة دفين تلمسان أم فاس، الجزائر: وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مجلة الأصالة، العدد 26، 1975، ص 271-282.

2- محمد عطيات، الأندلس من السقوط إلى محاكم التفتيش، عمان، الأردن: أمواج للطباعة والنشر، ط1، 2012، ص 119-120.

3- المقري، مصدر سابق، ص 71.

السلطة الزيانية والعلماء الصادحون:

إن ضعف حال بلاد المغرب نتيجة أعطال السلط الحاكمة نتيجة حيازة الجيوش الإسبانية لمدن السواحل واحدة بعد أخرى، اضطر الفقهاء والمرابطين إلى دعوة السكان التصدي لهذا الخطر¹، فالضعف السياسي اضطر رجالات الدين والمرابطين إلى الدفاع عن الأراضي الإسلامية التي تعود إليهم بتولي القيادة ضد العدو، أو بتوجيهها روحيا بالنداء في أهل المدن الساحلية وإفزازهم إلى الجهاد².

وقوبلت الاعتداءات الإسبانية من طرف علماء الجزائر وفقهائها وذوي الرأي، بالرفض والصدح بوصفها تهديدات للأمة الإسلامية ترتب الجهاد. وقد أخذت حدتها تتزايد كانعكاس لفقدان الطرف المسيحي مدينة القسطنطينية أمام جيش محمد الفاتح، ومن أوائل هؤلاء الشيخ عبد الرحمان الثعالبي الذي يبرز في رسالة³ موجهة إلى أحد تلاميذه في منطقة بجاية تحمل دعوة للجهاد والإعداد له جيدا، استنانا بأهل مدينة الجزائر وبأديتها الذين حرضهم هو على ذلك⁴.

ومن مقتطف ما جاء فيها قول الثعالبي: 'فقد وقفت على كتابكم وأنتم تستشيرونني نقل كتبكم إلى زاوية خوفا من عدو الدين أن ينزل بساحة المسلمين، ولست أخاف على بلدكم لأن والدكم أخبرني أنكم إن رأيتم ما لا تطيقون من كثرة العدو تخلون من أجله ولا يبقى في البلد إلا المقاتلة. فاكتب رحمك الله إلى إخواننا ببجاية وحذرهم ليتيقظوا ويعملوا

1- ناصر الدين سعيدوني، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية "الجزائر، تونس وطرابلس"، جامعة الكويت: حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، العدد 33، ، 2010، ص12.

2- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج01، الجزائر: عالم المعرفة، طبعة خاصة، 2015، ص460.

3- عثر على الرسالة الأستاذ سعد الله ضمن مخطوط بدار الكتب المصرية، وقدم لها قراءة تعريفية وتحليلية في كتابه أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. لكنه ذكر أن تاريخها لم يرد، إذا يُرجح بالنظر إلى موضوعها ومحتواها وكذا تاريخ وفاة الشيخ الثعالبي (سنة 1471م)، أنها تكون في السنوات التي تلت فتح القسطنطينية وتقاوم الخطر الصليبي على الأندلس.

4- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج01، الجزائر: دار البصائر، طبعة خاصة، 2015، ص204-207.

ما أشرنا إليه من الدرق¹؛ على الوجه الذي أشرنا إليه. ولو أطلعت على ما أطلعت عليه من التحريض لما وسعكم أن تشتغلوا بشيء بعد أمور مهماتكم بعد الصلاة إلا بالجهاد...².

ويرجع التلميح إلى خطر البرتغال والأسبان في قول الثعالبي: "والله والله لو لم يكونوا بنو الأصفر³ على وجه الأرض لخلت أن ينبعوا من تحت الأرض، وأما تعيين وقتهم فذاك إلى الله؛ هو أعلم. نَعَم قرأين الحال وما شوهد من تحريض النبي صلى الله عليه وسلم يؤذن بالقرب، وما ينبغي أن تكثروا من المكاحل كثرة تعمكم وتعم من يريد صرختكم⁴."

ولما ظهر ضعف ملوك البلاد عن المقاومة واتصال بعض الأمراء بالعدو نادى علماء الدين بالجهاد والاعتماد على النفس وإحياء الرباطات، ولما كانت اتصالات عروج وخير الدين بالساحل المغربي، حصل لقاء عروج بالشيخ أحمد بن يوسف الملياني⁵ في شاطئ كريشتل بوهران. وأحمد الملياني من ذوي المنزلة قبل جبهة العنصر التركي، كونه أهلاً للفقهِ والرواية -كما قول أبو راس الناصري-، وقد أسندت إليه في عصره رئاسة الشورى بالمغرب الأوسط⁶.

1- هو الصلب من كل شيء، والدرق أو الترس قطعة صلبة يتخذها الجندي أو الفارس للوقاية من الضربات في المعركة ونفاذ السهام والسيوف الحادة. ينظر: الفيروز أبادي، القاموس المحيط، تحقيق محمد الشامي وجابر أحمد، القاهرة، مصر: دار الحديث، 2008، ص ص188-358.

2- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، مرجع سابق، ص ص208-210.

3- يقصد بهم الروم؛ وخص هذا الاسم لنعته ملوكهم.

4- سعد الله، المرجع نفسه، ص211.

5- زاهد ومتصوف من أعلام الطريقة الشاذلية، اختلف في تاريخ ميلاده بين 1436 و1442 وكذلك في تاريخ وفاته بين 1524 و1532. دفن في مدينة مليانة؛ ذكر المترجمون له أنه درس وتأثر بعلماء كثر من المغرب إلى قلعة بني راشد وبجاية، وبعض المشاركة الذين احتك بهم من إيران وسوريا في رحلة لأداء فريضة الحج. للمزيد ينظر: محمد حاج صادق، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1989.

6- أبو راس الناصري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج01، مصدر سابق، 161.

ومما ذكر حول ذلك إسرار عروج للشيخ الملياني عن نيته في الجهاد من الجزائر حيث بارك الشيخ ذلك، ويتضح فيما بعد استحكام سلطة الجزائر للأتراك العثمانيين، حسن علاقتهم مع أحمد بن يوسف، حيث وضع أبناءه على رأس ركب الحج، كما بنوا ضريحه ومسجده في مدينة مليانة¹.

وكان سيدي أحمد بن يوسف على غرار رجال الدين والتصوف الكثر مرحبا بالبحارة العثمانيين، أظهر القبول اتجاههم ووجد فيهم مسلمين ذوي عزم وصلابة مستحقين، نتيجة ما يبذلون في مجاهدة الأسباب ومناجدة الموريسكيين الذين أساءت بهم وبأحوالهم الكتلثة. وكان عروج وإخوته يرون في رجال التصوف خير حليف لهم في مشروعهم وصراعهم الدائر بالجزائر².

فمناشدات الأندلسيين مع تزايد وطأة الاضطهاد الممارس عليهم، لاقت مساندة المتطوعين من سواحل بلدان المغرب العربي، مساعدة إياهم على الهجرة والهروب. وصاحب ذلك بعث رسائل استفتاء إلى علماء الجزائر، ففي سنة 1504م وتزامنا مع تسارع إجراءات الانتقام من طرف محاكم التفتيش برئاسة خمينيس، وجّه طلب فتوى إلى الشيخ أحمد بن بوجمعة المغراوي³، يستعرض تفاصيل النيل من المسلمين وعقيدتهم ووسائل تنيهم عن التزاماتهم الدينية⁴، وعليه أجازت فتواه السماح بالبقاء في إسبانيا مع ممارسة التقية تحاشيا لشر محاكم التفتيش والبلاط الإسباني⁵.

1- ابن سحنون الراشدي، مصدر سابق، ص19.

2- حمد حاج صادق، مرجع سابق، ص104.

3- ينحدر من قبيلة مغراوة وهي فرع من فروع زناتة، نشأ في وهران وتولى الإفتاء فيها، توفي سنة 1514م بمدينة فاس المغربية ودفن فيها. للمزيد، ينظر: حسوني أبو بكر، مخطوطة رسالة الإمام أبي العباس أحمد بن أبي جمعة المغراوي مفتي الديار الوهرانية في القرن العاشر (10هـ) لأهل الأندلس زمان المحنة، الجزائر: جامعة وهران، المجلة الجزائرية للمخطوطات، العدد07، 2010، ص ص293-300.

4- علي المنتصر، مرجع سابق، ص ص71-73.

5- فوزي سعد الله، مرجع سابق، ص35.

يأتي هذا والتحوّل في السياسة الإسبانية تجاه المسلمين في شبه الجزيرة الأندلسية، وقد طرح ذلك تحديات ملحة وعاجلة، وحرك الاجتهادات على ضفتي المتوسط في أوساط علماء الدين الإسلامي نتيجة إلحاح مسلمي الأندلس عليهم بالأسئلة حول الواجب فعله بين البقاء في ديارهم أو الرحيل إلى دار الإسلام¹.

لذلك تفاعل العلماء الجزائريون مع أحوال الأندلسيين وكان لهم رأي اتجاه العناء الذي أحاط بهم، وفي غمرات اشتداد وقع التصير عليهم راسل جماعة منهم العالم الجزائري الشيخ أحمد بن يحيى الونشريسي، والذي أفاد في ذلك بفتوى تعتبر أقدم نص في هذا الموضوع².

اختار لها عنوان "أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر"، وفيها بسط لرؤية الشّرع ومنظوره بشأن الهجرة من دار الكفر وموجباتها، ورد واضح على تشكي فئة الأندلسيين مما وجدوا في دار الإسلام³. وقد تضمن كتاب المعيار تفاصيل هذه المسألة⁴ مؤكداً وجوب الهجرة من دار الكفر تقليلاً لعددهم ونصرة للإسلام، وأن هذه الهجرة هي للدين لا للعالم.

علاقة رجال الدين برسالة الجزائريين إلى الباب العالي 1519م :

تعتبر رسالة أهالي مدينة الجزائر إلى سلطان الدولة العثمانية وخليفة المسلمين سليم الأول سنة 1519م خطوة تحدد على أثرها مصير البلاد الجزائرية، في ظل التجاذبات

1- فوزي سعد الله، مرجع سابق، ص35.

2- أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص55.

3- كتب رسالة الاستفتاء الشيخ أبو عبد الله بن قطية الذي وصفه الونشريسي الفقيه المعظم والخطيب الفاضل، ويظهر من بداية الرسالة تذمر فئة الأندلسيين المهاجرين إلى ديار الإسلام مما وجدوا من ضيق العيش؛ في مقابل ما تركوه من الدور والأموال والمزارع وغيرها من أمور الدنيا، حتى أن الرسالة أشارت إلى اقتراح هؤلاء الرجوع إلى مملكة إسبانيا في قولهم: "إن جاء صاحب قشتالة إلى هذه النواحي نسير إليه فنطلب منه أن يردنا إلى هناك (أي دار الكفر)". أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، ج02، الرباط، المملكة المغربية: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1981، ص ص119-120.

4- هناك تععيد وتديل على هذه الفتوى حيث ورد جواب الونشريسي في تفاصيل كثيرة، ينظر: أحمد بن يحيى الونشريسي، نفسه، ص ص119-136.

الخطيرة داخلية كانت وخارجية. وكان وراء هذه الرسالة والسفارة الموجهتين إلى مركز الخلافة العثمانية -كخيار خطير وحساس- ممثلي فعاليات سكان مدينة الجزائر عاصمة البلاد، وذوي الرأي وعلى رأسهم رجال الدين، حيث جاء عنوانها موسوماً بـ: "رسالة القاضي والخطيب والفقهاء والأئمة والتجار والأمناء وكافة سكان مدينة الجزائر العامرة"، والدليل من هذا أن الموقف المتخذ سلكته إرادة توافقية وإجماع، ولم يكن تدبيراً مفروضاً أملتة جهة مفردة¹.

حيث يتضح من خلال مضمونها أن رجالات الدين في الجزائر قد فاضلوا بين السلطة السياسية المحلية المهلهلة وبين الإخوة بربروس، كأصحاب مشروع يتلاءم والحاجة إلى حماية البلاد الإسلامية وتقوية شأنها للصمود في وجه الصليبية الجاثمة على البلاد.

بل إن هناك طرح يرى أن السبب من ورائها فتوى شرعية لعلماء الدين، والذين لم يجيزوا فيها لخير الدين مغادرة مدينة الجزائر إثر استشهاد عروج، إذ خاطبوه من خلال تلك الفتوى بـ: "أنه يتعين عليه البقاء في المدينة للدفاع عنها، وأنه لا رخصة له في ترك الأهالي عرضه للعدو الكافر. وإذا كان يريد الأجر بالجهاد في بلاد الروم، فإن هناك الكثير ممن يقوم به غيره والمصلحة العامة تقتضي ببقائه في مدينة الجزائر لحمايتها"².

ضيف إلى ذلك أن قيادة الوفد الذي حمل الرسالة أسندت لواحد من رجال الدين وكذلك السياسة، وهو الشيخ ابن القاضي (أبو العباس أحمد) مؤسس وأمير إمارة كوكو التي امتدت سلطتها إلى مدينة الجزائر حتى انسحاب خير الدين إلى جيجل سنة 1527م.

وكان ابن القاضي قد تولى القضاء في بجاية، وأسهمت جهوده في استقرار الإخوة بربروس بالجزائر سنة 1514م، والشيخ ابن القاضي كان له عهد بممارسة الحكم وتعاطي

1- ينظر: المجلة التاريخية المغربية، مرجع سابق، العدد 06، تونس، 1976، ص 119.

2- دراج (نقلا عن صاحب كتاب الغزوات)، الدخول العثماني إلى الجزائر، مرجع سابق، ص 350.

السياسة، حيث أقره سلطان تونس الحفصي واليا على مدينة عنابة وإقليم قسنطينة¹. وكلها محطات أهّلته لتقلد هذه المهمة ذات الأبعاد الجسيمة².

وفي السياق ذاته يؤكد وزن هذه الشخصية الدينية صاحب الاستقصا حين يقول: "ثم سما (أي الأسبان) لتملك الجزائر وشره لالتهامها، وضايق المسلمون في ثغورهم وضعف بنو زيان عن مقاومته، وكان الشيخ الفقيه الصالح أبو العباس أحمد بن القاضي الزواوي ممن له الشهرة الكبيرة في وسائط المغرب الأوسط وجباله"، إلى أن يضيف عن اتصاله بعروج وخير الدين فيقول: "وصار لهم ذكر في أقطار البلاد وتمكن ناموسهم من قلوب العباد فكاتبهم الفقيه أبو العباس المذكور وعرفهم بما المسلمون فيه من مضايقة العدو الكافر وقال إن بلادنا بقيت لك أو لأخيك أو للذئب"³.

والأمر نفسه أقرته الرسالة في معطياتها للسلطان سليم وهي تزوده بأحوال البلاد وحاجتها إلى السند والجهاد، حيث تضمنت وجهة نظر أعيان الجزائر وهم يبلغونه قائلين: "آنذاك قدم ناصر الدين وحامي المسلمين المجاهد في سبيل الله عروج باي مع ثلة من الغزاة، فقابلناه بالعز والإكرام واستقبلناه، لأننا كنا في خوف من عدونا فخلصنا بفضل الله...، فلما وصل إلى القلعة (يقصد بجاية) وحاصرها مع المجاهد الفقيه الصالح أحمد بن القاضي زلزلوا أركانها وهزموا بلدانها..."⁴.

1- عبد القادر نور الدين، صفحات خالدة...، مرجع سابق، ص50.

2- أحمد بن عبد الرحمان الراشدي، القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط، تحقيق ناصر الدين سعيدوني، الجزائر: دار البصائر للطباعة والنشر، ط02، 2013، ص31.

3- الناصري، مصدر سابق، ج02، صص 217-218.

4- عهد الحفصيون إلى ابن القاضي بأمر القضاء في بجاية التي امتد إليها سلطانهم، وبعد احتلالها من طرف الإسبان خرج منها وولي على عنابة، ثم ارتحل إلى بلاد القبائل الكبرى وبها أسس إمارة كوكو سنة 1511م، وعرف له بن أشنهو نقلا عن ابن عساكر بقوله: "أبو العباس أحمد بن القاضي الشيخ الصالح المتصوف العالم بوظائف التشريع والمصالح، أحد أنصار هذا الدين وأئمة المهتدين أبو العباس أحمد بن القاضي الزواوي، وكان من الفضلاء الأخيار والصلحاء

إلى أن نوهت الرسالة بدور رجال الدين وفي مقدمتهم مندوب السفارة في قولها: "إلا أن عُرفاء البلدة المذكورة رفعت أيديها متضرعة إليه حتى لا يرتحل خوفا من الكفار إذ هدفهم هو النيل منا ونحن على غاية الضعف والبلاء. ولهذا أرسلنا إلى بابكم العالي الفقيه العالم المدرس سي أبو العباس أحمد بن علي¹ بن أحمد ونحن وأميرنا خدام أعتابكم العالية وأهالي إقليم بجاية والغرب والشرق خدمة مقامكم العالي، وأن المذكور حامل المکتوب سوف يعرض لحضرتكم ما يجري في هذه البلاد من الحوادث"².

أثر رجال الدين في شؤون السياسة والحكم:

رفض رجال الدين الوضع السياسي المضطرب³ وغياب السلطة الجامعة، وأشاروا على جهاد المسيحيين ممن لاحت أعينهم إلى احتلال الجزائر، وذلك كله عن إحاطة بالمعطيات والمآلات الممكنة، وكذلك عن خبرة بالحياة السياسية حيث أتاحت رحلاتهم في طلب العلم إلى المشرق والمغرب الإطلاع على أحوال الدويلات والبلدات، فضلا عن ممارسة البعض منهم تسيير وتدبير شؤون الرعية فعليا.

ومن هؤلاء الشيخ أحمد بن القاضي كما أسلفنا، والذي تبني فكرة الجهاد وهو يُعدّ ضمن فئة المرابطين، جاهر برفض الأطماع الإسبانية ودعا الناس إلى التمسك بالإسلام

الأبرار مجتهدا باذلا نفسه وماله في إقامة شرائع الدين وغزا في أعداء الله الكافرين". ينظر، عبد الحميد بن أشنهو، مرجع سابق، ص 145-146.

1- يعرف به أبو راس الناصري أنه من رؤساء عرب إفريقية، اتصل فيما بعد بالحفصيين في تونس على منازعة خير الدين السلطة. ينظر: أبو راس الناصري، مصدر سابق، ص 162.

2- التميمي، مرجع سابق، ص 120.

3- حتى قبل مجيء الإخوة بربروس وعندما ضعفت السلطة الزيانية بصورة ملفتة بعد النصف الثاني من القرن 15م، نصبت كل جماعة رئاسة تدير أمر الثورة والحماية من الأخطار والأطماع المحدقة. ومن أمثلة ذلك جماعة مدينة الجزائر بقيادة الثعالبة والتي نصبت الشيخ عبد الرحمان الثعالبي لتلك المهمة، وبوفاة الثعالبي انتقلت تلك الرئاسة إلى أولاد سالم. وهذا ما يقدم لنا تصورا عن اهتمام رجالات الدين بالشؤون السياسية إن من حيث الممارسة أو المتابعة. ينظر، عبد الرزاق قسوم، مرجع سابق، ص 25. وينظر: مبارك الملي، مرجع سابق، ص 43.

والدفاع عنه ضد الأعداء المتربصين، وعلى إثر ذلك أيد مقترح الأهالي والشيخ سالم التومي، وأشار عليهم برأي طلب النجدة والمعونة من عروج كقائد مسلم ناصر للدين¹.

وعندما جاء العثمانيون إلى الجزائر وجدوا الشاذلية والقادرية أكثر الطرق الصوفية انتشارا وفشأ في البلاد، فتحالفوا مع أبرز متصوفة الشاذلية وهو الشيخ أحمد بن يوسف الزياني².

ذلك أن الطريقة الشاذلية على غرار غيرها من الطرق الأخرى لها دورها الجهادي في سبيل الله ودفع المعتدين من الصليبيين على الإسلام وأهله، حيث يأتي في تعاليم الشاذلي - الشيخ المؤسس-، حثه الأتباع والمريدين على الجهاد، وفي ذلك يقول: "لأبد للمريد من الجهاد، لأبد من جهاد العدو، ومن أراد أن لا يكون للشيطان عليه سبيل فليصح الإيمان والتوكل والعبودية لله وليستعذ به سبحانه"³.

ومن أولويات ما طلب العثمانيون آنذاك عون رجال الدين والعلماء، هؤلاء الذين اعتبروهم شركاء وإياهم في الدين والجهاد ومقارعة الجبهة العدائية المقابلة⁴.

ولا بأس أن نرجع قليلا إلى السنوات الأولى عندما قرر خير الدين مغادرة مدينة الجزائر والانسحاب من المشهد السياسي إلى البحر حيث نشاطه الأصيل، جمع أعيان البلاد وأفصح لهم عن نيته وأقر لهم بأن الأولى بحماية الجزائر هو الجهاد وبذل الصلحاء، حيث قال: "إن عرض لكم شئى فشاوروا علماءكم وصلحاءكم وهذين الرجلين"⁵، وهو يقصد بالرجلين ابن القاضي الذي ولي حكم الجهة الشرقية، ومحمد بن علي الراشدي في غرب البلاد.

1- سامح أتر، مرجع سابق، ص ص49-50.

2- سعد الله، مرجع سابق، ص188.

3- صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر تاريخها ونشأتها، لبنان: دار البراق، 2002، ص152.

4- سعد الله، المرجع نفسه، ص90.

5- بن أشنهو، مرجع سابق، ص144.

ويلاحظ أي متتبع لتسلسل الأحداث منذ 1514م وحتى نهاية الدولة الزيانية بإخضاع تلمسان سنة 1555م، حجم وتداخل أطراف التنافس على السلطة، من حيث تشكيلة كل جهة أو جبهة، وكذلك من حيث تغير المواقع والمواقف تارة أخرى. ولعل من أبرز أوجه الانطباع الذي تملك السلطة المركزية في الجزائر اتجاه باقي المناطق من تراب البلاد، هو تفويض أمر السلطة المحلية للفعاليات المحلية، باعتبار ذلك وضعاً قائماً وُجد قبل بداية الدولة الجزائرية العثمانية.

حيث لعبت الطرق الصوفية وهي تحيز مناطق وأراضٍ معلومة وتمارس عليها نوعاً من الحكم السياسي المستقل¹، دوراً في التمهيد لهذه التجربة بحيث دبرت قبائل الونشريس أمرها على غرار ما فعلت واحات فيقيق، والأمر كذلك بالنسبة لقبائل جرجرة وإمارة كوكو، ومثله في قسنطينة وعنابة التي أناب عليها الحفصيون مشيخة محلية، ولم يختلف الشأن عن ذلك في تقرت ووادي ريغ².

وظيفة رجال الدين في الوساطة السياسية:

جرى تقليد درج عليه الباب العالي عندما يصدر فرمان التولية لبايلربايات الجزائر ومثيلاتها من الولايات العثمانية، أن يردفه برسالة لمشائخ الدين ورجال الصوفية والأعيان، ييزف لهم القرار والخبر، ويدعوهم من خلال ذلك إلى شد أزره حاكمهم وطاعته ومساعدته في تقوية أمر المسلمين على الأعداء والمتربصين. وكذلك يورد فيه الخصال النبيلة للحاكم

1- عن قسنطينة يقول فايسات أنها ومنذ نهاية القرن 15م صارت مستقلة نوعاً ما ولا تخضع إلا لزعماء تختارهم هي أو تتقبلهم بكل حرية، ولم تعد تتبع الحفصيين الذين حكموها أكثر من ثلاثمائة سنة إلا إسمياً فقط. ينظر: أوجان فايسات، تاريخ قسنطينة خلال الفترة العثمانية 1517-1837، ترجمة أحمد سيساوي وهارون حمادو، قسنطينة، الجزائر: دار كنوز يوغرطا للنشر والتوزيع، ط2019، ص43.

2- مبارك الملي، مرجع سابق، ص42.

المؤلى عليهم، والتي ترضي الله ورسوله وتجعله محلا للثقة والأمانة. ومن نماذج هذا تلك الرسالة المتعلقة بتولية صالح رايس إمرة الجزائر في أواخر سنة 1551م¹.

وترصد العلماء لمحاولات تعكير صفو الاستقرار السياسي في الجزائر، وكذلك للتمردات التي من ورائها القصد نحو ثني السلطة القائمة عن مشروعها في بسط السكينة وتحقيق الوحدة. وبالنظر إلى صعوبة الفترة التي امتدت من استشهاد عروج حتى سفر خير الدين إلى السلطان، باعتبار ما تطلبت من أعمال وجهود مُضنية لإحكام أمور الدولة، قام العلماء بمهمة الوساطة بين خير الدين والثائرين من الزعماء والأهالي، مثل وساطتهم حيال زعماء أهالي الجزائر الذين عقدوا اجتماعا تنظيميا يعولون على إثره الثورة ضد ما أسموه بالأتراك².

وعن الحادثة يقول صاحب الغزوات: "وأما المشايخ والأعيان فإنهم لم يرضوا بذلك ولم يوافقوا عليه"، وبعد استتاب الأمور³ حصل إلحاح على خير الدين من الجند والعامّة على قتل أولئك المتمردين، وتحجّجوا بفتوى العلماء بإباحة إراقة دم المارقين، لكن خير الدين أجابهم: "إن هؤلاء القوم حصلت بينكم وبينهم صداقة ومرافقة في السفر والإعانة على جهاد العدو الكافر؛ فكيف نستحل قتلهم بسبب ذنب واحد". كما بلغ التأكيد على تصفيتهم لدى بالجند إلى حد التهديد بالخروج من الجزائر⁴.

وهناك محطة مهمة في بعدها السياسي ومدلولها السيادي بالنسبة للجزائر، تقلد العلماء فيها دورهم الافتائي والشوري، ألا وهي إنهاء السلطة والدولة الزيانية بضم تلمسان إلى السلطة الجزائرية بدار السلطان.

1- دفتر المهمة رقم 888، ص 08، بتاريخ أوائل محرم 959هـ/أواخر ديسمبر 1551م.

2- محمد دراج، مرجع سابق، ص 372.

3- هي حادثة تمرد ابن القاضي واستفراجه بالسلطة على المنطقة الممتدة من كوكو إلى شرشال.

4- غزوات عروج وخير الدين، مصدر سابق، ص 55-56.

حيث استقتى صالح رايس علماء تلمسان سنة 1554م في المسألة¹، تجنباً للخيار العسكري الذي لا شك سيطر انطباع البطش أو التعسف في استعمال القوة والحرب ضد بقايا العائلة الزيانية في تلمسان، وهي سلطة محلية ضاربة في التاريخ لكن الأدوار التي آلت إليها لم تجعل من الولاء الذي تعامل به العثمانيون في الجزائر وحبذوه مع السلط -التي وجدوها قبلهم- خياراً مجدياً لصالح استقرار البلاد.

وبعد حصول صالح رايس على الضوء الأخضر من العلماء الذين وافقوه الرأي؛ عزل آخر الأمراء الزيانيين أبو الحسن وألحق تلمسان بالسلطة في مدينة الجزائر سنة 1555م². فيما ورد في كتابات الأستاذ توفيق المدني عن ذات الحادثة أن السلطة الجزائرية عقب رد التحرش السعدي بجهة غرب البلاد، أقرت أبي الحسن على تلمسان، لكنه لم يُظهر العرفان والاستقامة، فأنكر عليه أهل تلمسان استمراره في عادة سابقه. ولذلك أجمعوا علماءهم وأعيانهم وأعلنوا خلعهم سنة 1554م³.

كما أشرك شيوخ الدين في المسائل التي أهدمت الدولة واستعانت بهم السلطة الجزائرية في حلحلة القضايا السياسية التي استشكلتها، ومن بينها تلك التي نحت منحى دبلوماسياً. وعلى إثر إنهاء الحكم الزياني في تلمسان وحسم أمرها إلى بايلرياي الجزائر مباشرة، بعد ما ظلت لأكثر من نصف قرن محطّ الأطماع الخارجية ومنها المغربية السعدية.

1- حسب المدني فإن علماء تلمسان هم من قرر خلع آخر ملوك بني زيان وإنهاء دولتهم. ينظر: المدني، تلمسان بين الزيانيين والعثمانيين 1530-1554م، مرجع سابق، ص45. و: المدني، حرب الثلاثمائة سنة، مرجع سابق، ص309 و302.

2- بلحميسي، نهاية دولة بني زيان، مرجع سابق، ص36. وينظر: بن أشنهو، مرجع سابق، ص212.

3- أحمد توفيق المدني، تلمسان بين الزيانيين والعثمانيين، الجزائر: وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مجلة الأصالة، العدد 26، 1975، ص45.

عول الجارتان -الجزائر والسلطة في المغرب- على رسم الحدود السياسية بينهما، فانتدبت الجزائر لهذه المهمة من جهتها الشيخ أبو عبد الله محمد الخروبي¹، وهو لمقامه كعالم فقيه وخطيب مدينة الجزائر، من أهل الجاه والحظوة عند السلطة آنذاك².

انتقل بدوره إلى بلاط ملك المغرب سنة 1553م، وبعدها أيام من المحادثات والمجالس والمناظرات العلمية، تكلفت الأمور بتحديد الحد الغربي للجزائر وحدودها الممتدة مع المملكة المغربية³.

ولأن الدولة العثمانية تابعت باهتمام مستمر الأحوال وتطورها في المغرب الأقصى؛ لأنه امتداد للعالم الإسلامي وكذلك لأهميته في واقع الصراع الاستراتيجي المتوسطي، أسند الديوان الهيايوني لبايلرباي الجزائر في نوفمبر 1568م مهمة تكليف مجموعة من العلماء والصلحاء المقيمين بالجزائر، لأجل التدخل السلمي في إصلاح ذات البين في نزاع ورثة السلطان السعدي محمد الشيخ⁴. وذلك حرصا من إسطنبول والجزائر على عدم نشوب حرب أهلية يكون الأسباب والبرتغاليين أطرافا تسهم في تغذيتها. وتعطي لهم مركزا للتدخل العدائي في مناطق النفوذ الإسلامي.

البعد الديني للمجابهة الجهادية للجزائر:

تقوم الحضارة على مقومات، والمقوم الروحي واحد منها، تصطف خلفه الخصوصيات الاجتماعية والأسس السياسية والاقتصادية وغيرها. فالإمبراطورية المقدسة

1- ويسمى كذلك محمد بن علي الطرابلسي، أصله من طرابلس الغرب نشأ في بيت علم وفضل، ثم ارتحل وأقام بمدينة الجزائر حتى وفاته سنة 1556م. كتب في التفسير والشروح والأدكار وعرف بمنزلته وقدره لدى العثمانيين. للمزيد ينظر: فيصل بن موسى، السلطة العثمانية وعلماء الجزائر "قراءة في وثيقة عثمانية في النصف الثاني من القرن 16م"، الجزائر: جامعة الجيلالي الياصب بسيدي بلعباس، مجلة آفاق فكرية، المجلد 05، العدد 11، ديسمبر 2019، ص ص 14-16.

2- عبد القادر نور الدين، صفحات خالدة...، مرجع سابق، ص ص 58-59.

3- عبد الرحمان الجيلالي، مرجع سابق، ص ص 86-87.

4- ينظر الملحق رقم: 11.

التي قادتها إسبانيا رتبت أهدافها على المنطلق الروحي؛ إذ تطلبت منها الكاثوليكية حجب أفق الزعامة على الملكيات الأوروبية التي تقاطعت وإياها المسيحية والملكية والجغرافية، كما اقتضى وقع تبدل موازين القوى؛ البحث عن الذات القومية بداية عند فرنسا وألمانيا والبرتغال. ثم إن فكرة الجهاد ضد الكفار بمعناها التقليدي، قد تشابه فيها العثمانيون وأهل الأندلس وشمال إفريقية، وهي نابعة من الإحساس الروحي المشترك، هذا المعنى للجهاد وجدته العثمانيون لدى الجزائريين طريقا للدفاع عن الإسلام كعقيدة راسخة لديهم، ودخلوها - البلاد الجزائرية- به¹.

إن المشروع الذي أريد له أن ينبعث من الجزائر مع مستهل القرن 16م، كان دينيا في جوهره -إن لم يكن كذلك صرفا-. وإن الانتصارات السريعة التي حققتها القيادة التأسيسية لسلطة الجزائر العثمانية تحصلت بفضل المساندة القوية التي قدمها العلماء ورجال الدين، وبفضل هؤلاء أصبحت فكرة القضية المقدسة أو الجهاد الذي تبناه كذلك العنصر التركي من مركزه كمثل رسمي للولاء العثماني، الكفة الراجحة في ميزان الخصومة الداخلية والخارجية².

ثم أصبح الإحساس الديني المشترك عروة التضافر بين جهود الإخوة بربروس والمجاهدين الأتراك والأندلسيين والفقهاء وشيوخ الزوايا ورؤساء العشائر من أهالي البلاد الجزائرية، على طرد الإسبانين من السواحل³.

ولقد وُجِه الجهاد ضد كل الدول المسيحية الواقعة في دار الحرب، وهي تلك التي لا تعقد مع الجزائر معاهدة صداقة ووثام، واستدعى الجهاد مطاردة سفن العدو في البحر

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج01، مرجع سابق، ص197.

2- مروش، مرجع سابق، ج01، ص ص52-53.

3- ناصر الدين سعيدوني، الجزائر منطلقات وآفاق، مرجع سابق، ص167.

والاستيلاء على ما فيها من غنائم وأسر ملاحيتها وركابها، واقتيادهم إلى الجزائر، حيث تقرر العلاقة بين الغالب والمغلوب وضعهم بين الفدية أو البيع في سوق الرقيق¹.

وإيماننا بحق الدفاع عن دار الإسلام كان في الطليعة من الجزائريين من تطوع لركوب البحر لأجل مواجهة سفن النصارى، وهم أهالي المدن الساحلية ومنهم جماعة الأندلسيين ومن التحق بهم من الأعلاج الذين اعتنقوا الإسلام، وكانوا قبل ذلك يعانون جور الاستبداد والإقطاع الأوربي². والحاصل وقتها هو تحالف إسلامي يمليه الدين بهدف منع تواصل الزحف الصليبي الذي كان ابتداءً مع انتهاء دولة المسلمين في الأندلس.

كما أبدت الجزائر اندفاعاً نحو معمعة التطاحنات لحجز مكانة الصمود وتحصيل التموقع الفعلي، حيث أظهرت القيادة وتزعمت الجهاد البحري مع بداية القرن 16م، مما ساعد على توحيد صفوف المسلمين بالسواحل تجاه الإنهيار المرتقب³. فالمنهاج الديني الذي تأسست عليه الجزائر آنذاك جعلها تتاضل عن يقين إيماني راسخ ضد قوى الأطماع والهيمنة باسم الصليب⁴.

كما استطاعت الجزائر أن تجنح بالشريط المغاربي عن مصير التمسح المرتقب خلال القرن 16م؛ من خلال الأدوات التي أظهرتها طيلة فصول المواجهة مع غريماتها إسبانيا والسائرين في فلكتها. حيث نجحت جهود الأهالي والأندلسيين في تصفية الجيوب الإسبانية، بفضل المحاصرة ووضع حدود إلى الورا للتوسع المسيحي، وكذا تحرير

1- سعيدوني، مرجع سابق، ص 198.

2- هلايلي، مرجع سابق، ص 45.

3- المرجع نفسه، ص 135.

4- عبد الله حمادي، في تقديمه لمحتوى مخطوط سيرة المجاهد خير الدين بربروس، مرجع سابق، ص 19.

واسترجاع المراكز التي فقدت، عن طرق تكثيف الغارات ومضاغفة وقعها على سواحل أوربا، كانت منها ثلاثة وثلاثين (33) غارة موفقة فيما بين 1528-1584م¹.

وانعكس الدور الجهادي كونه مهمة قائمة -خلال القرن 16م- على اتساع الحكم العثماني على السواحل، حيث كان الخطر متوقعا منها نتيجة التهديدات الاسبانية، وذلك ما جعل الاكتفاء بالتواجد على المراسي والمدن الساحلية لصد العدوان الأجنبي².

أثر شيوخ الصوفية في الجهاد:

أعطى شيوخ الطرق الصوفية دفعة قوية للمجاهة ضد الإسبان، وحتى ضد أولئك الذين شقوا عصى الطاعة على السلطة ممثلة الخلافة، وكان انتسابهم إلى نشاط البحر والصراع مع سلبة الأندلس نوع من الجهاد الديني³.

ولم يكن هذا الدور بالجديد، إنما هو استمرار لتحمل مسؤولياتهم المترتبة منذ غياب دور الدولة في المغرب الأوسط وقيامهم على شأن حماية الأنفس والأموال بفعل مطالبته السكان ذلك منهم⁴.

كما نزل من الأندلسيين بالجزائر الصلحاء ومشائخ الدين ممن يحملون في جعبتهم العلوم والمعارف، ولأنهم تجرّعوا محنة الفقد والطرْد، ربطوا الاتصال مع أول وصولهم ببعض

1- ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية "دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني"، الجزائر: دار البصائر، ط2، 2009، ص135.

2- سعد الله، أبحاث وآراء، ج05، ص171-172.

3- صالح عباد، مرجع سابق، ص39.

4- عبد المنعم الحسني، أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى، الجزائر: دار الخليل القاسمي، ط1 2005، ص ص28-29.

فقهاء ومرابطي الجزائر، وجمعت بينهم الدعوة للجهاد والبذل في طرد النصارى من السواحل، كما أعانوا السلطة السياسية القائمة تحت لواء العثمانيين في هذا الباب¹.

ولعل استقرار بعض هؤلاء قرب سواحل وفحوص العاصمة أسهم بشكل أوضح في التعبئة والتأييد لصالح السلطة الجزائرية متزعمة الجهاد، ومن بين هؤلاء الولي الصالح سيدي فرج وسيدي أحمد الكبير الأندلسي².

وعلى غرار عديد الطرق الصوفية في الجزائر كان اتكال السلطة المركزية على شيوخ القادرية من المقرانيين وهي تنفذ سياستها لتحرير البلاد من التواجد الإسباني الصليبيين، أو تقرض إرادة الدولة على استعصاء وتمرد الجبهة الداخلية.

وعندما قرر صالح راييس تحرير بجاية شاركت القادرية معه بقوة، وإزاء ذلك عوّل عليها وطلب من شيوخها جهاد الإسبان معه، فبادر أمراء بني عباس وكوكو وأسهموا بالإمدادات والرجال وتكون بهم للبايلرياي 30 ألف رجل³ نالوا شرف استعادة بجاية وتدمير حاميتها سنة 1555م بعد خمس وأربعين سنة من الهيمنة الإسبانية.

وتعبيرا منه عن عزيمة المجاهدين المساهمين في تحرير بجاية، جاء في رسالة القائد الإسباني -هناك- والتي بعثها إلى ابنة شارلكان الأميرة خوانة، قوله: "إنّ هذا المعقل في حاجة ملحة إلى نجدة سريعة... نرجوكم رجاءً حاراً أن تفكروا في أهمية بجاية وفي حصونها. فإذا ما تمكّن هؤلاء الأتراك الأشقياء (المسلمون) من احتلالها فإن كل قوى جلالته الإمبراطور لن تستطيع مجتمعة إخراجهم منها"⁴.

1- سعيدوني، دراسات أندلسية "مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر"، بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي، ط1، 2003، ص60.

2- سعيدوني، مرجع سابق، ص61.

3- Mouloud Gaid, Op.Cit, p72.

4- المدني، حرب الثلاثمائة سنة، مرجع سابق، صص324-325.

إقرار الباب العالي الجزائري دارا للجهاد:

شعار حماية دار الإسلام والجهاد المقدس في سبيل الدين الإسلامي شعار مشروع دأبت عليه الدولة في حربها ضد تلك القوى التي تشهر الصليب رايتها في مناهضة المسلمين، وتتمثل في "الإسبان والبرتغال وإيطاليا البابوية"¹. وعليه استمد القرن 16م بريقه - ضمن عمر الدولة العثمانية- من رباطة المتطلعين إلى التفوق ممن انتقد حسهم الجهادي طيلة قرن الفتوحات.

مع كل جولة وخلال تقدم عمر الصراع الإسلامي النصراني، أبانت الجزائر عن حضورها ودعمها ودرايتها بأمر الأعداء، ومنذ حصار مالطا ثم فتح جربة والصمود في معركة ليبانت وكذا الرباط لافتكاك تونس، كان حكام الجزائر وسفنها ورجالها وأعيانها في الصف الأول، حتى وصفهم السلطان العثماني بقهرة أعداء الدين الحازمين، وسمى الجزائر بدار الجهاد وأكثر، ونسب أهل الجزائر إلى سدة سعادته².

وبعد تحرر بجاية أصبحت جهة شرق الجزائر أكثر انسجاما مقارنة بالجهة الغربية، وكان لسكانها دورا بطوليا في إعادتها إلى حِمى الدولة وطرد القائد الإسباني الذي انتهى به مصيره معدوما بأمر من ملكه فيليب الثاني، غصّة على تطاير مستعمراته بسواحل المغرب العربي واحدة تلو أخرى³.

واتضحت الخلفية الجهادية وراء تحرير بجاية منذ أول وهلة لهذا النصر، إذ أقدم البايبريبي صالح رابيس قائد عملية الفتح من فور استعادة المدينة على طرد الإسبان منها، وتحويل كنيسة المدينة إلى جامع، وإعلان البشرى في داخل البلاد وإلى السلطان. كما أمر

1- إيفانوف، ص24.

2- ينظر الملحق رقم: 12.

3- تصاعدت انتصارات البحرية الإسلامية العثمانية في الضفة الجنوبية الغربية للمتوسط باستعادة طرابلس 1551م، بجاية 1556م، مزهران 1559م.

بقراءة الخطبة في الجامع باسم السلطان العثماني¹، وكان الإسبان قد احتلوا بجاية لأزيد من أربعين سنة.

كما طلب السلطان العثماني إلى أمراء كوكو والمقرانيين المشاركة في جهاد الصليبيين بمناسبة الحملة على تونس، وأن يكونوا ورجالهم يدا ممدودة لبايلرباي الجزائر حرصا على أمن البلاد الداخلي وصونا لها من المعتدين. وكاتبهم مباشرة يدعوهم عدم التأخر ويذكر لهم مآثرهم الخالدة شجاعة وشهامة في باب الذود عن دار الإسلام².

بعد أزيد من شهر بقليل ولما أصبح فتح تونس يقترب إلى آخر عملياته، عاود الباب العالي يكتب أمير كوكو ويجدد دعوته إلى البذل في الأمورية، إن من حيث تأمين البلاد بعد خروج الأسطول إلى ملاقات الصليبيين؛ أو من حيث المساهمة بالرجال والذخيرة والمؤن في الأسطول الهيمايوني، الذي حرص على تعزيزه بجميع الفئات لموقعة أخرى حاسمة بين الهلال والصليب³.

واتخذت هذه المساهمة أكثر من طريقة، فالشخصيات المحلية وأهل النفوذ الديني والعائلات المرابطية مكّنت الحكومة التموين بالأشجار لصناعة السفن إثر تعهدها ذلك بوتيرة منتظمة. وفي مجانة وبجاية وقف آل مقران على ورشات القطع والفرز والشحن في الغابات، ومثل ذلك حصل في جيجل والقالة وشرشال⁴.

1- تاريخ بجوي، مصدر سابق، مج02، ص391.

2- ينظر الملحق رقم:13.

3- ينظر الملحق رقم:14.

4- مولاي بلحميسي، صناعة السفن في الجزائر أيام الأتراك من ق16 إلى ق19م، الجزائر: مجلة الدراسات الأثرية، مج02، العدد01، نوفمبر1995، ص53.

الجزائر والمسألة الأندلسية:

ميز الاستتجاد الأندلسي بالعثمانيين طابع الرسمية حتى قبل سقوط غرناطة، حيث أرسلت مملكه بني الأحمر إلى اسطنبول سفيرها سنة 1486م، تطلب المساعدة على دفع الضغوط الإسبانية المتزايدة ضد المسلمين. وبرغم إدراك السلطة العثمانية يومها أنه لا يملك القيادة البحرية المتضلعة والقادرة على خوض المجابهة في أعالي البحار-في ظرف الانشغال بالتوترات الداخلية-، إلا أنها بادرت في إرسال كمال رئيس لإجلاء المسلمين المهاجرين إلى السواحل الإسلامية شرقي المتوسط¹.

انصهرت الجزائر في الدوامة الموريسكية لمقتضيات متعددة، دينة، جغرافية وإستراتيجية، وكانت في مواجهة مباشرة مع ظلمة الأندلسيين، وأخذ حكامها يتموقعون في الصفوف الأولى.

وبرغم المصاعب التي اعترضت السلطة العثمانية في هذه المرحلة من تاريخ وجودها في الجزائر، إلا أن الغزاة لم يكفوا عن تأييد ثورات الأندلسيين ونقل الكثير منهم إلى المدن الساحلية الجزائرية، لدرجة اعتياد الأندلسيين على الهجرة عبر سفن بحارة الجزائر عقب كل غارة على سواحل إسبانيا².

ويروي الأستاذ عنان عن صاحب أخبار العصر قوله: "كانت تدفق سيل المهاجرين دليلا على أن الشعب المغلوب لم يكن واثقا في ولاء سادته الجدد، وأنه كان ينظر إلى المستقبل بعين الريب والتوجس. وعلى إثر سقوط غرناطة أقفرت مناطق بأسرها من أعيان

1- محمد السيد محمود، تاريخ الدولة العثمانية "النشأة والازدهار"، القاهرة، مصر: مكتبة الآداب للنشر والتوزيع، ط1، 2007، ص222.

2- محمد دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر...، مرجع سابق، ص272.

المسلمين ومن بقي منهم في مالقة عبر البحر إلى بادس وعبر ألميرية إلى تلمسان وخرج كثير من أهل غرناطة إلى بجاية ووهران¹.

ومنذ أول عهد تواجد عروج وإخوته بسواحل شرق الجزائر، هاجم عروج الإسبان في بجاية² ثم تقهقر إلى تونس وأرسل أخاه خير الدين بسفنه إلى الأندلس في مهمة مساعدة مسلميها المهاجرين³ إلى سواحل بلاد المغرب، وقد مكث على ذلك لمدة ثلاثة أشهر متتالية⁴.

جهود مرحلة خير الدين:

وعلى امتداد مرحلة البايلربايات انشغلت السلطة والجيش في الجزائر بمسألتين جوهريتين، هما تجفيف الضفة الجنوبية لغرب المتوسط من خطر التواجد الإسباني، والحفاظ على جسر المعونة والمدد للموريسكيين الذين تتخبطهم نفس السياسة الصليبية. وتهيأت الجزائر لهذه المهمات كطرف نافذ خبير أدوات المواجهة أمكن استيعاب طبيعة العداء وأغراضه.

بعد تحرير قلعة البنيون تشجع الأسطول الجزائري لاستئناف نشاطه الجهادي في البحر المتوسط، وحرص خير الدين شخصيا على أن يكون الدعم للأندلسيين مضاعفا. وفي ظرف مرض سنان باشا أسندت قيادة الأسطول لـ: أيدين رئيس الذي استدعاه خير الدين وأبلغه بما عزم عليه قائلا: "ولدي أيدين في هذه السنة سوف تخرج أنت للغزو في غرب البحر المتوسط، عليك أن تمضي إلى أن تتوغل في مضيق سبتة، وفي أثناء عودتك قم باحتلال سواحل إسبانيا دون أن تدع لهم أية فرصة للنيل منك، ثم احمل في سفنك من

1- عبد الله عنان، مرجع سابق، ص311.

2- كانت الحملة الأولى في صيف 1512م رد فعل تحت رعاية سلطان تونس على احتلال نفاو لبجاية لأنها كانت خاضعة له، لم تحقق مرادها غير أن عروج وخير الدين اتجهوا شرقها شطر جبل فطردوا الجنوبيين من القلعة هناك، متخذين منها قاعدة لمحاولتهم الثانية على بجاية سنة 1514م والتي لم يكتب لها النجاح هي الأخرى.

3- تزامن ذلك مع (مرسوم السماح بالهجرة في حدود 1510م).

4- محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري، مرجع سابق، ص124.

تقدر على حمله من إخواننا المسلمين اللاجئين إلى جبال غرناطة، فات بهم سالمين إلى الجزائر. لتكن بركة دعائي تحفظك في غزوك فلا تقصر في الأخذ بالأسباب¹.

ومثما أشرنا سابقا، فإنها أعقت كل حملة الأسبان عملية غزو جزائرية لسواحلهم، وتزامن فشل حملة 1531م وتفرقها في شرشال، تحرك السلطان سليمان إلى النمسا 1532م، حيث كان من المفترض أن يشارك فيه خير الدين قادما من الجزائر، ولكن لظروف² حالت دون ذلك، استغل بربروس تحرك دوريا إلى قلعة قورون وكلف 15 سفينة مع رياستها لغزو السواحل إسبانيا، غنموا فيها 14 سفينة بكامل طواقمها وأغرقوا واحدة. وفي هذه السنة 1533م انطلقت من الجزائر بقرار من خير الدين 32 غالية نحو الأندلسيين النازحين إلى الجبال، وُقِّعت في سبع رحلات إنقاذ من نقل 70 ألف مسلم إلى سواحل شمال إفريقيا³.

وأحاطت الجزائر مركز الخلافة العثمانية بحيثيات الملف الموريسكي، حيث اعتبر جزء من وضعية المنطقة المغاربية وصراعها مع إسبانيا الكاثوليكية⁴. فمعرفة القيادة الجزائرية بالقضية الموريسكية كانت انشغالا أولويا في أسس إرساء الدولة، إذ دفع هذا الأمر خير الدين إلى التفكير بوجوب إنشاء دولة قوية وموحدة بالمغرب، تصبح بذلك منطلقا لاسترجاع الأندلس وإنقاذ الموريسكيين من ريقة الأسبان ومحاكم التفتيش⁵.

كما عزم خير الدين على إعطاء دفعة قوية لمساعي المؤازرة الجزائرية للأندلسيين، التزاما منه بالعون الذي امتدت يده إلى هذه الجبهة الإسلامية المحترقة منذ نهاية القرن

1- مذكرات خير الدين بربروس، مصدر سابق، ص 148.

2- في هذه الأثناء أرسل دوريا 14 سفينة إلى سواحل غرب الجزائر حتى يشغل بها خير الدين في وهران، وحصل كذلك تمرد حاكم تلمسان الأمير عبد الله الذي أجلسه خير الدين على عرش تلمسان مكان أخيه المسعود، هذا الأخير هو الآخر كان قد استنصر بخير الدين على أبي حمو الثالث، فتوجه خير الدين بنفسه إلى تلمسان ليوقف تمرد عبد الله ويقطع الطريق عن الأسبان، الذين كانت تتأرجح بينهم وبين بابلرياي الجزائر مسألة تنافس بقايا الأمراء الزيانيين.

3- سامح ألتز، مرجع سابق، ص 97-99.

4- عبد الجليل التميمي، مرجع سابق، ص 14.

5- التميمي، المرجع نفسه، ص 16.

15م، ومباشرة بعد استئصال شوكة القلعة الإسبانية المحرجة لعاصمة الجزائر سنة 1529م،
باشر في توجيهه 36 سفينة لإنقاذ إخوان الدين والعبور بهم إلى بر الأمان¹.

وكان لهذا الاحتكاك الجزائري الأندلسي ثماره على الحركة الجهادية، إذ يرى بعض
المؤرخين أن أهم شيء خلفته البحرية الأندلسية في ميدان البحر الأبيض المتوسط هو
إظهار روح الفدائية والمغامرة البحرية عند المسلمين، وذلك أن كثيرا من هجمات المسلمين
البحرية قامت من الأندلس بدافع من حب المغامرة والجهاد، أكثر من تنفيذها لأوامر
السلطات المركزية. وقد خلقت تلك الأحداث التي انفردت بها الأندلس روحا جديدة لدى
سكان البلاد العربية على الشواطئ الغربية للبحر الأبيض المتوسط².

وكانت آية تلك الروح الجديدة هي إنشاء قواعد بحرية عديدة صارت فيما بعد مراكز
أمامية للأسطول البحري الحربي في البحر الأبيض المتوسط، وساعد على ازدهار تلك الروح
البحرية الجديدة امتزاج النزعات بحب الجهاد في سبيل إعزاز الدين الإسلامي عند أهل
المغرب، فكانت تكثر في مناطق إسبانيا الإسلامية المراكز الحربية التي امتلأت بأعداد وافرة
من المقاتلين الذين لا يريدون شيئا سوى الجهاد في سبيل الله³.

ومن جهته يروي هايديو أن أخطر ما كان على المسيحيين، هم أولئك العرب
(المسلمين) القادمين من إسبانيا والقاطنين بعد في الجزائر، من أصيلي غرناطة وأراقونا
وكتالونيا وبلنسية، وهم أكثر تحرقا لمقاومة المسيحيين من أي فصيل مماثل في باقي بلاد
المغرب العربي⁴.

1- نفسه، ص16.

2- وفيق بركات، فن الحرب البحرية في التاريخ العربي الإسلامي، حلب، سوريا: منشورات معهد التراث العربي الإسلامي
جامعة 1995، ص179.

3- المرجع نفسه، ص179.

4- لوي كاردياك، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون 1492-1640م، ترجمة عبد الجليل التميمي، تونس: المجلة
التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية الجزائري، 1983، ص107.

أثر انتصار الجزائر على صليبي حملة 1541م في نفوس الأندلسيين ومكانتها الجهادية: أحدث الانكسار الذي دُحرت به حملة شارلكان على مدينة الجزائر 1541م رجّة في نفوس الأوروبيين، واشتد وقع ذلك على القادة ورجال الدين. أما بالنسبة للموريسكيين كان الشعور مغايراً؛ يبعث على الاستبشار في النجدة والتطلع إلى المناصرة من لدن السلطان العثماني¹.

انطوت رسالة أهالي غرناطة إلى سليمان القانوني على ملامح صورة الجزائر الواقعة في نفوس الموريسكيين ومجتمع الضفة المقابلة، حيث استحضرت الاعتراف بفضل الجزائر قبلة للمعاوضة والقيام بالواجب والمطلوب. وذكر أصحابها -في ما احتوته- مناقب بايلربايتها خير الدين في قولهم: "وقد كان بجوارنا الوزير المكرم، المجاهد في سبيل الله خير الدين وناصر الدين وسيف الله على الكافرين، علم بأحوالنا وما نجده من عظيم أهوالنا، لما كان بالجزائر واجتمعت أهل الإسلام على إطاعة مولانا ومحبته بالخواطر والضمائر، وانتظم العدل والشرع والأمان في البادي والحاضر، فاستغثنا به فأغاثنا وكان سببا في خلاص كثير من المسلمين، من أيدي الكفرة المتمردين، ونقلهم إلى أرض الإسلام وتحت أمانة طاعة مولانا السلطان، ولعمارة مدينة برشك² وشرشال ونواحي تلمسان"³.

وتضيف هذه الرسالة بإحساس من عمق إسبانيا، قد يكون أصدق تعبيراً عن موقع الجزائر من قضايا عصرها ومحيطها، فضلا عن التزامها الديني للمسلمين خلال القرن 16م، مبدية الأمل الذي علّقه الموريسكيون عليها حينما تأتي على ذكر مايلي: " فلما سمع الكافر

1- التميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين، مرجع سابق، ص32.

2- هي قوراية حاليا التابعة إدارية لولاية تيبازة، ذكرها الحسن بن الوزان ومارمول كاربخال كل في كتابه ضمن مدن عمالة أو مملكة تلمسان.

3- عبد الجليل التميمي، رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541م، تونس: المجلة التاريخية المغربية، العدد 03، يناير 1975، ص ص45-46.

اللعين بذلك¹، تحاير في أمره، وجمع إليه أهل تدبيره وحزبه، فدبروا ومكروا على قتال الجزائر، ليلا يبقى ببلاد المغرب لأهل الإسلام ناصر².

وقد أدرك موريسكيو غرناطة أن في الجزائر صمام أمان وملتجأ للفارين بدينهم، وهم يُقرّون كذلك أنها مصدر منيع ترتطم به الآلة الصليبية وتتقاذف على أعتابه حملات الأسباب إلى قطع تمزقها روح الجهاد وعون الله لها، فيجئ قولهم: "يا مولانا سلطان البرين والبحرين نصركم الله، المدد المدد لنصرة الجزائر لأنها سياج لأهل الإسلام، وعذاب وشغل لأهل الكفر والطغيان،...وقد أصبحت القلوب بها عزيزة، والرعية المختلفة بها مؤتلفة أليفة، وطراز رونقها المجاهد في سبيل الله عبدكم الوزير الأجل خير الدين،...فإنه أحيا هذا الوطن وجميع النواحي والسكن، وأرعب قلوب الكفار، وخرّب ديار المردة والفجار"³.

وإذا كان القرن 16م قد تميز ببروز شخصيات سياسية وعسكرية ساهمت في المحافظة على التوازن العالمي بين إمبراطورتي هذه الفترة (العثمانية والاسبانية)⁴، فإن الجزائر تحظى بيسير الفضل في إبراز هذه الشخصيات.

مزغران معركة شاهدة على جهاد الصليبية:

دفع-كما أسلفنا- التواجد الإسباني في المرسى الكبير ثم وهران، السعي في الحصول على خيرات أحوازهما⁵، وسيحصل ذلك بنسق متسارع سيما وأن فرديناند وضع على رأس

1- عمليات الهجرة الأندلسية في شكل جماعات عبر سفن خير الدين ورجاله البحارة، ولم تحدد الرسالة فترة معينة ولكنها صرحت بدور خير الدين، وربما كانت في الفترة التي بقي فيها حصن البينيون تحت قبضة الإسبان لكون مدينة الجزائر لم تذكر من جملة ما ذكر من مراكز نزولهم، وهناك عملية الإنقاذ الكبيرة والمشهودة سنة 1532 وقد أُرنا إليها في ذات العنصر.

2- التميمي، مرجع سابق، ص46.

3- ينظر: سالة مسلمي غرناطة...، مرجع سابق، ص46.

4- التميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين، مرجع سابق، ص15.

5- الآغا بن عودة المزاري، مصدر سابق، ص210.

مصالحه في الجزائر قادة معروفين بتعصبهم ونزعتهم الصليبية، يحدوهم الحرص على توسيع سيطرتهم لتشمل جميع الساحل الجزائري انطلاقاً من مملكة تلمسان.

وكنا بشأن ذلك رأينا الأطماع الإسبانية ثم السعدية حيث استهدف كلاهما مستغانم وسواحلها، إدراكاً لأهميتها في شطر الجزائر الغربي، فهي مفتاح العبور إلى العاصمة عبر تنس ثم شرشال. ثم إن حياة سكان مزهران ومستغانم ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بأسواق وموانئ وهران، لذلك بعد سقوط هذه الأخيرة سنة 1509م خضعوا للضغوط وأدوا الضرائب التي فرضها عليهم الأسبان تأميناً لمصالحهم¹.

ويعلق بروديل على أهمية مستغانم حينما يصفها بالحلم الذي راود الكوديت واستمر معه إلى ثلاث مناسبات وهي حملاته في السنوات "1547، 1541، و1558م"، حيث يجد من دوافع للاستيلاء عليها، هو اتخاذها محطة تجعل بحارة الجزائر عاجزين على الإبحار نحو جهة الغرب، كما يصبحون -إذا تحقق ذلك- غير قادرين على نقل الأمتعة والمدفوعات مثل ما يفعلون². ليتبين وبوضوح قيمة هذه القاعدة في الحرب بين الجزائر وإسبانيا.

كما تعود حيثيات معركة مزهران الشهيرة إلى صائفة سنة 1558م، حيث بدأ هجوم الإسبان على مدينة مستغانم على رأس جيش ضخم مكون من 12 ألف إسباني ومعهم بعض من رجال القبائل المواليين يقوده الكوديت³.

خلفاء خير الدين والتطلع لاستعادة الأندلس:

مثلاً ما سبق الإشارة إليه فإنه بالنسبة للمسلمين ظل سقوط الأندلس نكبة بالغ أثرها، اهتزت لها النفوس، ومثلاً كان ذلك على الأندلسيين نار اکتووا بجمارها، فإن مسلمي بلاد المغرب سرعان ما وصلتهم لفحاتها، فكانوا النسيج الأدرى من بين المسلمين بما أفرزته دورة هذه الدائرة، وكيف أصبحت الصليبية تريد أن تلتهمهم جميعاً.

1- مارمول، مصدر سابق، ج2، ص350.

2 - Braudel, Les Espagne en Afrique du Nord...(suite), Op.Cit, P354.

3- المدني، حرب الثلاثمائة سنة، مرجع سابق، ص350.

ولم يكن الموريسكيون قد انقطعوا عن متابعة الحوادث الجارية في الضفة المقابلة، وما انفكوا يتابعون باهتمام مدى ما حققه العثمانيون من نجاح؛ سيما من خلال الجزائر التي باتت حصنا منيعا يلتجئ إليه المهاجرون الأندلسيون¹. كما شجعت السلطة في الجزائر بقوة حركة إنقاذ الموريسكيين الذين استمرت تضيق بهم السبل في إسبانيا وتزداد بهم الأذية تصاعديا على مدار عقود القرن 16م.

وفي إطار حلم استعادة الفردوس المفقود² الذي راود مسلمي غرناطة بالأخص والأمة الإسلامية عامة، تأكد أن الثورة هي الطريق الوحيد لذلك. وعندما عوّل زعماء مسلمي غرناطة إشعال فتيل ثورة البيازين، عقدوا لقاءً سريا في أواخر سنة 1567م ناقش فيه الحاضرون مسألة الدفع بجميع مسلمي إسبانيا إلى المشاركة في هذه الثورة، ثم ضرورة تحصيل العون المادي بالسلاح والرجال والمال من المغرب والجزائر، وكان الأمل الواسع معقودا على الجزائر بوصفها مركزا قويا للوجود الإسلامي في الأندلس³.

ومن الظروف التي تُعزى إليها هذه الثورة الدينية؛ تصاعد آمال الموريسكيين لتزايد القوة الإسلامية في البحر المتوسط، حيث ظهر لدى هذه الفئة قدرة بلاد المغرب العربي على تنظيم نفسها في الجزائر ضد الإسبان وفي المغرب الذي جابه السعديون فيه أطماع

1- محمد زروق، الأندلسيون وهجرتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و17م، المغرب: دار إفريقيا الشرق، 1998، ص85.

2- معطيات انقلاب الموازين بعد سقوط غرناطة ما كانت تنذر بتحقيق استعادة الأندلس بمختلف الحثيات والمعطيات والظروف، إلا أن الموريسكيين ظلوا على الأمل القائم. وعليه اتخذوا شعارهم المعروف "ولا غالب إلا الله" الذي بات ينقش على السيوف وعلى رؤوس الأبواب وفي القصور، وذلك الشعار مستوحى من أيام مجد الموحدين ونصر السلطان يعقوب المنصور الكاسح على نظيره ألفونسو الثامن ملك قشتالة سنة 1195م في معركة الأرك في الحدود بين الأندلس ومملكة قشتالة.

3- علي المنتصر، مرجع سابق، ص ص93-94.

البرتغال¹. إذ تضاعف رد الفعل بفضل بايلربايات الجزائر ونشاطاتهم البحرية إلى السيطرة على حجر بادس عام 1554م، وبذلك أصبحت قاب قوسين أو أدنى من إسبانيا².

وقفت الجزائر سلطة ومتطوعين خلف هذه الثورة، وأسهم علج علي سنة 1568م في تنظيم حرب العصابات بجبال البشرات، حيث أرسل إليها الرجال والعتاد نزولا بشاطئ ألميرية، وفي العام التالي عززت الثوار بمزيد من متطوعي الإنكشارية والوسائل العتادية³.

تضمنت رسالة بعث بها سفير فرنسا لدى مدريد فوركوفو إلى ملكه شارل التاسع⁴ بتاريخ 19 ديسمبر 1569م معلومات استخباراتية عن دعم الجزائر ثورة الموريسكيين المنبثقة من البشرات، ومما ذكر صاحبها أن سفينتان قدمتا من الجزائر قبل أيام قليلة محملتان بالذخيرة والأسلحة، تم إنزالها في شاطئ سيرا نيفادا⁵. كما وفد من الجزائر إلى زعيم غرناطة ما بين 400 و500 تركيا⁶.

ويروي مصدر إسباني أن التنسيق الجزائري الموريسكي بلغ حد اختيار كلمة السر بين الطرفين، حيث حصل الاتفاق على رفع السفن القادمة من الجزائر وكذا تطوان أشعة ملونة، على أن تتجه مراكب الجزائريين إلى رأس دي غاتا⁷كي تساند ثوار البشرات وألميرية والمنصورة، وتثير كذلك الأهالي في بلنسية وما جاورها لأجل المشاركة في الثورة. وكان وراء

1- ليلي الصباغ، مرجع سابق، ص136.

2- المرجع نفسه، ص138.

3- سعيدوني، دراسات أندلسية، مرجع سابق، ص368.

4- حكم فرنسا من سنة 1560 حتى وفاته 1574م.

5- جنوب شرق غرناطة على البحر المتوسط، وهي اليوم تسمية لجبال الثلج الجليدية في إسبانيا الأندلسية في محافظة ألميرية.

6- De Castries, Op.Cit, pp293-294.

7- كاب دي غاتا De Gata Capo: رأس اليابسة الإسبانية على البحر الأبيض المتوسط ويقع في محافظة ألميرية، ويظهر في الخريطة كقابل لساحل مدينة وهران.

وصل جسور هذا الاتفاق شخص يدعى البارقال، انتدبه المخططون للثورة وأرسلوه إلى السلطة الجزائرية¹.

نتج عن فشل ثورة البشرات تكثيف الضغوط الاسبانية على الموريسكيين الثائرين، والذين سعوا إلى للهجرة نحو الجزائر، وفي سنتين من عمر ثورة البشرات 1569-1570م نزح حوالي 30 ألف من الثائرين إلى الجزائر، بمرافقة وعناية البحرية الجزائرية العثمانية. كما نزل غالبية سكان ألميرية المسلمين بالجزائر إثر الاتفاق بين قيادة الثورة وملك الإسباني دون خوان في 20 ماي 1570م². ولم تقطع حبال المساعدة الجزائرية إذ نجح حسن فنزيانو سنة 1584م في نقل 2000 أندلسي من نواحي أليكانت إلى الجزائر³.

ليس هذا فقط بل إن الصدمات العنيفة والطويلة بين القوى الأوربية المسيحية نفسها فضحت النية الحقيقية والمتعددة وراء الحرب. وهي النزعة التوسعية والاستعمارية المتنامية والتي وجدت في مواجهة العثمانيين سببا يبرر المنطق الديني الصليبي للحرب، ويروج للحرب المقدسة ومن ورائها الملكيات المتطلعة للاستحواذ على أكبر قدر من مناطق النفوذ. في حين اتخذت من البابوية وسيلة لضمان حشد الإمكانيات البشرية والمادية في سبيل إنجاز خططها السياسية. فلا يمكننا بعد هذا كله أن نستقر على الخلفية الدينية لمجريات القرن 16م في منطقة المتوسط الحساسة كباعث وحيد للتحركات والجهود التنافسية المريرة، لأن الحرب المقدسة تبقى معزولة إذا ما لم ترصد لها جميع الأدوات والوسائل العسكرية ومن ورائها رغبة سياسية صلبة ومتجلدة يُلاحظ دوامها إلى القرون التي تلت.

1- أورتادو دي مندوثا، حرب غرناطة، ترجمة إيمان عبد الحليم وسلوى محمود، القاهرة، مصر: منشورات المركز القومي للترجمة، ط01، 2008، ص42.

2- ناصر الدين سعيدوني، دراسات أندلسية، مرجع سابق، ص45.

3- سعيدوني، ورقات جزائرية، مرجع سابق، ص148.

الخاتمة

الخاتمة:

من خلال هذا البحث في أدوار الجزائر ضمن الفضاء المتوسطي خلال القرن 16م، وقفنا على عدة نقاط تعتبر في مجملها أهم النتائج المتوصل إليها، حيث تتمثل في مايلي:

لقد شاركت الجزائر أمم المتوسطي تفاصيل القرن 16م، وعاشت محنه مؤثرة في صياغة التحديات لصالحها ومستقبلها، ومتأثرة بالمخاطر التي كانت تطارد العالم الإسلامي ضمن ثنائية قطبية تتأرجح بين محور السيطرة المنشودة للإسلام والمسيحية.

إن خطورة التهديدات التي جعلت من الجزائر هدفا لها لم تسمح للدولة أن تكون في وضعيات تراخ، أو تتواجد في حيز الأمان التام. لأنّ عناد إسبانيا في أطماعها نحو الجزائر من غربها إلى شرقها، إنما كانت وراءه دوافع قوية تتلخص في تصدير الصليبية، والرغبة التوسعية الاستعمارية، والنيل من بحرية الجزائر؛ كجهاز قائم عليها وضامن لسمودها من موقعها قوة ندية.

والجزائر على امتداد القرن 16م إما كانت تدفع معتديا أو تقارع غازيا، وإما وُجِدت في وضعية تحرير امتداداتها الحيوية والإستراتيجية وتأكيد سيادتها على حقوقها، وفي أغلب الأحوال كانت تواجه المخاطر مجتمعة (الإسبان، التحالفات الأوروبية والتحالفات الداخلية مع أطراف خارجية، طموح التوسع من طرف السعديين، مكائد السلطة الحفصية).

-كما لم تنتكر الجزائر لالتزاماتها المبدئية كجبهة إسلامية في حوض المتوسط الغربي تجاور عدوا تقليديا، وحافظت على تواجدها في الميدان نصيرةً للأندلسيين، وخصما لأوروبا المسيحية -لا غبار عليه- نتيجة موقعها وموقفها، وسيدة في الفضاء المتوسطي قبالة قوى أوروبا الطامعة والتمتددة في جميع جهات الحوض الغربي من هذا الفضاء.

إنّ إنجازات وأدوار الجزائر خلال القرن 16م كانت جد مصيرية، بحيث قامت عليها أسس الدولة وتوجهاتها في القرون اللاحقة، وتأثرت بها إما إيجابا أو سلبا.

ولو نظرنا إلى جزائر القرن 16م من زوايا مختلفة لتأكدت لدينا صورة راسخة وواحدة أمام ما كان يواجهها، دولة سيادية تجابه بحزم واحد نفس الخصوم، وتتصف مؤسساتها

السياسية والعسكرية بالانضباط والانسجام والتناسق. لها قدرة على صياغة علاقاتها الخارجية وتأمين مصالحها بكل استقلالية سواءً مع سلطة الخلافة المركزية، أو بالنسبة للقضايا التي تتقاسم فيها الاهتمامات والتطلعات مع أطراف أخرى.

إن الضوابط والمبادئ والتوجهات التي أسس عليها البايبربايات الدولة الجزائرية سياسيا ودينيا واستراتيجيا، توضّح الإرادة الكبيرة في بناء دولة قادرة على امتلاك مؤهلات القوة ذات البعد الدولي والعالمي، لها إرادتها المتميزة خاصة على مصائر البحر الأبيض المتوسط والعالم الإسلامي فيه. كما يتبين من خلال ذلك أن مشروع حُكام الجزائر ينم عن رؤية وعقيدة تدعوا إليها قناعة وتوجه منسجم مع إرادة السلطة العثمانية في جهة شرق المتوسط.

ثم إن موقع الجزائر في مواجهة إسبانيا الإمبراطورية المسيحية هو تحدّ كبير، تطلب من الجزائر أن تكون في مستوى المواجهة، وفرض عليها الاستعداد لها دائما، فالخصم يمثل إمبراطورية واسعة الأرجاء ومكتملة القوام، وهي قوة عالمية اتسع نطاقها السياسي والديني والاقتصادي والعسكري ليمتد من إيطاليا إلى بحر الشمال، تُطوّق حوض المتوسط وتتواجد فيه من كل جهة، ناهيك عن أملاكها وإمكانياتها في أمريكا والسواحل الأطلسية. لذلك من الطبيعي في أوائل القرن 16م أن يبدو الأمر وتظهر المهمة بالنسبة للجزائر كأنها مُجازفة، إلا أنها وفي مدة قصيرة استطاعت وفي نظرنا منذ سنة 1555م أن تدخل تفاصيل الثنائية القطبية بكل ثقل.

ويكتشف كل متتبع للصراع المتوسطي في الفترة المدروسة أن وسائله تنوعت، وتعددت أطرافه ووسائله، وتوسعت مجالاته وميادينه، إلا أنه حافظ على حدّته مما يؤكد حرص كل جبهة على خوضه إلى الحد الذي يمكن بلوغ الأهداف المسطرة والمرجوة.

ونقف على البحث عن التوازن حيث كان خيارا ملحا داخل الجبهة الأوروبية المسيحية، دفعت إليه الأحاديث، وبحثت عنه كل دولة على حدى ورصدت كل طاقاتها في

سبيله. كما استطاع تواجد الدولة العثمانية طرفا فيه وتدخل الجزائر في حلقاته أن يفرضه
أمرا واقعا.

وعلى إثر تعذر فرض أحادية تجتمع عندها مقاليد سياسة البحر المتوسط ومصائره،
تأثرت الخريطة السياسية للعالمين الإسلامي والمسيحي، إذ تسبب توسيع الامتداد وانقباضه
في انقسام دول وضم أخرى، فيما أكدت بعض البلدان تدريجيا على استقلالها واكتملت
ملامح كياناتها.

الملاحق

الموضوع: الحمولات التجارية في القرن 16م

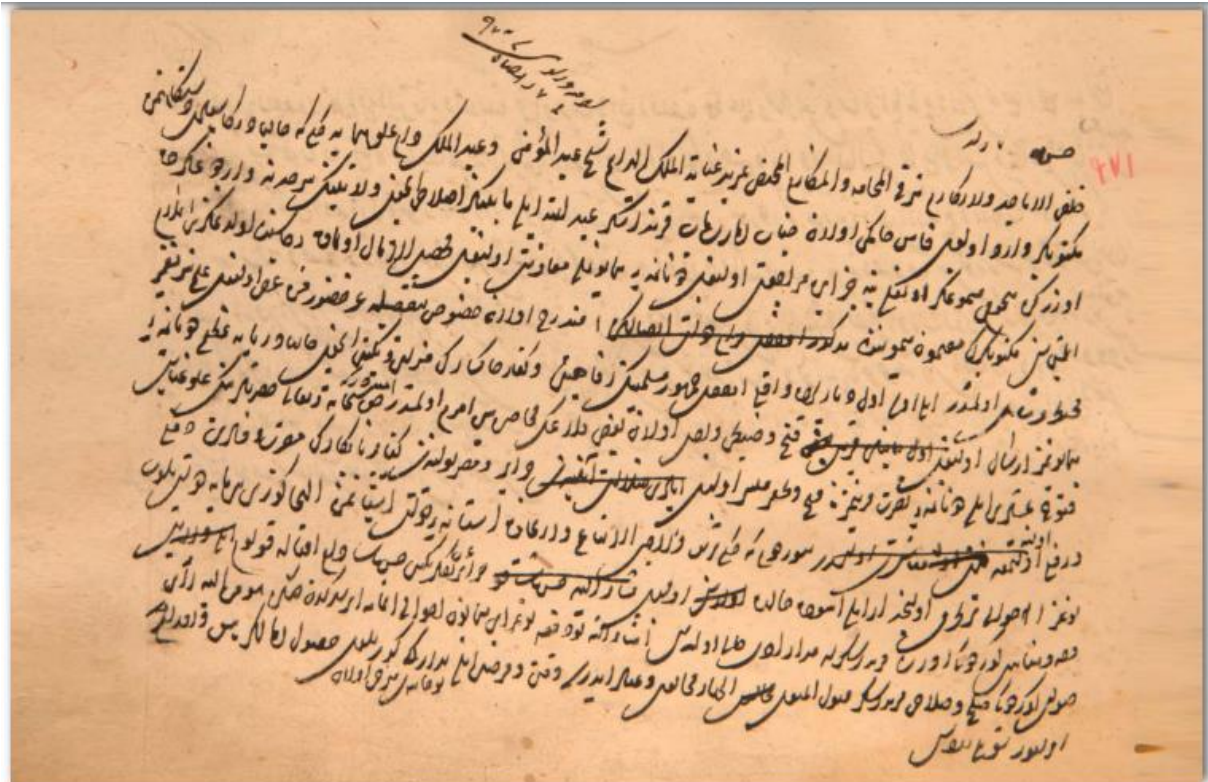
الحمولات/ بالطن	السفن	السنوات
11639	226	1510-1506
14633	273	1515-1511
24619	442	1520-1516
21625	346	1525-1521
31830	483	1530-1526
37057	519	1535-1531
49130	578	1540-1536
59118	668	1545-1541
89148	874	1550-1546
75112	656	1555-1551
65492	569	1560-1556
87052	663	1565-1561
111973	661	1570-1566
129485	725	1575-1571
136806	512	1580-1576
172593	655	1585-1581
191553	886	1590-1586
162278	820	1595-1591
219011	843	1600-1596

المصدر: محمد حبيدة، تاريخ أوروبا من الفيودالية إلى الأنوار، الرباط، المغرب: دار أبي رقرق، 2016، ص ص 143-144.

الملحق رقم 02: دفتر المهمة رقم 06، حكم رقم 971، بتاريخ 07 رمضان 972هـ/08 أبريل 1565م.

الموضوع: تدخل الجزائر لإنهاء الخلاف بين أبناء السلطان السعدي محمد الشيخ "ورثة

الحكم".



المصدر: يوسف صارياني وآخرون، الجزائر في الوثائق العثمانية، ترجمة فاضل بيات ويشار محمد صالح، أنقرة، تركيا: منشورات المديرية العامة لدور المحفوظات "رئاسة دائرة الأرشيف العثماني" التابعة لرئاسة الوزراء بتركيا، منشورة تحت رقم 115، 2010، ص ص 6-8.

الملحق رقم 03: دفتر المهمة رقم 14، ص 1067، بتاريخ 26 محرم 976هـ/20 جوان 1571م.

الموضوع: إبلاغ الأمير السعدي عبد المالك بالأمر السلطاني إلى بايلرباي الجزائر قصد التدخل لصالحه والعمل على استتباب الحكم في المغرب الأقصى.

الأمر الصادر إلى حاكم فاس عبد الملك:

"ذكرت في رسالتك المرسلة إلى عتبتنا أن شقيقك عبد الله، ارتكب المظالم وقام بالتعديات وأحال البلاد إلى فوضى واضطراب، ولم تنفع معه محاولات الصلح الجارية منذ 14 عاما، بل ولم ينصع للفرمان السلطاني المرسل إليه، وأن الأهالي راغبون فيك أنت. وكل ما ذكرته بهذا الخصوص، أصبح معلوما لدينا.

والآن تم إرسال أمرنا في هذا الشأن إلى أمير أمراء الجزائر علي، دام إقباله لاتخاذ ما يلزم من إجراءات في الوقت المناسب، والاتصال بك حال وصول أمرنا السلطاني هذا، والقيام بالاستعدادات المطلوبة في الأماكن المقترضة، وإرسال العساكر المنصورة لتحرير البلاد وإظهار كل أنواع السعي والإقدام من أجل تحقيق ذلك الهدف".

المصدر: عبد الجليل التميمي، "عثمة إيالات الجزائر و تونس و طرابلس الغرب على ضوء المهمة دفتري (1559-1595)", زغوان، تونس: المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد 34، 2006، ص 105.

الملحق رقم 04: دفتر المهمة رقم 52، ص 227، بتاريخ 13 محرم 992هـ/ جانفي 1584م.

الموضوع: الاعتداء السعدي على الوحدة الترابية للجزائر من جهة الحدود الغربية.

حكم إلى بايلرباي جزائر الغرب:

"أرسلت رسالة مع قاضي جزائر الغرب وآغا الإنكشارية إلى سدّتي العليا أبلغت فيها أن المحل المعروف بـ "فلاوسن" الواقع في لواء تلمسان وهو من ملحقات جزائر الغرب، أعتيد تحصيل رسومه من هذا الجانب منذ الفتح السلطاني، ولكن عند وصول الجنود إلى هناك في هذه السنة لأجل طلب رسومه وفق العادة القديمة أيضاً، قدم جنود من طرف حاكم فاس مولاي أحمد يحملون رسالة مفادها "إن هذا الوطن منح لنا من قبل أستانة السعادة وقتلوا مشايخ العرب الذين تم نصبهم هناك من هذا الجانب، ومنعوا تحصيل الرسوم التي أعتيد أخذها منذ القدم، ولكي لا يؤدي هذا الأمر إلى فساد قفل الجنود المرسلون عائدين وفي حالة منح الوطن المذكور إلى حاكم فاس فإنه سيقوم بالتدخل والتعرض لبقية الأوطان أيضاً ويترتب بذلك ضرر كبير على البلاد المحروسة وغدر للرعايا والبرايا، ومن المقرر أن يؤدي إلى نقص كبير في مرتبات طائفة الجند. وبناء على ما عرضته فقد أمرت ضبط المحل المذكور من هذا الجانب وفق ما اعتيد عليه منذ القدم وأمرت:

عند وصوله، تنظر في الأمر، فإذا كان ضبط المحل المذكور من هذا الجانب لا يترتب عليه ضرر على البلاد والولاية تقوم بإرسال رجال إلى هناك لضبطه والتصرف به وفق الأسلوب نفسه الذي أعتيد ضبطه والتصرف به من هذا الجانب منذ القدم، وتحول دون التدخل به والتعرض له من جانب حاكم فاس، ولكن تدبر الأمر بشكل بحيث لا يكون هناك أي احتمال لحدوث مسألة قد تؤدي إلى فساد كلي بحجة جزئية وتكون على البصيرة والانتباه بالشكل اللازم، وفي حالة حدوث وضع مخالف لحمى وكرامة سلطنتي فإنك تتحمل تبعاتها، فتدبر الأمر وفق ذلك".

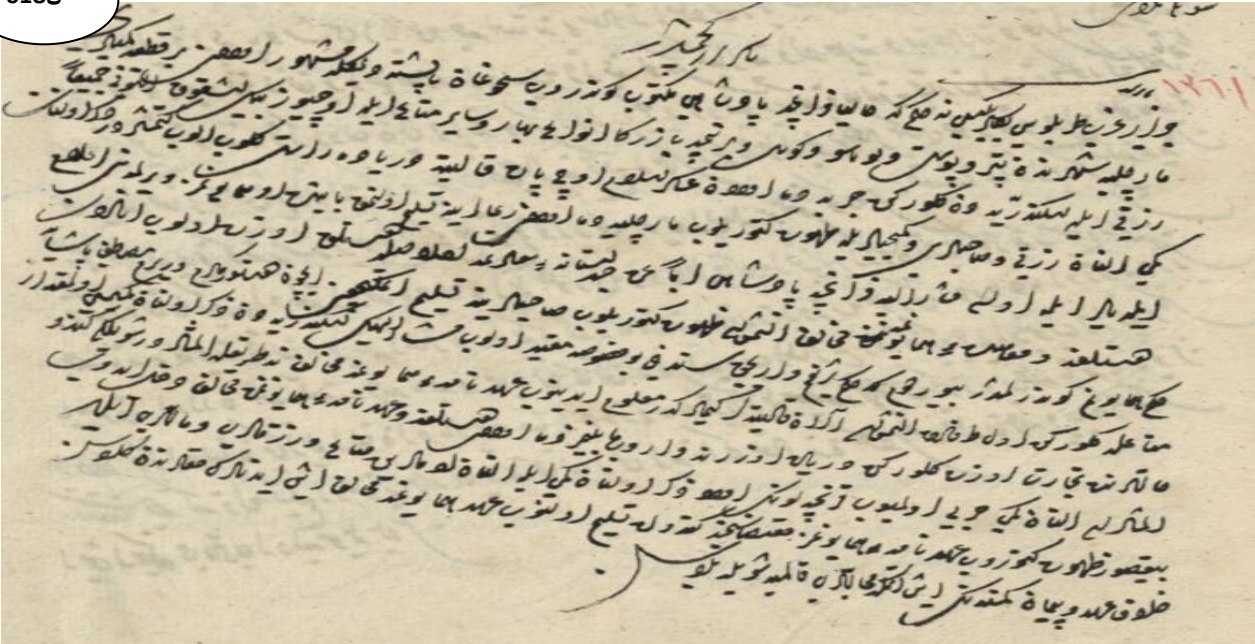
المصدر: فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية ولاية الجزائر في القرن 10هـ/16م، المجلد 08، إسطنبول، تركيا: منشورات إرسیکا، 2019، ص ص 80-81.

الملحق رقم 05: (دفتر المهمة رقم 06، ص 618، بتاريخ 09 ذي الحجة 972هـ/ 08 جويلية 1565م)

الموضوع: رسالة الديوان الهيمايوني إلى بايلرباي الجزائر بغرض اخلاء سبيل سفينة فرنسية محملة بمواد و سلع ثمينة احتجزتها البحرية الجزائرية.

النص الأصلي:

ص 618



المصدر: (A.DVNS.MHM.d.00006) أرشيف رئاسة الوزراء، إسطنبول، تركيا.

النص المعرب

هذا الحكم الشريف موجه إلى بايلرباي إيالة الجزائر وطرابلس الغرب : لقد كتب إلينا ملك فرنسا رسالة يخبرنا فيها أن إحدى سفن التجار المعروفة باسم (سنجوغان بايشته؟) وهي من أشهر السفن، خرجت من مدينة مرسيليا، حاملة عددا من تجار مدينة (بترو بوست ويهوركونر) والذين بعدما قاموا بالمتاجرة والخروج من ميناء الإسكندرية، حاملين البهارات (التوابل) وأمتعة مختلفة بقيمة 300.000 قطعة ذهب، تم الاستيلاء عليها من قبل ثلاث سفن تابعة لبحارة عساكر الإسلام بجزيرة. وبعد عرض الشكاية وأخذ تلك الأمتعة، نرسل هذا الأمر السلطاني لإرجاع تلك الأمتعة والمال المسلوب إلى أصحابه المذكورين مع العلم أن ملك فرنسا يدين بالصدقة للباب العالي أبا عن جد. وعليه فقد تم إرسال هذا الأمر إلى وزيرى مصطفى الذي كلف بمتابعة هذه القضية. فالمطلوب إرجاع كل الأشياء والأمتعة المأخوذة من السفينة بدون نقصان إلى التجار الفرنسيين المذكورين وفي حالة تعنت وظهور من يخالف هذا الأمر، نأمركم بأخذ الحق منه ومحاكمته.

المصدر: عبد الجليل التميمي، "عثمنة إيالات الجزائر و تونس و طرابلس الغرب على ضوء المهمة دفتري (1559-1595)", زغوان، تونس: المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد 34، 2006، ص 85.

الملحق رقم 06: الموضوع: رسالة من الملك الإسباني فرديناند إلى الكونت بيدرو دي نافارا.

مونزون، في مايو سنة 1510.

إلى الكونت دون بيدرو دي نافارا، القائد العام لجيشنا و مستشارنا:

"لقد تلقيت رسالتكم الثلاث المؤرخة في 3 مايو، والتي وجهتموها إلي من بلنسية، وذلك الخطاب المؤرخ في الخامس من نفس الشهر، والذي حملة إلي حارس بلاطي (ميجويل كابريرا MIGUEL CABRERA).

ولقد أصدرت أوامري في هذه الساعة بأن يطلب من (ألونزو سانتشيز ALONZO SANCHEZ) كتابية بالعمل فوراً على طحن ألف كيس من القمح كانت قد أرسلت إليه في مملكة بلنسية ثم يبعثها إليكم في بجاية، وستسلمون في نفس الوقت فطائر البشماط المصنعة من بعض هذا الدقيق، وهي مؤونة تكفي ثمانية آلاف رجل لمدة خمسة عشر يوماً على الأقل، ونظرة لنقص الطعام في بلنسية حالياً، فإنني قد كاتبته كذلك (فارقاس VARGAS)، خازن مدينة مالقة، وطلبت منه على الخصوص أن يبعث إليكم، حال تسلمه لمكتوبي، كل المؤن التي في إمكانه الحصول عليها، حتى تتزودوا بها في أسرع وقت ولكي تتمكنوا من الرحيل إلى طرابلس، كما أنني قد أمرت نفس الخازن بأن يبعث إليكم عشرة آلاف دوغات. وإن شاء الله، سيتمكن الأسطول عند وصوله إلى صقلية من استكمال تمويناته؛ ذلك أن نائب ملك هذه المملكة قد أخبرني كتابية بأن كل شيء جاهزة.

وأعتقد - كما سبق لكم وأن ذكرتم لي في خطاباتكم مرارة - أننا إذا ما أردنا أن نحافظ على وجودنا في أفريقيا، فإنه يتحتم علينا أن نحمل مدن وهران وبجاية وطرابلس؛ وفي حالة احتلالنا لهذه الأخيرة يتوجب علينا أن نعلمها برمتها بالنصارى، وإلا فإن المغاربة، بما أنهم يسودون بقية مناطق البلاد، إذا ما سمحنا لهم بالسكن في مدن الساحل؛ فإنه سيستحيل علينا أن نحفظ بما احتلناه وقتاً طويلاً. وإذن، فإن انتظاراً لما هو أفضل، يتحتم أن تعسكر في المدن الثلاثة المذكورة حامية كبيرة من النصارى وألا يسمح لأي مغربي بأن يطأها. إن الشيء الأساسي الذي لا بد لك وأن تضمنه نصوص هذه المعاهدة مع ملك بجاية أو أية معاهدة أخرى قد تعقدها مع المغاربة، هي مسألة الإمدادات إذ يتحتم علينا أن نكون قادرين على الصمود في أفريقيا اعتماداً على موارد بلادنا نفسها، ذلك أن صمودنا فيها أطول وقت ممكن استناداً على استجلاب كل شيء من إسبانيا يعد أمراً مستحيلاً، لأن ذلك لن يلبث أن يجعلنا نفقد ثمرة جهودنا الراهنة. لذلك فإنه من الأهمية بمكان أن نتظم الأمور على نحو يجعلنا قادرين دائماً على الاحتفاظ بمواطني الأقدام التي استحوزنا عليها، وأن تحتفظ بها دون أن نضطر إلى تمويلها من الخارج، وذلك مثلما سبق لنا وأن فعلنا حتى اليوم. وعلينا مستقبلاً ألا نتدبر سوى المصروفات التي قد تكون ضرورية، والتي سنعمل على إرسالها على شكل إمدادات سريعة يناط بها الجيش أو الأسطول، وذلك تبعاً لما ستطلبه الظروف".

فرديناند

المصدر: شارل فيرو، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة وتحقيق عبد الكريم الوافي، بنغازي،

ليبيا: منشورات جامعة قان يونس، ط3، 1994، ص ص 73-74.

الملحق رقم 07: (دفتري المهمة رقم 73، ص 574، حكم 1252، بتاريخ 18 شوال 1003هـ/26 جوان 1595م)

الموضوع: تنامي وانحراف الامتيازات الممنوحة للفرنسيين في السواحل الجزائرية.

حكم إلى بايلرباي جزائر الغرب خضر باشا

"أرسلت رسالة إلى سدة سعادتني أبلغت فيها بان كفار الفرنجة الساكنين في المحل المعروف بالبستيون التابعة لجزائر الغرب قاموا بتحميل سفينة ببضائع سبق أن تقرر منع تزويد الكفار بها وقد ثبت إرسالها للكفار وقاموا خلافاً للشرع الشريف ببناء الأبراج والملاجئ والقلاع أكثر مما كانت عليه ويتوافد إليها الكفار من دار الحرب تبعاً وهم لا يتوانون من القيام بالغدر والفتنة، وأنه ينبغي تأديب المذكورين، وعليه فقد أمرت:

عند وصوله تنظر في الأمر فإذا ثبت في الواقع عصيانهم وطغيانهم مثلما عرضت تعمل على تأديبهم شرعاً وهدم الأبراج والملاجئ والقلاع التي أقاموها خلافاً للشرع الشريف أكثر مما كانت عليه قديماً وتحول دون قيامهم باستحداث مبان خلافاً للوضع القديم".

المصدر: فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية ولاية الجزائر في القرن 10هـ/16م، المجلد 08، إسطنبول، تركيا: منشورات إرسیکا، 2019، ص 121.

النص المعرب

"هذا حکمنا الشریف إلى بايلرباي إيالة الجزائر: أخبرنا أحد ریاس البحر المتطوعین المدعو علي، بأن إسبانيا قامت بتجهيز 82 سفينة من نوع قادرغة و 10 سفن من نوع قالیة وقد انتهت بخلیج ماسینة، وقد تقرر اللّحاق بهذه السفن ب: 40 قطعة من السفن الأوربية، وقد اتفق على تقسیم الأسطول إلى قسمین وإرسال أحدهما ضد جربة والقسم الثاني ضد طرابلس الغرب لمحاربة طورغود ریس. وأمام هذا الخبر فلا بد من تحضير العسكر وإرسال العدد الكافي من الرجال - وإرسالهم إلى ناحية الغرب، كما ندعوك بإرسال أمرنا إلى قبطان رودوس وابنه أحمد، لإرسال السفن عاجلا للالتقاء به للعمل على المحافظة على مضيق رودس. كما أرسلت أحكامنا الشریفة التحضير بعض السفن في ترسانة الباب العالي و إرسالها في أقرب وقت، وعليه حال وصول هذا الحكم، نأمرک ببذل المجهود وإحضار كل اللوازم والاهتمام بأخبار العدو والتجسس عليه والعمل على حفظ و حراسة الإیالة، لأنه يمكن والعیاذ بالله، أن يقوم أسطول العدو بإنزال الضرر بالقلاع والنواحي التابعة للإیالة، قبل وصول الأسطول العثماني إلى تلك الناحية".

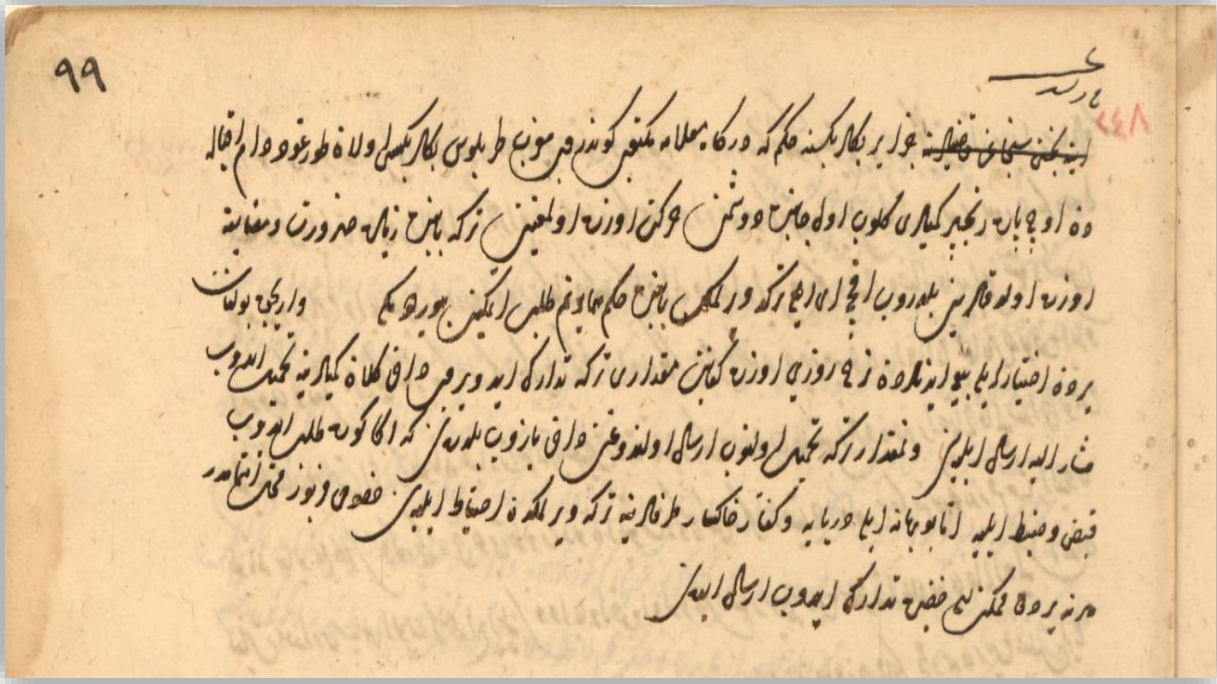
المصدر: عبد الجلیل التميمي، "عثمة إيالات الجزائر و تونس و طرابلس الغرب على ضوء المهمة دفتري (1559-1595)",

زغوان، تونس: المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد 34، 2006، ص76.

الملحق رقم 09: (دفتر المهمة رقم 03، ص 99، بتاريخ 20 ذي القعدة 966هـ/ 24 أوت 1559م)

الموضوع: إرسال العتاد الحربي إلى درغوث باشا تمهيدا لحصار جربة.

النص الأصلي:



المصدر: (A.DVNS.MHM.d.003) أرشيف رئاسة الوزراء، إسطنبول، تركيا.

النص المعرب:

"هذا الحكم موجه إلى بايلرباي إيالة الجزائر: لقد وصلت إلى عتبة الدولة العلية رسالتكم حول العمليات الحربية التي قام بها طرغود ريس الذي قدم بـ 3 سفن لمجابهة العدو، إلا أنه يشكو من قلة الذخيرة العسكرية وهو يطلب المال. وعليه نأمركم ببيع الكمية اللازمة من الذخيرة الحربية لطرغود ريس، وتحميلها على ظهر سفنه، وهذا بعد أخذ المال والضرائب المحدود له، ونأمركم بعدم إهمال ذلك وإرسال الذخيرة اللازمة".

المصدر: عبد الجليل التميمي، "عثمة إيالات الجزائر و تونس و طرابلس الغرب على ضوء المهمة دفتري (1559-1595)",

زغوان، تونس: المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد 34، 2006، ص 76.

الملحق رقم 10: الموضوع: تحفيز المواطنين الإسبان المشاركة في الحملات الصليبية ضد الجزائر.

النص المعرب عن الفرنسية:

"نحن؛ ألونزو دي لا بوينتي، مفوض الملكة على هذه الأرض المحتلة وأثناء الحرب التي تُشن في إفريقيا ضد المور (المغاربة)، أعداء إيماننا الكاثوليكي المقدس.

نشهد أن بيدرو دي أريفالو وهو من سكان مدينة أريفالو، ظهر أمامنا في مدينة وهران في اليوم الأخير من شهر أوت من هذا العام (1509م)، معلنا أنه قدم جريمة قتل ولأنه تم إخطارهم (المحكوم عليهم لارتكاب الجرائم) في الوقت الذي كانت فيه الأرمادا تستعد للوقوف ضد هذا المكان؛ بناءً على أوامر سموه (الملك فرديناند)، حيث قررت المحكمة في ذلك الوقت أن كل من سينضم إلى الأرمادا المذكورة ويتولى أن يقضي شهرين على نفقته الخاصة؛ يعفى عن أي جريمة ارتكباها، فقط بعد هذا الإعلان. لقد جاء للخدمة خلال الشهرين المذكورين وطلب منا التحقق من التزامه بالنظر إلى أنه كان مذنباً بارتكاب جريمة قتل بقتل جيل أندريس فرنانديز، من سكان بلدة أريفالو المذكورة. وأنه بالإضافة إلى هذا المثل الأول مثل أمامنا اليوم (برفقة شهود) حتى نمنحه شهادة وفاء بالتزامه من اليوم الذي أعلن نفسه فيه قاتلاً حيث أقام في هذه المدينة وخدم على نفقته حتى تلك اللحظة، وبالتالي كان علينا تلقي إفادات الشهود (الشهود) لمعرفة الحقيقة.

بعد أداء القسم أعلن الشهود الذين استجوبناهم أنهم جميعاً في حالة امتثال من خلال إخبارهم أن بيدرو دي أريفالو وصل بإمكانياته إلى مدينة وهران في اليوم الأخير من شهر أوت، وأنه كان في فرقة العقيد بيدرو أرياس؛ أنه منذ تلك اللحظة وحتى يومنا هذا لم يتلق أجراً ولا مستحقات من أي نوع تمنح للقوات التي تشن حرباً على هذه الحدود وفقاً لأوامر سموه، أنه على العكس من ذلك رفض قبول أي شيء، وأنه لمدة شهرين كما وعد وكان عليه أن يفعل؛ كان قد خدم على نفقته الخاصة وقام بالمشاركة في المناوشات ضد المغاربة مع فرقة العقيد المذكورة بيدرو أرياس. وأكد الشهود ما قالوه، مضيفين أنهم يعرفون ذلك جيداً لأنهم من نفس الفرقة. لقد شهد العقيد بودرو أرياس على كل شيء تحت القسم، ووقع هذه الشهادة باسمه وأعلن الجميع -علاوة على ذلك- كما قال العقيد المذكور، أن بيدرو دي أريفالو تصرف دائماً على أنه شخص يخشى الله ويريد خدمة سموه بشكل جيد، وأنه قد أوفى بجميع التزاماته.

ونحن المفوض السالف الذكر، نشهد أننا رأينا بيدرو دي أريفالو مقيماً في هذا المكان من وهران؛ بأسلحته الحربية، كما كان ملزماً بذلك حتى يومنا هذا مع توفيره عيشه بموارده الوحيدة دون تلقي أي أجر أو طعام. وإثباتاً لذلك أصدرنا هذه الشهادة موقعة باسمنا ومؤرخة من مدينة وهران".

وهران : 08 نوفمبر 1509م

(أرشيف سيمانكاس: Legajo 461، Costas de Africa، Estado)

المصدر:

-Elie De La Primaudaie, l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique (1506- 1594)
Documents inédits Recueillis et Mis en Ordre, Alger, 1875, pp10-12.

الملحق رقم 11: (مهمة دفترية رقم 07، ص 889 بتاريخ 12 جمادى الأولى 976هـ/02 نوفمبر 1568م)

الموضوع: طلب الباب العالي من بايلرباي الجزائر تكليف وفد من علماء وصلحاء الجزائر

للتدخل قصد إصلاح ذات البين فيما يخص الصراع بين أمراء الدولة السعدية.

هذا حكمنا الشريف إلى أمير أمراء الجزائر :

"حضر إلى سدة سعادتني، أمير الأمراء الكرام السيد عبد الملك دام علوه، وهو شقيق حاكم، مراكش السيد عبد الله دامت معاليه مظهرا الولاء والطاعة، ومشيرا إلى حصول نزاع مع المشار إليه بخصوص المملكة، دون أن يحدث بينهما حرب وقتال يؤدي إلى إيذاء، الرعية وأنه يطلب الصلح والإصلاح ولأجل تأمين معيشته يطلب إصدار أمري الهمايوني بتعيينه على موقع قريب من الجزائر.

ولإصلاح ذات البين تقرر تكليف عدد من العلماء والصلحاء المقيمين بالجزائر للقيام بهذه المهمة، وهم السيد أبو الاطيف والسيد أحمد أنور والسيد سعيد المصري والسيد بن عاشور. إن تلك القلعة التي تطالب بها فاس إذا كان ذلك غير ممكن، يرجى إرساله إلى قلعتي تازة وتقلت مع توابعهما. وكان قد سبق تعيين المشار إليهما وشقيقهم عبد المؤمن في موقع قريب من الجزائر. ومن أجل الصلح والإصلاح، صدرت إرادتي الشريفة باللغة العربية.

وعند وصول هذا الأمر اتصل بالمشار إليه، ليكن مع أشقائه في صلح وصلاح، ويعين المذكورين بموجب أمري الشريف المرسل إليكم. وإذا اعترضت فاس على تعيين المشار إليهم على القلعة المذكورة، يعينون على قلعتي تازة وتقلت وتوابعهما القريبة من الجزائر على أن تتبع سآ أي من أهالي المملكة من هو راغب في ذلك، وكن محتاطا من خداعهم، ولينعقد أمر الصلح والإصلاح بتمام مرتبته".

المصدر: عبد الجليل التميمي، "عثمة إيالات الجزائر و تونس و طرابلس الغرب على ضوء المهمة دفترية (1559-1595)",

زغوان، تونس: المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد 34، 2006، ص ص 90-91.

الملحق رقم 12: (مهمة دفترية رقم 18، ص ص 135-136، بتاريخ 19 شوال 979هـ / 05 مارس 1572م)،

الموضوع: إشادة الباب العالي بأهمية ودور الجزائر "حكومة وجيشا وشعبا".

الأمر الصادر إلى عموم أمراء ولاية الجزائر وأعيانها وأغواتها ورؤسائها:

"ذكرتم في رسائلكم المرسلة إلى سدة سعادتنا، أن أهالي الجزائر وعساكرها وأعيانها كانوا في كمال الرضا والشكران من أوضاع وأفعال أمير أمراء الجزائر السابق القبطان علي باشا، دام إقباله، وأن نائبه المعين قائم مقام أيضا ، بذل مقدورا وسعيا مشكورا في الوظيفة التي كلف بها، واجتذب قلوب العساكر والأعيان وسائر الأهالي في الولاية، بحسن معاشرته لهم، وتصديه الحازم لأعداء الدين والدولة عند قيامهم بالإغارة على البلاد بقصد الإضرار بها ، واستيلائه على سفينتين منهم، وإنه وقف بوجههم كما ينبغي بعناية الله تعالى. وقد أصبح ذلك معلوما لدينا بالتفصيل لتبيض الوجوه وتقر بكم العيون، وهذا هو المرجو منكم ، والحمد لله حل الخير .

وبناء عليه فالولاية المذكورة، تعد من الممالك الجليلة الاعتبار داخل دولتي الواسعة الأقطار، بل هي دار الجهاد وأكثر ، وأن رجالها من أمراء وأغوات وسائر عساكر النصر وا والمآثر والأعيان، هم كرجال سدة سعادتني. لذا صدرت العناية الهمايونية بتعيين المشار إليه... بمنصب أمير أمراء (والي) الجزائر مع رتبة (القبودانلق)، وعهد إلى أمير السنجاق أحمد دام إقباله وأرسل الفرمان إلى الولاية المذكورة.

والذي نأمركم به حال وصول أمرنا هذا هو طاعة المشار إليه وتعظيمه وإجلاله والامتثال لأوامره، وبذل المقدور والسعي غير المحدود من أجل ضبط الولاية وحراستها ودفع مضرة الأعداء الخائبيين والقيام بالجهاد والغزو لصيانة العرض والدين وحماية ناموس الدولة بلسان واحد ويد واحدة وبحسن الاتفاق والاتحاد دون تقويت دقيقة واحدة.

ولما كان الفرنجة من قديم الزمان ولحد الآن من أصدقاء الدولة، فلا يوجد أمر همايوني بالتدخل في شؤونهم داخل الولاية، واحذروا من القيام بأي عمل أو تصرف معهم مخالف للاتفاقية. إن شاء الله الأعز ، فإنه من المقرر إرسال أسطول همايوني عظيم إلى البحر في فصل الربيع. فالمطلوب القيام بالاستعداد وتهيئة قالينات اللوند والأمراء والسفن الخاصة بك ومهاجمة السواحل الإسبانية وشن الغارة عليها وإلحاق الأضرار بها."

المصدر: عبد الجليل التميمي، "عثمنة إيالات الجزائر و تونس و طرابلس الغرب على ضوء المهمة دفترية (1559-1595)"،

زغوان، تونس: المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد 34، 2006، ص ص 114-115.

الملحق رقم 13: (مهمة دفترية رقم 18، ص ص 135-136، بتاريخ 19 شوال 979هـ / 05 مارس 1572م)

الموضوع: الديوان الهمايوني يطلب إلى أمير كوكو الحرص على استقرار البلاد والذود عنها في غياب البايبريبي ووجوده ضمن مهمة جهادية خارج الجزائر.

الأمر الصادر إلى حاكم كوكو في الجزائر:

"لما كان مرادي هو المحافظة على ولاية الجزائر، دار الجهاد وحراستها وضبطها وصيانتها، فإن أمير أمراء الولاية المذكورة أحمد دام إقباله، يقوم بواجبه بالوجه المطلوب. لذا يتوجب عليك أنت كذلك، المحافظة على الولاية المذكورة وحمايتها، ومعاونة المشار إليه وإسناده. وعند وصول أمرنا، وبما عرف عنك من شجاعة وشهامة بادر إلى تقديم ما وسعك من جهد ومقدرة بالوجه الذي يراه المشار إليه دام إقباله، إن في ميدان دفع الأعداء والمعاندين أو في حفظ البلاد والقلاع، وأظهر مساعيك كافة للحفاظ على ناموس السلطنة، قرينة السعادة ودين سيد المرسلين".

الملحق رقم 14: (مهمة دفترية رقم 23، ص 349 بتاريخ 18 ذي القعدة 981هـ / 11 مارس 1574م)

الموضوع: دعوة إمارة كوكو إلى المشاركة في إعداد ودعم حملة فتح تونس.

أمر إلى بكر بك حاكم كوكو في إيالة جزاير غرب:

"سبق أن أرسل لك الأمر الشريف المتضمن المحافظة على ولاية دار الجهاد، المتمثلة بإيالة جزائر غرب وبالجملة رعاية أمور الدين المبين دين سيد المرسلين، والآن نقرر ما يأتي : عند وصول أمرنا وبالوجه الذي أوضحه الميرميران المشار إليه ابذلوا المجهود من أجل المحافظة والحماية اللازمة لما يقع تحت إمرتكم، ونظرا لاستيلاء أسطول العدو على تونس، فقد نقرر وصول أسطولنا الهمايوني إلى تلك الجهات في الربيع، ويتوجب عليك إعداد ذخائر وافرة ومستوفية لأسطولي الهمايوني وللعساكر المنصورة، وإن تمكنت من أعداد كبيرة من العساكر، فلا تردد في ذلك. وفي وقته وموسمه كن أنت كذلك في إمرة عساكر أسطولي الهمايوني. وقد أرسلت أحكام شريفة بهذا الخصوص، إلى أمير أمراء الجزائر. أظهر كل أنواع المساعي الجميلة عندما يمنحك المشار إليه التعليمات بهذا الخصوص".

المصدر: عبد الجليل التميمي، "عثمة إيالات الجزائر و تونس و طرابلس الغرب على ضوء المهمة دفترية (1559-1595)", زغوان، تونس: المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد 34، 2006، ص ص 126-127.

البيليوغرافيا

البيبلوغرافيا

المصادر والمراجع:

*القرءان الكريم

أ- باللغة العربية:

1. ابن أبي الدينار، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تونس: مطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحمية، ط01، 1869.
2. الراشدي ابن سحنون، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط01، 2003.
3. الطرابلسي ابن غلبون، تاريخ طرابلس الغرب المسمى التنكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، تحقيق وتعليق الطاهر الزاوي، ط01، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، 2004.
4. أحمد بن خالد الناصري أبو العباس، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، ج03، الدار البيضاء، المغرب، دار الكتاب، 1955.
5. الزباني أبو القاسم، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة بزا وبحرا، تحقيق عبد الكريم الفيلاي، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، 1991.
6. الناصري أبو راس، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تحقيق محمد غالم، ج02، منشورات ال:CRASC، الجزائر، د.ت.
7. الغرناطي أبي حامد، المغرب في بعض عجائب المغرب، تعليق محمد أمين ضناوي، لبنان: دار الكتب العلمية، د.ت.
8. الراشدي أحمد بن عبد الرحمان، القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط، تحقيق ناصر الدين سعيدوني، الجزائر: دار البصائر للطباعة والنشر، ط02، 2013.
9. الونشريسي أحمد بن يحيى، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقيا والأندلس والمغرب، ج02، الرباط، المملكة المغربية: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1981.
10. أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، الجزائر: وزارة المجاهدين، طبعة خاصة، 2010.
11. المدني أحمد توفيق، مذكرات أحمد شريف الزهار نقيب أشرف الجزائر، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، وزارة المجاهدين، طبعة خاصة، 2010.
12. جودت أحمد، تاريخ جودت، ترجمة عبد القادر أفندي الدنا، مج01، مطبعة جريدة بيروت، 1890.
13. المقرئزي تقي الدين أحمد، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق محمد عثمان، ج02، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.
14. الوزان الحسن، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ج02، ط02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983.

15. روبرتسون، إتحاف ملوك الزمان بتاريخ الإمبراطور شارلمان، مسبقا بمقدمته إتحاف الملوك الألبا بتقديم الجمعيات في أوروبا منذ انقراض الدولة الرومانية إلى أوائل القرن 16م، ترجمة خليفة بن محمود وراجي عبد الودود مج01، القاهرة: المطبعة الأميرية القاهرة، 1844.
16. التمكروتي علي بن محمد، النفحة المسكية في السفارة التركية، تحقيق عبد اللطيف الشاذلي، الرباط: المطبعة الملكية، 2002.
17. جلبي كاتب، تحفة الكبار في أسفار البحار، ترجمة محمد حرب وتسليم حرب، تركيا: دار البشير، ط01، 2016.
18. كارخال مارمول، إفريقيا، ج01، ترجمة محمد حجي وآخرون، الرباط، المغرب: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، 1984.
19. كارخال مارمول، وقائع ثورة الموريسكيين، ترجمة، محمد جزر، ج01، القاهرة، مصر: المركز القومي للترجمة، ط01، 2012.
20. مجهول، تاريخ الدولة السعودية التكمدرتية، تحقيق عبد الرحيم بنحادة، مراكش، المغرب: تتميل للطباعة والنشر، ط01، 1995.
21. مجهول، سيرة المجاهد خير الدين بربروس، تحقيق عبد الله حمادي، دار القصبية للنشر، الجزائر، 2009.
22. مجهول، غزوات عروج وخير الدين، تصحيح وتعليق نورالدين عبد القادر، الجزائر: المطبعة الثعالبية، 1934.
23. مجهول، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر "تسليم غرناطة ونزوح الأندلسيين إلى المغرب"، ضبط وتعليق ألفريد البستاني، مصر: منشورات مكتبة الثقافة الدينية، ط01، 2002.
24. الإفرائي محمد الصغير، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق عبد اللطيف الشاذلي، الدار البيضاء، المغرب: مطبعة النجاح الجديدة، ط1، 1998.
25. محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، تحقيق وعناية داوود بخاري ورايح قادري، ج01، الجزائر: دار الوعي، ط01، 2012.
26. التتسي محمد بن عبد الله، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان" مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان"، تحقيق محمود بوعيايد، موفم للنشر، الجزائر، 2011.
27. بربروس خير الدين، مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة محمد دراج، الجزائر: دار طليطلة، 2015.
28. المقري، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق مصطفى السقي وآخرون، ج01، القاهرة، مصر: المعهد الخلفي للأبحاث المغربية، 1939.
30. أبادي الفيروز، القاموس المحيط، تحقيق محمد الشامي وجابر أحمد، القاهرة، مصر: دار الحديث، 2008.
31. أباطة فاروق عثمان، أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن 16م، مصر: دار المعارف، ط02، 1994.
32. أبلي جويس، الرأسمالية ثورة لا تهدأ، ترجمة رحاب صلاح الدين، مصر: مؤسسة هنداي للنشر والتوزيع، 2020.
33. أبو صوة محمود أحمد، دراسات في تاريخ البحر الأبيض المتوسط في العصر الوسيط، منشورات ELGA، مالطا، 2000.

34. أبو علي عبد الفتاح وياغي إسماعيل أحمد، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، الرياض، المملكة العربية السعودية: دار المريخ، ط03، 1993.
35. أبو لقمة مصطفى والأعور علي، الجغرافيا البحرية، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ط02، بنغازي، ليبيا، 1999.
36. أحمد رمضان أحمد، تاريخ فن القتال البحري في البحر المتوسط "العصر الوسيط" من 655 إلى 1571م، مصر: هيئة الآثار المصرية، د.ت.
37. أرسلان شكيب، الحل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، ج01، بيروت، لبنان: منشورات دار مكتبة الحياة، د.ت.
38. آرسترونغ كارين، الحرب المقدسة الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم، ترجمة سامي الكعكي، لبنان: دار الكتاب العربية، 2005.
39. آصاف عزتلو يوسف بك، تاريخ سلاطين بني عثمان، مصر: مطابع مدبولي، ط01، 1995.
40. آقجة فاتح، السلطان سليم الأول، ترجمة أحمد كمال، مصر: دار النيل للطباعة والنشر، ط01.
41. ألتز عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، لبنان: دار النهضة العربية، ط01، 1989.
42. أمجان فريدون، سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين، مصر: دار النيل للنشر والتوزيع، ط02، 2015.
43. إنالجيك خليل، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة محمد الأرنؤوط، لبنان: دار المدار الإسلامي، ط01، 2002.
44. أنيس محمد، الدولة العثمانية والشرق العربي 1514-1914م، مصر: دار الجليل للطباعة والنشر، د.ت.
45. أورتادو دي مندوثا، حرب غرناطة، ترجمة إيمان عبد الحلیم وسلوى محمود، القاهرة، مصر: منشورات المركز القومي للترجمة، ط01، 2008.
46. أوزتونا يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، م 1، تركيا: منشورات مؤسسة فيصل، 1988.
47. أوزتونا يلماز، موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية السياسي والعسكري والحضاري، ترجمة عدنان محمد سلمان، مج01، لبنان: الدار العربية للموسوعات، ط01، 2010.
48. أوغلي إحسان وآخرون، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة صالح سعداوي، ج01، اسطنبول، تركيا: منشورات إرسیکا، 1999.
49. إيشبودان العربي، مدينة الجزائر تاريخ عاصمة، ترجمة مسعود جناح، الجزائر: دار القصة للنشر والتوزيع، 2007.
50. إيفانوف نيقولا، الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574م، ترجمة يوسف عطا الله، لبنان: دار الفرابي للنشر والتوزيع، ط01، 1988.
51. بابتي عزيزة، موسوعة الأعلام العرب والمسلمين والعالميين، ج01، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، 1971.
52. الباروني محمد، الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، طرابلس: مطبعة ماجي، 1952.

53. بركات وفيق، فن الحرب البحرية في التاريخ العربي الإسلامي، حلب، سوريا: منشورات معهد التراث العربي الإسلامي جامعة 1995.
54. برنشفيك روبر، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، ترجمة حمادي الساحلي، ج2، لبنان: دار الغرب الإسلامي، ط01، 1988.
55. برنشفيك روبر، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، ترجمة حمادي الساحلي، ج01، ط01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
56. برنيا كوستانزيو، طرابلس من 1510 إلى 1830م، ترجمة خليفة محمد التليسي، بنغازي، ليبيا: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ط01، 1985.
57. بروتون جيري، عصر النهضة "مقدمة قصيرة جدا"، ترجمة إبراهيم البيلي محروس، مصر: منشورات مؤسسة هندواي، 2014.
58. بروديل فرناند، الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية، من القرن 15 حتى القرن 18م، ترجمة مصطفى ماهر، ج01، مصر: المركز القومي للترجمة، 2013.
59. بروديل فرناند، تاريخ وقواعد الحضارات، ترجمة حسين شريف، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999.
60. بروديل فرناند، ديناميكية الرأسمالية، ترجمة شفيق محسن، ط01، دار الكتاب الجديد، لبنان، 2008.
61. بروشين إيليتش، تاريخ ليبيا في العصر الحديث، ترجمة عماد حاتم، لبنان: دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط02، 2001.
62. بروكلمان كارل، الأتراك العثمانيون وحضارتهم، ترجمة منير البعلبكي وأمين فارس، بيروت، لبنان: دار العلم للملايين، ط01، 1949.
63. البشر عبد الرحمان، مباحج الأندلس، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، 1971.
64. البشروش توفيق، جمهورية الدايات في تونس 1591-1675م، تونس: د.ت.
65. البعلبكي منير، معجم أعلام المورد، بيروت: دار العلم، ط01، 1992.
66. بركاكي إبراهيم، جزيرة كريت والمهاجرين، ط01، دار المنى، طرابلس، لبنان، 2004.
67. بلاك جبريمي، تاريخ الدبلوماسية، ترجمة علي سالم، الإمارات العربية المتحدة: ط01، منشورات هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، 2013.
68. بلحميسي مولاي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981ذ.
69. بن أشنهو عبد الحميد، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، الجزائر: الطباعة الشعبية للجيش، 1972.
70. بن خروف عمار، العلاقات بين الجزائر والمغرب 1517-1659م، مذكرة ماجيستير في التاريخ، كلية الآداب، جامعة دمشق، سوريا، 1983.
71. بن خلدون عبد الرحمان، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر...، ج13، موفم للنشر، الجزائر، 1995.
72. بن عميرة محمد و بشاري لطيفة، تاريخ بجاية، الجزائر: دار الفارابي، ط01، 2015.
73. البهجي إيناس، تاريخ الدولة العثمانية، عمان، الأردن: مركز الكتاب الأكاديمي، د.ت.

74. بوشرب أحمد، دكالة والاستعمار البرتغالي الى سنة إخلاء أسفي وأزمور قبل 28 أوت 1481- أكتوبر 1541"، منشورات الشركة الجديدة دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1984.
75. بوشرب أحمد، وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي ونتائجه، المغرب: دار الأمان للطباعة والنشر، ط01، 1991.
76. بوعزيز يحيى، المساجد العتيقة في الغرب الجزائري، الجزائر: عالم المعرفة، وزارة المجاهدين، طبعة خاصة، 2009.
77. بوعزيز يحيى، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا 1500-1830، الجزائر: وزارة المجاهدين، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، 2009.
78. بيات فاضل، البلاد العربية في الوثائق العثمانية النصف الأول من القرن 16م، المجلد 01، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إسطنبول، 2010.
79. بيات فاضل، البلاد العربية في الوثائق العثمانية ولاية الجزائر في القرن 10هـ/16م، المجلد 08، منشورات إرسىكا، إسطنبول، 2019.
80. بيات فاضل، الدولة العثمانية في المجال العربي، بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2007.
81. بيتروسيان أيرينا، الإنكشاريون في الإمبراطورية العثمانية، الإمارات العربية المتحدة، دبي: مراجعة ونشر مركز جمعية الماجد للثقافة والتراث، 2006.
82. البيشي علي، الجهاد البحري العثماني من خلال معركة ليبانتو، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي الحديث، السعودية: جامعة أم القرى، 1997.
83. البيطار فراس، الموسوعة السياسية والعسكرية، ج06، عمان، الأردن: دار أسامة للنشر والتوزيع، د.ت.
84. التازي عبد الهادي، الوسيط في التاريخ الدولي للمغرب، ج02، الرباط، المغرب: دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، ط01، 2001.
85. تشارلس لي هنري، العرب والمسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة، ترجمة سعيد الكرمي، لبنان: منشورات دار لبنان، ط01، 1988.
86. التيمي عبد الجليل، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين، تونس، زغوان: مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية، 1989.
87. جغلول عبد القادر، تاريخ الجزائر الحديث دراسة سوسولوجية، ترجمة فيصل عباس، لبنان: دار الحداثة للطباعة والنشر، ط02، 1982.
88. جلال حسين، فضل المسلمين في كشف الطريق البحري إلى الهند 1415-1498م، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1965.
89. الجمل شوقي عطا الله، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث "ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب"، مكتبة الأنجلو المصرية، ط01، مصر، 1977.
90. الجهني مانع، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والاحزاب المعاصرة، مج02، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط04، 1999.
91. جوليان شارل أندري، تاريخ إفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالي والبشير سلامة، تونس: الدار التونسية للنشر.

92. الجوهري يسري، الكشوف الجغرافية" دراسة لتاريخ الكشوف الجغرافية ولتطور الفكر الجغرافي، دار النهضة العربية، بيروت، 1984.
93. الجيب فوزية، تاريخ النفوذ البرتغالي في البحرين 1521-1602م، ط1، الأردن: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دار الفرس للنشر والتوزيع، 2003.
94. الجيلالي عبد الرحمان، تاريخ الجزائر العام، ج02، الجزائر: الشركة الجزائرية للكتاب، ط02، 1965.
95. الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، ج03، الجزائر: دار الأمة للطباعة والنشر، 2014.
96. حاج صادق محمد، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1989.
97. حبيدة محمد، تاريخ أوروبا من الفيودالية إلى الأنوار، دار أبي رقرق، الرباط، المغرب، 2016.
98. حاتم محمد عبد، التصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكين 1474-1516م، الأردن: ط01، 1980.
99. حاتم محمد عبد، إيبيريا قبل مجيء العرب المسلمين، منشورات وزارة الثقافة الأردنية، ط01، الأردن، 1996.
100. حاتم محمد عبد، موسوعة الديار الأندلسية، ج01، الجامعة الأردنية، ط01، الأردن، 1999.
101. الحديثي عباس غالي، نظريات السيطرة الإستراتيجية وصراع الحضارات، ط01، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.
102. حرب محمد، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مصر: المركز المصري للدراسات العثمانية، 1994.
103. حساني مختار، تاريخ الدولة الزيانية"الأحوال السياسية"، ج01، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009.
104. الحسني عبد المنعم، أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى ، الجزائر: دار الخليل القاسمي، ، ط01، 2005.
105. حسين آصف، صراع الغرب مع الإسلام، ترجمة مازن مطبقاني، الجزائر: عالم الأفكار للطباعة والنشر، ط01، 2013.
106. الحسيني سعدون، حركة الاسترداد الإسبانية "الريكونكيستا" قراءة في المصطلح والمضمون، ج01، عمان، الأردن: ركز الكتاب الأكاديمي.
107. حمدان جمال، إستراتيجية الاستعمار والتحرر، لبنان: دار الشرق للطباعة والنشر، ط01، 1983.
108. خوجة حمدان، المرأة، تعريب محمد العربي الزبيري، منشورات ANEP، الجزائر، 2006.
109. خوري إميل و إسماعيل عادل، السياسة الدولية في الشرق العربي "من الرن 16 إلى مؤتمر فينا"، ج01، لبنان: دار النشر للسياسة والتاريخ، 1990.
110. الخوند مسعود، الموسوعة التاريخية الجغرافية، الجزء الأول، دار رواد النهضة، بيروت، لبنان، 1994.
111. خير فارس محمد، تاريخ الجزائر الحديث"من الفتح العثماني حتى الاحتلال الفرنسي"، ط 1، سوريا: 1969.
112. خير فارس محمد، تاريخ المغرب العربي الحديث، ج01، منشورات جامعة دمشق، سورية، 2000.

113. دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة زكي خورشيد وآخرون، المجلد السابع، مصر: وزارة المعارف العمومية، د.ت.
114. دائرة سفير للمعارف الإسلامية، موسوعة حرف الألف، ج18، مصر، د.ت.
115. دراج محمد، الجزائر في المصادر العثمانية، الجزائر: شركة الأصالة للنشر، 2018.
116. دراج محمد، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس 1512-1543م، الجزائر: دار الأصالة للنشر والتوزيع، ط01، 2012.
117. دي طوريس ديبغو، تاريخ الشرفاء، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، المغرب: مطابع سلا، 1988.
29. ديورانت ول، قصة الحضارة، ترجمة عبد الحميد يونس، ج02 من مج06، لبنان: دار الجيل للطباعة والنشر، د.ت.
118. رافق عبد الكريم، العرب والعثمانيون 1516-1916، دمشق، سوريا: الألف باء للطباعة والنشر، ط2، 1993.
119. ربيع محمد عبد العزيز، صنع التاريخ "نظرية في التاريخ وتطور الحضارات"، دار اليازوري، عمان، الأردن، 2014.
120. الرديني طه مكي، المؤسسة العسكرية العثمانية 1299-1839م، الأردن: دار الحامد للنشر والتوزيع، ط01، 2014.
121. رزوق محمد، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17م، الدار البيضاء، المغرب: دار إفريقيا الشرق، ط03، 1998.
122. رمضان عبد العظيم، تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث، ج01، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997.
123. روسو ألفونسو، الحوليات التونسية من الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، بنغازي، ليبيا: منشورات جامعة قار يونس، د.ت.
124. الرئيس علي، الحروب الصليبية وجذورها الدينية من عهد قسطنطين إلى اليوم، مصر: دار طيبة للطباعة والنشر، ط01، 2008.
125. زنبير محمد، المغرب في العصر الوسيط "الدولة، المدينة، الاقتصاد"، ط1، منشورات كلية الآداب بالرباط، المغرب، 1999.
126. زيادة خالد، لم يعد لأوروبا ما تقدمه للعرب، الدار المصرية اللبنانية، ط01، 2015.
127. الزيدي مفيد، موسوعة التاريخ الإسلامي "العصر العثماني"، الأردن: دار أسامة للنشر، 2009.
128. الزيدي مفيد، موسوعة تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، ج01، الأردن: دار أسامة للنشر والتوزيع، ط03، 2009.
129. سالم أحمد، استراتيجية الفتح العثماني، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 2012.
130. سالم عبد العزيز والعبادي مختار، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1969.

131. سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج01، الجزائر: دار البصائر، طبعة خاصة، 2015.
132. سعد الله أبو القاسم، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، الجزائر: منشورات عالم المعرفة، وزارة المجاهدين، طبعة خاصة، 2015.
133. سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج01، الجزائر: عالم المعرفة، طبعة خاصة، 2015.
134. سعد الله فوزي، قصبة الجزائر "الذاكرة؛ الحاضر والخاطر"، د الجزائر: ار الإرشاد للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت.
135. سعيدوني ناصر الدين والبوعبدلي المهدي، الجزائر في التاريخ "العهد العثماني"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
136. سعيدوني ناصر الدين، الجزائر منطلقات وآفاق، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط02، 2009.
137. سعيدوني ناصر الدين، دراسات أندلسية "مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر"، بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي، ط01، 2003.
138. سعيدوني ناصر الدين، وراثة جزائرية "دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني"، الجزائر: دار البصائر، ط02، 2009.
139. سعيدون إبراهيم، الأسرى المغارب في إيطاليا خلال الفترة الحديثة "من القرن 16 إلى 18م"، الجزائر: شركة الأصالة للنشر، 2020.
140. السلطان محمد حميد، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج في الفترة ما بين 1507-1565م، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات العربية المتحدة، 2000.
141. سولا إميليو، البحر المتوسط المركز الحيوي للقرن 14م "ابن خلدون البحر المتوسط في القرن 14م قيام وسقوط إمبراطوريات"، ترجمة إسحاق عبيد، مصر: منشورات مكتبة الإسكندرية، 2007.
142. الشامسي عبيد، الصراع البرتغالي العثماني في القرن 16م، مركز الدراسات والوثائق، الإمارات العربية المتحدة: ط02، 2013.
143. الشطشاط علي حسن، نهاية الوجود العربي في الأندلس، مصر: دار قباء للنشر والتوزيع، 2001.
144. شكري محمد، دليل الأستانة، مصر: الإسكندرية، مطبعة جرجي غرزوزي، 1909.
145. الشناوي عبد العزيز، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج02، القاهرة، مصر: مكتبة الأنجلو المصرية، 2004.
146. شوسوا رويبر، المعارك البحرية الكبرى في التاريخ، ترجمة عبد الرحمن حميدة، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، سوريا: 1984.
147. شوفاليه كورين، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510-1541م، ترجمة جمال حمادنة، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2007.
148. شويتام أرزقي، دراسات ووثائق في تاريخ الجزائر العسكري والسياسي الفترة العثمانية 1519-1830م، ط01، الجزائر: دار الكتاب العربي، 2010.

149. الشيخ عبد الرحمان، الدائرة المتوسطة "تأصيلات ثقافية واجتماعية وتاريخية"، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2009.
150. شيهان مايكل، توازن القوى "التاريخ والنظرية"، ترجمة أحمد مصطفى، ط1، المركز القومي للترجمة، منشورات مركز المحروسة، القاهرة، مصر، 2015.
151. صالح محمد، تاريخ أوروبا من عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية 1500-1789، ط01، دار ابن الأثير، جامعة الموصل، العراق، 1981.
152. صباغ عباس، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية "الحرب والسلام بين العثمانيين والصفويين"، بيروت، لبنان: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط01، 1999.
153. الصباغ ليلي، تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ط04، منشورات جامعة دمشق، سوريا، 1998.
154. الصباغ ليلي، معالم تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ط04، منشورات جامعة دمشق، 1998.
155. الصلابي محمد علي، السلطان محمد الفاتح، مصر: دار التوزيع الإسلامية، ط01، 2006.
156. الطالب عمار، آثار ابن باديس، ج4، الجزائر: الشركة الجزائرية للطباعة والنشر، ط01، 1968.
157. عاشور عبد الفتاح وآخرون، تاريخ مصر الإسلامية، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993.
158. العامري راضي، الأنوار الحضارية في القنوط الأندلسية، عمان، الأردن: دار غيداء للنشر والتوزيع، 2014.
159. العباسي عبد الرحيم، منح رب البرية في فتح رودس الأبية، تحقيق عبد الله الكندري، الكويت: جامعة الكويت، حوليات كل كلية الآداب، العدد 18، 1998.
160. عبد القادر حلبي، مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830، الجزائر: المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي، ط01، 1972.
161. عبد الكريم شوقي، الاستخبارات الجزائرية في العصر الحديث 1492-1830م، الجزائر: دار هومة للنشر والتوزيع، ط01، 2017.
162. عدنان محمد، صراع القوى في المحيط الهندي والخليج العربي، دار دمشق للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1984.
163. عصمت راشد زينب، تاريخ أوروبا الحديث من مطلع القرن 16 إلى نهاية القرن 18، ج01، دارا لفكر العربي للطباعة والنشر، مصر، 1986.
164. عطيات أحمد محمد، الأندلس من السقوط إلى محاكم التفتيش، عمان، الأردن: أمواج للطباعة والنشر، ط01، 2012.
165. عطيات محمد، الأندلس من السقوط إلى محاكم التفتيش، الأردن: أمواج للطباعة والنشر، ط01، 2012.
166. عطية عزيز سوريال، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، القاهرة، مصر: منشورات دار الثقافة، دار الجيل للطباعة، ط02، 1990.
167. العقاد صلاح، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر "الجزائر، تونس، المغرب الأقصى"، مصر: مكتبة الأنجلو المصرية، ط06، 1993.

168. العقبي صلاح مؤيد، الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر تاريخها ونشأتها، لبنان: دار البراق، 2002.
169. عمر عبد العزيز، دراسات في التاريخ الأوربي والأمريكي الحديث، مصر: دار المعرفة الجامعية، د.ت، 1992.
170. عنان محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الرابع "نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتتصرين"، مصر: مطابع الخانجي، ط04، 1997.
171. عودات أحمد وآخرون، تاريخ المغرب والأندلس من القرن 16هـ إلى القرن 10هـ، دار الأمل للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، 1989.
172. العيديروس محمد حسن، العصر الأندلسي، مصر: دار الكتاب الحديث، ط01، 2012.
173. غريال محمد شفيق، منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ما هي عليه اليوم، مصر: منشورات مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2017.
174. غزالة بك حبيب، جزيرة رودس "جغرافيتها وتاريخها وآثارها"، مصر: مطبعة الاعتماد، 1929.
175. غلاب عبد الكريم، قراءه جديده في تاريخ المغرب العربي، الجزء الثاني، دار الغرب الإسلامي، ط01، لبنان، 2005.
176. غنيمي الشيخ رأفت، تاريخ العرب الحديث، منشورات عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، 2005.
177. غيزو فرنسوا، التحفة الأدبية في تاريخ تمدن الممالك الأوروبية، ترجمة حنين خوري، لبنان: دار الحمراء للطباعة والنشر، ط02، 1990.
178. فاروقي ثريا، الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، ترجمة حاتم الطحاوي، بيروت، لبنان: دار المدار الإسلامي، ط01، 2008.
179. فايسات أوجان، تاريخ قسنطينة خلال الفترة العثمانية 1517-1837، ترجمة أحمد سيباوي وهارون حمادو، قسنطينة، الجزائر: دار كنوز يوغرطا للنشر والتوزيع، ط2019، 01.
180. فرانك إيريك و بروانستون ديفيد، طريق الحرير، ترجمة أحمد محمود، مصر: منشورات المجلس الأعلى للثقافة، د.ت.
181. فريد بك محمد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، لبنان: دار النفائس، ط01، 1981.
182. فكاير عبد القادر، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره 1505-1792، الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر، ط02، 2015.
183. فكاير عبد القادر، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث 1518-1830م، الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر، 2018.
184. فولو ديدين وفولو جيمس، عصر الملاحة البحرية، ترجمة خلود الخطيب، الإمارات العربية المتحدة: منشورات هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة "مشروع كلمة"، ط01، 2012.
185. فون مالتسان هاينريش، ثلاث سنوات في غربي شمال إفريقيا، ترجمة أبو العيد دودو، ج02، طبعة خاصة، وزارة المجاهدين، دار الأمة، 2009.

186. فون مالتسان هاينريش، ثلاث سنوات في غربي شمال أفريقيا، ترجمة أبو العيد دودو، ج01، الجزائر: طبعة خاصة، دار الأمة، 2009.
187. فيرو شارل، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة وتحقيق عبد الكريم الوافي، بنغازي، ليبيا: منشورات جامعة قان يونس، ط3، 1994.
188. فيرو شارل، تاريخ جيجلي، ترجمة عبد الحميد سرحان، الجزائر: دار الخلدونية للنشر والتوزيع، ط01، 2010.
189. فيشر هربت، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة مصطفى زيادة وآخرين، مصر: دار المعارف، مكتبة الأنجلو، 1954.
190. الفيلاي عبد الكريم، التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، ج03، شركة ناس للطباعة، ط01، القاهرة، مصر، 2006.
191. فيليت كات، التجارة بين أوروبا والبلدان الإسلامية في ظل الدولة العثمانية، ترجمة أيمن الأرماني، ط01، منشورات العبيكان، المملكة العربية السعودية، 2004.
192. القدوري عبد المجيد، المغرب وأوروبا ما بين القرنين 15 و18م (مسألة التجاوز)، الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي، ط02، 2012.
193. القرماني أحمد بن يوسف، أخبار الدول وآثار الأول "تاريخ القرماني"، مراجعة أمين السيد، ج02، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
194. قسوم عبد الرزاق، عبد الرحمان الثعالبي والتصوف، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978.
195. قنان جمال، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، الجزائر: منشورات وزارة المجاهدين، طبعة خاصة، 2009.
196. قنان جمال، معاهدات الجزائر مع فرنسا، الجزائر: منشورات وزارة المجاهدين، طبعة خاصة، 2009.
197. قنان جمال، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830م، الجزائر: منشورات وزارة المجاهدين، 2009.
198. كريم عبد الكريم، المغرب في عهد الدولة السعدية "دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية"، الرباط، المملكة المغربية: منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، ط03، 2006.
199. كمال محمد نامق، فاتحة الفتوحات العثمانية، ترجمة عبد الله مخلص، فلسطين: مطبعة حيفا الوطنية، 1909.
200. كنون عبد الله، رسائل سعدية، تطوان، المغرب: دار الطباعة المغربية، 1954.
201. كوثراني وجيه، الفقيه والسلطان جدلية الدين والسياسة في تجربتين تاريخيتين "العثمانية والصفوية"، لبنان: المركز العربي للأبحاث والدراسات، ط4، 2015.
202. كورتين فيليب، العالم والغرب "التحدي الأوروبي والاستجابة في ما وراء البحار في عصور الإمبراطوريات"، ترجمة رضوان السيد، السعودية: العبيكان للنشر والتوزيع، ط01، 2007.

203. كولان جورج سيرافان، الأندلس، ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرين، دار الكتاب اللبناني، ط01، بيروت، لبنان، 1980.
204. كولز بول، العثمانيون في أوروبا، ترجمة عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1993.
205. كولن صالح، سلاطين الدولة العثمانية، ترجمة منى جمال الدين، القاهرة، مصر: دار النيل للطباعة والنشر، ط01، 2014.
206. كونتامين فيليب وآخرون، موسوعة تاريخ أوروبا العام "أوروبا منذ بداية القرن 14 وحتى نهاية القرن 18م"، ترجمة وجيه البعيني، مج02، ط01، منشورات عويدات، بيروت-باريس، 1995.
207. لقوارة فهم، ميناء مدينة الجزائر ودوره الإقتصادي في العهد العثماني ق16-17م، الجزائر: دار الإرشاد للنشر والتوزيع، 2015.
208. لوبون غوستاف، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتير، مصر: مؤسسة هندواي للنشر والتوزيع، 2013.
209. لورنس هنري وآخرون، أوروبا والعالم الإسلامي تاريخ بلا أساطير، ترجمة بشير السباعي، مصر: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ط01، 2016.
210. لويس برنار، إستنبول وحضارة الخلافة الإسلامية، ترجمة رضوان سيّد، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط2، 1982.
211. لويس برنار، اسطنبول وحضارة الخلافة الإسلامية، ترجمة سيد رضوان علي، الرياض: الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط02، 1982.
212. لويس برنار، السياسة والحرب، تراث الإسلام، ترجمة حسين مؤنس وآخرون، ج01، الكويت: منشورات عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1986.
213. ماخوفسكي ياتسيك، تاريخ القرصنة في العالم، ترجمة: أنوار محمد إبراهيم، القاهرة، مصر: مكتبة المشارق للنشر والتوزيع، ط01، 2016.
214. ماستناك توماش، أوروبا وتدمير الآخر "الهنود الحمر والأتراك والبوسنيون"، ترجمة بشير السباعي، ط01، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1995.
215. متولي فؤاد، تاريخ الدولة العثمانية من نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي، مصر: إيتراك للطباعة والنشر، 2005. مسعود مجاهد، تاريخ الجزائر، ج01، الجزائر: د.ت.
216. محاسيس نجاه محمود، معجم المعارك التاريخية، الأردن: دار زهران للنشر والتوزيع، 2011.
217. محمد إسحق عبد الله، محطات في حركة التتوير الأوروبية، ج01، دار ابن رشد، د.ت.
218. محمد جميل بيهم، فلسفة التاريخ العثماني، لبنان: منشورات دار صادر، د.ت، 1925.
219. محمد مصطفى نادية، العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي منظور حضاري مقارنة، ج1، مصر: دار البشير للثقافة والعلوم، ط01، 2015.
220. محمود حمد السيد، تاريخ الدولة العثمانية "النشأة والازدهار"، القاهرة، مصر: مكتبة الآداب للنشر والتوزيع، ط01، 2007.

221. محمود عبد الخالق، العلاقات السياسية بين الدولة العثمانية والمغرب السعدي 1550-1603م، "العرب من مرجع دابق إلى سايكس بيكو".
222. مخزوم محمد، مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي (عصر النهضة)، الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 1983.
223. مزين محمد، طبيعة الحروب في المغرب في عهد السعديين، بحث لنيل شهادة الإجازة في التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية لجامعة محمد بن عبد الله بفا، المغرب، 1979-1980.
224. مصطفى عبد الرحيم، في أصول التاريخ العثماني، لبنان: دار الشروق، ط01، 1986.
225. المضواحي مطهر، الأندلسيون عقب سقوط غرناطة مأساة شعب لأكثر من مائة عام 1492-1609م، الإسكندرية، مصر: كتوبا للنشر والتوزيع، 2019.
226. مطهر علي، محاكم التفتيش بإسبانيا والبرتغال وفرنسا وغيرها، مصر: مطبعة أنصار السنة المحمدية، 1947.
227. معلوف إلياس موريس، الآباء اليسوعيون من الإيمان إلى المعرفة، بيروت، لبنان: دار الفارابي للنشر والتوزيع، ط01، 2013.
228. المقرحي ميلاد، تاريخ أوروبا الحديث 1453-1848م، منشورات جامعة قان يونس، بنغازي، ليبيا، ط01، 1996.
229. المنوني محمد، ورقات عن حضارة المرينيين، ط03، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، المغرب، 2000.
230. مهدي وليد، بغية السائل من أوابد المسائل، دار الراف للنشر والتوزيع، 2018.
231. موسنييه رولان، تاريخ الحضارات العام، تعريب أسعد وفريد زاغر، مج04، بيروت-باريس: منشورات عويدات، ط02، 1987.
232. موسوعة الأعلام العرب والمسلمين والعالميين، ج01، لبنان: دار الكتب العلمية بيروت-باريس، 2009.
233. مؤنس حسين، الشرق الإسلامي في العصر الحديث، مصر: مطابع حجازي، ط02، 1938.
234. الميللي مبارك، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج02، المؤسسة الوطنية للكتاب، دت، الجزائر.
235. الميللي مبارك، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج03، الجزائر: مكتبة النهضة الجزائرية: 1964.
236. ناجي محمود، تاريخ طرابلس الغرب، ترجمة عبد السلام أدهم ومحمد الأسطى، بنغازي، ليبيا: منشورات الجامعة الليبية، 1970.
237. نايت بلقاسم مولود قاسم، شخصية الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830م، ج01، الجزائر: دار الأمة، 2013.
238. النشار محمد محمود، دراسات في تاريخ إسبانيا والبرتغال في العصور الوسطى، منشورات عين للبحوث والدراسات، مصر: ط01، 2007.

239. النظام زهراء، العثمانيون والصراع المسيحي الإسلامي في غرب المتوسط "العثمانيون والعالم المتوسطي، مقاربات جديدة"، إشراف عبد الرحمان المودن وعبد الرحيم بنحادة، المملكة المغربية: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط01، 2003.
240. نكروف يوسف، معركة وادي المخازن بين الملوك الثلاثة، ترجمة وفاء موسى وحسين حيدر، ط01، منشورات عويدات، بيروت-باريس، 1987.
241. نور الدين عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر "من أقدم عصورها إلى العهد التركي"، الجزائر: دار الحضارة، 2006.
242. نورويش جون جوليوس، الأبيض المتوسط تاريخ بحر ليس كمثلته بحر، ترجمة طلعت الشايب، ط01، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، 2015.
243. هريك إيفان ، تفكك وحدة المغرب السياسي "تاريخ إفريقيا العام، إفريقيا من القرن 12 إلى القرن 16م"، إشراف جبيرل نياني، مج04، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1988.
244. هريدي عبد اللطيف، الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوروبا، القاهرة: دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط01، 1987.
245. هلايلي حنفي، بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، عين مليلة، الجزائر: دار الهدى، ط01، 2007.
246. وولف جون بابتست، الجزائر وأوروبا 1500-1830م، ترجمة أبو القاسم سعد الله، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، وزارة المجاهدين، طبعة خاصة، 2015.
247. ياغي إسماعيل أحمد، العالم العربي في التاريخ الحديث، السعودية: العبيكان للنشر والتوزيع، 2003.
248. يحيوي جمال، سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين، الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر، 2012.
249. يحيى جلال، أوروبا في العصور الحديثة، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1981.
250. يحيى جلال، تاريخ العلاقات الدولية في العصور الحديثة، دار المعارف، مصر، 1982.
251. يسري الجوهري، شمال إفريقية دراسة في الجغرافية التاريخية، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، مصر، 1970.
252. يلماس كلود، تاريخ الحضارة الأوروبية، ترجمة كوليت حبيب، سوريا: دار الفن الحديث العالمي، ط01، د.ت.
253. ييمسكي جيهان وآخرون، درغوث رايس (1485-1565م)، أعمال ملتقى "درغوث رايس للتاريخ البحري والتركي" من تنظيم بلدية درغوث رايس ومركز الثقافة والفنون (27-28 ماي 2011)، أنقرة، تركيا: بوردوم للطباعة والنشر، جويلية 2013.
254. يوسف نسيم، دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، 1988.

ب-باللغات الأجنبية:

- 1- Emmanuelle Pujeau. Preveza in 1538 The Background of a Very Complex Situation. Second International Symposium on the History and Culture of Preveza, Sep 2009, Preveza, Greece.
- 2- Godefroid Kurth, Philippe II roi d'Espagne, traduit de l'allemand du par Reinhold Baumstark, Liège, Belgique, 1877.
- 3- L.Didier, histoire d'Oran période 1501-1550, Oran, 1927.
- 4- L'évêque de Nevers, Vie du cardinal de Ximenès, régent d'Espagne, bibliothèque des écoles chrétiennes, Paris, 1845.
- 5- Adrien Berbrugger, Le Pégnon d'Alger ou les origines du Gouvernement Turq en Algerie, Alger, 1860.
- 6- M. Gachard, Correspondance de Charles-Quint et d'Adrien VI, Première Edition, Bruxelles, 1859.
- 7- Laugier De Tassy, Histoire du royaume d'Alger, Amsterdam, 1725.
- 8- Mouloud Gaid, l'Algerie sous les Turcs, Maison Tunisienne de l'édition, Tunis, 1975.
- 9- Henry de Castries, les sources inédites de l'histoire du Maroc, Archives et bibliothèques de France, T01, 1ere partie 1530-1660, Paris, 1906.
- 10- *Halil Inalcik*, The Ottoman Empire, The Classical Age, 1300-1600, Second Edition, By Phonix, 2000.
- 11- Charles Bratli, Philippe II roi d'Espagne étude sur sa vie et son caractère, Paris, 1912.
- 12- Braudel, The Mediterranean and the Mediterranean world in the age of Philip II, Translated from Sian Reynolds, T01.
- 13- Élie De La Primaudaie, l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique (1506- 1594) Documents inédits Recueillis et Mis en Ordre, Alger, 1875.
- 14- Fray Diego de Haedo, Histoire des rois d'Alger, traduite et annotée par De Grammont, Alger, 1881.
- 15- Paul Masson, Histoire Des Établissements Et Du Commerce Francais Dans L'Afrique Barbaresque (1560-1793), Paris, 1903.
- 16- Ernest Charrière, Négociations de la France dans le Levant, ou Correspondances, mémoires et actes diplomatiques des ambassadeurs de France, T02, Imprimerie nationale de France, Paris.
- 17- Moulay Belhamissi, les captifs Algériens et l'Europe chrétienne, E. N.A. L, Alger, 1988.
- 18- P. Pierre Dan, histoire de barbarie et ses corsaires, imprimeur & libraire ordinaire du Roi, seconde édition, Paris, 1646.
- 19- Berbrugger, la mort du fondateur de la Régence d'Alger, R.A, Vol04, Alger, 1859-1860.
- 20- Belhamissi, marine et marins d'Alger 1518-1830, les navires et les hommes, T01, Alger, 1996.
- 21- The crusades and the expansion of catholic Christendom 1000, 1714, Jhon France, London, 200.
- 22- Berbrugger, Le Pégnon D'Alger u les origines du gouvernement Turc en Alger, Paris, 1860.

- 23- Cihan Yemişçi ve diğerleri, Turgut Reis - Türk Denizcilik Tarihi Sempozyumu 27-28 Mayıs 2011, Bodrum Ajans Yayın Grubu, Ankara, 2003.
- 24- Ernest Charrière, Négociations de la France dans le Levant, ou Correspondances, mémoires et actes diplomatiques des ambassadeurs de France, T01, Paris.
- 25- Colin Inber, The Ottoman Empire, 1300-1650, The Structure of Power, First Edition, London, 2002.
- 26- H. De GRAMMONT, Relations entre la France et la Régence d'Alger au XVIIIe siècle, R.A, Paris.
- 27- Vincenzo Scarpello, Storia e Strategia della Pirateria Barbaresca (Secc. XVI – XIX), Italia, 2010.

الرسائل الجامعية:

- 1- لكل الشيخ، نشاط وكالة الباستيون وأثره على العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال النصف الأول من القرن 17م، الجزائر: رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة غرداية، 2012-2013.
- 2- بن سليمان فاطمة، الإيالة التونسية بين القرنين 16 و19 "نشأة المجال"، ج01، أطروحة دكتوراه في التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، السنة الجامعية 2004-2005.
- 3- قرود لحسن، دور الجزائر في تدعيم الحكم العثماني في تونس خلال القرن 16م، جامعة الجزائر 02: رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، 2017-2018.
- 4- السفيناني محمد، دار الإسلام ودار الحرب وأصل العلاقة بينهما، جدة، السعودية: رسالة ماجستير، جامعة الملك عبد العزيز، 1980-1981.
- 5- القيسي محمود، النشاط البحري العثماني في البحر المتوسط خلال القرن 16م، جامعة بغداد: أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، مارس 2008.

المقالات:

أ- باللغة العربية:

- 1 أبو بكر حسوني، مخطوطة رسالة الإمام أبي العباس أحمد بن أبي جمعة المغراوي مفتي الديار الوهرانية في القرن العاشر (10هـ) لأهل الأندلس زمان المحنة، الجزائر: جامعة وهران، المجلة الجزائرية للمخطوطات، العدد 07، 2010.
- 2 أحمد نهلة، الأهمية الإستراتيجية لجبل طارق عند العرب المسلمين خلال القرون الوسطى 711-1462م، مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد 16، مركز المجد الإمارات العربية المتحدة، دبي، مارس 1997.
- 3 بروديل فرناند، تاريخ المتوسط الفضاء والتاريخ، تعريب محمد بولعيش، مجلة بيت الحكمة، العدد 05، 1987.
- 4 بلحميسي مولاي، صناعة السفن في الجزائر أيام الأتراك من ق16 إلى ق19م، الجزائر: مجلة الدراسات الأثرية، مج02، العدد 01، نوفمبر 1995.

- 5 بلحميسي مولاي، غارة الأمبراطور شارل الخامس على مدينة الجزائر 948هـ/1541م بين المصادر الإسلامية والمصادر الغربية، الجزائر: وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مجلة الأصالة، العدد08، جوان 1972، ص 91-111.
- 6 بلحميسي مولاي، نهاية دولة بني زيان، الجزائر: وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مجلة الأصالة، العدد26، 1975.
- 7 بن أشنهو عبد الحميد، أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة دفين تلمسان أم فاس، الجزائر: وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مجلة الأصالة، العدد26، 1975، ص 271-282.
- 8 بن موسى فيصل، السلطة العثمانية وعلماء الجزائر "قراءة في وثيقة عثمانية في النصف الثاني من القرن 16م"، الجزائر: جامعة الجيلالي النابيس بسيدي بلعباس، مجلة آفاق فكرية، المجلد05، العدد 11، ديسمبر 2019.
- 9 بونو سلفاتور، العلاقات بين الجزائر وإيطاليا خلال العهد التركي، ترجمة أبو القاسم بن التومي، ج01، الجزائر: وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مجلة الأصالة، العدد 06، 1972.
- 10 التميمي عبد الجليل، "عثمة إيالات الجزائر و تونس و طرابلس الغرب على ضوء المهمة دفترية (1559-1595)", زغوان، تونس: المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد 34، 2006.
- 11 التميمي عبد الجليل، الخلفية الدينية للصراع الإسباني العثماني على الأيالات المغربية في القرن 16م، تونس: المجلة التاريخية المغربية، العدد 10-11، 1978.
- 12 التميمي عبد الجليل، أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول 1519، المجلة التاريخية المغربية، تونس: العدد06، جويلية1976.
- 13 التميمي عبد الجليل، رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541م، تونس: المجلة التاريخية المغربية، العدد03، يناير 1975.
- 14 النقفي علي رابع، معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية لعام 1535م، السعودية: مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، د.ت.
- 15 حجي محمد، العلاقات المغربية التركية في القرن 16م، المغرب: وزارة الشؤون الثقافية، مجلة المناهل، العدد25، ديسمبر 1982.
- 16 دراج محمد، تأسيس إيالة الجزائر، الجزائر: جامعة وهران 1، مجلة عصور، مج09، العدد1، جوان 2010.
- 17 دي إيبالزا ميكال، ثلاث أحداث غير معروفة من العلاقات التاريخية بين عنابة وإسبانيا، ترجمة عبد الحميد حاجيات، الجزائر: وزارة التعليم القومي والشؤون الدينية، مجلة الأصالة، العدد 34-35.
- 18 الدين سعيدوني ناصر، الأندلسيون الموريسكيون بمقاطعة الجزائر أثناء القرنين 16 و17م، الجزائر: جامعة الجزائر، حوليات جامعة الجزائر، مج07، العدد01، جويلية 1993.
- 19 رضوان نبيل عبد الحي، تطور الأسطول العثماني في ظل أبرز الحضارات البحرية للبحر المتوسط، مصر: كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلة المؤرخ المصري، العدد 20، جويلية 1998.
- 20 الساعدي بشري، الدبلوماسية السياسية وأثرها في تثبيت الوجود العثماني في منطقة شمال العراق إدريس البديسي أنموذجا، مجلة الطريق للتربية والعلوم الاجتماعية، المجلد 05، العدد 13، جامعة المستنصرية، العراق، 2018.

- 21 سعيدوني ناصر الدين، "الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية" الجزائر، تونس وطرابلس"، جامعة الكويت: حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، العدد 33، 2010.
- 22 سماحي جواد، البعد الاقتصادي للصدام العثماني الأوروبي في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن 16م، جامعة تيارت، الجزائر: مخبر الدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا، مج04، العدد02، سبتمبر 2021.
- 23 سماحي جواد، عامل الدين ضمن صراع القوى الفاعلة بالحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن 10هـ/16م، الجزائر: مجلة الواحات للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، مج14، العدد01، 2021.
- 24 الشريف محمد، سبته في إستراتيجية دول الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، المغرب: المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية، مجلة أسطور، العدد10، جويلية 2019.
- 25 الصباغ ليلي، ثورة مسلمي غرناطة أواخر عام 1568م والدولة العثمانية، الجزائر: وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مجلة الأصالة، العدد 27، 1975.
- 26 عطية عبد الوهاب، الصراع العثماني الصفوي ونتائجه السياسية والعسكرية، مجلة كلية اللغة العربية بأسبوط، العدد13، جامعة الأزهر، مصر، 1993.
- 27 علاوي نسبية، النشاط البحري لكامل رايس 1451-1511م، العراق: مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، مج14، العدد01، 2017.
- 28 علي أميرة، تاريخ النبيلريكية العثماني في بعض الولايات العربية في القرن 16م، مصر: جامعة القاهرة، مجلة رسالة المشرق، مج08، العدد، 04، مركز الدراسات الشرقية، 1999.
- 29 كاردياك لوي، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون 1492-1640م، ترجمة عبد الجليل التميمي، تونس: المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية الجزائري، 1983.
- 30 كفناني الحسن، جوانب من حركة الجهاد في بداية القرن 16م، المغرب: منشورات جامعة القاضي عياص، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد08، 1992.
- 31 مجلة الهجرة والرحلة، عدد خاص تحت عنوان "تحية تقدير وامتنان للأستاذ ميكال دي إيبالزا"، الجزائر: جامعة قسنطينة، العدد 03، أبريل 2010.
- 32 المدني أحمد توفيق، تلمسان بين الزينيين والعثمانيين، الجزائر: وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مجلة الأصالة، العدد26، 1975.
- 33 نعمة يونس عباس، سياسة إنجلترا اتجاه الحروب الإيطالية، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، العراق: مج12، العدد03، 2009.
- 34 همام تمام، الصراع الإسباني الجزائري في غرب المتوسط خلال القرن السادس عشر، البحرين: مجلة العلوم الإنسانية، جامعة البحرين، العدد01، 1998.

ب-باللغات الأجنبية:

- 1- Fernand Braudel, Les Espagnols et l'Afrique du Nord de 1492 à 1577 (suite) R.A, N69, 1928.
- 2- George Cassar, The Great Siege 1565, Separating Fact from Fiction, Published by Sacra Militia Foundation, Malta, 2005, pp01-03.

- 3- Monnerreau et Watbled, négociations entre Charl-Quint et Kheir-ed-in 1538-1540, R.A, vol 15, Paris, 1871, p140.
- 4- Paul Gaillardon et Tristan Vigliano, Pie II Lettre au Sultan Mahomet II et autres textes, Les Mondes Humanistes (GRAC), 2010.

4-الملتقيات العلمية المتلفزة:

1-لقاء في حصة متلفزة من تنشيط المؤسسة العمومية للتلفزيون الجزائري استضيف فيه الأستاذ فاضل بيات والأستاذ محمد دراج، بثت على قناة الذاكرة (TV08) بتاريخ 2022/03/12 من الـ: 20:00 إلى 21:00، في إطار فعاليات الملتقى الدولي الرابع حول الموروث الجزائري التركي المشترك؛ موسوما بـ "على خطى بيري رئيس؛ تاريخ الجزائر من خلال كتاب البحرية"، أيام 09-10-11 مارس 2022 بالجزائر.

فهرس المحتويات

الصفحة	المحتويات
	إهداء
	شكر وامتنان
	قائمة المختصرات
أ-ر	مقدمة
27	الفصل التمهيدي: الوضع السياسي العام للمتوسط الغربي مع نهاية القرن 15م
28	أهمية البحر الأبيض المتوسط
30	الضفة الجنوبية حيث بلاد المغرب الإسلامي
31	المغرب الأدنى
33	المغرب الأوسط
36	المغرب الأقصى
38	طرابلس
39	الضفة الشمالية حيث بلدان أوروبا الغربية المسيحية
39	شبه الجزيرة الأيبيرية
41	أ-إسبانيا
42	ب-البرتغال
43	القوى الأوروبية خارج إيبيريا
43	فرنسا
43	إيطاليا
44	إنجلترا
45	ملاح أوروبا مطلع العصر الحديث
45	أ-تصاعد النزعة القومية
46	ب-تنامي البورجوازية
47	الدولة العثمانية
49	الفصل الأول: أوجه الصراع الإسلامي المسيحي في الحوض الغربي للمتوسط خلال القرن 10هـ / 16م
49	المبحث الأول: الوجه الديني للصراع
50	طبيعة الصراع وأطرافه
52	الوضع الديني العام بين الجبهتين والمناسبات القريبة للصراع
55	المشاكل الدينية داخل الجبهة الواحدة
60	البعد الإسلامي لتحركات العثمانيين
62	التواجد العثماني في حوض المتوسط الغربي
65	احتضان الجزائر للجهود العثمانية الغير الرسمية ثم الرسمية
69	إسبانيا راعية الصليبية الحديثة في البحر المتوسط

73	المبحث الثاني: الوجه الاقتصادي للصراع
73	أهمية البحر المتوسط كفضاء للتجارة العالمية
75	سيطرة العالم الإسلامي على منافذ التجارة الرئيسية
77	دور إيطاليا في الوساطة التجارية بالبحر المتوسط
78	الكشوف الجغرافية وخلفياتها الاقتصادية
80	الصراع في شرق البحر المتوسط وأثره على الواقع الاقتصادي
81	الأثر الاقتصادي للكشوف الجغرافية
83	الميركنتيلية وليدة الكشوف الجغرافية
85	الكشوف الجغرافية والانقلاب التجاري العالمي
87	الأهمية الاقتصادية للضفة الجنوبية من المتوسط الغربي
90	المغرب الأقصى
91	مضيق جبل طارق
92	الجزائر
94	طرابلس
97	جهود العثمانيين لفرض تأثير العالم الإسلامي واستعادته على التجارة الدولية
102	المبحث الثالث: الوجه الاستراتيجي للصراع
102	الحرب البحرية أمر واقع
103	الجانب العسكري في رعاية المصالح السياسية
104	الاهتمام العثماني بالبحرية
106	مضاعفة العناية بالأسطول البحري من طرف السلاطين
108	الإرادة السياسية العثمانية في سياق الخلافة الإسلامية
109	السلطان سليم الأول وبوادر الدولة العالمية
110	علاقة سليم الأول بالأسطول البحري كمشروع استراتيجي
112	الرغبة السياسية لدى الجبهة الأوروبية الغربية في خوض الصراع
113	الملكية الإسبانية وتوجيه سياسة الغلبة الأوروبية
116	انتعاش البحرية الأوروبية
116	القوى الأوروبية وسياسة البحث عن النفوذ

119	التنافس الأوربي الأوربي وتشكل القوى السياسية
120	السلطان سليمان القانوني وفاعلية الدولة العثمانية في التوازنات
120	إيطاليا الجبهة الساخنة للصراع الدولي
122	أثر التنافس الأوربي الداخلي على مصالح العثمانيين
126	الفصل الثاني: أدوار الجزائر في الصراع الإسلامي النصراني بالحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن 16م
127	مدخل: أسباب الاستهداف الأوربي للجزائر مع بداية القرن 16م
127	السبب الديني
128	السبب الاقتصادي
129	السبب السياسي والاستراتيجي
131	المبحث الأول: دور الجزائر السياسي في الصراع
131	ما بعد ارتسام الحكم العثماني في الجزائر
132	مقتضيات البداية وتحديات الجبهة الداخلية
134	القيمة السياسية للجزائر منذ تأسيس الإيالة
137	مظاهر الدور السياسي للجزائر
138	المساهمة في توسيع امتداد نفوذ الدولة العثمانية
138	جهود ضم تونس لسلطة الدولة العثمانية
141	استمرار وتطور الصراع على تونس
143	مرحلة علع علي وإدخال تونس نهائيا لممتلكات السلطان
146	الاهتمام بطرابلس
148	دور درغوث باشا
149	دور الجزائر في السياسات والتوازنات بين الضفتين
151	الجزائر ووقائع المغرب الأقصى
156	الجزائر والتقارب العثماني الفرنسي
161	في العلاقات مع باقي بلدان أوروبا
162	تنسيق التعاون والعمل الاستخباراتي والعسكري ضد الجزائر
165	المبحث الثاني: دور الجزائر الاقتصادي في الصراع
165	الجهاد البحري ليس القرصنة:
176	الطابع الإسلامي للجهاد البحري
177	جنود الجهاد البحري الجزائري
180	الآثار الاقتصادية السلبية للتواجد الإسباني في السواحل الجزائرية
181	على غرب البلاد
185	على شرق البلاد

187	على إقليم العاصمة
189	أثر البحرية الجزائرية في إرهاب اقتصاد إسبانيا
192	علاقة الاقتصاد بالحرب
194	تكلفة التوسع الإسباني في سواحل الشمال الإفريقي على الجزائر
196	الجهاد البحري مصدر أساسي للدخل
200	دفعة الأندلسيين لعجلة الاقتصاد الجزائري
201	أثر التحالف العثماني الفرنسي على الجزائر اقتصاديا
205	المبحث الثالث: دور الجزائر العسكري في الصراع
206	نشأة البحرية الجزائرية العثمانية وأسسها
207	أهمية البحرية الجزائرية على الصعيد المتوسطي
209	قيمة البحرية الجزائرية بالنسبة للباب العالي
211	مظاهر الدور العسكري الاستراتيجي للجزائر
211	تولية بايلربايات الجزائر منصب قبودان باشا
213	تولية خير الدين باشا
215	ظروف ورمزية التولية
216	تولية صالح رايس
217	تولية حسن بن خير الدين
218	تولية محمد باشا "ابن صالح رايس"
219	تولية علج علي
219	معركة بروزة وأثرها على المكانة الدولية للجزائر
222	شارلكان يفاوض بايلرباي الجزائر ونائبه
223	من حصار جربة 1560م إلى تحرير تونس 1574م
225	معركة ليبانت 1571م
229	الفصل الثالث: دور الجزائر الديني في الصراع الإسلامي النصراني ضمن الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن 16م
230	المبحث الأول: خطوات المشروع الصليبي الإسباني على الجزائر ودور الكاردينال خمينيس فيه
231	فرديناند وبداية الحرب المقدسة على الجزائر وبلاد المغرب
233	الكشوف الجغرافية مشهد للحرب الصليبية
235	الكاردينال خمينيس دي سيسنيروس وأثره في الحرب الصليبية على الجزائر
236	ظروف ظهوره على مسرح الأحداث
239	مظاهر جهوده ومساهماته
242	ضلوعه وراء الحملة على المرسى الكبير ووهران
243	فرديناند يكلف خمينيس قائدا للحملة الصليبية على وهران 1509م

245	محاولاته الاستباقية لإحياء المشروع الجهادي للدولة في الجزائر
246	وصايته على عرش إسبانيا
250	المبحث الثاني: التدخل الكنيسي في توجيه الحروب الإسبانية ضد الجزائر
250	فكرة الإمبراطورية المقدسة وظروفها
251	عهد الملكن الكاثوليكين
251	تتكر الإسبان لمعاهدة غرناطة
253	الخطاب الحماسي والحرب النفسية
254	عهد شارل الخامس
256	الحملة على الجزائر 1541م
260	عهد فيليب الثاني
261	جماعة الفرسان (يوحنا/رودس/مالطا) دعامة للصليبية
265	البابوية وتوجيه السياسة الملكية خدمة للصليبية
268	المبحث الثالث: مظاهر المجابهة الدينية للجزائر
268	قبل إعلان الالتحاق بالدولة العثمانية
269	السلطة الزيانية والعلماء الصادحون
273	علاقة رجال الدين برسالة الجزائريين إلى الباب العالي 1519م
276	أثر رجال الدين في شؤون السياسة والحكم
278	وظيفة رجال الدين في الوساطة السياسية
281	البعد الديني للمجابهة الجهادية للجزائر
284	أثر شيوخ الصوفية في الجهاد
285	إقرار الباب العالي الجزائري دارا للجهاد
287	الجزائر والمسألة الأندلسية
289	جهود مرحلة خير الدين
291	أثر انتصار الجزائر على صليبي حملة 1541م في نفوس الأندلسيين ومكانتها الجهادية
293	مزغران معركة شاهدة على جهاد الصليبية
294	خلفاء خير الدين والتطلع لاستعادة الأندلس
298	الخاتمة
302	الملاحق
317	البيبلوغرافيا
337	فهرس المحتويات

الملخص:

مع نهاية القرن 15 ومطلع القرن 16م تأثرت الجزائر بالظروف والمستجدات الحاصلة على ضفتي الحوض الغربي للبحر المتوسط، واستوجب هذا الواقع عليها القيام بأدوار استراتيجية ذات بعد ديني وسياسي واقتصادي، لأجل الصمود أمام الإرادة الصليبية التي تحرك الدول الأوروبية -وعلى رأسها إسبانيا- تجاه الهيمنة على نطاق العالم الإسلامي والحرص لفرض واقع الاستعمار والتوسع عليه.

ومع استحكام الأمور لخير الدين بربروس في مدينة الجزائر سرعان ما ظهرت معالم الدولة ذات القوة والأجهزة التي من شأنها جعل الجزائر تقوم بأدوار الفاعل ضمن الساحة المتوسطية الإقليمية وقاريا وعالميا، حيث يبرز وعلى مدار القرن 16م أثر هذه القوة في صياغة وتوجيه ورسم واقع ومستقبل التنافس الإسلامي النصراني في إطار الثنائية الحاصلة بعد تغير موازين القوى بتأثير مناسباتي فتح المسلمين للقسطنطينية عام 1453م وفقدانهم للأندلس سنة 1492م.

واستنادا إلى هذه الخلفية استمد الدور الجزائري مركزيته ومفصليته في وقائع وشؤون الفضاء المتوسطي خلال القرن 16م، سواءً بالفعل أو رد الفعل، واهتمت الجزائر كثيرا لحماية لقضايا العالم الإسلامي والدفاع عن مصالحه من خطر وضرر وتهديدات القوى النصرانية الأوروبية، ليس فقط خلال الفترة التي يندرج فيها الموضوع وإنما امتد ذلك حتى مطلع القرن 19م.

الكلمات المفتاحية: أدوار، الجزائر، الصراع، حوض المتوسط، العالم الإسلامي، العالم النصراني، القرن 16م.

Abstract:

At the end of the 15th century and the beginning of the 16th century AD, Algeria was affected by the conditions taking place on both sides of the western basin of the Mediterranean, and this reality required it to play strategic roles with a religious, political and economic dimension, in order to withstand the goals and plans of the Crusaders that push European countries - led by Spain - towards hegemony throughout the Islamic world. and impose colonialism and expansion on it.

And since the stability of affairs of Khair al-Din Barbarossa in the city of Algeria, the features of the state with strength and devices appeared that make Algeria play the roles of influence in the Mediterranean arena regionally, continually and globally, as it appears throughout the 16th century AD the impact of this force in formulating, directing and drawing the reality and future of Islamic-Christian competition within the framework of the bilateralism that took place. After the change in the balance of power due to the impact of the two occasions of the Muslim conquest of Constantinople in 1453 AD and their loss of Andalusia in 1492 AD.

In view of these data, the Algerian role derived its centrality and articulation in the facts and affairs of the Mediterranean space during the 16th century AD, whether in action or reaction, and Algeria cared a lot to protect the issues of the Islamic world and defend its interests from the danger, damage and threats of the European Christian powers, not only during the period in which the subject falls, but also This extended until the beginning of the 19th century AD.

Keywords: Role, Algeria, the Mediterranean, conflict, Islamic, Christian, 16th century.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ